رواية

2020

4.1.2020

الجريمة والعقاب

دوستويفسكي

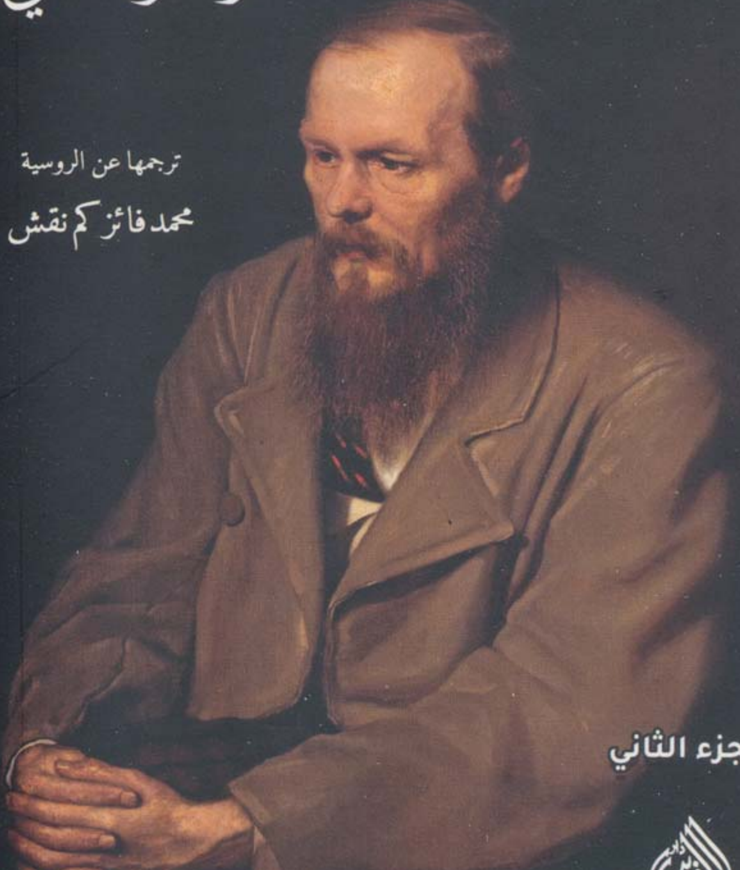

ترجمها عن الروسية

محمد فائز كم نقش

الجزء الثاني

رواية

دوستويفسكي

الجريمة والعِقاب

الجزء الثاني

ترجمها عن الروسية:

محمد فائز كم نقش

www.daralrafidain.com

الجريمة والعقاب

Crime and Punishment

فيودور دوستويفسكي

ترجمها عن الروسية: محمد فائز كم نقش

مراجعة لغوية: هناء أبو عليوي

الطبعة الثانية: بيروت ـ لبنان، 2019

Second Edition: Beirut - Lebanon, 2019

© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق

لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

بغداد - العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 07810001005 / 07830070045

daralrafidain@yahoo.com
dar alrafidain
info@daralrafidain.com
Dar.alrafidain
www.daralrafidain.com
دار الرافدين@daralrafidain_l

تنويه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 184 - 7

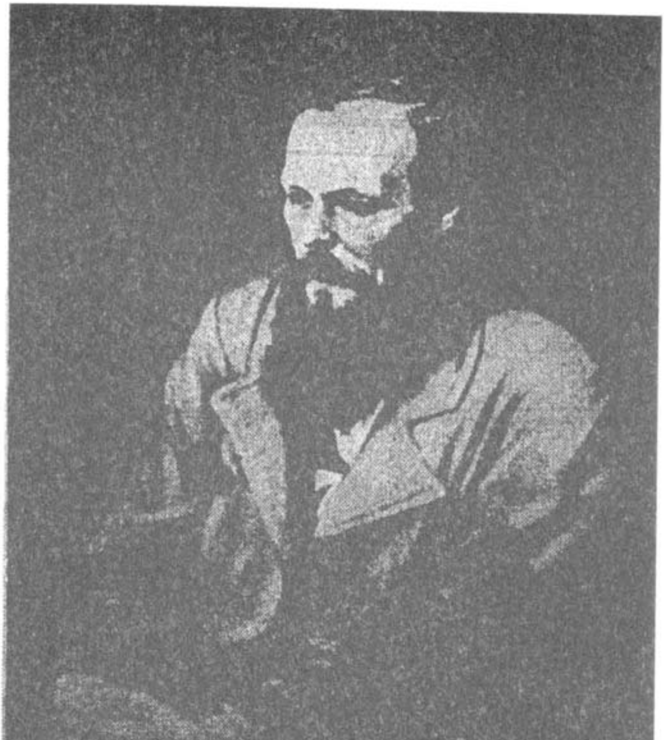

دوستويفسكي

المقدّمة

إفلاس الإنسان المتفوق

يقول ميريجكوفسكي: «إن تورجنيف، وليون تولستري، ودوستويفسكي هم الزعماء الثلاثة للقصة الروسية. وتورجنيف هو الفنان بكل معنى الكلمة، وفي هذا تستقيم قوته، كما يكمن سرُّ ضيق أفقه النسبي. وإن الملذات التي يستقيها من ينبوع الجمال لتصالحه بسهولة عظيمة مع الحياة. وهو قد سبر روح الطبيعة بصورة أعمق وأشد نفوذاً من دراسته لقلب أشباهه من البشر: إنه أقل قدرة على الدراسة النفسانية من تولستوي ودوستويفسكي. ولكن أي تفهم لحياة الكون بأسره بالمقابل، هذا الكون الذي لا يشكل البشر الفانون إلا جزءاً يسيراً منه، وأي نقاء في الخطوط، وأية موسيقى في اللغة. إن من يستسلم طويلاً لجاذبية هذا الشعر الرقيق يميل إلى الاعتقاد بأن الحياة نفسها إنما توجد في سبيل هذه الغاية الوحيدة، ألا وهي التمتع بجمالها».

«أما ليون تولستوي فقوة عملاقة إذا ما قورنت بعنصر بسيط. إن الانسجام ينقطع، هاهنا، فلا يبقى ثمة استمتاع تأملي مستبشر، بل الحياة في كل عظمتها، في كمالها البدائي، في طراوتها المتوحشة قليلاً، لكن الجبارة في الوقت ذاته. إن هذا الرجل قد ولى الإدبار من وجه المجتمع إرادته، ووضع نفسه في معزل عنه»

لقد غمرت بالرماد رأسي

وهربت، في أطماري، من المدن العامرة...

«ولكن هذا الإنكار العديم الرحمة لثقافة يعود تاريخها إلى آلاف الأعوام لينفخ، تجاه الألم والعذاب، مثله مثل تحجر تورجنيف، هذا الضائع في تأمل الطبيعة، نفساً جليدياً في وجه الفانين العاديين، وجه أولئك الذين لا ينتسبون إلى زمرة الأنبياء. إن هذين الكاتبين ينعزلان عن الحياة كي يتأملاها، فيلجأ أحدهما إلى سلام مصنعه كفنان ويعتصم الآخر بقمم الأخلاق المجردة».

«أما دوستويفسكي فأوثق بنا صلة وأقرب منا. لقد عاش فيما بيننا، في مدينتنا الكئيبة الباردة؛ ولم يُفْرق من تعقيدات الوجود الحديث، ومن قضاياه العصية على الحل، ولم يتهرب لا من عذاباتنا، ولا من عدوى العصر. إنه يحبنا بكل بساطة، كصديق، ككفء، ليس من أعماق بعد شعري مثل تورجنيف، ولا بسمو المبشر مثل تولستوي. إنه ملك لنا بكل أفكاره وبكل عذاباته. «لقد شرب معنا كأساً مشتركة، وهو مثلنا جميعاً قد أصيب بالعدوى رغماً عن سموه». إن تولستوي يضمر ازدراء عظيماً للمجتمع الفكري، «هذه النفاية»؛ إنه يغذي حقداً شديداً على ضعف الخطاة، أشباهه؛ إنه ينفر ويخيف باحتقاره، وبالقسوة التي يلجأ إليها كي يدين ما سيبقى رغماً عن كل شيء عزيزاً على قلوب البشر مقدساً في أنظارهم دون اعتبار سائر الهجمات عليه. وإن دوستويفسكي ليؤثر فينا أحياناً أكثر مما يفعل الأشخاص من أقاربنا وأصدقائنا الذين نحيا فيما بينهم والذين نحبهم. إنه يجعل من نفسه رفيقاً لنا في أمراضنا، شريكاً لأفعالنا السيئة والحسنة، وليس ما يقرب بين البشر مثل العيوب المشتركة. إنه يعرف أفكارنا الأكثر خفاء، ويعرف مطامح قلوبنا الأكثر إحراجاً. ولا يندر أن يستشعر القارئ

الذعر تجاه معرفته الكلية، تجاه هذا النفوذ العميق بصورة لامتناهية إلى وجدان الآخرين. وإنك لتلقى عنده بعضاً من تلك الأفكار الدفينة التي لا تجسر على الإسرار بها حتى لنفسك، وأقل من ذلك لصديق قريب. وعندما يمنحك هذا الرجل الذي اعترفت له بكل أعماقك غفرانه بالرغم من ذلك. عندما يقول لك: «آمن بالخير، آمن باللّه، آمن بنفسك» فإن في ذلك شيئاً يسمو على تحليق فنان أمام الجمال، شيئاً يتجاوز عظات نبي مليء بالتجبر، منعزل عن الجميع.

«إن دوستويفسكي يعوزه الانسجام، ينقصه ذلك التناظر القديم في ترتيب الأجزاء ـ ميراث الجمال البوشكيني ـ ينقصه كل ما أفعم به مؤلف «الآباء والبنون» من ثراء مدهش. وكذلك تعوزه تلك القوة البدائية، الصلة المباشرة مع الطبيعة، التي نجدها عند ليون تولستوي. ذلك إنسان قد خرج حديثاً من الحياة، قد تألم لتوه وبكى. ولم تجف الدموع بعد عن أجفانه، كما أن صوته ويديه ترتعشان بعد بفعل انفعاله. يجب ألا نقرأ مؤلفات دوستويفسكي، بل يجب أن نعيشها، أن نتلمس عذاباتها كي نفهمها. وعندئذٍ لا يمكن أن تغادر ذا كرة المرء إلى الأبد».

* * *

هذه الحقيقة تنطبق بصورة خاصة على «الجريمة والعقاب» أكثر منها على أي من مؤلفات دوستويفسكي الأخرى. فالملهم الكبير شغل طوال عشر سنوات، طوال مدة نفيه في سيبريا، بمشكلة الجريمة والعقاب، المرتبطة بشكل وثيق بمشكلة الجريمة من جهة، وقضية الخير والشر من جهة أخرى. ولسنا نبالغ إذا قلنا: إنه وضع من ذاته في هذا الكتاب أكثر مما وضع في أيٍّ من كتبه الباقية.

ذلك أن الكاتب لا يعني هاهنا بمشكلة الجريمة من وجهة النظر الشرعية أو الاجتماعية، بل من وجهة نظر طبيعتها الروحية في الدرجة الأولى. وكذلك فهو يتأمل في العقاب من وجهة نظر رد الفعل الباطن تجاه الجريمة عند المجرم نفسه. هذا طالب جامعي معدم اضطر إلى الانقطاع عن دروسه بسبب فقره، فهو يفتش عن سبيل إلى الخلاص من هذا البؤس المثقل عليه. وإنه ليعرف عجوزاً مرابية حدثه القدر، بصورة طالب مجهول، أن يقتلها: «اقتلها وخذ مالها، كي تستطيع بفضله أن تقف نفسك على خدمة الإنسانية بأسرها، على خدمة الصالح العام. ما رأيك؟ إن هذه الجريمة التافهة، أفلن ينتهي ألف عمل صالح إلى محوها؟ ثمة ألف وجود ينقذ من التعفن والتفسخ مقابل حياة واحدة. ميت واحد، وبالمقابل ألف حياة، إنما ذلك، بكل بساطة، مسألة حسابية! وأي وزن لوجود مثل هذه العجوز القذرة، المسلولة، البلهاء الشريرة؟ ليس أكثر من حياة قملة أو صرصار، بل أقل من ذلك أيضاً، لأن هذه العجوز القصيرة القذرة ضارة: إنها تقرض حياة الآخرين».

حقاً، أية قيمة لوجود هذه الشمطاء بالقياس إلى حياته الخاصة؟ إذا قتلها استطاع أن يقدم يد المعونة إلى والدته وشقيقته، وأن ينفق على دروسه، وأن يصبح رجلاً ذا مكانة يستطيع أن يصنع الخير فيما حوله. «ورجع إلى داره أشبه بمحكوم عليه بالإعدام. لم يعد يفكر، بل لم يكن يستطيع أن يعمل فكره في أي شيء على أية حال. لكنه أحس بغتة، بكل كينونته، أنه قد خلا من كل حرية في إصدار الأحكام، ومن كل إرادة، وأن كل شيء قد رُتب هكذا بصورة نهائية».

ويجرفه تيار عاتٍ لا يستطيع أن يقاومه، فيضرب بالفأس، ويقتل، ويسرق، وتشاء الصدف ألا يرتاب أحد فيه، وعندئذٍ تبدأ مأساة العقاب

الباطن. إنه لا يدري في الحقيقة السبب الذي حمله على اغتيال تلك العجوز. أهو الفقر حقاً؟ أم رغبته في بناء مستقبله على أسس متينة؟ أم ثمة باحثاً آخر لم يكتهنه بعد ويسبر أغواره؟ «لو أن كل شيئ قد تحقق في سبيل هدف معين، لو كان لك غاية محدودة ومرسومة بصورة واضحة، فكيف لم تتطلع حتى الآن فيما تحويه حافظة النقود، وكيف تجهل دوماً ما كسبت من هذا العمل الذي جلبت على نفسك بفضله سائر هذه العذابات؟.

وهذا هو يميز، شيئاً فشيئاً، المحرك الحقيقي لجريمته: «إنني لم أقتل كي أمد يد المعونة لأمي، كلا وليس كي أصير كذلك محسناً للإنسانية بعد أن أحصّل الوسائل اللازمة لذلك. كلا، بل قتلت بكل بساطة، قتلت من أجلي وحدي، ولم أكن أعني في تلك اللحظة بمعرفة ما إذا كنت سأصير محسناً ما، أو إذا كنت سأقضي حياتي مثل عنكبوت أصطاد الضحايا في شباكي كي أتغذى بقواهم الحية، والأخص أن الحاجة إلى المال لم تك أكثر الأمور حساسية عندي عندما أقدمت على ارتكاب جريمتي. كنت أقل حاجة إلى المال مني إلى شيء آخر... كان يلزمني أن أعرف شيئاً آخر؛ لقد كان شيء آخر يدفع ذراعي. كنت أريد أن أعرف، بأسرع وقت، ما إذا كنت حشرة كالآخرين، أو إنساناً حقاً. أفي إمكاني أن أجتاز العائق أم لا؟ ذلك هو السؤال الذي طرحت على نفسي. أأجرؤ على الانحناء واستلام السلطة أم لا أجرؤ؛ أأنا مخلوق مرتجف، أم أني أملك الحق؟».

إذن فبطلنا متمرد على الأخلاق الرسمية، يختنق بين جدرانها الضيقة عليه. إنه يريد أن يتجاوز ذلك القطيع المحتف به، يحس في نفسه تميزه عن الآخرين، يظن نفسه مدعواً إلى مصير خاص، مدعواً إلى خوض غمار المغامرة الرهيبة، مغامرة الاستقلال والحرية الروحيين. ولقد كتب فيما مضى مقالة يعلن فيها أن الإنسانية منقسمة إلى مقولتين مختلفتين،

الأولى منهما تستقيم في الأغلبية التي تحيا، ويجب أن تحيا، في الطاعة العمياء والاستسلام اليؤوس، ما دامت عاجزة عن الحياة بصورة أخرى. أما المقولة الثانية فتقتصر على بعض الأفراد الاستثنائيين، المدعوين إلى القيادة، إلى خلق قيم جديدة حتى عن طريق الجريمة إذا دعا الأمر، وإن قواد الإنسانية الحقيقيين، الحكام العظام والمشرعين، إنما يوجدون في هذه المقولة الثانية فقط. وميزتهم الرئيسية غياب كل احترام عندهم للقوانين المقدسة، والتقاليد، والأخلاق التي تعيش الجماعة تحت جناحها، وما الجماعة إلا قطيع من الرعاع. أولئك لا يترددون في خرق كل عائق أو قانون يقومان في وجه مطامحهم، هذه التي لا يخشون من التضحية بملايين الكائنات البشرية في سبيلها. «ولما يستحق الانتباه أن معظم هؤلاء المحسنين للإنسانية وقوادها يتحملون عبء مذابح رهيبة. فأنا أعلن باختصار أن سائر البشر العظام، أو حتى البشر الذين يخرجون عن نطاق العامة قليلاً، يعني القادرين على التفوه بكلمة جديدة، يجب أن يكونوا مجرمين بفعل طبيعتهم بالذات ـ مجرمين أكثر أو أقل طبعاً. وإنه ليستحيل عليهم من دون ذلك أن يخرجوا من الحفرة العامة؛ وأن يبقوا في الحفرة العامة، هذا ما لا يطيقون، بفعل طبيعتهم بالذات أيضاً. وعندي أنه يجدر بهم ألا يطيقوا ذلك. ـ إذا اضطر مثل هذا الإنسان إلى المرور من فوق جثة أو الخوض في الدماء في سبيل فكرته ففي رأيي أنه يستطيع أن يجد في باطنه ـ في وجدانه ـ تبريراً لخوضه في الدماء ـ إنما ذلك يتعلق بالفكرة ومقدار اتساعها».

ثمة أخلاق أخرى عليا بالنسبة إلى هؤلاء. أو فلنقل بالأحرى أن ليس ثمة أخلاق بالنسبة إليهم، بل حرية مطلقة. ليس للجريمة قيمة، الجريمة في أنظارهم، وما العقاب عندهم: إلا كلمة مجردة عن المعنى. كل شيء

مشروع لمن يريد أن يسمح لنفسه بكل شيء، لأن الرغبة في ذلك دلالة على التميز والسمو فوق مستوى البشر العاديين. وراسكو لنيكوف يجد أن تلك العجوز المهترئة هي العائق الذي يعترض سبيله: إنها جدار اللحم الذي يجب أن يرديه ويتجاوزه كي يدلف إلى ملكوت الحرية: «لم يك لهذه العجوز الصغيرة أية أهمية... العجوز، لربما كانت ضلالاً ليس غير... فعل عقل مريض لا أكثر. كان بي رغبة في اجتياز الحدود في أسرع وقت، فأنا لم أقتل كائناً إنسانياً، بل قتلت مبدأ».

فقاضي التحقيق على حق إذن عندما يقول: «إننا هنا أمام قضية غريبة، غامضة، حديثة بكل معنى الكلمة، حالة ميزة لعصرنا حيث يسيطر الاضطراب في قلوب البشر.. المشكلة هنا مشكلة أحلام كتبية. مشكلة نفس مشبعة بمحاكمات نظرية. إن القتل قد تم هنا على أساس نظرية معينة».

وإذا قتل راسكو لنيكوف هذا المبدأ، فقد اكتشف رسالة «الإنسان المتفوق» الذي حُمِّل دعوتها، لقد أصبح الإنسان ـ الله، الرائع في الحرية المطلقة، مثله مثل كيريلوف في «الأبالسة» مع فارق وحيد فقط ألا وهو أن كيريلوف أراد أن يثبت تفوقه وألوهيته بالقضاء على حياته الخاصة بينما فعل راسكو لنيكوف ذلك باختياره حياة أخرى غير حياته للقضاء عليها. ولقد اختار الجريمة كي يثبت لنفسه أنه إنسان استثنائي، إنسان متفوق، مشرع لقوانين جديدة ونابوليون جديد، لأن الجريمة هي السبيل الوحيدة أمام المرء كي يؤكد شخصه حداً أقصى من الإرادة الذاتية والقوة على كائن إنساني آخر، ولأن الجريمة أفضل وسيلة وأنجعها لتخطي قيم «الخير والشر» وتجاوزها. ولكن عيب راسكو لنيكوف الأساسي هو عوزه للقوة كي يرتفع إلى هذا المستوى، أو ربما ارتيابه في امتلاكه لهذه القوة. وإن هذا الارتياب ـ وليس قوته ـ هو الذي دفعه إلى الجريمة في الحقيقة،

فقد أراد أن يبرهن لنفسه أن في قدرته خوض غمار تلك المغامرة، فيرسل إلى الجحيم بسائر القيم الأخلاقية المتبعة. ويواجه بكل جرأة وإقدام مبدأ «مشروعية كل شيء».

«لم يعترض المنطق على ذلك مطلقاً. ألم يقل الشيطان لإيفان فيما بعد: «ما دام ليس ثمة إله على أية حال، فإن الإنسان الجديد يستطيع أن يصير الإنسان اللّه، فإذا ما استلم مركزه الجديد استطاع بكل يسر أن يتجاوز سائر حواجز الأخلاق القديمة، أخلاق الإنسان العبد. إذا دعت الضرورة لذلك». وذلك هو رأي راسكو لنيوف أيضاً، فمنطقه يبرر جريمته ويقدسها. وبالرغم من ذلك فقد أفاق مذعوراً من مجرد فكرة الجريمة ليلة رأى فيما يرى النائم ذلك الحلم الرمزي البشع الذي شاهد فيه فلاحين سكارى يضربون حصاناً حتى قتلوه. وعندئذ أخذ الشك يراوده في قدرته على إنجاز ذلك العمل: «أيان أذهب هكذا؟ كنت أعرف أني لن أستطيع قط أن أحمل نفسي على هذا العمل، فلمَ أعذب نفسي إذن حتى الآن..». ولقد رفع الثقل عن قلبه أثناء نزهته على ضفاف النيفا، حتى إذا سمع صدفة أن أخت العجوز ستكون غائبة عن الدار في الساعة السابعة من صباح الغد، عاوده الكابوس مرة أخرى، وجردت منه كل حرية في العمل، فكأن إرادة غريبة أخرى تضغط عليه، وتقرر من أجله كل شيء دون أن يستطيع سبيلاً إلى الاعتراض عليها. ولقد قتل العجوز وأختها اللطيفة أيضاً ـ لقد قتل هذه الأخيرة رغماً عن إرادته ـ وصنع ذلك كله كالمحموم في هذيانه.

ولم يكن شعوره الأول تجاه جريمته على شيء من الندامة، لكنه طفق يشعر، شيئاً فشيئاً، حضوراً مزعجاً قريباً منه. لم يخفه هذا الحضور، بل أضجره كثيراً قط، بحيث كان يسرع إلى العودة إلى المدينة والاختلاط بالجماهير، والدخول إلى المطاعم والحانات، والسير في مناطق مزدحمة...

وكان يشعر رغماً عن ذلك أن ذلك السبب الوحيد في ضيقه، بل كان ثمة شيء يتطلب قراراً مباشراً. إنما لم يكن يستطيع أن يفهم هذا الشيء بوضوح ويعبر عنه بالكلمات. ذلك كان مأزقاً لا خلاص منه».

ولقد ازداد هذا «الشيء» وضوحاً عندما عاودته شكوكه القديمة، جارة وراءها تأملاً رجعياً في الجريمة التي اقترف. لم تكن الجريمة تثقل عليه بحدٍّ ذاتها، بل بالأحرى الأسلوب الوضيع البشع الذي ارتكبت به. أين فيها شعور القوة والحرية، «حرية إنسان مفتوق» وجد الجرأة على تأكيد إرادته الذاتية رغم أنف سائر المفاهيم الأخلاقية التي يخضع «القطيع» لها؟ إنه لا يستشعر، على العكس، إلا القرف والاشمئزاز، مدركاً فشله الذريع، ولربما مدركاً عدم حوزته الحق، هو الضعيف، في الإقدام على مثل هذه الخطوة التي تفوق قواه. وإنه ليعرف أن إنساناً يرتاب في حقه وقوته لا يستطيع أن يسمو إلى أي منهما، لأن الرجل القوي يذهب باستقامة إلى هدفه دون سؤال أو جواب. «كلا، إن أولئك الرجال لم تصنعوا هكذا. إن السيد الحقيقي الذي أعطي الحق في كل شيء يدمر تولون، ويقترف المجازر في باريس، وينسى جيشاً في مصر، ويضيع نصف مليون من البشر في حملة موسكو، ويفر هازلاً في فيلنا. وإن التماثيل ترفع له بعد وفاته، وهكذا يكون كل شيء مشروعاً كلا، يبدو أن مثل هؤلاء الناس ليسوا من لحم ودم، بل من برونز بالأحرى:... نابوليون، الأهرامات، واترلو، وعجوز مهزولة بائسة، مرابية تحت سريرها صندوق أحمر... نابوليون يزحف تحت سرير عجوز شمطاء! أفٍّ، ما أقرف ذلك!».

ويتضاعف هذا الشعور عنده بفعل ارتيابه في نفسه، في ضعفه، في كونه واحداً من «القطيع» الذي يزدري، وذلك بالرغم من مبدئه عن «مشروعية كل شيء». إنه يريد أن يتجاوز الخير والشر جميعاً بعقله

النظري، لكن يجد نفسه، عملياً، مضطراً إلى الوقوف في جانب الشر، دون أن يدري سبباً واضحاً لذلك. إنه لا يدري سوى شيء واحد، ألا وهو ضعفه واحتقاره لذاته. ولكن هذا العبء يفوق قواه، ولذا فهو يسرع إلى من يشاطره تحمل ذلك الثقل الذي يئيد عليه، إلى الساقطة سونيا: «أواه، يا سونيا! أريد أن أبرهن شيئاً واحداً فقط، وهو أن الشيطان قد قادني عندئذ، وأنه قد بيّن لي منذ ذلك الحين تجردي عن كل حق في اتخاذ تلك الدرب، لأنني مجرد قملة ليس غير، مثل الآخرين تماماً. لقد كان يسخر مني، وهذا أنا قد جئت إليك الآن، رحبي بضيفك! أكنت أقدم إليك لو لم أكن قملة صغيرة؟.. هل قتلت تلك العجوز؟ لقد قتلت نفسي ولم أقتلها! لقد سحقت نفسي تماماً، إلى الأبد!».

وإنه ليفتش في أعماق نفسه، فيجد أنه كان يتوقع، سلفاً، كل هذا التطور اللاحق، فلا يزداد إلا نقمة على نفسه: «لأنني ربما كنت في وضعي الراهن أكثر تعفناً وقرفاً من قملة مسحوقة، لأنني كنت أستشعر سلفاً أني سأحدث نفسي بكل هذا بعد أن أقتل! أهناك ما يماثل كل هذا في فظاعته؟ يا للسفالة! يا للحقارة! أواه لشد ما أفهم النبي: على صهوة الجواد، مشرعاً السيف، هكذا يأمر الله. أما أنت، «أيها المخلوق المرتعش»، فأطع. إن النبي على حق، بل على حق، عندما يضع في عرض الشارع بطارية ممتازة ويطلق النار على البريء، دون أن يميزه عن المذنب، وحتى دون أن يتنازل فيقدم الإيضاحات عن ذلك. أطع، أيها المخلوق المرتعش، ولا تفكر في صياغة أية رغبة على الإطلاق، لأن ذلك ليس من شأنك البتة!.. أواه! إني لن أغفر لتلك العجوز القذرة أبداً، ولا في سبيل أي شيء كان!».

ألا الويل ثم الويل لأولئك الذين يخرقون الناموس إذا ما تبقى في نفوسهم الملتهبة بهوى الفكرة المسيطرة على عقولهم أثر من الإنسانية

مهما يك زهيداً. ألا الويل ثم الويل للبشر المصنوعين من البرونز إذا بقي في قلوبهم وتر ينبض بالحياة! يكفي نداء ضعيف صادر عن الوجدان كي يفيقوا، ويأخذوا بالتفكير، ويدركوا. لو أن راسكو لنيكوف قتل المرأة من أجل المال وفشل بعد ذلك وتعثر في أيدي القضاء، لكان شأنه تافهاً إذا ما قورن بهذا التدهور المباغت لما ينادي به من «حرية الاختيار». لقد سبق أن قال له صديقه رازوميخين، بعدما أصغى لنظريته عن الإنسانية المنقسمة إلى مقولتي النخبة والرعاع: «إن الجديد في كل هذا، ما هو خاص بك من دون سواك، ـ وإنه ليثير رعبي ـ هو تبريرك إراقة الدماء باسم الوجدان، وبكل هذا الهوس ـ أرجو أن تصفح عن تعبيري هذا. لكن هذا التبرير لإراقة الدماء باسم الوجدان ليفوق في الهول، حسب ظني، التبرير الرسمي، المشروع، للدم المهرق». وهكذا أصبح راسكو لنيكوف، بعد أن أثبت إرادته الذاتية على ذلك الأسلوب الرهيب، بإراقته دم كائن إنساني آخر، عاجزاً عن تجاوز الخير والشر وعاجزاً عن البقاء في هذا الجانب منه. ولقد تردى من جراء ذلك في فراغ، روحي مخوف لم يستطع أن يطيقه. وإن هذا الفراغ لأفظع عقاب يمكن أن يحل به، الأمر الذي أدركه قاضي التحقيق جيداً عندما قال عنه: «إن مثل هؤلاء الناس يقفون ويبتسمون في وجه معذبهم، فيما هو يقطع أحشاءهم، لو أنهم يجدون إيمانهم فقط، أو يجدون اللّه».

إنه في حاجة إلى الإيمان، في حاجة إلى «مبدأ» كي يستطيع أن يعيش. وهل أقدم على جريمته إلا في سبيل اكتساب ذلك المبدأ، (مبدأ «ما وراء الخير والشر» الذي ينادي به «الإنسان المتفوق»)؟ لكنه «قتل المبدأ». كان في عجلة من أمره يريد أن يتجاوز الحدود، فقتل، لكنه قتل المبدأ ـ لا المرأة العجوز ـ ولم يتجاوز الحدود، «بل وقفت في هذا

الجانب... كنت قادراً على القتل فقط. ويلوح أني لم أكن قادراً حتى على هذا الأمر أيضاً... أواه! إني قملة استيتيكية ولا شيء أكثر من هذا...».

وكان عقاب آخر ينتظره، وهو انفصاله عن بقية الإنسانية. لقد أصبح رجلاً آخر، والقوم المحيطون به يتهمونه بالجنون، قد قام ما بينه وبينهم، بما فيهم أمه وأخته، حاجز رهيب. ولقد فكر أن ينتحر، لكنه لم يستطع، لقد مات أخلاقياً، قتله العجوز، وموته الحكمي لن ينقذه من ذلك الموت الأخلاقي القاتل. وإنه يريد أن ينتقم من تلك المرأة، فيحاول أن يقتلها في أحلامه. لقد ضرب رأسها بفأسه، مرة بعد مرة، لكنها لم تتحرك أو تنتفض. وعندئذ انحنى كي يتطلع إليها، انحنى أكثر من ذي قبل، وحملق فيها، فتحقق - مخلوع الفؤاد ـ أن «العجوز تضحك، تنتفض بضحك صامت، ساعية جهدها ألا يلاحظ ذلك منها... عندئذ اجتاحه الجنون، فطفق يلطم المرأة بكل قواه على رأسها، لكن ضحكها شرع يرتفع لدى كل ضربة، فإذا هي ترتجف طرباً وسروراً».

ويريد أن يهرب من وحدته، فيلتفت إلى البائسين، إنه يحب السكير مارميلادوف، والأرملة المسلولة كاترين إيفانوفنا، وسونيا التي تبيع جسدها كي تغذي من ليسوا بإخوتها ولا أخواتها. ولكن هؤلاء أيضاً لا يستطيعون أن يحملوا إليه العزاء، فجريمته تعزله في قلب الإنسانية عزلاً مطلقاً، تعزله في حدود كينونته وحدها. أيفتدي نفسه بالاعتراف بجريمته؟ ولمن يعترف؟ للبشر؟ ولكنه يحتقر هؤلاء البشر؟ «لا تكوني طفلة، يا سونيا! ما جريمتي تجاههم؟ لماذا أذهب؟ كل هذا ضلال خالص ليس غير! هم أنفسهم يختلسون الناس بالملايين، ويتظاهرون بالتقوى عندما يتصرفون على هذا الغرار. لصوص وجبناء، تلك هي حقيقتهم. سونيا، إني لن أذهب! ثم كي أقول لهم ماذا؟ إني قتلت ولم أجرؤ أن آخذ المال؟ ولكنهم سيكونون أول

من يضحك مني، قائلين: «لقد كنت كثير الحماقة إذ لم تسلب ذلك. يا لك من جبان وأبله!». حسناً، إنهم لن يفهموا من ذلك شيئاً، يا سونيا. وليسوا جديرين بأن يفهموا أيضاً. لم أذهب إذن؟ أني لن أذهب!».

ما معنى الأخلاق التقليدية بالنسبة إلى إنسان بطل، عندما تكون الحياة البشرية قسوة وكذباً من أقصاها إلى أقصاها. ومع ذلك فقد كان يأمل، في أعماق نفسه، أن يجد الإيمان، حتى إن كان إيمان القطيع، ولذا فقد رجع إلى سونيا، رجع إلى مأواها الحقير، وطفق يصغي إلى قراءتها عن قيامة ألعازر، وهو لا يؤمن ـ منطقياً ـ لا بالجريمة ولا بالبعث الأخلاقي. وإن نزوعه إلى درع يحتمي به قد دفعه إلى إلقاء نفسه في يد العدالة، رغماً عن عقله الذي يرفض ذلك ولا يرى فيه إلا فشلاً شنيعاً آخر. لكن ذلك الفراغ الباطن قد يتناقص عبؤه، من يدري؟ وما دام لا بد له من جرع كأسه، فما أهمية مبلغ مرارتها؟ ليفضل أن تكون مثيرة حتى الدرجة القصوى إذن. ولكنه يلعن أولئك الذين سيحققون معه، وهو على وشك أن يسلم نفسه، فيقول لأخته: «إني ذاهب لتسليم نفسي، لكن لا أدري لماذا أفعل ذلك؟» فتقول أخته: «أفلست تكفر عن جريمتك بمجابهتك العذاب؟ لكنه يصيح في غضب مفاجئ «جريمة؟ أية جريمة هذه؟ إني قتلت حشرة حقيرة شريرة، مرابية عجوزاً لا تنفع أحداً على الإطلاق!.. إن قتلها ليكفر عن أربعين خطيئة ارتكبتها. لقد كانت تمتص دماء الفقراء المساكين. إني لا أفكر في ذلك، بل لا يخطر لي أبداً أن أكفر عن تلك الخطيئة». وتقاطعه أخته: «ولكنك أهرقت دماً». فيرد عليها في حنق: «دماً يهرقه الجميع على حدٍّ سواء، دماً يسيل وسال في تيارات جارفة منذ كان العالم، دماً يُسكب كالشمبانيا، ويتوجونك من أجله في الكابيتول، ويمنحونك لقب المحسن إلى الإنسانية!... إني أرفض رفضاً باتاً أن أفهم كيف يكون ذبح الناس

بقذائف المدافع شكلاً أشرف من الجريمة. إن الخشية من الاستيتيك هي العرض الأول للضعف والخور...».

ليست الجريمة التي اقترفها بجميلة، لكنها أقل جرماً من القتل المشروع بالجملة الذي يتحقق كل يوم باسم المجتمع. وغداً سوف يقوم هذا الجمهور السافل بمحاكمة بطل كان يفنيه لو أن الحظ حالفه: «أيمكن أن تستسلم نفسي في خمس عشرة أو عشرين سنة حتى تأخذ بالبكاء بتعبد وورع أمام أشباهي، منادياً نفسي بالشقي لدى كل كلمة؟ لكن بلى، هكذا، هكذا بالضبط! إنهم ينفونني الآن في سبيل هذه الغاية وحدها، وهذا هو بالضبط ما يسعون إليه. إليكِ، إنهم يتراكضون في هذه الجهة وتلك في الطريق، بينا كل واحد منهم، بفعل ذات طبيعته ومزاجه، وغد شقي، بل أسوأ من ذلك أيضاً: أبله!... وإذا ما بذلت بعض الجهود لتجنبني المنفى، فإن حنقاً شديداً سيستولي عليهم جميعاً إذن في استيائهم المشرع. آهٍ، لشد ما أبغضهم!».

* * *

لقد قبل راسكو لنيكوف عقاب القانون. كان يأمل أن يجد منفذاً له من الفراغ الباطن الذي يرهقه، فذهب إلى ملتقى الطرق، وجثا، وقبّل الأرض التي دنسها، ثم غدا إلى مركز الشرطة. لكن الفراغ لم يبارحه، والندامة التي تاق إليها بكل قواه لم تمنح له. بل هو الآخر رفض أن يندم: «كيف يمكن أن يبدو لهم فعلي فظيعاً حتى هذه الدرجة؟ألأنه جريمة؟ وما معنى كلمة جريمة؟ إن ضميري لفي راحة! لقد اقترفت قتلاً بكل تأكيد... حسناً: كي تحترموا حرفية القانون، خذوا رأسي، ولنكف عن الكلام في هذا الموضوع». وكان يفكر أن عدداً كبيراً من المحسنين للإنسانية قد تبرروا لأنهم ثابروا على متابعة طريقهم بعناد، وأن ما بدينه هو ليس إلا ضعفه، فإذا هو يجد خطيئة في اعترافه فقط.

ومن هذه الأكاذيب والشكوك سوف يولد الإيمان بصورة مباغتة، كالشرارة في كتلة من القش الجاف السريع الالتهاب. لقد قرأت له سونيا من قبل قصة قيامة ألعازر. «أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي، وإن مات فسيحيا. ومن يحيا ويؤمن بي لن يموت أبداً». إنه لم يفهم هذه الكلمات وقتئذ. لكن كلمة القيامة تصعد إلى شفتيه الآن، في المنفى، في سيبيريا. «كيف وقع ذلك؟ إن راسكو لنيكوف نفسه لم يدرك! لكن شيئاً قد أطبق عليه، بصورة مباغتة، وألقاه عند قدمي سونيا... أرادا أن يتكلما فلم يستطيعا. امتلأت عيونهما عبرات، وكان كلاهما شاحبين واهني القوى، لكن فجر مستقبل جديد، فجر بعث كامل إلى الحياة، كان يلتمع في وجهيهما».

وهكذا يعرف راسكو لنيكوف أخيراً، بفضل سونيا الساقطة، الحرية الحقيقية. وليست هذه الحرية بمبتكرة، والإنسان ليس بالله أبداً، بل إنكار الله يعني إنكار الذات في الوقت نفسه. وإن الإرادة في الصيرورة إلهاً إنما تعني الإرادة في الموت كإنسان، الإرادة في الذوبان في العالم، الإرادة في الكينونة واللاكينونة في وقت واحد. ومن يريد ذلك، من يريد أن يتجاوز الحدود المرسومة له. لا بدّ أن يحطم أضلاعه وينهار. تلك هي تجربة راسكو لنيكوف، برهان ساطع على إفلاس «الإنسان المتفوق».

الجناح الثقافي

القسم الأول

الفَصْلُ الأوّل

راح راسكو لنيكوف يناجي نفسه بقوله: «ألا يجوز أن يكون هذا الذي أراه استمراراً لحلمي؟» ونظر إلى الزائر غير المنتظر بفطنة وحذر ثم قال بصوت مرتفع وهو فريسة الحيرة:

ـ سفيدريكايلوف؟ يا للاستحالة! إنه محال!

فلم يبد على الزائر أنه دهش لهذا الاستغراب وقال:

ـ لقد جئت إليك مدفوعاً بسببين: أولاً رغبتي الشخصية في التعرف إليك، لأنني منذ زمن بعيد سمعت بكثير من الاهتمام ما يروى عنك من أخبار طيبة. ثم إنني أنتظر أن لا تتوانى بدعمك لي، في قضية تمس مباشرة مصالح أختك: أفدوتيا رومانوفنا. التي لن تستقبلني ولا شك إذا ذهبت إليها بمفردي لأنها موغرة الصدر ضدي؛ الأمر الذي سيكون على العكس إذا أضيفت إليه مساعدتك!..

قاطعه راسكو لنيكوف:

ـ لقد أخطأت في اعتمادك على مساعدتي.

ـ اسمح لي بأن أطرح عليك سؤالاً: لقد وصلتا أمس فقط أليس كذلك؟

لم يجب راسكو لنيكوف.

ـ إنه أمس وأنا أعرف ذلك! أما أنا فقد وصلت أول أمس. حسناً، هذا ما كنت أريد قوله بهذا الصدد يا روديون رومانوفيتش: أعتقد أنه لا فائدة في محاولة تبرئة نفسي ولكن اسمح لي بأن أسألك. ما هي الجريمة الحقيقية التي ارتكبتها؟ أقصد: إذا درست المسألة بنزاهة بعيداً عن التأثر بالشائعات والأقاويل!

استمر راسكو لنيكوف يتأمله بصمت...

ـ ألأنني جفوت في منزلي فتاة ضعيفة وغازلتها وأهنتها بعروضي المخزية؟ أليس هذا هو السبب؟ إنني أعرض نفسي شخصياً للوم! لكن أرجو أن تقدر فقط أنني رجل ككل الرجال، معرض للإغراء والحب ـ الأمر الذي يحدث طبعاً خارج نطاق إرادتنا ـ وعندئذ سيفسر لك الأمر بشكل طبيعي جداً! إن السؤال الحقيقي إذن هو: هل أنا وحش أم إنني ضحية بالمثل؟ وأية ضحية! الخلاصة، إنني عندما كنت ـ بدافع شعوري الملتهب ـ أعرض عليها الفرار معي إلى أمريكا أو إلى سويسرا، ربما كنت أضمر لها أعمق العواطف المحترمة وأعتقد إلى جانب ذلك بأنني أكوّن سعادة كلينا. إن العقل ليس إلا خادم ميولنا، ومن ذلك ترى أنني كنت أسيء إلى نفسي أكثر من الإساءة إليها.

فقاطعه راسكو لنيكوف باشمئزاز قائلاً:

ـ إن المسألة ليست هنا، كل ما في الأمر أنك مخلوق كريه! وسواء أكنت مخطئاً أم مصيباً فإننا لا نريد رؤيتك ونطردك! ليس لك! إلا أن «تذهب!».

قهقه سفيدريكايلوف ضاحكاً فجأة ضحكة صافية بريئة وقال:

أرى أنك تناقش الموضوع بحماس! لقد فكرت في استعمال الدهاء أول الأمر وها أنك تندفع مباشرة إلى الهدف!

ـ مع ذلك إنك لا زلت تخاتل.

قال سفيدريكايلوف وهو يضحك ملء فمه:

ـ ماذا؟ ماذا تقول؟ إن هذا ما يسمونه بالحرب النزيهة... خدعة مشروعة تماماً. على كل حال لقد قاطعتني في كلامي، ولكي نعود إلى[1] أغنامنا أقول:

إنني أؤكد إذن أنه لولا حادثة البستان لأمكن تحاشي كل المزعجات. إن مارت بيتروفنا...

فقاطعه راسكو لنيكوف بشراسة:

ـ يقولون إنك أرسلت مارت بيتروفنا إلى العالم الآخر...

ـ آه! لقد سمعت بهذا أيضاً؟ لكن كيف لا تكون قد سمعت به؟... لعمري لست أدري في الحقيقة ماذا أقول لك جواباً على هذا السؤال رغم أن ضميري مرتاح تماماً من هذه الناحية! لا تظنن بأني أخاف شيئاً يصيبني سبب ذلك أن كل شيء قد وقع بنظام تام ودقة شديدة: فقد أثبت التحقيق الطبي وقوع حالة من حالات السكتة القلبية سببها الحمام الذي أخذته عقب طعام دسم وافر شربت معه المتوفاة بشراهة حوالي زجاجة كاملة من النبيذ! ولم يستطيعوا اكتشاف شيء آخر... كلا، ليس هذا هو الموضوع. لكنني كنت أتساءل أحياناً وأنا في المركبة خلال سفري ـ هل ساهمت حقيقة في تلك... المصيبة بإثارتي اضطراباً عقلياً أو بأية وسيلة أخرى! فتبينت استحالة ذلك عملياً.

راح راسكو لنيكوف يضحك بدوره ويقول:

ـ كان هناك إذن ما يقلقك؟

(1) تعبير يقصد منه العودة إلى موضوع الحديث! - المترجم -.

ـ لمَ تضحك؟ تصور الأمر كما سأصفه: لقد ضربتها بالسوط ضربتين فقط لم يبق لهما أثر مطلقاً... أرجو أن تعتبرني وقحاً. إنني أعرف تماماً أن ما صدر عني يعتبر عملاً بغيضاً... لكنني أعرف تماماً وبشكل تأكيدي كذلك أن هذه البوادر ولنقل بوادر الاهتمام، لم تكن تسيء إلى مارت بيتروفنا. إنها استثمرت القصة المتعلقة بأختك استثماراً متواصلاً وأخيراً لبثت في المنزل خلال الأيام الثلاثة الأخيرة مرغمة، لأنها لم تجد أي سبب جديد تتذرع به للذهاب إلى المدينة، لقد أضجرت كل الناس بقراءة تلك الرسالة العتيدة ـ هل سمعت كذلك بتلك الرسالة؟ ـ حسناً... وهكذا وجدت فجأة أن ضربات السوط قد سقطت عليها تساقط الرحمة من السماء، فكان أول ما أرادت عمله هو تجهيز العربة!.. كذلك لن ألفت انتباهك إلى أن بعض النساء يشعرن بسرور بالغ إذا استهدفن للإهانة مهما سببت لهن! من الغضب. إنهن على هذا الشكل... على كل حال، إن الجنس البشري كله يعبد التشهير به.. ترى هل لاحظت ذلك؟ أما النساء فإنهن يتذوقن ذلك بصورة خاصة حتى ليقال إنهن لا يستطعن العيش بدونه...

خطرَ لراسكو لنيكوف أن يخرج من الغرفة فيضع بخروجه حداً لهذه المقابلة لكن لوناً من الفضول بل ومن التعمد استبقاه في تلك اللحظة. سأل بلهجة ساهمة:

ـ هل تحب الضرب؟

فأجابه سفيدريكايلوف بهدوء:

ـ كلا... ليس بكثرة. أما فيما يتعلق بمارت بيتروفنا فإنني لم أستعمل يدي معها تقريباً أبداً. لقد كنا نعيش في تفاهم متين وكانت مسرورة دائماً مني. لقد استعملت السوط مرتين فقط خلال الأعوام السبعة التي قضيناها

معاً ـ باستثناء حالة ثالثة كانت مبهمة ـ كانت المرة الأولى بعد زواجنا بشهرين، عندما عدنا إلى الريف؛ والمرة الثانية كانت هذه الأخيرة أنك تفكر الآن بأنني كنت وحشاً، رجعياً، نصيراً للاسترقاق والعبودية... هاها!.. على فكرة، أتذكر يا روديون رومانوفيتش أنه منذ بضع سنوات، أيام «بيانات الخلاص» شُهر بشخصية لا أذكر اسمها ولطخ اسمها بالأوحال لأنها ضربت في إحدى المركبات سيدة ألمانية بالسوط؟ هل تذكر هذا الحادث؟ أعتقد أنه في تلك السنة وقع ما سموه «فاحشة القرن الشنيعة»!... هيا.. تذكر المحاضرة العامة عن الليالي المصرية والعيون السوداء!

آه أين أنت أيام شبابنا الذهبية! إليك رأيي الشخصي حول هذا الموضوع! إنني بعيد عن الاستئناس بذلك السيد الذي ضرب تلك الألمانية بالسوط لأنه ليس في الأمر حقيقة... ما يؤنس! إنني إذ أقول ذلك لا أستطيع إلا أن أضيف أن هناك أحياناً بعض «الألمانيات» يثرن في النفس رغبة عنيفة في ضربهن حتى أن من يمتلك نفسه حيالهن ليس في رأيي تقدمياً! إن أحداً لم يفحص المسألة على هذا الوجه ومع ذلك فإنه الوجه الوحيد الذي يمكن بحثه تماشياً مع روح العدل.

وانفجر سفيدريكايلوف بعد ذلك بضحكة جديدة فتأكد راسكولنيكوف بوضوح أن الرجل يحمل فكرة مدروسة بحزم. سأل:

ـ لا شك أنك انقطعت عن التحدث إلى الناس خلال أيام عديدة متتالية!

ـ إن هذا صحيح نوعاً. ألا يدهشك أن تجدني رجلاً أنيساً جداً.

ـ كلا بل إنني أدهش إذ أراك أنيساً أكثر مما يجب!.

ألأنني لم أستاء من فظاظة أسئلتك؟ أليس هذا هو السبب؟... لكن... لِمَ أستاء منها؟

وأضاف بسلامة نية مدهشة:

ـ مثل ما سألتني كذلك أجبتك!

ثم أردف بلهجة حالمة:

ـ إنك ترى يا سيدي أنه يمكن القول بأنني لا أهتم بأي شيء، إنني في هذه الأثناء خال من المشاغل... مع ذلك فإنك حر في أن تصدق أنني أعتمد على مساعدتك وأن لي شأناً مع أختك كما حدثتك! لكنني أؤكد لك بصراحة أنني شديد الملل وخصوصاً في الأيام الثلاثة الأخيرة ـ حتى أنني سعيد جداً برؤيتك! لا تغضب يا روديون رومانوفيتش، إنك تبدو لي كذلك غريباً بشكل مخيف. إن في سريرتك الآن بصورة خاصة شيئاً لا يمكنك إخفاؤه مهما نفيت وجوده ولا أقصد في هذه اللحظة بالذات بل أعني في الوقت الحاضر.. هيا لا تقطب حاجبيك سأكف عن التحدث في هذا الأمر... إنني لست ذلك الدب الذي تظنه!

نظر إليه راسكو لنيكوف مريداً وأجاب:

ـ لعلك لست «دباً» أبداً بل يبدو لي أنك رجل اجتماعي ممتاز أو على الأقل أنك تعرف كيف تبدو ـ عند الاقتضاء ـ رجلاً طيباً...

فأجاب سفيدريكايلوف بلهجة جافة فيها شيء من الاحتقار:

ـ لعمري لست أبالي برأي أحد، وإنني لأتساءل: لِمَ لا أكون شقياً طالما أن هذا اللون من الحياة يبدو لنا أكثر سهولة! خصوصاً وأننا نميل غريزياً إلى الشقاوة...

وانفجر ضاحكاً ضحكة ساخرة!

ـ لقد سمعت رغم ذلك بأن لك هنا كثيراً من المعارف. إنك لست

ممن يمكن أن يُطلق عليه: رجل محروم من الاتصالات! على ذلك فإنني أتساءل عن الدافع الذي جاء بك إلى منزلي وما هي غايتك؟

استرسل سفيدريكايلوف دون أن يجيب على السؤال الرئيسي:

ـ إنك على صواب. إنني أعرف كثيراً من الناس! لقد التقيت بعدد من الأشخاص خلال هذه الأيام الثلاثة التي قضيتها متسكعاً هنا فعرفتهم وأعتقد أنهم عرفوني بالمثل. إنني أبدو رجلاً موسراً وثيابي مناسبة تماماً أليس كذلك؟ إن إلغاء الرقيق لم يؤثر علينا: إنني أمتلك مراعٍ وغابات لذلك فإن مواردي باقية. لكن.. لن أذهب عند ذلك النوع من الناس، لقد سئمتهم من قبل! إنني أضرب في الطرقات منذ ثلاثة أيام ولم أقترب بعد من واحد. إنهم يسمون هذه مدنية! إنك تمن علي كثيراً إذا قلت لي كيف هي قائمة! مدينة الموظفين وتلاميذ المدارس الروحية! الحقيقة أن أشياء كثيرة فاتني تفهمها خلال تجوالي الفاجر السابق فيها منذ ثمانية عوام. أما الآن فإنني لا أعول ـ وربي إلا على ـ التشريح!.

ـ على أي تشريح؟

فأجاب دون أن يعير السؤال التفاتاً:

ـ كل هذه الأندية والمطاعم التي اصطلح على اعتبارها مجهوداً تقدمياً..! إنها ينبغي أن تستغني عني. ثم هل من الضروري أن يكون المرء غشاشاً.

ـ هل كنت كذلك غشاشاً؟

ـ كيف العمل بغير ذلك؟ كنا جماعة من الناس الموسرين وكنا منذ ثمانية أعوام نبحث عن وسائل لقتل الوقت وكنا كلنا ـ وينبغي أن تعرف ـ نمتلك وسائل طيبة. كان بيننا الشعراء وأصحاب رأس المال. على العموم،

هل لاحظت أن خيرة الناس وأحسنهم وسائل في مجتمعنا الروسي هم الأشقياء؟ الريف هو المكان الذي ذهبت إليه. لأنني كدت أن أسجن من أجل ديون كانت علي ليوناني قذر من «نييجين»، لولا أن جاءت في تلك الأثناء مارت بيتروفنا فساومت الدائن وحررتني من سلطته لقاء ثلاثين ألف روبل ـ مع أن مجموع ديوني بلغ سبعين ألفاً ـ تزوجنا زواجاً شرعياً ثم أخذتني فور ذلك إلى القرية كما لو أنها وضعت اليد على كنز ثمين. كانت أكبر مني بخمس سنين وكانت تحبني كثيراً وقد أمضيت سبع سنين لا أبارح الريف وهي ـ لاحظ ذلك ـ محتفظة بالوثيقة المتعلقة بالثلاثين ألف روبل ـ التي كانت أودعتها لدى شخص ثالث ـ لتستعملها ضدي عند الاقتضاء؛ وبذلك كانت تستطيع الإطباق علي أبداً إذا خطر لي أن أتحرر من النير! ولقد كانت على استعداد لذلك العمل! لك أن تجرب لترى كيف يحدث مثل ذلك مع النساء!

ـ هل كنت ستنسحب لولا وجود تلك الوثيقة؟

ـ لست أدري أجيبك! لم تعد تلك الوثيقة تزعجني ولم تكن بي رغبة للذهاب إلى أي مكان. لقد عرضت علي مارت بيتروفنا نفسها أن أسافر إلى الخارج عندما شعر بأنني متضجر. نعم.. لقد ذهبت من قبل إلى الخارج فكنت دائماً أشعر بسأم قاتل هناك. صحيح أن الأمر لا يدعو إلى مثل هذا التبرم: فهناك شروق الشمس وخليج نابولي والبحر... لكنك تنظر إلى هذه المناظر فتشعر بشيء من الحزن. إن ذلك الحزن هو الذي يشعرني بالسأم الشديد. كلا... إن من الخير للمرء أن يبقى في بلده لأننا هنا على الأقل، نتهم الآخرين بكل شيء ونزكي أنفسنا بذلك الاتهام... لعلني أذهب الآن طائعاً إلى القطب الشمالي لأن عندي ـ بعد أن يتبق لي إلا الكحول ـ خمراً رديئة تقززت نفسي من شربها. لقد جربت ذلك! وعلى فكرة، يقولون إن «بيرنح» سيطير

من حديقة يوسوبوف يوم الأحد المقبل على متعن منطاد كبير وإنه يوافق على اصطحاب رفاق طريق لقاء بدل معين فهل ذلك صحيح؟

ـ كيف، أتذهب بالمنطاد؟

غمغم سفيدريكايلوف وقد غدا مستغرقاً في التفكير:

ـ أنا؟ كلا... أعني...

بينما فكر راسكو لنيكوف في نفسه متسائلاً: «ترى ماذا يريد على العموم؟».

أردف سفيدريكايلوف بلهجة حالمة:

ـ كلا... إن تلك الوثيقة لم تكن تقلقني ولم أكن شخصياً أرغب في مبارحة الريف. عما قليل سينقضي عام منذ أن أعادت إلي مارت بيتروفنا الوثيقة بمناسبة عيد ميلادي مضافاً إليها مبلغ محترم من المال باسم هدية! لقد كانت غنية! قالت لي: «أترى أركاد إيفانوفيتش كم أنا واثقة بك؟». نعم.. لقد نطقت بهذه العبارة بالحرف الواحد. ألا تصدق أنها قالت ذلك؟ لكنني كنت قد أصبحت مزارعاً ممتازاً معروفاً في نواحينا. ثم إنني استجلبت كتباً ووافقت مارت بيتروفنا على ذلك بادئ الأمر ثم خشيت بعد ذلك أن أتعب نفسي بالقراءة.

ـ يبدو لك أنك سوف تتضجر بعد مارت بيتروفنا!

ـ أنا؟ يجوز! إنه ممكن الوقوع. على فكرة... هل تؤمن بالأشباح!

ـ أشباح من؟

ـ الأشباح بصورة عامة! أشباح من تريد أن يكون البحث عنها؟

ـ هل تؤمن بها أنت؟

ـ نعم ولا، لأرضيك! أقصد أنّ «لا» تكون أكثر من اللازم.

ـ وهل ترى أشباحاً؟

نظر إليه سفيدريكايلوف نظرة غريبة وتمتم وهو يكشر ضاحكاً:

ـ إن مارت بيتروفنا لا تني تزورني.

ـ كيف! هل تأتي لزيارتك؟

ـ نعم. لقد جاءت حتى الآن ثلاث مرات. لقد شاهدتها أول مرة يوم دفن زوجتي بالذات، بعد ساعة على عودتنا من المدفن. كان ذلك قبل سفري إلى بطرسبورغ بليلة واحدة. وكانت المرة الثانية أمس الأول خلال سفري عند بزوغ النهار في محطة «مالائيا ـ فيشيرا». أما المرة الثالثة فقد وقعت منذ ساعتين في مسكني الذي أنزل فيه وفي غرفتي بينما كنت وحيداً.

ـ هل كنت مستيقظاً؟

ـ تماماً! لقد كنت مستيقظاً تماماً خلال المرات الثلاث. إنها تأتي فتتحدث دقيقة واحدة ثم تذهب عن طريق الباب دائماً حتى ليخيل إلي أنني أسمع وقع أقدامها.

فقال راسكو لنيكوف دون وعي:

ـ إن هذا مضحك! كنت أحدث نفسي كذلك بأن من الواجب أن يحدث لك أمر كهذا...

ثم لام نفسه على ما بدر منه واستغرب صدور هذا الكلام عنه! لقد كان في اضطراب عنيف. سأله سفيدريكايلوف بدهشة:

ـ هكذا إذن؟ كنت تفكر في ذلك؟ هل هذا ممكن؟ حسناً! ألم أقل لك إن بيننا شيئاً عاماً يجمعنا؟

أجاب راسكو لنيكوف بانفعال:

ـ إنك لم تقل ذلك أبداً...

ـ لم أقله؟

ـ كلا!

ـ كنت أعتقد بأنني قلته. منذ حين عندما دخلت، وكنت أنت مستلقياً مغمض العينين تتصنع النوم، قلت لنفسي: «هذا هو بالذات!».

صاح راسكو لنيكوف:

ـ ماذا تعني بـ «هذا هو بالذات»؟ إلى ما تلمح؟

غمغم سفيدريكايلوف وقد بدت عليه حيرة ساذجة:

ـ إلامَ؟ الحقيقة لست أدري..

وأعقب ذلك دقيقة صمت راحا خلالها يحدقان في عيني بعضهما.

صاح راسكو لنيكوف عفواً:

ـ إن هذا مناف للعقل! ماذا تقول لك كلما جاءت تزورك؟

ـ هي؟ تصور إنها تحدثني عن أتفه الأشياء وذلك ما يغيظني ـ وستذهل عندما ترى أي نوع من الرجل أنا ـ! عندما دخلت علي في المرة الأولى، كنت وحيداً في مكتبي أدخن السيجار وأسبح في الخيال وقد أرهقني التعب إثر الحفلة الجنائزية والترتيل ثم الموكب والطعام. والخلاصة إنني كنت على تلك الحال حينما دخلت من الباب وقالت: «هه! يا أركاد إيفانوفيتش لقد نسيت اليوم ـ بسبب كل هذه الأشجان التي عرضت لك ـ أن تملأ ساعة غرفة الطعام الدفاقة»! وفي الحقيقة إنني درجت منذ سبع سنين على إملاء تلك الساعة بنفسي كل أسبوع، وعندما كنت أنسى ذلك كانت هي التي تذكرني به دائماً. وفي اليوم التالي، كنت

عند الفجر، في المحطة استعداداً للسفر إلى هنا. كنت خلال الليلة الفائتة مجهداً من التعب فكان النعاس يداعب عيني. أمرت لنفسي بقدح من القهوة. وفجأة شاهدت مارت بيتروفنا تجلس إلى جانبي وبيدها ورق لعب. قالت: «يا أركاد إيفانوفيتش، هل تريد أن تعلم ما ينبئ به الورق عن رحلتك؟» كانت زوجتي في حياتها قد أصبحت «أستاذة» في التنجيم بالورق ولن أغفر لنفسي أبداً أنني لم أستشر الورق قبل رحيلي. فررت مذعوراً وكان جرس الرحيل يقرع في تلك الأثناء! واليوم بعد أن عدت من دكان شواء تناولت فيها طعاماً مزعجاً وكانت معدتي مثقلة، وكنت أدخن ـ ومن عادتي التدخين فور الجلوس ـ عندما دخلت مارت بيتروفنا فجأة في أبهى زينة مرتدية ثوباً جديداً من الحرير الأخضر ذا ذيل طويل جداً. قالت: «عمت صباحاً يا أركاد إيفانوفيتش! كيف ترى ثوبي؟ إن آنيسكا لن تستطيع صنع مثله بهذه الدقة» ـ وأنيسكا هذه خياطة في بلدتنا، وهي فتاة جميلة تعلمت الخياطة من موسكو وكانت من قبل خادمة ـ ثم وقفت أمامي وراحت تستدير لتتيح لي فرصة معاينة الثوب، فتأملته برهة ثم حدجت زوجتي بنظرة وقلت: «يا مارت بيتروفنا الحقيقة أن هذه الترهات لا تستوجب منك عناء المجيء لذكرها لي». قالت: «آه يا رب! ها قد أصبحنا نزعجك الآن يا صديقي!» قلت لها بغية مشاكستها قليلاً: «يا مارت بيتروفنا... إنني سأتزوج...» فأجابت: «ذلك شأنك يا أركاد إيفانوفيتش إنه لا يشرفك ولا شك أن تتزوج فور دفن زوجتك مع ذلك فإنك وإن كنت قد أحسنت الانتقاء فإن الزواج سوف لا يجلب لكما السعادة ولسوف تصبحان أضحوكة للأشخاص النبلاء». ثم أخذت قبعتها وخيل إلي أنني أسمع حفيف ثوبها على الأرض. إنه لا يصدق أليس كذلك؟

ـ صحيح، كما أنه يجوز أن يكون ما تقوله محض اختلاق!

فأجاب سفيدريكايلوف بلهجة حالمة كما لو أنه لم يلاحظ خشونة السؤال:

ـ إنني أكذب نادراً.

ـ وهل رأيت أشباحاً قبل ذلك؟

ـ بلى، مرة واحدة فقط وكان ذلك منذ ست سنين. كان عندي خادم اسمه فيليب. وكنا قد دفناه وعدنا لتونا فصحت وأنا ساهم: «فيليب عليّ بغليوني!» فدخل واتجه مباشرة نحو الخزانة التي كانت غلاييني موضوعة فيها. وكنت جالساً أفكر في «أنه يثأر مني» لأننا ـ أنا وهو ـ كنا قد تشاحنا بعنف قبل موته، فقلت له: كيف تجرؤ على المثول أمامي بكم ممزق؟ اخرج من هنا أيها الخليع!» فاستدار على كعبيه وخرج ولم يعد بعد ذلك. ولم أهمس بكلمة أمام مارت بيتروفنا وقد غقدت العزم أولاً على إقامة قداس من أجل روحه غير أنني شعرت بضيق من ذلك.

ـ اذهب واستشر طبيباً!

ـ لست في حاجة إليك لأعرف أنني مريض، رغم أنني لا أعرف نوع المرض. غير أنني أعتقد بأنني في حالة صحية أفضل خمس مرات من حالتك! لم أسألك كذلك عما إذا كانت الأشباح يمكن أن تظهر أم لا. لقد سألتك: هل تؤمن ـ نعم أم لا ـ بوجود الأشباح؟

صاح راسكو لنيكوف بغضبة هوجاء:

ـ كلا إنني لا أؤمن بذلك!

غمغم سفيدريكايلوف وهو ينظر نظرة جانبية وقد أحنى رأسه قليلاً وكأنه يحدث نفسه:

ـ ماذا يقولون عادة؟ إنهم يقولون: «إنك مريض وعلى ذلك فإن ما يبدو لك ظاهراً لا وجود له، إنه كابوس مزعج». مع ذلك فإن هذا لا يتفق بدقة مع المنطق. أنا أوافق على أن التخيل من خصائص المرضى لكن ذلك يثبت بأن الإنسان لا يرى الأشباح إلا في الحالات المرضية وليس أنها غير موجودة بحد ذاتها.

فأصر راسكو لنيكوف بغضب:

ـ لا شك أنها غير موجودة!

نظر سفيدريكايلوف إليه ببطء وأردف:

ـ كلا؟ أهكذا تفكر؟ ماذا إذن لو ناقشنا الموضوع على الوجه التالي ـ وراجو أن تساعدني ـ «إن التخيلات هي قطع أو أجزاء من عوالم أخرى. والرجل السليم لا يربطه بها بالطبع شيء لأن الرجل السليم هو قبل كل شيء رجل من هذا العالم السفلي وأنه على هذا الأساس ينبغي أن يعيش حياته الأرضية الوحيدة. هذا من حيث الانسجام والتنظيم. لكنه لا يكاد أن يمرض، أو على الأصح يكاد ذلك التنظيم الأرضي الطبيعي يختل في تكوينه حتى تبدأ في الظهور إمكانية عالم آخر. وكلما ازداد مرضه كذلك تزداد اتصالاته بذلك العالم الآخر حتى أن الرجل الذي يموت أخيراً تماماً يمضي مباشرة إلى العالم الآخر».

لقد ناقشت الأمر على هذا الوجه منذ زمن طويل فإذا كنت تؤمن بالحياة الأخرى فإنه من الممكن لك أن تؤمن كذلك بهذه المناقشة.

قال راسكو لنيكوف:

ـ أنا لا أؤمن بالحياة الأخرى!

لبث سفيدريكايلوف حالماً وفجأة قال:

ـ ماذا لو لم يكن هناك إلا العناكب أو أشياء من هذا القبيل؟

قال راسكو لنيكوف في سره: «إنه مجنون!» بينما عاد سفيدريكايلوف يقول:

ـ إننا نتمثل الأبدية كفكرة يمكن فهمها، إننا نتمثلها دائماً كشيء غير محدود، متناه في العظمة. لكن لِمَ تكون حتماً متناهية في الامتداد؟ تمثل فجأة بدلاً من ذلك أنه ليس هناك إلا غرفة صغيرة تشبه حمامات الأرياف مثلاً، سوّدها الدخان ونسجت العناكب في زوايا بيوتها وأن «هذا» هو الأبدية! أتدري أنها تبدو لي أحياناً كذلك!

هتف راسكو لنيكوف وقد أحس بشعور قلق:

ـ هل يمكن، هل يمكن أن لا نتصور شيئاً أكثر تعزية وأكثر صحة من هذا؟

فأجاب سفيدريكايلوف وهو يضحك ضحكة غامضة:

ـ أكثر صحة؟ من يدري؟ لعل هذا هو الصحيح. أما فيما يتعلق لي فإنني لا أتأخر عن إظهارها على هذا النحو عامداً...

لم يتمالك راسكو لنيكوف إزاء هذا الجواب الغريب أن شعر ببرد مفاجئ. أما سفيدريكايلوف فقد رفع رأسه ونظر إليه بحدة ثم انفجر ضاحكاً فجأة وهتف:

ـ تصور ما سأقول لك: منذ نصف ساعة لم نكن شاهدنا بعضنا وكنا نعتبر بعضنا أعداء لبعض لأن بيننا أمراً لم يوضح وضوحاً كافياً وها أننا قد تركنا هذا الأمر وانصرفنا عنه إلى هذا النوع من الأدب! ألم أقل لك الحق حينما زعمت أننا ثمرتان من أرض واحدة؟

فقال راسكو لنيكوف منفعلاً:

ـ اسمح لي، اسمح لي! أرجو أن تفسر فوراً ما تريد وأن تطلعني على سبب تشريفك إياي بزيارتك و.. و.. إنني في عجلة من أمري... أريد الخروج!

ـ حسناً لنبحث في هذا فقط! إن أختك أفدوتيا رومانوفنا ستتزوج من السيد لوجين، بيير بيتروفيتش؟

ـ ألا يمكن أن نتحاشى كل شيء له علاقة بأختي وأن لا نعود إلى ذكر اسمها؟ لست أفهم كيف تجرؤ على التلفظ باسمها في حضرتي إذا كنت حقيقة سفيدريكايلوف!

ـ لكن كيف يمكن أن لا أذكر اسمها وأنا الذي جئت للتحدث عنها؟

ـ حسناً تكلم ولكن أسرع!

ـ أنا واثق من أنك اتخذت فكرة ما عن هذا السيد لوجين الذي هو قريبي بالمصاهرة، وذلك إما أثناء مقابلتك مدة نصف ساعة أو استناداً إلى المعلومات التي قد تكون جمعتها عنه والتي قد تكون صحيحة ودقيقة، إنه غير كفء لأفدوتيا رومانوفنا. وفي رأيي أنها ـ في هذه القضية ـ تضحي بنفسها بشهامة وتجرد من أجل... من أجل أسرتها. ولقد ظننت ـ استناداً إلى ما سمعته عنك ـ بأنك ستسر جداً لفسخ هذا الزواج شريطة أن لا تُغدر مصالح أختك في الأمر والآن بعد أن عرفتك شخصياً فإنني أصبحت أشد قناعة من ذي قبل!

ـ إن هذا لسذاجة كبيرة من قبلك بل واعذرني إذا قلت بأنه وقاحة!

ـ إنك تريد بذلك القول أن تلمح إلى أنني «أبشر بقديس» كما يقال أي أنني امهّد الطريق لنفسي. اطمئن يا روديون رومانوفيتش. إذ لو أنني

كنت أعمل لمصلحتي لما بدأت بهذه الصراحة العظيمة. إنني لست سخيفاً تماماً! إنني أكشف لك في هذا الصدد عن بسيكولوجية غريبة.

إنني منذ حين عندما غدرت نفسي لأنني أحببت أفدوتيا رومانوفنا قلت لك بأنني كنت شخصياً ضحية ذلك. حسناً! اعلم بأنني في هذه الساعة، لا أشعر بأي حب بل ولا بأقل حب نحوها، حتى أنني دهشت شخصياً لهذا الشعور إذ إنني في الواقع شعرت من قبل..

فقاطعه راسكو لنيكوف:

ـ كان ذلك بسبب حياتك الحافلة بالبطالة والفجور!

ـ الواقع أنني عاطل وفاسد. ثم إن أختك تمتلك من المزايا ما يجعل حتى الرجل الذي مثلي يشعر حيالها شعوراً ما. لكن ذلك كان كله عبثاً وإنني أعترف به لك الآن.

ـ منذ متى شعرت بذلك؟

ـ لقد كنت أشعر به من قبل. غير أنني تأكدت منه نهائياً أو أول أمس حال وصولي إلى بطرسبورغ رغم أنني بلغت موسكو كنت أتصور بأنني ما حضرت إلا لأطلب يد أفدوتيا رومانوفنا وأنصب من نفسي خصماً للوجين.

ـ اعذرني إذا قاطعتك: لا يمكنك أن توجز من فضلك؟ أرجوك أن تصل فوراً إلى الغاية من زيارتك. إنني مضطر إلى الخروج عاجلاً.

ـ بسرور كبير. بعد أن بلغت المدينة وبما أنني قد عزمت على القيام بسفر ما، أردت على سبيل الاحتياط أن أسوي بعض الأعمال الهامة. لقد بقي أولادي لدى عمتهم، وهم أغنياء وأنا شخصياً لست بذي فائدة لهم. ثم أي نوع من الآباء أنا بالنسبة إليهم؟ إنني لم أحمل معي إلا المبلغ الذي

قدمته لي مارت بيتروفنا هدية في العام الماضي. إنه يكفيني. اعذرني، لقد بلغت الغرض: قبل سفري المقبل الذي يجوز كذلك أن لا يقع، أريد أن أنتهي من السيد لوجين ليس لأنني أكرهه بكل عنف، لكن لأنه على العموم المسبب الأول للشجار الذي وقع بين مارت بيتروفنا وبيني عندما بلغني أنها هي التي مهدت لهذا الزواج. إنني أرغب في الوقت الحاضر أن أقابل أفدوتيار ومانوفنا بواسطتك وبحضرتك - إذا كنت ترغب - لأعبّر لها أولاً أنه ليس فقط لا ينبغي أن تنتظر أية فائدة على يد السيد لوجين بل إنها على العكس سوف تتعرض لإساءات جسيمة. ثم سأستأذنها - بعد أن ألتمس منها الصفح عن المضايقات التي أحدثها لها في المدة الأخيرة في تقديم عشرة آلاف روبل لأسهل بذلك قطع علاقاتها مع السيد لوجين، ذلك القطع الذي لن تتأخر عن قوله - وأنا واثق من ذلك - حالما تجد الإمكانيات متوافرة!

صاح راسكو لنيكوف ذاهلاً أكثر مما هو غاضب:

- لعمري إنك لمجنون، مجنون حقاً! كيف تجرؤ على التحدث هكذا؟

- كنت أعرف تماماً أنك ستطلق صيحات عالية! لكنني - رغم أنني لست غنياً - أستطيع التصرف بهذه العشرة آلاف روبل وأقول بأنها غير ضرورية لي بأي شكل من الأشكال. فإذا رفضتها أفدوتيا رومانوفنا فإنني متأكد من أنني سأنفقها بشكل أكثر حماقة وسخفاً. ثم... إن وجداني سيكون هادئاً تماماً. إنني أقدم المبلغ دون أية غاية. وسواء أصدقت أم لم تصدق فإنكما أنت وأفدوتيا رومانوفنا سوف تتأكدان من ذلك في المستقبل. إن كل ذلك راجع إلى ما سببته حقيقة لأختك الشجاعة من قلق ومزعجات، وبما أنني أشعر بتبكيت مخلص في ضميري فإنني أرغب من كل قلبي ليس افتداء نفسي وليس تقديم تعويض مالي كذلك بل إنني أرغب بكل بساطة أن أقوم بعمل مثيب لأنني لا أمتاز - بعد كل شيء - بعمل الشر فقط. ولو

أن غرضي كان فيه أدنى جزء من أية فكرة أخرى أغذيها في سري، كما تقدمت به على الشكل الصريح ولما كنت قدمت اليوم فقط عشرة آلاف روبل لا غير وأنا الذي قدمت أكثر منها منذ خمسة أسابيع. ثم إنه يجوز أن أتزوج خلال فترة قصيرة جداً من فتاة شابة وعلى ذلك فإن كل شك أوظن أنني أهدف إلى أفدوتيا رومانوفنا ينبغي ـ لهذا السبب نفسه ـ أن يتبخر! إنني أضيف مختتماً كلامي بأنه إذا تزوجت أفدوتيا رومانوفنا من السيد لوجين فإنها ستتلقى هذا المبلغ بالذات ولكن من جهة أخرى... هيا لا تزعج يا روديو رومانوفيتش. احكم بهدوء وترو.

كان سفيدريكالوف وهو ينطق بهذه الكلمات هادئاً ورابط الجأش بشكل عجيب. فقال راسكو لنيكوف:

ـ أرجو أن تكف. على كل حال إن ما تلفظت به منذ حين وقاحة لا تغتفر!

ـ مطلقاً. ثم إن الإنسان على هذه الأرض لا يعمل إلا الشر لأترابه وعلى ذلك أفليس له الحق في أن يقدم لهم ذرة من الخير لا لشيء إلا بسبب اصطلاحات محرفة. إنه غير طبيعي! هب جدلاً أنني مت وتركت في وصيتي هذا المبلغ لأختك فهل كانت سترفض قبوله أيضاً؟

ـ ممكن جداً.

ـ لا أظن ذلك! ثم إن عشرة آلاف روبل ثروة طيبة رغم ذلك. أرجو على كل حال أن تطلع أفدوتيا رومانوفنا على هذا الحديث.

ـ كلا لن أقول لها شيئاً منه!

ـ في هذه الحالة يا روديون رومانوفيتش، سأكون مضطراً للحصول على موعد معها بوسائلي الخاصة الأمر الذي سيزعجها على ما أظن.

ـ وإذا حدثتها فيما دار بيننا فهل لا تحاول رؤيتها بنفسك؟

ـ لست أدري في الحقيقة بما أجيب، إنني أتوق إلى مقابلتها مرة واحدة.

ـ لا تتأمل في ذلك مطلقاً.

ـ مؤسف. لكنك لا تعرفني. لعل علاقتنا ستصبح أكثر توثقاً في المستقبل.

ـ أو تظن أن علاقاتنا ستصبح أكثر توثقاً في المستقبل؟

فقال سفيدريكايلوف وهو ينهض ويأخذ قبعته:

ـ لِمَ لا؟ ليس لأنني أريد أن أزعجك إلى هذا الحد، بل وإنني عندما جئت إليك لم أكن أعول كثيراً على... رغم أن مظهرك الخارجي قد أثر في نفسي هذا الصباح!

سأله راسكو لنيكوف بشيء من القلق:

ـ وأين رأيتني هذا الصباح؟

ـ صدفة. يخيل إلي دائماً أن فيك شيئاً يشبه ما في... هيا اطمئن فإنني لَست مزعجاً إلى هذا الحد. لقد تعلمت كيف أتفق مع الماكرين، إنني لم أزعج الأمير سفيربيني ـ أحد أقربائي البعيدين وأمير كبير ـ من أجل مجموعة السيدة بريلوكوف وقد عرفت كيف أنظم أبياتاً في عذراء رافائيل. لقد عشت سبع سنين مع مارت بيتروفنا دون أن أستسلم لأية ثورة، ونمت من قبل في منزل فيازمسكي المطل على «سوق العلف»، ويجوز أن أصعد بالمنطاد مع برغ...

ـ هيا... حسناً! اسمع لي أن أسألك عما إذا كنت حقاً تعول على السفر.

ـ أي سفر؟

ـ ماذا؟ هذا السفر العتيد الذي تحدثت عنه منذ حين!

ـ السفر؟ آه نعم.. في الحقيقة إنني تحدثت معك عن السفر.. حسناً إنها مسألة واسعة جداً.. ليتك تعلم ما في سؤالك هذا...

ثم أضاف بضحكة قوية صغيرة:

ـ علني أتزوج بدلاً من هذه الرحلة أو أجد لنفسي خطيبة.

ـ هنا!

ـ نعم.

ـ هل كان لديك الوقت الكافي من أجل هذا؟

ـ مع هذا، فإنني يجب أن أرى أفدوتيا رومانوفنا مرة واحدة، وإنني أسألك ذلك جدياً. هيا إلى اللقاء... آه نعم... كدت أنسى.. قل لأختك أفدوتيا رومانوفنا بأن مارت بيتروفنا قد تركت لها بموجب وصيتها ثلاثة آلاف روبل. إنها الحقيقة الحقة. لقد اتخذت مارت بيتروفنا احتياطاتها قبل موتها بثمانية أيام وقد حدث الأمر بحضوري ولسوف تستطيع أفدوتيا رومانوفنا أن تقبض المبلغ خلاس أسبوعين أو ثلاثة أسابيع.

ـ هل تقول صدقاً؟

ـ نعم. قل ذلك لها... هيا.. خادمك. إنني أقطن قريباً من هنا.

وعندما خرج، اصطدم سفيدريكايلوف على العتبة برازوميخين!

الفَصْلُ الثّاني

كانت الساعة قد أشرفت على الثامنة وعلى ذلك فقد راحا يحثان الخطى للوصول إلى منزل باكالييف قبل لوجين.

سأل رازوميخين حال بلوغه الشارع:

ـ من كان الرجل؟

ـ إنه سفيدريكايلوف، ذلك الملاك الذي تعرضت أختي عنده للمهانات عندما كانت تعمل مديرة لمنزله، لقد اضطرت إلى التخلي عن عملها لأنه كان يغازلها، وقد طردتها زوجة هذا السيد المدعوة مارت بيتروفنا. ثم إن هذه المارت بيتروفنا نفسها عادت بعدئذ تعتذر لدونيا وقد ماتت مؤخراً موتة فجائية. لقد كنا نتحدث عنها منذ قليل. لست أدري لمَ أخاف خوفاً شديداً من هذا الرجل، لقد وصل بعد دفن زوجته مباشرة وهو شاذ جداً ومزمع القيام بعملية معينة.. ويبدو عليه أنه يعرف أمراً... ينبغي حماية دونيا منه.. هذا ما أردت أن أقوله لك فهل سمعت؟

ـ حمايتها؟ ماذا يستطيع أن يعمل ضد أفدوتيا رومانوفنا؟ هيا... أشكرك يا روديا على أنك خاطبتني على هذا النحو. لسوف نحميها!... أين يقطن؟

ـ لست أدري!

ـ لِمَ لم تسأله؟ يا للأسف! على كلٍّ لسوف أعرفه.

فسأل راسكو لنيكوف بعد صمت قصير:

ـ هل رأيته؟

ـ طبعاً. لقد لاحظته تماماً.

فقال راسكو لنيكوف بإلحاح:

ـ هل رأيته جيداً وبوضوح؟

ـ طبعاً نعم وإنني أذكر وجهه. لسوف أتعرف عليه بين ألف رجل. إنني أذكر الوجوه دائماً.

وعاد إلى الصمت من جديد.

غمغم راسكو لنيكوف:

ـ هم..! ذلك أن... ذلك أن... ماذا أقول... لقد خيل لي... يخيل لي دائماً.. أن ذلك ليس إلا وهماً.

ـ ماذا تريد أن تقول؟ أنا لا أفهمك تماماً.

تابع راسكو لنيكوف وهو يغتصب ابتسامة:

ـ هذا هو الأمر! إنكم تقولون جميعاً بأنني مجنون ولقد خيل إلي منذ حين أنني قد أكون مجنوناً حقاً وأنني لم أر أشباحاً.

ـ ماذا تقول هنا؟..

ـ من يدري! لعلني مجنون حقاً ولعل كل ما وقع خلال هذه الأيام الأخيرة لم يحصل كله إلا في مخيلتي.

ـ آه روديا! لقد أقلقوا فكرك من جديد!... لكن ماذا قال لك؟ لماذا جاء؟

لم يجب راسكو لنيكوف على هذا السؤال فاستغرق رازوميخين لحظة في التفكير وأخيراً قال:

ـ هيا.. إليك تقريري: لقد ذهبت إلى غرفتك فوجدتك نائماً ثم تناولنا طعام الغذاء وبعده ذهبت إلى منزل بورفير. كان زاميوتوف موجوداً هناك. أردت أن أتحدث غير أنني لم أفد شيئاً من ذلك لأنني ما كنت أتوصل إلى التحدث كما ينبغي، فلم يفهما تماماً الهدف الذي كنت أنشده. لكنهما ما كانا يبديان أي خجل. جذبت بورفير إلى النافذة ورحت أوبخه بشدة ولكن دون جدوى كذلك. لقد كان ينظر إلى اتجاه وكنت أنظر إلى آخر! وأخيراً وضعت قبضتي تحت «شدقيه» وقلت له بأنني سأحطمه رغم أنني قريب له. فاكتفى بالنظر إلي وعندئذ بصقت احتقاراً وخرجت. هذا كل ما في الأمر. إنه سخف وحماقة. أما مع زاميوتوف، فإنني لم أتحدث بأية كلمة. على أنني ـ بعد ما فكرت في أنني أفسدت كل شيء ـ خطرت ببالي فكرة مفاجئة وأنا أهبط السلم، فكرة سكبت على قلبي الهدوء والبلسم. قلت لنفسي: لِمَ نسخط ونغضب أنا وأنت؟ فلو أنك كنت معرضاً لخطر ما وكان في الأمر شيء، لعرفنا ذلك وفهمناه. لكن ماذا يهمك كل هذا؟ إنك لا ضلع لك في كل ذلك وإذن، تجاهلهم ولسوف نسخر منهم في المستقبل: لو أنني كنت في مكانك لسررت غاية السرور بالهزء بهم.. يا له من أمر مخجل بالنسبة إليهم! ابصق عليهم، ولسوف نستطيع أن نؤدبهم بالضرب فيما بعد. أما في الوقت الحاضر فلنكتف بالضحك!

فأجاب راسكو لنيكوف:

ـ ذلك بالتأكيد هو الصواب.

وفكر في نفسه قائلاً: «لكن ماذا تقول غداً؟»! والغريب أنه حتى

تلك اللحظة لم يفكر مرة واحدة في أن يطرح على نفسه السؤال التالي: «ماذا سيفكر رازوميخين عندما يلم بالحقيقة؟» لذلك فقد نظر بحدة إلى وجه رازوميخين عندما طرأت هذه الفكرة لراسكو لنيكوف. لم يكن التقرير الذي قدمه إليه منذ حين عن زيارته لبورفير ليحتل في نفسه موضعاً كبيراً لأن عدداً من الأشياء الأخرى قد وقع بعد ذلك كما إن عدداً كبيراً آخر قد نسخ تماماً!

التقيا بلوجين في الممشى! كان هذا قد وصل في الساعة الثامنة تماماً لكنه أضاع بعض الوقت في البحث عن الغرفة حتى أن ثلاثتهم دخلوها معاً لكن دون أن ينظر فريق إلى آخر أو أن يتبادل معه التحية! دخل الشابان في المقدمة، أما بيير بيتروفيتش فإنه تأخر قليلاً في فسحة المدخل لينزع معطفه وهو حريص كل الحرص على مراعاة قواعد اللياقة. هرعت بولشيري ألكسندروفنا على الفور لاستقباله على العتبة بينما كانت دونيا تتبادل تحية مع أخيها، ودخل بيير بيتروفيتش فحيا السيدتين بلطف كاف رغم ما أودع تحيته من الاحترام المناسب للظرف. كان يبدو عليه الارتباك لأنه لم يكن قد تمالك نفسه، وكانت بولشيري ألكسندروفنا مرتبكة بعض الشيء فبادرت إلى إجلاس الضيوف حول مائدة مستديرة كان ماء «سماور» يغلي فيها عليها، وجلست دونيا مقابل لوجين على طرفي المائدة. أما رازوميخين وراسكو لنيكوف فقد جلسا قبالة بولشيري ألكسندروفنا فكان رازوميخين قريباً من لوجين بينما كان راسكو لنيكوف بجانب أخته.

مضت فترة صمت، وأخرج بيير بيتروفيتش ببطء منديلاً من «الباتسيستا» نشره فانتشر منه عطر نفاذ، وأدناه من أنفه فتمخط فيه وهو يحافظ على مظهره كرجل أهين في كرامته فقرر ـ رغم عطفه ـ أن

يطلب تفسيراً عن هذا التصرف خطر له منذ أن كان في الردهة أن لا يخلع معطفه وأن ينسحب فيفرض بذلك عقاباً قاسياً على السيدتين، يجعلهما تفكران فوراً في تصرفهما. غير أنه كان من أولئك الذين لا يحبون المجهول في الأمور وها قد عرض له أمر أحب إيضاحه: إذا كانت أوامره قد خرجت بكل هذه الصراحة فينبغي أن يكون هناك سببٌ لذلك فإن من الأنسب أن يبقى ليريح باله بأسرع ما يمكن وليعرف السبب؛ ولسوف يكون لديه من الوقت ما يجعله قادراً دائماً على إنزال العقاب وهو الذي يملك الوسيلة لإنزاله بهما.

سأل بلهجة رسمية مخاطباً بولشيري ألكسندروفنا:

ـ آمل أن تكون رحلتك موفقة!

ـ حمداً للّه يا بيير بيتروفيتش.

ـ سرني أن علمت ذلك! هل لم تتعب أفدوتيا رومانوفنا كذلك؟

فأجابت دونيا:

ـ إنني شابة وقوية لذلك فإنني لا أتعب لكن الرحلة كانت شاقة على أمي.

ـ ما العمل؟ إن خطوطنا الداخلية تمتد إلى مسافات طويلة. إن أمنا روسيا ـ كما يقولون ـ كبيرة جداً... لم أستطع البارحة ـ رغم رغبتي القوية ـ أن أكون في استقبالكما وآمل رغم ذلك أن يكون كل شيء قد تم دون عوائق تذكر.

بادرت بولشيري ألكسندروفنا إلى القول بلهجة خاصة:

أما هذا فلا يا بيير بيتروفيتش. لقد وقعنا في ارتباك شديد ولو أن

اللّه نفسه ـ كما يبدو ـ لم يرسل لنا البارحة دميتري بروكوفيتش لكنا ضعنا بكل بساطة. ها هو ذا حاضر.

ثم قدمته إلى بيير بيتروفيتش بقولها:

ـ دميتري بروكوفيتش رازوميخين.

فألقى بيير بيتروفيتش على رازوميخين نظرة خالية من البشاشة وقال:

ـ كيف ذلك؟ لقد كان لي سرور معرفته البارحة.

ثم قطب حاجبيه وصمت. كان بيير بيتروفيتش على العموم من ذلك النوع من الناس الذين يظهرون أنفسهم في المجتمعات بمظهر اللطف المتناهي. لكنهم ـ إذا سارت الأمور على غير ما يشتهون ـ يفقدون كل إمكانياتهم ويصبحون عندئذ أقرب إلى أكياس من الدقيق منهم إلى الفرسان الأنيقين الذين يكونون عادة محط أنظار الأندية والمجتمعات! وهكذا عاد الصمت يخيم على الجميع. كان راسكو لنيكوف صامتاً بعناد وكانت أفدوتيا رومانوفنا لا تريد الكلام قبل الوقت المناسب، ولم يكن لدى رازوميخين ما يقوله؛ فاضطرت بولشيري ألكسندروفنا من جديد إلى خرق السكون فقالت بعد أن استنجدت بمواردها الإخبارية القصوى:

ـ لقد ماتت مارت بيتروفنا فهل كنت تعرف ذلك؟

ـ كيف لا، لقد علمت به. لقد أخبرت بموتها منذ اللحظة الأولى وكنت على وشك أن أقول لكم بأن أركاد إيفانوفيتش سفيدريكايلوف لم يكد يواري زوجته التراب حتى هرع إلى بطرسبورغ. إنها على الأقل المعلومات الموثوقة التي بلغتني!

سألت دونيا بصوت قلق وهي تتبادل النظر مع أمها:

ـ في بطرسبورغ؟ هنا؟

ـ تماماً ولا شك أنه لم يأت هكذا عفوياً دون غاية معينة خصوصاً إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى تعجيله الرحيل وعلى العموم إلى الظروف التي سبقته.

هتفت بولشيري ألكسندروفنا:

ـ رباه! هل يعقل أن يكون قد جاء إلى هنا لمضايقة دونيا؟

يبدو لي أنه لا مجال لقلقك بصورة خاصة لا أنت ولا أفدوتيا رومانوفنا، إذا كنتما ـ بالطبع ـ ترغبان في تحاشي أي لون من العلاقات معه. وإنني من جانبي سأعنى بالاستفسار منذ الآن عن مسكنه.

فأضافت بولشيري ألكسندروفنا:

ـ آه يا بيير بيتروفيتش، لن تستطيع أن تتصور درجة جزعي لهذا الخبر الذي ذكرته منذ حين. إنني لم أره إلا مرتين ولقد بدا لي مخيفاً رهيباً. إنني واثقة من أن سبب وفاة تلك المسكينة مارت بيتروفنا.

ـ لا يمكن الحكم على هذه النقطة. إن لدي معلومات دقيقة، وإنني لا أعترض على أنه عجل سير الأمور الطبيعي بالمساهمة في جرحها روحياً. أما فيما يتعلق بسلوك الرجل وعقليته فإنني من رأيك تماماً. إنني أجهل إذا كان غنياً في الوقت الحاضر ولسوف أعرف بأسرع وقت ما تركته له مارت بيتروفنا. لكنني لا أشك في أنه ـ لمجرد امتلاكه بعض الإمكانيات ـ سيعود في بطرسبورغ إلى طراز حياته السابق. إنه أكثر الرجال انحلالاً وأشدهم إغراقاً في المفاسد من كل من هم على شاكلته! إن لي من المبررات

الكافية ما يجعلني واثقاً من أن مارت بيتروفنا التي كان لها شقاء التعلق به ودفع ديونه منذ ثمانية أعوام ـ كانت نافعة له كذلك لاعتبارات أخرى. فلقد توصلت ـ بفضل تضحياتها وتصرفاتها فقط ـ إلى خنق قضية إجرامية في مهدها رغم الطابع الحيواني المفرط الذي اتسمت به تلك الجريمة والتي كان يمكن أن يذهب بسببها في رحلة إلى سيبيريا. هذا هو الرجل إذا شئتم معرفة نوعه!

صاحت بولشيري ألكسندروفنا:

ـ آه.. يا رب!

كان راسكو لنيكوف يصغي بانتباه! وفجأة سألت دونيا بصوت خطير وهي تضغط على كلماتها:

هل حقيقة أن لديك معلومات موثوقة حول هذا الموضوع؟

ـ إنني لم أقل إلا ما اقتطفته شخصياً وبصورة سرية تامة من فم مارت بيتروفنا. إنه لمن المناسب أن نلاحظ كذلك بأن تلك القضية ليست معقدة جداً من وجهة النظر الحقوقية القانونية. في ذلك الوقت كانت تعيش هنا امرأة أجنبية تمهن الربا إلى جانب أشياء أخرى، اسمها ريسليش، وأعتقد كما يبدو أنها لا زالت في بطرسبورغ. وكان السيد سفيدريكايلوف على علاقات ودية بل وغامضة مع هذه السيدة منذ أمد طويل: وكانت لها ابنة أخت تعيش بقربها تبلغ على ما أعتقد الخامسة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها وكانت صماء خرساء تحتقرها ريسليش وتعذبها كثيراً حتى أنها كانت تستكثر عليها لقمة الخبز وتضربها بشكل وحشي. وذات يوم وجدت تلك الفتاة مشنوقة في غرفة المؤونة وقد أثبت التحقيق أنها انتحرت. وبعد الشكليات المرعية، توقفت القضية عند ذلك الحد غير أن البوليس تلقى

إخباراً يثبت أن تلك الطفلة كانت قد... انتهك عرضها بوحشية من قبل سفيدريكايلوف. والحقيقة أن كل هذا لم يكن واضحاً تماماً. لأن الأخبار كان مرسلاً من قبل امرأة ألمانية أخرى، غير شريفة كذلك ولا توحي بالثقة فكان أن أهمل إخبارها آخر الأمر بفضل مال مارت بيتروفنا ومجهودها ولبثت القضية في حدود الشائعات فحسب. غير أن تلك الشائعة لم تكن خالية من المعاني. ولا شك أنك يا أفدوتيا رومانوفنا قد سمعت بنفسك ـ لما كنت عندهم ـ قصة ذلك الخادم فيليب الذي مات ضحية سوء المعاملة منذ ست سنين لما أن كان الرقيق مسموحاً.

ـ لقد سمعت على العكس بأن فيليب قد شنق نفسه.

ـ تماماً. لكنه كان في قهر شديد أو على الأصح أنه دفع دفعاً إلى وضع حدٍّ لحياته بسبب الاضطهادات والآثارات التي كان يستهدف لها من السيد سفيدريكايلوف.

فأجابت دونيا بلهجة جافة:

ـ كنت أجهل ذلك. لقد سمعتهم فقط يروون قصته على شيء من الغرابة: ذلك أن فيليب كان على ما يبدو مهووساً، أي إنه كان خادماً فيلسوفاً، وكانوا يعتقدون بأن القراءة قد أثرت في عقله وأنه شنق نفسه فراراً من السخريات أكثر من فراره من ضربات السيد سفيدريكايلوف. لقد كان هذا الأخير في حضوري حسن المعاملة مع خدمه بل يمكن القول أن رجاله كانوا يحبونه رغم أنهم كانوا يعزون إليه موت فيليب.

قال لوجين ملمحاً وقد علت وجهة ابتسامة مبهمة:

ـ أرى يا أفدوتيا روما نوفنا أن بك ميلاً مفاجئاً إلى معذرته! الحقيقة هي أنه رجل يفتن النساء! إن مارت بيتروفنا ـ التي ماتت بشكل غريب

جداً ـ ليست إلا البرهان المؤسف! كنت أريد فقط أن أعطيك نصيحة لك ولأمك حيال المحاولات التي لم يلبث أن يجددها دون شك بعد حين. أما أنا فإنني قانع تماماً بأن هذا الرجل لن يلبث حتى ينزل في سجن من السجون بسبب الديون، وأعتقد بأن مارت بيتروفنا لم تفكر أبداً في أن تتنازل عن جانب من ثروتها لأنها لم تكن تفكر إلا في أبنائها. لكنها على ـ افتراض أنها تركت له شيئاً فإن ما تركته لن يتعدى المبلغ اللازم للحياة، مبلغاً قليل الأهمية لا يلبث أن ينفق بل إنه ـ اعتماداً على عادات هذا الرجل ـ لن يكفيه للإنفاق عاماً واحداً.

فقالت دونيا:

ـ أرجو يا بيير بيتروفيتش أن نكف عن التحدث في مسألة السيد سفيدريكايلوف. إن ذلك يسبب لي ألماً في قلبي.

قال راسكو لنيكوف فجأة للمرة الأولى بعد بدء الحديث:

ـ لقد زارني في غرفتي منذ قليل.

فعلت الغمغمات وعبارات الاستغراب في غرفة الاجتماع واستدارت كل الوجوه نحوه حتى أن بيير بيتروفيتش نفسه اضطرب للخبر استرسل راسكو لنيكوف:

ـ منذ نصف ساعة بينما كنت نائماً، دخل فأيقظني وقدم إلي نفسه. لقد كان مرحاً غير مرتبك. إنه يأمل في أن تتوثق عرى صداقتي معه. غير أنه يرغب ويلتمس مقابلتك يا دونيا. وقد رجاني أن أكون شخصاً ثالثاً في تلك المقابلة لأن لديه عرضاً يريد أن يتقدم به إليك ولقد حدثني بنوع ذلك العرض. عدا عن ذلك فقد أنبأني بأن مارت بيتروفنا كانت قبل وفاتها بثمانية أيام قد خصصت لك في وصيتها مبلغ ثلاثة آلاف روبل وأن هذا المبلغ سوف تقبضينه في أقرب وقت.

صاحت بولشيري ألكسندروفنا وهي ترسم على صدرها إشارة الصليب.

ـ حمداً لله. صلي من أجلها يا دونيا صلي!

فقال لوجين دون أن يتمالك نفسه:

ـ إن القضية صحيحة.

سألت دونيا متلهفة:

ـ ثم... ثم... ماذا بعد؟

ـ ثم قال لي بأنه ليس غنياً وأن كل الثروة قد آلت إلى أولاده المقيمين الآن لدى عمتهم وأضاف بأنه يقطن على مقربة من مسكني أما أين؟ فإنني لا أعرف ولم أسأله.

وسألت بولشيري ألكسندروفنا مذعورة:

ـ لكن ماذا يريد أن يعرض على دونيا؟ هل قاله لك؟

ـ نعم لقد قال لي.

ـ ما هو؟

ـ سأقوله فيما بعد!

صمت راسكو لنيكوف وانهمك بقدح الشاي الذي كان أمامه... وأخرج بيير بيتروفيتش ساعته فنظر إليها ثم قال بلهجة الملسوع:

ـ لدي عمل مهم وعاجل يقتضي وجودي وبذلك فلن أزعجكم أكثر من ذلك.

وراح يتناهض فقالت دونيا:

ـ ابق يا بيير بيتروفيتش لقد كنت ترغب في قضاء أمسيتك معنا. ثم إنك كتبت بنفسك أن لديك شيئاً تريد أن تتفاهم عليه مع أمي.

فأجاب بلهجة العبوس المتجبر وهو يعاود الجلوس دون أن يترك قبعته من يده:

- تماماً يا أفدوتيا رومانوفنا. كنت في الحقيقة أريد التفاهم مع السيدة أمك حول نقاط على غاية من الخطورة. لكن لما كان أخوك لا يستطيع أن يبين أمامي بعض عروض السيد سفيدريكايلوف كذلك أنا فإنني لا أريد بل لا أستطيع أن أفسر ما أريد، بحضور شخص ثالث، حول موضوع معين ذي أهمية غاية في الدقة. أضف إلى ذلك إنني ألاحظ بأن رجائي الحار الذي تقدمت به بعبارات واضحة وبينة جداً لم يُلق بال إليه...

وصمت لوجين وغدا وجهه مكفهراً وراح في سكون ملؤه المهابة. فقالت دونيا:

- لقد طلبت أن لا يحضر أخي المقابلة التي ستجري بينا وإذا كان رجاؤك هذا لم ينفذ فذلك لأنني أردت أن يكون كذلك. لقد كتبت لي تقول: «إنك أهنت من قبل أخي. إنني أوافق على وجوب إيضاح هذه الناحية وإحلال التفاهم بينكما محل الخصام. فإذا كان روديا حقيقة قد جرح كرامتك فيجب عليه - والحالة هذه - أن يتقدم إليك باعتذاراته ولسوف يتقدم بها».

فأجاب بيير بيتروفيتش بلهجة التأكيد:

- هناك إهانات يا أفدوتيا رومانوفنا لا يمكن نسيانها مهما بذل الإنسان في سبيل ذلك من إرادة. هناك حدٌّ لا يجوز تجاوزه دون عقاب لأنه إذا اجتيز أول مرة فإنه من المستحيل التراجع، عنه بعد ذلك.

فقاطعته دونيا بشيء من نفاد الصبر قائلة:

ـ إنني لم أحدثك عن هذا بالضبط. أرجو أن تفهم بأن سعادتنا المقبلة متعلقة على النقطة التالية: «هل ستسوى الأمور بعد إيضاحها أم لا؟» إنني أخطرك بصراحة منذ الآن بأنني لا أجد طريقة أخرى لإنهاء هذه القضية فإذا كنت تحبني ولو قليلاً وجب الانتهاء اليوم من هذه القضية مهما كان الثمن أكرر القول بأن أخي إذا كان مخطئاً فإنه سيعتذر.

أجاب لوجين وقد ازداد غضباً:

ـ يدهشني يا أفدوتيا رومانوفنا أن أسمعك تضعين السؤال بهذه العبارات. إنني أستطيع كما أرى أن لا أحب واحداً من أفراد أسرتك بالوقت الذي أكون فيه ميالاً إليك، أو بعبارة أصح أكون محباً لك حتى العبادة. إنني على الرغم من رغبتي في الحصول على سعادة الزواج منك لا أستطيع كذلك التغاضي عن اعتبارات لا يمكن الاستغناء عنها.

فقاطعته دونيا بصوت منفعل:

ـ آه! هدئ انفعالك يا بيير بيتروفيتش. أرجو أن تكون ذلك الرجل الذكي النبيل الذي تصورته في شخصك دائماً. لقد قطعت لك على نفسي عهداً كبيراً وإنني خطيبتك فثق بي في هذه المسألة وتأكد من أنني سأحاكم فيها دون أن أتحيز إلى جهة ما. إن إقامة نفسي حكماً بينكما لا يمكن أن يثير أية دهشة لدى أخي وكذلك لديك. إنني اليوم عندما دعوته إثر استلامي رسالتك، لم أخبره أبداً بنواياي. فأرجو أن تفهم أنكما إذا لم تتفقا فإن واجبي يقتضيني الانتقاء بينكما فإما أنت وإما هو. ذلك هو السؤال الذي وضعتماه كل من جانبه! إنني لا أريد ولا يجب أن أخدع في هذا الانتقاء إذ ينبغي لي أن أقطع صلاتي بأخي من أجلك أو أن أقطع صلاتي بك من أجله. لذلك فإنني أريد أن أعرف في هذه اللحظة ـ وسوف

أعرف ـ إذا كان روديا أخي حقيقة. أما أنت فالمسألة بالنسبة إليك هي: هل تحبني، هل تميل إلي، هل أنت زوج لي؟

قال لوجين بلهجة غاضبة:

ـ أفدوتيا رومانوفنا إن كلماتك تتيح لي مجالاً واسعاً للتفاسير والتأويل بل إنني أقول كذلك أنها كلمات مهينة نظراً للمركز الذي لي شرف احتلاله بالنسبة إليك. هذا إذا تغاضينا عما فيها على أشياء جارحة لي وغريبة إذ تضعينني على مستوى واحد مع... هذا الشاب الشديد الزهو. وإنه ليخيل إلي من حديثك أنك تتوقعين إمكانية فسخ الوعد الذي قطعتيه على نفسك لي. إنك تقولين: «إما أنت وإما هو» وبهذه الكلمة بالذات تظهرين لي تفاهة الشأن الذي تحتفظين به لي. إنني لا أستطيع تقبل ذلك نظراً لعلاقاتنا والواجبات القائمة بيننا.

صاحت دونيا وقد احمر وجهها من الغضب:

ـ كيف؟ إنني أضع مصلحتك في الميزان مقابل كل ما لي في الحياة من ثمن حتى الآن، كل ما تقوم عليه حياتي، ثم تشكو بعد ذلك من أنني أبخسك حقك؟

ابتسم راسكو لنيكوف ابتسامة مريرة بينما أخلد رازوميخين إلى الصمت.

أما بيير بيتروفيتش فقد تغاضى متعمداً عن هذا الجواب وغدا من حين إلى حين أكثر غضباً وانفعالاً وكأنه كان في صميم مستقره قال بلهجة حكيمة:

ـ إن حب رفيق الحياة المقبل، حب الزوج ينبغي أن ينتصر على الحب الأخوي. على كل حال لا أستطيع أن أتقبل الوقوف على خط واحد

معه. وعلى الرغم من أنني صرحت بوضوح منذ حين أنني لا أريد ولا أستطيع أن أفسر سبب زيارتي بحضور أخيك فإنني على استعداد للتحدث مع والدتك المبجلة لإعطائها كل التفاسير اللازمة حول نقطة جوهرية اعتبرتها أنا مهينة لي.

ثم أردف مخاطباً بولشيري ألكسندروفنا:

ـ إن ولدك أمس بحضرة السيد رازوميخين ـ أو... ذلك هو اسمك أليس كذلك؟ اعذرني إذا كنت نسيت اسمك (وأيد قوله بتحية ودية وجهها مع هذه الملاحظة إلى رازوميخين) ـ إن ابنك أهانني بتشويه فكرتي قياساً، تلك الفكرة التي أفضيت بها إليك من قبل خلال حديث ودي جرى لي معك، عندما كنت أتناول القهوة عندك؛ ذلك الحديث الذي قلت فيه: إن من رأيي بل إنه من الأفضل من وجهة الحياة الزوجية أن يتزوج المرء من فتاة فقيرة تذوقت التعاسة وآلام الوجود على أن يتزوج بواحدة تذوقت كل المباهج لأن الأخلاق لدى الفتاة الأولى تجد مجالاً أوسع للظهور. لقد بالغ ابنك عامداً في تشويه أقوالي حتى جعلها منافية للعقل بأن اتهمني بأسوأ النوايا معتمداً ـ على ما أظن ـ على مراسلتك الشخصية له وإنني أعتبر نفسي سعيداً إذا أمكنك يا بولشيري ألكسندروفنا، إقناعي بالعكس، لأنك بذلك تسببين لي راحة حقيقية. فأخبريني كيف نقلت عباراتي في رسالتك التي بعثت بها إلى روديون رومانوفيتش وأي عبارات استعملت فيها.

أجابت بولشيري ألكسندروفنا وقد فقدت هدوءها:

ـ لست أذكر تلك العبارات ولقد نقلتها إليه كما فهمتها ولا أعرف كيف كررها روديا أمامك لعله غالى بعض الشيء.

ـ ما كان ليستطيع المغالاة لو لم تنوهي بها إليه.

فقالت بولشيري ألكسندروفنا بلهجة رزينة:

ـ يا بيير بيتروفيتش. إن الدليل على أننا ـ دونيا وأنا ـ لم نحمل كلماتك على محمل سيّئ هو وجودنا هنا.

فقالت دونيا تؤيد أمها:

ـ حسناً جداً يا أماه.

قال لوجين منزعجاً:

ـ على هذا فأنا المخطئ.

أضافت بولشيري ألكسندروفنا وقد شعرت بمزيد من الشجاعة:

ـ ألا ترى يا بيير بيتروفيتش بأنك تتهم أبداً روديون مع أنك شخصياً منذ حين كتبت في رسالتك أشياء مغلوطة ضده.

ـ لا أذكر أنني كتبت أي شيء مغلوط عنه.

فقال روديا بلهجة مريرة، دون أن يلتفت إلى لوجين:

ـ لقد ذكرت أنني أعطيت النقود البارحة ليس لأرملة رجل مدهوس كما هو الواقع بل إلى ابنته التي لم أكن حتى ذلك الحين قد رأيتها أبداً! لقد كتبت ذلك مستهدفاً إثارة خصام بيني وبين أسرتي وأضفت ـ لتجعل التنافر أكثر إمكاناً ـ تلميحات بشعة كريهة جداً حول سمعة فتاة لا تعرفها. إن ذلك ليس إلا هجواً ونذالة.

فأجاب لوجين وهو يرتجف من الغضب:

ـ اعذرني يا سيدي. إنني إذا كنت قد تبسطت في رسالتي حول أعمالك وصفاتك فما ذلك إلا استجابة لرغبات أمك وأختك اللتين رجتاني

أن أطلعهما عن رأيي فيك وعن الشعور الذي تحدثه في نفسي. أما فيما يتعلق بالوقائع الواردة في رسالتي فحاول أن تجد فيها سطراً واحداً يحمل معنى بعيداً عن الحقيقة، أو على الأصح يكذب أنك بعثرت نقودك لدى تلك الأسرة التي ـ رغم الشقاء الذي حل بها ـ ليس فيها أشخاصاً يستحقون الاعتبار.

ـ أعتقد ـ رغم كل اعتبارك ـ أنك لا تساوي أصبع تلك الفتاة التعسة الصغيرة، تلك الفتاة التي تلقي إليها بالحجر.

ـ على ذلك فإنك لن تتردد في إدخالها في مجتمع أمك وأختك؟

ـ بل إنني فعلت ذلك إذا كنت تصر على معرفة الأمر. لقد أجلستها بجانب أمي ودونيا.

فهتفت بولشيري ألكسندروفنا.

ـ روديا..؟

واحمر وجه دونيا خجلاً أما رازوميخين فقد كان يلقي نظرات مروعة بينما ابتسم لوجين ابتسامة سامة محتقرة وقال:

ـ هل ترين يا أفدوتيا رومانوفنا إمكان وجود اتفاق بعد هذا؟ آمل أن تكون هذه القضية قد سويت الآن ووضحت نهائياً. إنني سأنسحب الآن كي لا أشوش مسرات اجتماعكم العائلي وتبادلكم الأسرار.

نهض من مكانه وأخذ قبعته وأضاف:

ـ لكنني قبل أن أبارحكما أسمح لنفسي بأن ألفت انتباهكما إلى أنني آمل مستقبلاً أن تجنباني هذا اللون من اللقاء إذا لم أقل من الإحراج. إنني أتقدم بهذا الطلب بصورة خاصة إليك يا بولشيري ألكسندروفنا

الشديدة الاحترام كما وألفت نظرك كذلك إلى أن رسالتي كانت موجهة إليك شخصياً وليس لأحد آخر.

شعرت بولشيري ألكسندروفنا بصدمة في عواطفها فقالت:

ـ هل تضعنا تحت رحمتك يا بيير بيتروفيتش؟ لقد أخبرتك دونيا عن السبب الذي من أجله تنفذ رغبتك، لم تكن لديها إلا نوايا حسنة. ثم إنك تكتب إلي وكأنك تصدر إلي الأوامر؛ فهل يعقل أن تعتبر كلاً من رغباتك بمثابة أمر؟ إنني أصرح لك بأن من الواجب عليك أن تظهر الآن رقيقاً ومتسامحاً كثيراً على عكس ما تبدو عليه، لأننا إذ وضعنا ثقتنا فيك تركنا كل شيء لنحضر إلى هنا. مع ذلك فإنك تجعلنا منذ الآن رهن مشيئتك!

قال لوجين بلهجة شرسة:

ـ إن ذلك ليس صحيحاً تماماً يا بولشيري ألكسندروفنا خصوصاً في هذه اللحظة بعد أن بلغتم بأن مارت بيتروفنا تركت لابنتك ثلاثة آلاف روبل. يخيل إلي أن هذا المال قد جاء في الوقت المناسب نظراً للهجة الجديدة التي تحدثينني به.

وأضافت دونيا بانفعال:

ـ إذا نظرنا إلى ملاحظتك هذه بعين الاعتبار نستطيع أن نفترض بأنك كنت تعول كثيراً على إذلالنا استناداً إلى حالتنا المادية.

ـ لكنني في الوقت الحاضر لا أستطيع ـ على الأقل ـ الاعتماد على ما تقولين خصوصاً وأنني لا أريد أن أريك العروض السرية التي كلف أركاد إيفانوفيتش سفيدر يكايلوف أخاك بإبلاغها إليك والتي ـ على ما أرى ـ لها بالنسبة إليك معنى جوهري بل ويمكن أن يكون معنى مرموقاً.

هتفت بولشيري ألكسندروفنا:

ـ آه يا رب!

بينما كان رازميخين لا يقر له قرار في مكانه.

سأل راسكو لنيكوف:

أولست تخجلين الآن يا أختي؟

فقالت دونيا مكفهرة الوجه من الغضب وهي تجيب على سؤال أخيها مخاطبة بيير بيتروفيتش:

ـ إنني خجلى. يا بيير بيتروفيتش اخرج!

كان بيير بيتروفيتش ـ على ما يبدو ـ لا ينتظر مثل هذه النهاية. كان شديد الاعتداد بنفسه وبقوته إزاء عجز ضحيتيه فلم يكن يصدق أذنيه في تلك اللحظة. لذلك فقد شحب لونه وتقلصت شفتاه:

ـ يا أفدوتيا رومانوفنا إذا كنت سأجتاز هذا الباب الآن بنتيجة هذه الكلمات الطيبة فاعلمي أنني لن أعود بعد ذلك أبداً. فكري جيداً في الأمر. إن ما وعدت به لا زلت أتمسك به.

فصاحت دونيا وهي تقفز من مكانها:

ـ يا للوقاحة! لكنني لا أريد أن تعود أبداً!

صاح لوجين ـ الذي لم يكن ولا شك يعتقد مثل هذه النتيجة حتى آخر لحظة ـ وقد فقد سيطرته على عواطفه:

ـ كيف! إذاً هكذا! إذاً هكذا! لكن أتعلمين يا أفدوتيا رومانوفنا أنني أستطيع الاحتجاج عليك؟

فتدخلت بولشيري ألكسندروفنا وقالت بلهجة محتدمة:

ـ بأي حق تحدثها بهذه اللّهجة؟ كيف يمكنك الاحتجاج؟ وبأية حقوق؟ هل سأعطي «دونياي» إلى رجل مثلك؟ هيا اخرج! دعنا إلى الأبد! لقد أخطأنا نحن إذ اندمجنا في قضية غير شريفة. كنت أنا أكثر خطأً من الآخرين.

فأجاب لوجين بلهجة غاضبة:

ـ مع ذلك يا بولشيري ألكسندروفنا أراك تسحبين الآن الكلمة التي أعطيتنيها إلي وأوثقتيني بها وكذلك... أخيراً دُفعت إلى بذل نفقات..

كان ذلك الادعاء متناسقاً تماماً مع عقلية بيير بيتروفيتش، حتى أن راسكو لنيكوف رغم شحوبه من الغضب الذي كان يعصف في نفسه، ورغم كل الجهود التي بذلها للسيطرة على أعصابه، لم يستطع إلا أن ينفجر بضحكة مجلجة. أما بولشيري ألكسندروفنا فقد كادت أن تخرج عن وقارها، فصاحت:

ـ نفقات؟ وما هي تلك النفقات؟ لعلك تتحدث عن الصندوق؟ لكن السائق نقله لنا مجاناً. رباه هكذا إذن نكون نحن الذين أوثقناه! يجدر بك أن تذكر يا بيير بيتروفيتش بأنك أنت الذي أوثقت أقدامنا وأذرعنا وليس نحن.

فتوسلت إليها أفدوتيا رومانوفنا:

ـ كفى. أماه! أرجوك يا بيير بيتروفيتش أن تتلطف بالخروج.

فأجاب وهو يتمالك نفسه قليلاً:

ـ إنني ذاهب، كلمة أخيرة: إن أمك ـ على ما يبدو ـ أنني قررت

الزواج منك في اللحظة التي كانت سمعتك فيها موضع التداول والشائعات العامة في كل المقاطعة. لقد قاومت من أجلك الرأي العام وقومت سمعتك لذلك فإنني أستطيع على الأقل أن آمل الحصول على تعويض بل وأن أصر على طلب مكافأة. أما الآن فقد أزيل الحجاب عن عيني. إنني أرى أنني تصرفت تصرفاً طائشاً إذ تصاممت عن سماع الشائعات العامة!

زمجر رازوميخين وهو يندفع من مكانه مطبقاً قبضتيه:

ـ إنه يريد أن نحطم له رأسه.

فقالت دونيا:

ـ إنك رجل دنيء وخبيث.

بينما هتف راسكو لنيكوف وهو يستوقف رازوميخين:

ـ ولا كلمة! ولا حركة!

ثم اقترب من لوجين وقال له بصوت مختنق لكنه واضح وقد أدنى وجهه من وجهه حتى كاد أن يلمسه:

ـ تفضل بالخروج دون أن تتفوه بكلمة أخرى وإلا...

فحدجه بيير بيتروفيتش لحظات بعينيه وهو شاحب الوجه متقلصه من الغضب ثم استدار على عقبه وخرج. وغني عن الذكر أن لوجين لم يشعر في حياته كلها بحقد عنيف كالذي شعر به حيال راسكو لنيكوف. لأنه هذا الأخير وحده الذي سبب إخفاقه! غير أنه من الجدير ملاحظته أنه لم يكن يعتقد وهو يهبط السلم أنه خسر قضيته نهائياً، كان يعتقد بأن كل شيء يمكن إصلاحه مع تلك السيدتين!

الفَصْلُ الثّالِثُ

لم يكن بيير بيتروفيتش حتى آخر لحظة منتظراً نهاية كالتي وقعت. تلك كانت النقطة الرئيسية: تعنت على هواه متأكداً من أن تينك المرأتين الفقيرتين المحرومتين من أية قوة لا يمكن لهما أن تتسربا من بين يديه. كان مما أورث ذلك الافتراض في رأسه، غروره وذلك النوع من الثقة الذي كان يعتبره قضية كرامة شخصية. لقد بدأ من لا شيء واعتاد الإعجاب بنفسه، لذلك فقد كان يؤمن إيماناً قوياً بذكائه ومعلوماته، حتى أنه كان أحياناً يذهب إلى المرآة ليتأمل وجهه فيها كلما وجد نفسه وحيداً! غير أنه كان يقدر كل التقدير ويعتبره فوق كل شيء؛ المال الذي جمعه بفضل عمله وبالوسائل الأخرى. كان ذلك المال يسمح له ـ على زعمه ـ أن يضع نفسه على قدم المساواة مع العناصر الأسمى منه.

تناسى بيير بيتروفيتش عندما كان يذكر دونيا بمرارة أنه قرر الزواج منها رغم الشائعات المزعجة التي كانت تلوك سمعتها، تناسى أنه لما عقد خطوبته عليها كان معتقداً تماماً بخطأ تلك الدسائس التي قامت مارت بيتروفنا نفسها تضحضها وتسكنها، وأنه منذ زمن بعيد كفت تلك الشائعات عن الرواج في المدينة الصغيرة حيث عادت سمعة دونيا إلى مستواها اللائق وعادت كرامتها إلى سابق عهدها من التقدير! تناسى كل ذلك رغم أنه كان شخصياً لا يستطيع الإنكار أنه ملم بهذه الدقائق

منذ بعيد. لذلك العقوق الأسود الذي جابهته به! كان يعتبر نفسه محسناً إذ قرر رفع دونيا إلى مستواه فراح يعتبر هذه البادرة منه لوناً من الإحسان لذلك فإنه لما ذهب لزيارة راسكو لنيكوف، دخل عليه وهو منتفخ بأحاسيس المحسن الكريم منتظراً أن يقتطف ثمار عمله الطيب، وأن يستمع إلى أشد عبارات المديح حرارة! لذلك كان وهو يهبط السلم يعتبر نفسه مغدوراً جداً، أسيء فهم قوله.

كانت دونيا بكل بساطة شيئاً ضرورياً، فكان التنازل عنها أمراً لا يتقبله عقله. كان قد استسلم إلى أحلامه وسكر بها؛ وكان ينشد في سره: «فتاة شابة ذات أخلاق عالية فقيرة ـ وينبغي حتماً أن تكون فقيرة ـ جميلة جداً، فتية جداً، من عائلة طيبة، حسنة الثقافة، شديدة الخجل، تعرضت لكثير من الشقاء وعنت الزمن، ستكون له متفانية كل التفاني، وستمضي كل العمر هي تباركه وتعتبره محسناً كبيراً! ستكون خاضعة له وستذوب إعجاباً أمام شخصه ولن تكون لأحد سواه». كم من مشاهد وأفكار عذبة مسكرة كانت تتمثل في خياله وهو يهدهد في سره ذلك الحلم الجذاب المرح كلما تحرر من وطأة العمل! كان ذلك الحلم الذي كان ينتظر تحقيقه طيلة سنين على وشك التنفيذ! لقد أذهله جمال أفدوتيا رومانوفنا وثقافتها وشوّقه فقرها الزائد الذي كان يخيم عليها تشويقاً متناهياً حتى أنه وجد فيها أكثر من الحلم الذي كان يأمل فيه: كانت الفتاة تبدو فخورة نشيطة طاهرة، تفوقه ثقافة وتهذيباً (وكان يشعر بذلك).

كانت تلك المخلوقة ستحتفظ له طيلة حياتها باعتراف أقرب إلى الاسترقاق لأنه تنازل وحررها من فقرها، فهي إذاً كانت ستجثو أمامه على أربع لتسره! لم يكن عليه إلا أن يأمر ليطاع. كان قد قرر في ذلك اليوم بالذات أن يبدل اتجاه حياته ليدخل في دائرة نشاط أوسع، ولكن يتقدم

بخطى وئيدة في طريقه إلى المجتمع الراقي الذي كان يحلم بالدخول فيه، لذلك فقر قراره أن يجرب حظه في بطرسبورغ. كان يعرف أنه يستطيع هنا أن يربح كل شيء بواسطة النساء. لأن الجمال الذي يشرق على وجه سيدة جميلة طاهرة ومثقفة يجمّل وجوده ويجذب إليه الانتباه، بل ويصنع له الهالة! وفجأة... ها إن كل شيء ينهار. أحدث ذلك الانقطاع المفاجئ العنيف في نفسه تأثيراً صاعقاً! كان كخرافة كريهة غير معقولة. إنه لم يظهر إلا ذرة صغيرة من التجبر بل إنه لم يجد الوقت الكافي للتعبير عن رأيه! لقد كان يمزح بكل بساطة: فانساق قليلاً مع أفكاره، وها إن النتيجة قد أصبحت خطيرة جداً. ثم إنه كان يحب دونياه على طريقته وكان يشعر بأنها ملك له في أحلامه وإذا...

كلا! غداً، نعم غداً ينبغي إعادة الوضع إلى ما كان عليه سابقاً، فينبغي رتق ما تصدع، وكذلك ينبغي حتماً سحق ذلك السفيه الغرير الذي كان سبب كل هذا. شعر رغماً عنه بلون من الانزعاج حينما تذكر رازوميخين. غير أنه طمأن نفسه بسرعة وهو يقول: «لم يبق إلا هذا! أن يوضع هذا في مصافي أنالوجين»! أما الوحيد الذي كان يخشاه ويحسب له حساباً حقيقياً فكان سفيدريكايلوف والخلاصة أنه كان يتوقع كثيراً من المزعجات...

قالت دونيا وهي تعانق أمها:

ـ كلا يا أماه إنني أنا، أنا التي أخطأت. لقد كنت أريده من أجل ماله. لكنني أقسم لك يا أخي بأنني لم أكن أتوقع أن أراه رجلاً على هذه الشناعة، ثق أنني لو عرفته على حقيقته من قبل لما سمحت للإغراء أن يحل في نفسي. لا تتهمني يا أخي!

غمغمت بولشيري ألكسندروفنا بلهجة لاشعورية وكأنها لم تتفهم بعدُ تماماً كل ما وقع وحدث:

ـ لقد وقانا الله.

كانوا جميعاً مسرورين متفائلين حتى أنهم لم ينفكوا عن الضحك خلال الخمس دقائق الأولى. غير أن دونيا كانت في بعض الأحيان تشحب أو يكفهر وجهها عندما تذكر المشهد الذي وقع. أما بولشيري ألكسندروفنا فإنها لم تكن تتصور أبداً أنها ستسر بوقوع حادث كهذا وهي التي كانت صباح ذلك اليوم تعتبر قطع العلاقات مع لوجين مصيبة كبيرة تحل بهما! وكان رازوميخين محلقاً في السماء، لم يكن يجرؤ بعد على التعبير عن سروره، لكنه كان يرتجف بشدة كالمحموم ويشعر كأن حملاً ثقيلاً هائلاً قد أزيح عن كاهله. لقد أصبح له الحق الآن في أن يكرس لهما كل حياته وأن يخدمهما.. الآن، وإن شاء لا يعمله الآن؟ كان يطرد بعيداً عنه كل الأفكار المتعلقة بالمستقبل، خشية أي يستسلم إلى الخيال. كان راسكو لنيكوف وحده جالساً في مكانه الأول يبدو على وجهه لون من العبوس والشرود كان يبدو ـ وهو الذي ألح كل الإلحاح في إبعاد لوجين ـ أقل اهتماماً بالحادث من الباقين جميعاً. تصورت دونيا رغم إرادتها أنه لا زال حانقاً عليها، بينما كانت بولشيري ألكسندروفنا تتأمله بشيء من القلق.

قالت دونيا وهي تقترب منه:

ـ ماذا قال لك سفيدريكايلوف؟

وهتفت بولشيري ألكسندروفنا:

ـ آه!... نعم! نعم!

فرفع راسكو لنيكوف رأسه وأجاب:

ـ إنه يريد قطعاً أن يقدم لك عشرة آلاف روبل كهدية! ثم إنه يبدي رغبته في لقياك مرة أخيرة في حضرتي.

هتفت بولشيري ألكسندروفنا:

- أن تراه! أبد العمر! ثم كيف يجرؤ على عرض المال عليها؟

فراح راسكو لنيكوف يتحدث بلهجة جافية سارداً على مسامعهم الحديث الذي دار بينه وبين سفيدريكايلوف، بعد أن حذف منه ظهور شبح مارت بيتروفنا المتكرر، كي لا يخرج بهم عن الموضوع، ولرغبته الأكيدة في الابتعاد عن أي حوار يتعدى الضروري جداً.

- بماذا أجبته؟

- لقد صرحت له أولاً بأنني لن أنقل لك كلمة واحدة من ذلك الحديث وعندئذ أبلغني أنه سيعمل ما في جهده وعلى طريقته ليحصل على موعد منك. إنه يزعم بأن الرغبة التي كان يغذيها حيالك لم تكن إلا هذراً وأنه في الوقت الحاضر لا يحس نحوك بأية عاطفة... إنه لا يريد أن تتزوجي من لوجين. غير أنه كان يتحدث بلهجة غامضة.

- ما هو الرأي الذي كونته عن هذا الرجل يا روديا؟ كيف وجدته؟

- أعترف لك بأن كل هذا لا يبدو لي واضحاً تماماً. إنه يهب عشرة آلاف روبل ثم يدعي بأنه ليس غنياً؛ وهو يصرح بأنه سيذهب في سفر ويعود بعد عشر دقائق فينسى ما قال. إنه يعلن فجأة أنه سيتزوج وإنهم وجدوا له الزوجة المنشودة... إنه ولا شك يغذي أفكاراً معينة أظنها سيئة. مع ذلك لا يمكن الاعتقاد بأنه لم يكن يتصرف بمثل تلك الحماقة كان يغذي بالفعل أفكاراً رديئة في رأسه!... أما كيف تتصرفين فإنني قد رفضت باسمك نهائياً كل العروض المتعلقة بالمال. لقد بدا لي على العموم غريباً نوعاً... بل وإنني لاحظت عليه بعض دلائل الجنون. لكنني قد أكون مخطئاً إذ إن ذلك يمكن أن يكون مجرد خدعة. يبدو أن موت مارت بيتروفنا أحزنه.

صاحت بولشيري ألكسندروفنا:

ـ ليمنح الرب روحها الراحة. إنني لن أنقطع مطلقاً أبداً عن الصلاة من أجلها! ماذا كان يحدث لنا يا دونيا لولا هذه الثلاثة آلاف روبلاً. حقيقة أنها سقطت من السماء! آه! فكر يا روديا أننا هذا الصباح لم نجد معنا إلا ثلاثة روبلات هي كل ثروتنا. لقد فكرنا ـ دونيا وأنا ـ أن نرهن بأقرب وقت ساعاتنا كي لا نطلب شيئاً من لوجين الذي كان لا يدرك موقفنا.

كان عرض سفيدريكايلوف بالنسبة إلى دونيا أمراً غير منتظر لذلك فقد راحت تفكر وفجأة تمتمت بشبه قشعريرة:

ـ لقد بيت الرجل أمراً مريعاً.

لم تفت على عيني راسكو لنيكوف تلك البادرة من الخوف المتزايد لذلك قال:

ـ أعتقد أنني سأجد أكثر من مناسبة واحدة لرؤيته من جديد.

هتف رازوميخين بلهجة نشيطة:

ـ لسوف نعثر على آثاره، سوف أتعقبه ولن أدعه. يغيب عن ناظري! لقد سمح لي روديا بذلك. لقد قال لي منذ حين بنفسه: «أسهر على أختي» وأنت يا أفدوتيا رومانوفنا هل تسمحين لي بذلك؟.

ابتسمت دونيا ومدت له يدها غير أن تقاطع وجهها لبثت تحمل طابع القلق أما بولشيري ألكسندروفنا فقد كانت تنظر إليها بحياء إذ يبدو أنه تصور تلك الثروة ـ ثلاثة آلاف روبل ـ جعلتها متحفظة.

لم يمض ربع ساعة حتى كانوا جميعاً يتحدثون بحماس وكان راسكو لنيكوف بنفسه رغم احتفاظه بالسكوت يصغي إلى الحديث باهتمام. أما رازوميخين فقد «اعتلى منصة الخطابة».. كان يقول بحماس ملتهب:

ـ ولماذا، لماذا تذهبان؟ ماذا ستعملان في عزلتكما بإقليمكما؟ إنكما هنا ستبقيان مع روديا، وإنكم جميعاً ضرورة ملحة لبعضكم البعض، وأية ضرورة ألا تفهماني؟ على الأقل امكثا أيضاً بعض الوقت... واعتبراني كصديق، كشريك، إنني أؤكد لكما بأننا سنؤلف مشروعاً ممتازاً معاً! إصغوا إلي سأشرح لكم مشروعي بالتفصيل: لقد خطر لي هذا الصباح قبل أن يحدث شيء مما حدث... إليكم فحواه: إن لي عماً ـ ولسوف أعرفكما به فهو كهل طيب محترم جداً ـ وهذا العم يملك ألف روبل ويتقاضى إلى جانبها جراية تكفيه وتدفع عنه الحاجة. ومنذ عامين ألح علي بأن أقبل ماله ذاك على أن أدفع له فائدة قدرها ستة بالمائة. بالطبع إن اللعبة ظاهرة، لأنه يريدها ـ بكل طيبة خاطر مساعدتي بلباقة. غير أنني لم أكن في حاجة إلى هذا المبلغ في العام الماضي. أما هذا العام فإنني كنت أنتظر مجيئه بفارغ الصبر لأتقبل العرض فإذا أضفت ألف روبل إلى الثلاثة آلاف روبل التي ستقبضينها، فإننا بذلك نكون قد أوجدنا ما يلزم للشروع في شركة. أما ماذا سنعمل؟

وهنا راح رازوميخين يشرح تفاصيل مشروعه فسرد بإسهاب أوضاع كل أصحاب المكاتب والناشرين وأكد أنهم لا يحسنون مهمتهم وأن الناشرين هم عادة من أسوأ الناس بينما تكون المنشورات الجيدة، المعنى بها، رائجة تماماً ومدرة للمال... ذكر أنه خلال عامين استغل لحساب الآخرين فكان أبداً يحلم في أن يصبح هو نفسه ناشراً، وصرح بأنه يعرف ثلاث لغات أجنبية كما يجب (رغم ما ادعاه منذ ستة أيام حينما قال راسكو لنيكوف إنه لا يحسن الألمانية لأن ذلك القول كان بغية إقناعه بقبول نصف الترجمة والسلفة التي قدرها ثلاثة روبلات، لقد كذب آنذاك غير أن راسكو لنيكوف لم يؤخذ بتلك الكذبة). وأضاف أخيراً بحماسة المعهود:

ـ لماذا؟ نعم لماذا ندع عملية جيدة كهذه تفلت من أيدينا عندما تكون لدينا أفضل الإمكانيات لإنجاحها وأقصد رأس المال الذي يخصنا بكليته؟ لا شك أن ذلك سيفرض علينا كثيراً من العمل لكننا سوف نعمل: يا أفدوتيا رومانوفنا وروديون وأنا! إن بعض النشرات تدر حالياً أرباحاً طائلة. إن ما يشجعنا ويدعمنا في مشروعنا هذا هو أننا نعرف على الأقل ماذا ينبغي أن نترجم لسوف نترجم وننشر ونتابع مع ذلك دراستنا. إنني أستطيع الآن أن أكون نافعاً بعد الخبرة التي حصلت عليها... لقد مضى علي عامان وأنا محشور بين أصحاب المكاتب حتى أصبحت أعرفهم كل المعرفة؛ فليس في عملهم شيء من السحر صدقوني! ثم لماذا تدع الفرصة تفلت منا؟ إنني شخصياً أعرف ـ وأحتفظ بذلك لنفسي في الوقت الحاضر ـ كتابين أو ثلاثة، تدر عليّ مجرد فكرة ترجمتها مائة روبل عن كل منها. بينما هناك مؤلفات أخرى لن أطلع عليها أحداً ليترجمها الإلقاء خمسمائة روبل مع ذلك فإنني واثق من أنهم سوف يترددون قليلاً إذا أطلعتهم عليها لأنهم عصبة من الحمقى! أما فيما يتعلق بالناحية المادية من حفر وورق وبيع فإنكما تستطيعان الاعتماد علي فيها لأنني ملم بأدق دقائق الموضوع! صحيح أننا سنبدأ بشكل محدود، غير أننا سوف نتوسع في عملنا أكثر فأكثر، ولسوف نكسب قوتنا على الأقل ونربط بين طرفي الموارد والنفقات.

كانت عينا دونيا تلمعان سروراً فقالت:

ـ إن ما تقوله هنا يا دميتري بروكوفيتش يعجبني كثيراً.

وقالت بولشيري ألكسندروفنا.

ـ أنا بالطبع لا أفقه شيئاً من هذا: يجوز أن يكون ذلك ممتازاً. الله أعلم! إن الإنسان لا يدري أبداً أن نتيجة عمل يبدؤه. غير أننا ولا شك سوف نضطر إلى البقاء هنا بعض الوقت على الأقل...

وراحت تنظر إلى روديا بينما سألت دونيا:

ـ ما رأيك في ذلك يا أخي؟

فأجاب:

ـ أعتقد أن فكرته ممتازة. أما فيما يتعلق بإقامة دار كبيرة للنشر فأظن أن الوقت ولا شك لا يسمح حالياً بالتفكير فيها. غير أن نشر خمسة أو ستة مؤلفات مضمونة النجاح ممكن تماماً. إنني شخصياً أعرف كتاباً سيلقى رواجاً كبيراً حتماً. أما عن رازوميخين وهل يستطيع حقيقة أن يقود الأمر، فاطمئني تماماً وابعدي عن نفسك كل شيء على أننا لن نعدم وقتاً مقبلاً نعاود البحث فيه حول هذا الموضوع.

هتف رازوميخين:

ـ مرحى! والآن انتظروا: هناك مسكن في هذا البناء بالذات عائد لأصحاب هذا المسكن الذي نحن فيه، إنه مؤلف من شقة مستقلة الحجرات، فيها ثلاث غرف مؤثثة أجرتها معتدلة. تستطيعون احتلاله في الوقت الحاضر، وسأذهب غداً لأرهن ساعتك وآتيك بالمال ثم يترتب الأمر. المهم هو أن تستطيعوا العيش كلكم معاً وسيكون روديا معكما... لكن إلى أين تذهب يا روديا؟

سألت بولشيري ألكسندروفنا وقد استحوذ عليها الخوف:

ـ كيف؟ روديا! أتذهب؟

وهتف رازوميخين:

ـ في مثل هذا الوقت؟

ونظرت دونيا إلى أخيها بدهشة ممزوجة بالحذر. كان قد أخذ قبعته بيده واستعد للخروج فغمغم بلهجة غريبة:

ـ إنكم تبدون وكأنكم ستدفنونني أو كأننا نقول الوداع للمرة الأخيرة.

ثم ابتسم ابتسامة غامضة وأضاف فجأة:

ـ مع ذلك من يدري! لعل هذه هي المرة الأخيرة التي نلتقي فيها:

كان يريد أن يهمس بهذه الجملة الأخيرة لنفسه لكنها أفلتت دون إرادة منه وقيلت بصوت مرتفع.

صاحت الأم:

ـ لكن ماذا بك؟

وقالت دونيا بلهجة خاصة:

ـ أين تمضي يا روديا؟

فأجاب ساهماً وكأنه يتردد في نطق ما يريد قوله:

ـ يجب أن أذهب.

كان وجهه الشاحب يعبر عن عزم أكيد مقرر. قال:

ـ أردت أقول لكم... عندما جئت إلى هنا... أردت أقول يا أماه... ولك أنت أيضاً يا دونيا أن من الخير لنا أن نفترق بعض الوقت إنني أشعر بأنني لست على ما يرام، لست مرتاحاً.. لسوف أحضر في المستقبل عندما... يكون ذلك ممكناً... إنني أحفظ ذكراكما وأحبكما... دعوني!.. دعوني وحيداً إنه قرار اتخذته من قبل... نعم لقد قررت ذلك... ومهما حدث لي وسواء أمت أم لم أمت فإنني أريد أن أكون وحيداً... انسياني تماماً. إن ذلك أجدى. لا تستقصيا أبنائي... لسوف أحضر بنفسي عندما ينبغي أن أحضر أو... سوف أستدعيكما... لعل كل شيء يتضح أخيراً!.. والآن إذا كنتما تحبانني فاعزفا عن رؤيتي.. وإلا فلسوف أمقتكما... إنني أشعر بذلك... الوداع!...

صرخت بولشيري ألكسندروفنا:

- رباه!...

كانت الأم والأخت فريسة رعب فجائي لا يوصف وكذلك كان رازوميخين:

صرخت الأم البائسة:

- روديا... روديا. عد إلينا يا بني، لنتفق معاً يا روديا ولنعد كما كنا في الماضي.

لكنه مضى ببطء متجهاً نحو الباب وخرج من الغرفة فتبعته دونيا وغمغمت وقد التهبت نظراتها:

- أخي؟ ماذا تعمل بأمنا؟

فتأملها طويلاً وتمتم بصوت خافت وكأنه لا يدرك أقواله تماماً:

- لا أهمية لذلك، لسوف أعود..

ثم خرج من الغرفة. صرخت دونيا:

- يا عديم القلب! أيها الأناني المتوحش!

بينما همس رازوميخين في أذن الفتاة وهو يضغط على يدها بشدة:

- إنه مجنون وليس أنانياً. لقد أضاع عقله! ألا تريه ذلك؟ إنك أنت عديمة الإحساس في هذا.

ثم أضاف محدثاً بولشيري ألكسندروفنا التي كانت أقرب إلى الأموات منها إلى الأحياء:

- سأعود على الفور.

واندفع خارج الغرفة.

كان راسكو لنيكوف ينتظره في نهاية الممشى فقال له:

ـ كنت أعرف أنك ستتبعني. اذهب إليهما وابق معهما. كن قريباً منهما غداً وإلى الأبد. لسوف أعود غداً، إذا أمكن. الوداع.

وابتعد راسكو لنيكوف دون أن يمد له يده مصافحاً بينما زمجر رازوميخين وهو لا يدري ماذا يعمل:

ـ لكن أين تذهب؟ ماذا بك؟ ماذا جرى لك؟ كيف يمكن أن تتصرف على هذا النحو؟

توقف راسكو لنيكوف مرة أخرى:

ـ أقول لك للمرة الأخيرة: لا تسألني عن أي شيء. ليس لدي ما أجيبك به... لا تأتِ إلى منزلي. لعلني أعود إلى هنا... دعني أنا. أما هما فلا تهجرهما. أبداً. هل فهمتني؟

كان الممشى مظلماً قليلاً وكانا يقفان قرب مصباح، فراحا يتبادلان النظر خلال دقيقة وهما صامتان! لسوف يذكر رازوميخين تلك الدقيقة كل حياته. كانت نظرة راسكو لنيكوف الثابتة الملتهبة تبدو من حين إلى آخر أشد وميضاً تتغلغل حتى تصل إلى أعماق نفسه. وفجأة اقشعر رازوميخين. لقد حدث بينهما أمر غريب إذ تسللت فكرة وراحت تتجلى..: فكرة مريعة مخيفة شعر بها كلاهما فشحب وجه رازوميخين حتى حاكى وجوه الأموات، بينما تقلص وجه راسكو لنيكوف وبان عليه الألم وهو يقول فجأة:

ـ هل فهمت الآن؟ عد، ابق بالقرب منهما!

واستدار على عقبه بحركة عنيفة وانصرف.

لن أصف الوقائع التي حدثت ذلك المساء عند بولشيري

ألكسندروفنا حينما عاد رازوميخين إلى السيدتين، ولا كيف كان يطمئنهما مؤكداً لهما أن روديا كان مريضاً، وأنه كان بحاجة إلى الراحة! كان يقسم لهما أن روديا لن يتأخر عن الحضور لرؤيتهما، أنه سيحضر كل يوم، وأنه كان في تلك اللحظة في حالة عصبية عنيفة، وأنه لا ينبغي مشاكسته! قال لهما بأنه هو، رازوميخين، سوف يسهر على روديون، وسيأتي له بطبيب ممتاز ماهر. أحسن طبيب، بل جمعية أطباء إذا اقتضى الأمر... وبكلمة واحدة فقد غدا رازوميخين بالنسبة إليهما منذ ذلك المساء ابناً وأخاً...

من اليسار الى اليمين: لوجين، الخطيب، دنيا الأخت، راسكولنيكوف
رازوميخين، بولشيريا ألكسندروفنا، الأم

الفَصْلُ الرابعُ

مضى راسكو لنيكوف لتوه نحو القنال حيث تقطن سونيا. كان البناء الذي تقطن فيه مؤلفاً من ثلاث طبقات مدهونة بدهان أخضر. توصل إلى اكتشاف مكان البواب فحصل منه على إرشادات غير دقيقة حول المسكن الذي يقيم فيه الخياط «كابيرناؤوموف»، وعثر في زاوية من الباحة على مدخل يؤدي إلى سلم ضيق معتم فارتقاه إلى الطابق الثاني، وهناك سار في الممشى الذي يمتد على طول واجهة البناء المطلة على الباحة. وبينما كان تائهاً في الظلام يتساءل بانفعال عن المدخل الذي يمكن أن يؤدي إلى حيث يقطن كابيرناؤوموف، فُتح باب فجأة على بعد خطوتين منه فتعلق به بحركة لا إرادية. سمع صوتاً نسائياً يهتف بصوت مرتعد:

ـ من هناك؟

فأجاب راسكو لنيكوف:

ـ هو أنا! لقد جئت لرؤيتك!

دخل إلى ردهة صغيرة ضيقة فرأى على مقعد بالٍ «شمعداناً» مصنوعاً من النحاس أثبتت فيه شمعة مضاءة.

هتفت سونيا بصوت خافت وقد تسمرت في مكانها:

ـ هذا أنت؟ رباه!

ـ أين غرفتك؟ أهي هنا؟

ودخل مسرعاً إلى الغرفة وهو يجهد ألا يلقي نظرة على الفتاة.

دخلت سونيا بعد دقيقة حاملة «الشمعدان» فوضعته في مكانه المعد له ووقفت أمامه مضطربة فريسة انفعال خفي، وقد روعتها هذه الزيارة غير المنتظرة. وفجأة، اكتسحت وجهها الشاحب حمرة شديدة وتلألأت الدموع في عينيها... كادت أن تختنق من الانفعال وهي تشعر بإحساس من الخجل الممزوج بلون من العذوبة.

استدار راسكو لنيكوف فجأة وجلس على كرسي قريب من المنضدة. استطاع بنظرة واحدة أن يشمل محتويات الغرفة كلها:

كانت غرفة واسعة ولكنها شديدة انخفاض السقف، وهي الوحيدة التي كان آل كابيرناؤوف يستطيعون تأجيرها. كان هناك باب مغلق في الجدار الأيسر يؤدي إلى حيث يقطنون، وإلى الجانب المقابل له ـ في الجدار الأيمن ـ كان باب آخر مغلقاً بشكل نهائي. كان يبدو أن وراءه مسكناً آخر يحمل رقماً آخر. كانت غرفة سونيا تشبه «غرفة المهملات»، على شكل مستطيل غير متناسق يجعلها تبدو أكثر بشاعة؛ وكان الجدار المطل على القناة والذي فتحت فيه نوافذ، يقطع الغرفة بانحناء الأمر الذي جعل أحد زاوياها الحادة جداً تغيب في العمق حتى أن ضوء الشمعة ما كان ليستطيع أن يكشف الظلام المخيم عليها. أما الزاوية المقابلة فكانت على العكس شديدة الانفراج. لم يكن في تلك الغرفة الكبيرة شيء يذكر من الأثاث، فقد كان السرير قائماً في ركن إلى اليمين وبالقرب منه ـ إلى جانب المنضدة ـ مقعد واحد، وفي الجهة الثانية لمكان السرير ـ قرب الباب المغلق المؤدي إلى المسكن المجاور ـ قامت منضدة من الخشب

الأبيض تغطيها قطعة صغيرة من القماش الأزرق، وأمام تلك المنضدة كان هناك مقعدان من القش! كان هناك كذلك ـ بالقرب من الزاوية الحادة ـ دولاب صغير غير مطلي يبدو ضائعاً في ذلك الفراغ. هذا هو كل الأثاث الذي كان موجوداً في تلك الغرفة. كانت الجدران مغطاة بورق أصفر ممزق حائل اللون ومسود من كل الجهات، والفاقة تفقأ العيون في ذلك المسكن حتى أن السرير كان بغير أغطية.

راحت سونيا تتأمل ضيفها ـ الذي كان ينظر بإمعان إلى الغرفة دون أي ارتباك ـ بسكون. ثم لم تتمالك أن شعرت برعدة خوف تسري في أوصالها وكأنها كانت أمام قاض يتوقف مصيرها على ما سيتلفظ به!

قال راسكو لنيكوف دون أن يرفع إليها بصره:

ـ إنني متأخر في هذه الزيارة... إن الساعة قد بلغت الحادية عشرة على الأقل!

فغمغمت سونيا بلهفة مفاجئة وكأنها وجدت لنفسها مخرجاً:

ـ نعم. آه! نعم إن الساعة هي الحادية عشرة. لقد سمعتها تدق منذ حين لدى أصحاب المسكن ولقد سمعت دقاتها... إن الساعة هي الحادية عشرة!

تابع راسكو لنيكوف قوله بلهجة كئيبة:

ـ لقد جئت لأراك للمرة الأخيرة رغم أن هذه هي أولى زياراتي إذ لعلني لن أراك بعد الآن...

ـ هل... سترحل؟

ـ لست أدري، لسوف يتقرر ذلك غداً.

سألت سونيا بصوت مرتعد:

ـ إنك إذن لن تذهب غداً عند كاترين إيفانوفنا!

ـ لست أدري! إن الأمر موكول بمشيئة صباح الغد... لكنني لم أحضر من أجل هذا. لقد جئت لأقول لك كلمة...

رفع إليها نظرة حالمة فلاحظ فجأة أنه جالس بينما لا زالت هي واقفة أمامه. هتف بصوت تغيرت رنته فغدا فجأة وديعاً حانياً:

ـ لماذا تلبثين واقفة؟ اجلسي!

فجلست وراح ينظر إليها برفق وحنان طيلة دقيقة كاملة.

ـ كم أنت هزيلة! أريني يدك! إنها شفافة! إن أصابعك تشبه أصابع الموتى!

وأخذ يدها بين يديه فابتسمت سونيا ابتسامة ضعيفة وقالت:

ـ لقد كنت كذلك أبداً.

ـ حتى عندما كنت تعيشين في منزلك؟

ـ نعم...

ـ فقال بصوت متهدج وقد تبدلت تقاسيم وجهه فجأة واختلفت رنة صوته:

ـ طبعاً... لا شك في ذلك!

وألقى حوله نظرة أخرى وسأل:

ـ أهم كابيرناؤوموف الذين أجروك هذه الغرفة؟

ـ نعم!

ـ أيقطنون هنا وراء هذا الباب؟

ـ نعم. إن لديهم غرفة كهذه!

ـ غرفة واحدة لهم جميعاً؟

ـ نعم غرفة واحدة.

فقال بلهجة مكتئبة:

ـ لعمري إن غرفتك تخيفني ليلاً لو كنت فيها.

فأجابت سونيا وقد بدا عليها أنها لم تتمالك بعد أعصابها:

ـ إن أصحاب الغرف كثيرو اللطف شديدو الرقة. إن كل قطع الأثاث التي في هذه الغرفة عائدة إليهم. إنهم طيبو القلب وأبناؤهم لا يكفون عن زيارتي!

ـ أهم تمتامون؟

ـ نعم إنه أعرج وألكن. وزوجته كذلك. إنها ليست لكناء فحسب بل إن الكلمات لا تريد الخروج من فمها. وهي طيبة جداً. أما هو فقد كان مملوكاً سابقاً، وله سبعة أولاد أكبرهم ألكن كذلك. أما الآخرون فهم ضعفاء البنية فقط... لكنهم لا يجدون صعوبة في النطق!

وصمتت برهة ثم أردفت:

ـ لكن كيف عرفت أنت كل هذا؟

ـ لقد حدثني أبوك عن ذلك من قبل... لقد أطلعني على قصتك كلها، وأنك خرجت في الساعة السادسة، وعدت بعد الثامنة، وأن كاترين إيفانوفنا ركعت بالقرب من سريرك.

فارتعدت سونيا وغمغمت مترددة:

ـ لقد رأيته بوضوح اليوم!

ـ من هذا؟

ـ أبي! كنت أسير في الشارع غير بعيد عن هنا، بالقرب من المنعطف، وكانت الساعة بين التاسعة والعاشرة. خيل إلي أنه كان يمشي أمامي. كان لا يمكن أن يكون غيره! لقد أردت عندئذ أن أذهب عند كاترين إيفانوفنا...

ـ كنت تتنزهين؟

أطرقت سونيا برأسها إلى الأرض وأجابت بصوت متقطع وقد عاد الاضطراب إليها:

ـ نعم!

ـ لقد كانت كاترين إيفانوفنا تضطهدك عندما كنت عند أبيك وكانت لا تتورع عن ضربك لو تسنّى لها...

هتفت وهي تنظر إليه نظرة فيها شيء من الرعب:

ـ أوه! كلا! ماذا تقول؟ كلا!

ـ إذن إنك تحبينها؟

ضمت يديها إلى صدرها بابتهال وأجابت بلهجة متخاذلة موجعة وقد بدت على قسماتها آيات الألم:

ـ هي؟ نعم... وكيف! آه! ليتك كنت.. لو أنك فقط كنت تعرفها! لاحظ، إنها كالطفل تماماً... أن لها عقلاً مضطرباً تماماً... من شدة الحزن. لكنها ذكية جداً... كريمة... طيبة جداً! إنك لا تعرفها كذلك! إنه لا يمكنك أن تعرفها.. آه!

كانت سونيا تتلفظ بتلك الكلمات بلون من اليأس، والألم يهزها

بعنف فكانت تلوي يديها وتضغط على أصابعها، وعاد الاحمرار إلى خديها الشاحبين فكان العذاب يقرأ بوضوح في عينيها! لا شك أن راسكو لنيكوف كان قد مس وتراً شديد الحساسية في نفسها. كانت تتحرق شوقاً للإعراب عن وجهة نظرها، للحديث، للدفاع عن كاترين إيفانوفنا. كانت تقاطيع وجهها تعكس حناناً نهماً إذا جاز هذا التعبير.

ـ تضربني؟ لكن ماذا تقول؟ رباه! هي! تضربني! حتى ولو ضربتني ماذا في الأمر؟ إنك لا تعرف شيئاً، أبداً... إنها شديدة التعاسة، آه! شديدة التعاسة، ومريضة! إنها تبحث عن العدالة... إنها نقية طاهرة... إنها تؤمن بشدة بأن العدالة ينبغي أن تكون موجودة في كل شيء... إنها تفرض وجودها فرضاً... لك أن تعذبها ما شئت فإنها لن تعمل شيئاً بعيداً عن روح العدل! إنها لا تعتقد بأن من المستحيل أن تشمل العدالة كل العالم، بل إنها تثور إذا قيل لها ذلك.. كالطفل تماماً! تماماً كالطفل! إنها عادلة! عادلة!

ـ وماذا سيحصل لك؟

راحت سونيا تتفحصه بنظرها.

ـ لقد أصبحوا جميعهم عالة عليك! صحيح أنهم من قبل كانوا كذلك، وأن المرحوم كان يأتي إليك مطالباً نقود ليثمل بها. لكن الآن ماذا سيحدث لك؟

فأجابت سونيا بكآبة:

ـ لست أدري!

ـ هل سيلبثون هناك؟

ـ لست أدري، إنهم مدينون بأجر مسكنهم. يبدو أن صاحبة المسكن

قالت لهم اليوم بأنها تريد طردهم وعندئذ قالت لها كاترين إيفانوفنا بأنها لن تبقى دقيقة واحدة بعد ذلك..

ـ وكيف يتسنى لها أن تتحدث بمثل هذا التعاظم؟ أهي تعتمد عليك؟

هتفت سونيا وقد عادت مجدداً ترتعد وتنفعل كشحرور مسكين أو أي عصفور صغير آخر:

ـ آه! كلا. لا تقل هذا! إننا لسنا إلا روحاً في جسدين.

ثم راحت تسأل بحماس متزايد متقد:

ـ لكن كيف يمكن أن تكون؟ كيف... كيف يمكن أن تكون؟ آه... كم... كم بكيت اليوم! إن عقلها مضطرب.. ألم تلاحظ ذلك؟ مضطرب: إنها تكتئب حيناً! ـ كالفتاة الصغيرة ـ خشية أن يحدث في الغد ما يزعج، أو أن لا يكون على المائدة كل متطلباتها... وتلوي يديها وتبصق دماً وتبكي وتضرب رأسها بالجدار من اليأس حيناً آخر. ثم تعود فتعزي نفسها وتضع كل آمالها فيك: إنها تقول بأنك الآن الدعامة التي ترتكز إليها، وأنها سوف تقترض مالاً من مكان ما، وتعود إلى مدينتها حيث مسقط رأسها، وأنها ستصطحبني معها فتنشئ هناك مدرسة للفتيات تجعلني مفتشة فيها، وعندئذ ستبدأ بالنسبة إلينا حياة جديدة فتانة، إنها تعانقني وتواسيني لأنها تؤمن بذلك. نعم إنها تؤمن بشدة كالحديد بكل تخيلاتها! لكن هل يستطيع أحد أن يناقضها؟

لقد أمضت سحابة هذا النهار وهي تغسل وترتق وتدلك وتنظف ورغم كل ضعفها لقد حملت لوحدها رغم كل ضعفها علبة كبيرة إلى غرفتها، فلما بلغتها كانت على آخر رمق، مما جعلها ترتمي على السرير عاجزة عن الحركة. لقد ذهبنا صباح اليوم معاً إلى السوق لنشتري أحذية

«لبوليا» و«لينا» لأن أحذيتهما قد خلقت. غير أننا لم نكن نملك من المال ما يكفي لندفع أثمانها. كان ينقصنا مبلغ كبير وكانت الأحذية جميلة جداً وقد انتقتها بذوق لأن لها ذوقاً رفيعاً ـ وأنت لا تعرف ذلك! ـ ولما لم نستطع دفع الثمن راحت تبكي بحرقة ولوعة في دكان البائع وأمام الباعة كلهم.. آه كم كان منظرها مؤلماً!

قال راسكو لنيكوف بابتسامة مريرة:

ـ هيا... إنه يفهم من ذلك أنكم كنتم تعيشون على هذا الشكل!

فصاحت سونيا:

ـ وأنت... أولا تسبب لك ألماً؟ أنت نفسك ـ وإنني واثقة من ذلك ـ أعطيتها كل ما معك رغم أنك لم تكن قد رأيت شيئاً يذكر بعد! لكنك لو رأيت كل شيء! آه يا رب! كم من مرة ومرة جعلتها تبكي! كان آخر مرة في الأسبوع الفائت، ثمانية أيام قبل وفاة أبي! أوه كم..! وكم من مرة ومرة تصرفت على ذلك النحو! لقد كنت شديدة الخجل طيلة هذا اليوم حينما تذكرت كل ذلك!!

كانت سونيا وهي تتحدث بهذا الاندفاع والانفعال، تلوي يديها بعنف لكثرة ما كانت تلك الذكرى أليمة بالنسبة إليها!

ـ إذن إنك أنت القاسية؟

أجابت وهي تبكي:

ـ نعم أنا! أنا! لقد جئت ذلك اليوم فقال لي أبي: «سونيا، اقرئي لي شيئاً... إن رأسي يؤلمني... اقرئي لي... خذي هذ الكتاب». وكان كتاب أعاره إياه أحد الجيران واسمه أندريه سيميونوفيتش ليبيزيانينكوف وكان

يعيره دائماً كتباً غريبة! فأجبته: «لقد أزف وقت رحيلي». لم أكن أريد أن أقرأ لأنني كنت قد ذهبت إليهم بصورة خاصة لأعرض على كاترين إيفانوفنا «تطويقات» كانت إليزابيت بائعة الثياب القديمة قد أتتني بباقات وبعض من ألبسة الزينة جميلة جداً وجديدة جداً وملأى بالرسوم. أعجبت كاترين إيفانوفنا بها فوضعتها ولبستها وراحت تنظر إلى نفسها في المرآة! كانت تجدها جميلة جداً، جميلة جداً! قالت لي: «سونيا، سونيا، أرجوك أن تعطينيها!». كانت تقول: أرجوك! لأنها كانت تشعر برغبة هوجاء لامتلاك هذه الأشياء. لكن ماذا كانت ستعمل بها؟ إنها لا تني تتذكر ماضيها، تلك الأيام القديمة الجميلة! كانت تتأمل نفسها في المرآة وتعجب بنفسها وهي التي لا تملك ثوباً واحداً ترتديه، أي ثوب! أي ثوب منذ زمن طويل... منذ سنوات! مع ذلك فإنها لا تطلب شيئاً من أحد أبداً. إنها فخورة شديدة الاعتداد بنفسها. بل إنها كانت مستعدة لإعطاء نفسها وكل ما تملك وما تبقى لها. مع ذلك فقد طلبت إلى في تلك المرة تلك الأشياء ما راقت في عينها! وأنا، لقد كان يصعب علي أن أعطيها لها. قلت لها: «وماذا ستنفعك هذه الأشياء يا كاترين إيفانوفنا؟» نعم هذا ما قلت لها. لم يكن ينبغي أن أقوله. عندئذ نظرت إلي وكانت قسمات وجهها تنطق بالحزن لأنني رفضت إعطاءها تلك الأشياء. كنت أنا أتألم شديد الألم لرؤيتها على ذلك الشكل. لم يكن فقد تلك الباقات هو الذي آلمها بل كان الرفض، الرفض في حدِّ ذاته! وكنت ألمس ذلك بنفسي.. آه! لو استطعت العودة إلى هذا الموضوع وإزالة ذلك الألم! آه أنا.. لكن ماذا... إن كل هذا لا يعنيك في شيء!

إنك تعرفين تلك الـ «إليزابيت» بائعة الثياب؟

سألت سونيا بلهجة لا تخلو من الدهشة:

ـ نعم... لكن أنت، هل كنت تعرفها كذلك؟

قال راسكو لنيكوف بعد سكون قصير دون أن يجيب على سؤالها:

ـ إن كاترين إيفانوفنا مصدورة وفي الدرجة الأخيرة ولسوف تموت قريباً!

ـ آه! كلا، كلا، كلا!

كانت تصيح بهذه الكلمات وقد أخذت يديه بين يديها بحركة لا شعورية وهي ترجو أن لا يحدث ما تنبأ به!

ـ لكن ذلك أجدى! إنها إذا ماتت...

فكررت سونيا قولها مروعة وقد شرد ذهنها:

ـ كلا، إنه ليس أجدى، ليس أجدى كلا أبداً!

ـ لكن الأطفال؟ ماذا ستعملين حينئذ بهم؟ خصوصاً وأنك لا تستطيعين أخذهم عندك!

صاحت سونيا بيأس وقد أضاعت رشدها...

ـ آه... لست أدري!

كان واضحاً أن تلك الفكرة قد خطرت لها من قبل وأن راسكو لنيكوف لم يعمل أكثر من إيقاظها بعد نوم!

تابع راسكو لنيكوف دون إشفاق!

ـ لكنك إذا وقعت بنفسك فريسة المرض ـ حتى ولو كانت كاترين إيفانوفنا لا زالت على قيد الحياة ـ وحملوك إلى المستشفى فماذا سيحدث؟

تقلص وجه سونيا بفعل دهشة مريعة وقالت:

ـ آه! ماذا تقول، ماذا تقول؟ إن ذلك مستحيل.

راسكو لينكوف وسونيا

قال راسكو لنيكوف وعلى وجهه ابتسامة قاسية:

ـ كيف مستحيل! هل أنت مؤمنة على نفسك ضد المرض؟ إذن ماذا سيحدث لك حينئذ؟ إن كل هذه «الفرقة» ستصبح على بلاط الشارع. لسوف تستجدي الأم وهي تسعل وتضرب الجدار برأسها كما فعلت اليوم، أما الأطفال فسيبكون... حينئذ ستسقط وستنقل إلى قسم الشرطة فالمستشفى حيث تموت والأطفال...

أفلتت سونيا صرخة مكتومة وصاحت بصوت مختنق:

ـ آه كلا... لن يسمح الله بذلك!

كانت قد أصغت بسكون محدقة النظر بالشاب وقد جمعت يديها في صلاة صامتة وكأن كل شيء كان يتوقف عليه. أما راسكو لنيكوف فقد نهض من مكانه وراح يتمشى في الغرفة. وانقضت دقيقة. كانت سونيا واقفة منفرجة الذراعين منحنية الظهر فريسة ألم شديد.

توقف راسكو لنيكوف فجأة أمامها وسأل:

ـ هل من سبيل لإدخال بعض المال، لإبقاء بعضه للأيام السوداء؟

غمغمت سونيا:

ـ كلا!

فأضاف بشيء من التهكم:

ـ طبعاً لا. ولكن هل حاولت؟

ـ لقد حاولت.

ـ ولم تنجحي! هيا إن ذلك يلمس فلا مجال للسؤال!

وعاد يمشي في الغرفة من جديد وانقضت دقيقة أخرى:

ـ إنك لا تربحين مالاً كل يوم.

ازداد اضطراب سونيا وشعرت بالاحمرار يكتسح وجهها فتمتمت بمجهود أليم:

ـ كلا.

قال فجأة:

ـ كذلك سيكون حال بوليا:

شعرت سونيا بتلك الكلمات تخترق قلبها كطعنة سكين فصرخت بيأس مرير:

ـ كلا! كلا! مستحيل، كلا! اللّه، اللّه لن يسمح برذيلة كهذه.

ـ إنه يسمح برذائل أشد وأكثر.

كررت الفتاة بانفعال هائل:

ـ كلا! كلا! سوف يحميها اللّه! اللّه!

أجاب راسكو لنيكوف بلون من السرور الأثيم وهو يتضاحك ويحدق في وجه الفتاة:

ـ لكن لا يجوز إنه لا يوجد إله!...

اكفهر وجه سونيا فجأة واكتسحت قسماتها رعدة عنيفة راحت تتأمله بعتاب لا يمكن الإفصاح عنه. كانت تريد أن تقول شيئاً لكنها لم تستطع النطق بكلمة واحدة. وفجأة انخرطت في بكاء مرّ أليم وهي تخفي وجهها بيديها. وأخيراً وبعد صمت قال:

ـ تقولين إن كاترين إيفانوفنا تفقد رشدها؟ إنك تفقدينه كذلك!

وانقضت خمس دقائق. كان يذرع أبداً الغرفة طولاً وعرضاً دون أن ينظر إليها وأخيراً اقترب منها. كانت عيناه تومضان. وضع يديه على كتفيها وراح يتأمل وجهها المستطير. كانت نظرة ملتهبة عنيفة عميقة متغلغلة وكانت شفتاه ترتجفان بعنف... وفجأة انحنى بحركة سريعة وارتمى على الأرض يقبل قدميها. فتراجعت سونيا وكأنها التقت بمجنون والحقيقة أن وجهه كان متسماً تماماً بطابع الجنون.

تمتمت شاحبة وهي تشعر فجأة بانقباض أليم في قلبها:

ـ ماذا تعمل؟ ماذا تعمل؟ أمامي!

نهض فوراً وقال بلهجة غريبة وهو يقترب من النافذة:

ـ إنني لم أنحن أمامك بل انحنيت أمام آلام البشرية كلها.

عاد نحوها بعد دقيقة وقال مسترسلاً:

ـ اسمعي لقد قلت منذ قليل لأحد الأشخاص إنه لا يساوي سلامة أصبعك الصغير... وإنني أضفيت اليوم على أختي شرف إجلاسها بقربك..

صاحت سونيا مروعة:

ـ آه! قلت له هنا! وأمامها؟ جلوسي بجانبي شرف! لكنني... فاقدة الشرف... آه لِمَ قلت له ذلك؟

ـ إنني لم أقل ذلك بسبب قلة شرفك وخطيئتك بل بسبب ألمك الكبير.

وأضاف بشيء من الوجد:

ـ صحيح أنك خاطئة كبيرة، والأدهى أنك خاطئة لأنك دنست

نفسك وبعتيها عبثاً. كيف لا يكون مريعاً أن تعيشي في هذه الأوحال التي تمقتينها وأن تعرفي بالوقت نفسه ـ ويكفي أن تفتحي عينيك قليلاً ـ أن كل ذلك لا يفيد وأنك لا تستطيعين إنقاذ أحد!

ثم قال وهو فريسة لون من الاحتداد:

ـ لكن قولي لي أخيراً كيف تعيش في نفسك معاً هذه القذارة وهذا الانحطاط مع العواطف النبيلة جداً المضادة لها تماماً؟ إنه سيكون أجدى ألف مرة أن ينتهي المرء دفعة واحدة بغطسة في الماء بادئاً برأسه.

رفعت سونيا نحوه نظرة ضعيفة كليلة مفعمة بالألم وبدت وكأن ذلك الاستنتاج لم يدهشها في شيء وقالت بصوت خافت:

ـ وهم؟ ماذا سيحدث لهم؟

راح راسكو لنيكوف يتأملها بشغف، لقد قرأ كل شيء في نظرة الفتاة! لقد فكرت إذن في مثل تلك النهاية. لعلها في يأسها فكرت كثيراً بأنهاء حياتها جدياً لدرجة أنها لم تعرب عن أية دهشة لدى سماعها رأيه. لم تكن تلاحظ حتى ما في تلك الأفتراضات من قسوة: «اتجاه الدرس الذي كان يفرضه عليها ووجهة النظر الخاصةِ التي كان ينظر خلالها إلى عارها». لكن راسكو لنيكوف كان يفهم تماماً أنها كانت تتعذب عذاباً وحشياً قاسياً، لمجرد تفكيرها في مركزها المهين. كان يسائل نفسه: ما الذي أوقفها حتى الآن عن اتخاذ قرارها بالانتحار؟ وعندئذ فقط فهم مبلغ حبها لأولئك الأيتام المساكين ولتلك البائسة كاترين إيفانوفنا التي كانت نصف مجنونة تؤوي السل في صدرها وتضرب رأسها بالجدران.

فهم كذلك بوضوح أن سونيا بعقليتها وبكل التربية التي حصلت عليها لن تستطيع البقاء أبداً في ذلك الموقف. كان يعتبر قدرتها على

المقاومة كل هذا الوقت وهي في ذلك المركز دون أن تصاب بالجنون، مسألة قائمة في حدّ ذاتها، جديرة بالتفكير فيها. رغم أنها لم تجد في نفسها القدّرة على الانتحار غرقاً. طبعاً، لقد كان يفهم أن موقف سونيا ليس إلا ظاهرة عرضية في المجتمع رغم كثرة الظواهر المشابهة لها وللأسف. لكن تلك العقلية الطارئة وتلك النتف من الثقافة التي حصلت عليها وشرف ماضيها كل ذلك كان يبدو كافياً لقتلها منذ خطوتها الأولى في هذاا لطريق الفاجر الذي سلكته. ما الذي يدعمها إذاً؟ إنه ليس ميلها للفجور ولا شك. إن كل ذلك الخجل وكل ذلك العار ـ كما كان يُرى ـ كان قد مسها بشكل آلي حتى أنه يمكن أن يقال إن قلبها لم تدخل فيه نقطة واحدة من الرذيلة الحقيقية. كان راسكو لنيكوف يرى ذلك لأنها كانت واقفة أمامه على حقيقتها الحقة...

راح يتساءل مفكراً: «ليس أمامها إلا ثلاثة سبل: الأول: أن تلقي بنفسها إلى القتال. الثاني: أن تنزل في دار المجانين. والثالث والأخير: أن تندفع في الفحشاء التي ستغلظ عواطفها وتجعل من قلبها حجراً صماً».

كانت الفكرة الأخيرة تخالف نزعاته أكثر من سواها. لكنه كان قد أصبح مرتاباً بالقدرة! فهو شاب متحرر من كثير من الأشياء لذلك فإنه لم يستطع الامتناع عن التفكير والاعتقاد في المخرج الأخير أو بالأحرى في الرذيلة التي كانت تبدو أكثر إمكاناً من غيرها.

راح يتساءل في سره: «لكن هل يجوز أن يكون ذلك حقيقياً، هل يجوز أن تكون هذه المخلوقة التي تحتفظ حتى الآن بصفاء الروح قادرة على المضي في تلك البؤرة الشنيعة بملء إرادتها»؟

ألم تبدأ هذه المرحلة بالفعل؟ ألا يجوز أن تكون الرذيلة بادية

لها غير شائنة إلى هذا الحد حتى احتملتها إلى اليوم؟ كلا! كلا! إن ذلك مستحيل كما كانت تقول سونيا منذ قليل. كلا! إن الذي أبعدها عن القنال حتى الآن هو الخوف من الخطيئة و«هم»... هذا إذا لم تكن قد أضحت مجنونة بالفعل... لكن من الذي يقول إنها ليست مجنونة؟ ألا زالت تحتفظ بفكرها النير؟ هل يمكن أن يتحدث المرء مثلها وأن يفكر مثل تفكيرها إذا كان يملك كل قواه العقلية السليمة؟ هل يمكن أن يبقى المرء هكذا على شفا الهاوية أمام تلك البؤرة الشنيعة التي بدأ ينحدر إليها! ثم يلوح بيده إشارة تدل على العجز ويصم أذنيه عندما يحدثونه عن الخطر؟ ماذا بعد أليست تنتظر معجزة؟ نعم لا شك أنه كذلك. أليست هذه دلالات الجنون؟

توقف بعناد أمام هذه الفكرة. بدا له أن ذلك المخرج بالذات أفضل من أي مخرج آخر، فراح يعاين الفتاة بنظرة طويلة ثم سألها:

ـ على ذلك يا سونيا فإنك تصلين كثيراً إلى الله؟

نظرت إليه سونيا بصمت. كان يقف بالقرب منها منتظراً جوابها فغمغمت بسرعة وبصوت مثير وهي تلقي إليه نظرة خاطفة من عينيها الملتمعتين وتأخذ يده في يديها فتضغط عليه بشدة:

ـ ماذا يحل بي لولا الله؟

حدث نفسه قائلاً: «إنه الجنون ولا شك». ثم سألها راغباً في المزيد:

ـ لكن الله، ماذا يعمل من أجلك؟

صمتت سونيا طويلاً وكأنها لا تستطيع الجواب بينما انتفض صدرها الضعيف وارتفع. صاحت فجأة وهي تنظر إليه بغضب وقسوة:

ـ اصمت! لا تسألني. إنك لا تساوي...

عاد راسكو لنيكوف يحدث نفسه بعناد: «إنه جنون! إنه لكذلك».

غمغمت بسرعة وقد أعادت نظراتها لتطرق بها إلى الأرض:

ـ إنه يعمل كل شيء.

فقال راسكو لنيكوف في سره وهو يتأملها بفضول زائد: ذلك هو الحل، الحل المفسر!»

راح يتأمل ذلك الوجه الصغير الشاحب الهزيل غير المتناسق ذا الزوايا وتينك العينين الزرقاوين القادرتين على إرسال مثل تلك الومضات وعكس تلك التعابير الصارمة العنيفة، راح يتأمل ذلك الجسد الناحل الذي لا زال يرتجف من الغضب والاستنكار، راح يتأمل كل هذا بشعور جديد غريب مرضي تقريباً فوجده يزداد غرابة في نظره بل ويبلغ مرتبة الخيال. أكد لنفسه قوله: «مجنونة! مجنونة!».

كان على الدولاب كتاب لاحظه في غدواته وروحاته. فحمله وراح يتفحصه:

كان نسخة من «العهد الجديد» المترجم إلى الروسية. كان الكتاب قديماً ملصقاً ومجلداً بقطعة من الجلد.

صاح يسألها وهو في الطرف الأقصى من الغرفة بينما هي في مكانها على بعد ثلاث خطوات من المنضدة:

ـ من أين جاء هذا؟

أجابت وكأنها مرغمة دون أن ترفع إليه عينيها:

ـ لقد جاؤوني به.

ـ من الذي جاءك به؟

ـ إليزابيت! لقد طلبته إليها.

فكر في سره قائلاً: «إليزابيت! هذا غريب!». كان كل شيء عند سونيا يزداد غرابة ودهشة في نظره من حين إلى آخر. قرب الكتاب من الشمعة وراح يقلب صفحاته ثم سألها فجأة:

ـ أين يتحدثون فيه عن «اليعازر»؟

لبثت سونيا مطرقة بعينيها إلى الأرض لا تجيب. كانت تقف بعيدة عن المنضدة قليلاً.

ـ بعث اليعازر، أين هو؟ أوجديه يا سونيا!..

كانت تنظر إليه من جانب عينها. غمغمت بخشونة دون أن تتقدم نحوه خطوة واحدة:

ـ ليس هنا... إنه في الإنجيل الرابع.

قال:

ـ أوجدي المقطع واقرئيه لي!

ثم جلس متكئاً بمرفقيه إلى المنضدة مسنداً رأسه إلى يده ناظراً جانباً بكآبة ومستعداً للإصغاء. كان يحدث نفسه قائلاً: «أظن أنني سأكون «هناك» خلال ثلاثة أسابيع هذا إذا لم يكن أسوأ من ذلك أيضاً».

اقتربت سونيا من المنضدة مترددة. كانت تشعر بإيمان ضعيف إزاء مطلب راسكو لنيكوف الغريب. مع ذلك فقد أخذت الكتاب.

سألت وهي تنظر إليه عبر المنضدة بصوت عال يبدو أكثر خشونة:

ـ ألم تقرأه من قبل؟

ـ كان ذلك منذ بعيد... عندما كنت أذهب إلى المدرسة.. اقرئي...

ـ أولم تسمعه في الكنيسة؟

ـ ما... كنت أذهب إليها. لكن أنت أتذهبين غالباً؟

غمغمت سونيا:

ـ كلا!

تضاحك راسكو لنيكوف:

ـ فهمت.. وعلى ذلك فإنك لن تحضري غداً مأتم أبيك غداً...

ـ سأذهب. بل إنني كنت في الكنيسة الأسبوع المنصرم ولقد استقرأت صلوات.

ـ لمن؟

ـ لإليزابيت التي قتلوها بضربات فأس.

كانت أعصاب راسكو لنيكوف تزداد توتراً وانفعالاً وبدأ رأسه يدور.

ـ هل كنت صديقة إليزابيت؟

ـ نعم... لقد كانت عادلة... كانت تأتي عندي.. نادراً... ما كانت تستطيع. كنا نقرأ معاً، كنا نتحدث... سوف ترى اللّه.

كانت تلك الكلمات الأخيرة المنقولة بأمانة عن الكتب تدوي في أذنيه بشكل غريب، ثم هناك خبر جديد! تلك الاتصالات السرية الغامضة بين إليزابيت وسونيا وكلتاهما مهووستان بالتصوف:

فكر في نفسه: «علني سأصبح مثلها. إن ذلك معدٍ».

صرخ فجأة بصوت ملحاح غاضب:

اقرئي...

كانت سونيا تتردد أبداً وكان قلبها يخفق بعنف. كان يبدو عليها أنها لا تجرؤ على القراءة. نظر إليها بشيء من الألم: «يا للمجنونة المسكينة!».

غمغمت بصوت منخفض يكاد أن يختنق:

ـ ماذا يجديك ذلك؟ طالما أنك لا تؤمن!

ألح قائلاً:

ـ اقرئي أريد أن تقرئي. كنت تقرئين لإليزابيت.

فتحت سونيا الكتاب وبحثت عن المقطع. كانت يداها ترتجفان وصوتها مختنقاً. حاولت مرتين أن تقرأ، وفي كلتا المرتين لم تستطع أن تتفوه بكلمة واحدة. وأخيراً نطقت بمجهود جبار:

ـ «كان يوجد مريضٌ، اليعازر من بيتاني[1]...».

لكن. لم تكد تبلغ الكلمة الثالثة ويتجاوب صوتها حتى تحطم فجأة وكأنه وتر شد كثيراً فانقطع. أعوزها التنفس وشعرت بقلبها يُعتصر.

كان راسكو لنيكوف يفهم جزئياً السبب الذي من أجله لم تكن سونيا تستطيع تقبل القراءة. وكلما ازداد فهماً للسبب، ازداد إلحاحاً خشناً فظاً، مطالباً إياها بالقراءة. كان يفهم بوضوح أنها ستتألم إذ تكشف له في تلك اللحظة عما تعتبره أخص خصوصياتها. أدرك أن تلك العواطف تشكل لديها لوناً مما يدعى: سرها الحقيقي! ولعل ذلك راجع إلى طفولتها عندما كانت لا تزال بين أسرتها، بين أبيها التعس وزوجه التي جنّت من الحزن، وبين أطفال يضري الجوع أحشاءهم. في ذلك الوسط الذي لا تنبعث منه إلا الفضائح الصاخبة والتأنيب لكنه كان يعرف بالوقت نفسه، ويعرف جيداً أنها على الرغم من خوفها العنيف من القراءة، فإنها كانت بشوق إليها، يبلغ مرتبة الألم، وأنها رغم حزنها ومخاوفها في شوق إلى أن تقرأ ـ له ـ

---

(1) قرية فلسطينية قريبة من جبل الزيتون وأورشليم تدعى اليوم "العازارية". - المترجم -.

لكي يسمع وخصوصاً الآن رغم ما يمكن أن يحدث نتيجة ذلك... كان يقرأ تلك الرغبة في عينيها، وكان يفهمها من الاضطراب الحماسي الذي كان يسيطر عليها.. توصلت أخيراً إلى السيطرة على نفسها أزاحت تلك الغصة التي أطبقت على حنجرتها منذ الآية الأولى وراحت تقرأ الفصل الحادي عشر من الإنجيل تبعاً للقديس حنا. بلغت الآية التاسعة عشرة:

«كثير من اليهود جاؤوا إلى مارت[1] ومريم ليغريانها بصدد أخيهما. منذ أن علمت مارت بقدوم يسوع ذهبت لاستقباله بينما لبثت مريم جالسة في المنزل. قالت مارت ليسوع: «أيها المولى لو أنك كنت هنا لما مات أخي. لكن الآن أيضاً أعرف أن كل ما تطلبه من الله يمنحه الله لك».

لما بلغت هذه المرحلة توقفت مرة أخرى وهي تشعر بالخجل لأن صوتها كان مرتعداً يتحطم من جديد:

«قال يسوع لها: «سيبعث أخوك. ـ أجابته مارت أنا أعرف أنه سيبعث يم البعث في اليوم الآخر». قال لها يسوع: «إنني أنا البعث وأنا الحياة: كل من يؤمن بي ولو كان ميتاً سيحيا: وكل من هو حي ويؤمن بي لن يموت أبداً. هل تؤمنين بذلك؟».

وعلى الرغم من الصعوبات التي كانت تشعر بها عندما تتنفس فإن سونيا كانت تقرأ بوضوح وقوة كما لو كانت هي نفسها تعلن إيمانها! «قالت له: نعم أيها المولى أنا أؤمن أنك أنت المسيح ابن الله الذي كان يجب أن تأتي إلى هذا العالم».

كادت أن تتوقف وأن تلقي عليه نظرة مختلسة، لكنها تمالكت

(1) ترجمت آيات الإنجيل الواردة في هذا النص بكل أمانة ولم تنقل من الإنجيل نفسه فإذا وجد فيها بعض من عدم المطابقة الحرفية فإن السبب واضح ومنظور.

نفسها بسرعة وتابعت القراءة. كان راسكو لنيكوف يصغي إليها وهو جالس لا يتحرك ولا يدير رأسه متكئاً بمرفقيه إلى المنضدة وملقياً ببصره إلى الجانب. بلغت الآية الثانية والثلاثين.

«عندما وصلت مارت إلى المكان الذي كان فيه يسوع ورأته ارتمت على قدميه وقال له: «أيها المولى! لو أنك كنت هنا فإن أخي ما كان ليموت. نظر إليها يسوع وهي تبكي هي واليهود الذين كانوا يصحبونها، فارتعد في فكره واستسلم لانفعاله وقال: واستسلم لانفعاله وقال: «أين وضعتموه؟» ـ «فأجابوه: أيها المولى تعال وانظر». وبكى يسوع. قال اليهود: «انظروا كم كان يحبه» لكن بعضاً منهم قالوا: ألا يستطيع وهو الذي فتح عيون مولود أعمى أن يعمل على أن لا يموت هذا الرجل».

استدار راسكو لنيكوف نحوها ونظر إليها بانفعال. نعم، إنه كذلك! لقد كانت ترتجف كلها فريسة حمى حقيقية. لقد كان يتوقع ذلك. كانت تقترب من القراءة المتعلقة بالمعجزة الخارقة فاستحوذ عليها شعور بالفخار. راح صوتها يهتز مدوياً كالمعدن وكانت لهجة النصر والفرح هي التي تعطيه تلك القوة وذلك الجلد. كانت الأسطر تتراقص أمام عينيها المخضلتين بالدموع لكنها كانت تعرف عن ظهر قلب ما كانت تقرأ. وعندما بلغت الآية الأخيرة: «ألا يستطيع وهو الذي فتح عيني طفل أعمى بالولادة...» كانت تعبر عن اضطراب ولوم ومطعن أولئك اليهود العميان الجاحدين الذين سوف يخرّون ساجدين على ركبهم منتحبين ومؤمنين بعد دقيقة واحدة وكأن صاعقة انقضت عليهم... كانت تعبر عن ذلك بصوتها المنخفض وحماسها المتقد...» وهو، هو الأعمى كذلك والجاحد، هو كذلك بعد لحظة سوف يسمع، هو أيضاً سوف يؤمن نعم! نعم! حالاً وفي هذه اللحظة»...

كانت تفكر في ذلك وهي ترتعد بانتظار اللحظة المفرحة.

«ارتعد يسوع إذاً في نفسه ومضى إلى اللحد: كان «كهف» صغير وقد وضع عليه حجر كبير. قال يسوع: «ارفعوا هذا الحجر» قالت له مارت أخت الذي كان ميتاً: «أيها المولى إن الرائحة تنبعث منه لأنه قد مضى عليه أربعة أيام هنا».

وضغطت سونيا بشدة على كلمة «أربعة».

«قال لها يسوع: ألم أقل لك إنك إذا آمنت فسوف ترين مجد اللّه؟» ارفعوا إذاً الحجر ورفع يسوع عينيه إلى الأعلى وقال: «أبي، إنني أشكرك من أجل كل ما استجبت لي به. أنا أعرف أنك تستجيب لي دائماً لكنني قلت هذا بسبب هذا الجمع الذي يحيط بي لكي يؤمنوا بأنك أنت الذي أرسلتني». وبعد أن قال ذلك صرخ بصوت قوي: «اليعازر اخرج» وخرج الميت...».

قرأت هذه الكلمات بصوت قوي منتصر. كانت ترتعد وكان جسمها متجمداً وكأنها كانت ترى ذلك المشهد بأم عينيها.

«... وقدماه ويداه موثوقة بالأربطة ووجهه محجوب بكفن. قال لهم يسوع: «حلوا وثاقه ودعوه يذهب».

«كثير من بين اليهود الذين جاؤوا بالقرب من مريم ومن مارت والذين رأوا ما عمل يسوع فآمنوا به».

توقفت عند هذا الحد لأنها لم تستطع الاستمرار وأغلقت الكتاب ونهضت بعنف.

تمتمت بصوت قاس مرتعش:

ـ هذا كل ما يتعلق ببعث اليعازر.

ولبثت جامدة تنظر جانباً ولا تجرؤ على رفع عينيها إلى راسكو لنيكوف احتشاماً. كان ارتعادها المحموم متواصلاً وكانت الشمعة المستهلكة في الشمعدان العتيق منذ أمد طويل لا تكاد تضيء تلك الغرفة الحقيرة حيث وقف القاتل والعاهرة ـ ويا للدهشة ـ والتقيا لقراءة كتاب أزليّ، ومضت خمس دقائق أو أكثر.

قال راسكو لنيكوف فجأة بصوت عنيف وهو يقطب حاجبه وينهض مقترباً من سونيا.

ـ لقد جئت لأحدثك بشيء ما.

رفعت إليه عينيها بسكوت فكانت نظرة راسكو لنيكوف تفضح تصميماً مخيفاً قال:

ـ اليوم هجرت أسرتي: أمي وأختي. لن أعود إليهما بعد اليوم. لقد حطمت كل رباط بيننا.

سألت سونيا مضطربة:

ـ لماذا؟

كان لقاؤها القريب مع أم راسكو لنيكوف وأخته قد أحدث في نفسها شعوراً خارقاً لم تكن تستطيع تحديده. لذلك فإنها تلقت خبر ذلك الانقطاع بارتياع.

أضاف راسكو لنيكوف:

ـ الآن لم يعد لي سواك. لنذهب معاً... لقد جئت إليك. إننا ملعونان كلانا. وعليه لنذهب معاً.

كانت عيناه تومضان. فكرت سونيا بدورها: «إنه يبدو مجنوناً».

سألت برهبة وهي تتراجع رغم إرادتها:

ـ نذهب إلى أين؟

ـ وهل أدري؟ إنني أعرف فقط أن أمامنا طريقاً واحداً علينا اجتيازه إنني أعرف هذا حقيقة ولا شيء أكثر من هذا...إن هدفنا كذلك موحد!

كانت تنظر إليه دون أن تفهم. كانت لا تفهم إلا أمراً واحداً: هو أنه تعيس بشك مريع.

أضاف:

ـ لن يفهمك أحد منهما إذا تحدثت إليهما. أما أنا فقد فهمتك. إنك ضرورة لي ولذلك جئت إليك.

همست سونيا:

ـ لست أفهم.

ـ سوف تفهمين فيما بعد. ألم تعملي مثلي؟ إنك أنت أيضاً خرقت القاعدة... لقد استطعت خرقها. لقد رفعت يدك ضد نفسك، لقد حطمت حياتك... حياتك أنت والقضية سيان. كان يمكنك أن تعيشي بالفكر والعقل وإذا بك تنتهين إلى سوق العلف!... لكنك لن تستطيعي المقاومة وإذا لبثت وحيدة لسوف تفقدين عقلك مثلي. إنك منذ الآن أشبه بالمجانين وعلى ذلك فإنه يفيدنا أن نمضي سوية، أن نتبع طريقاً واحدة. لنذهب!

تمتمت سونيا وقد أخذت بهذه الكلمات بعنف غريب:

ـ لماذا؟ لماذا تقول ذلك؟

ـ لماذا؟ لأنه يستحيل البقاء هكذا. هذا هو السبب! يجب أخيراً أن تنفضي يدك جدياً وأن تنظري إلى الأمور كما هي بدلاً من البكاء والصياح بأن الله لن يسمح بذلك! قولي لي ماذا سيحدث إذا حملت غداً إلى أحد

المستشفيات لسبب جدي؟ إن الأخرى قد فقدت عقلها وهي مصدورة ولسوف تموت قريباً فماذا سيحدث بالأطفال؟ هل تستطيع بوليا إلا أن تخسر نفسها؟ ألم تر في الشوارع بعضاً من أولئك الأطفال الذين ترسلهم أمهاتهم ليتسولوا وليطلبوا الإحسان؟ لقد عرفت أين وكيف يعيش أولئك الأمهات! وإن في مثل تلك الأمكنة يستحيل على الأطفال أن يبقوا أطفالاً. ففي السن السابعة يفجر الطفل ويسرق. مع ذلك فإن الأطفال صورة المسيح: «إن ملكوت الله يخصهم!» لقد أمر أن نحترمهم ونحبهم لأنهم الإنسانية المقبلة...

كررت سونيا القول وهي تلوي يديها وتنتحب بهستيرية:

ـ ما العمل إذاً؟ ما العمل؟

ـ ما العمل؟ ينبغي العزوف نهائياً ولا شيء أكثر: واحتمال الألم شخصياً! ماذا؟ ألا تفهمين؟ لسوف تفهمين في المستقبل... الحرية والقوى قبل كل شيء، القدرة! السيطرة على كل المخلوقات المرتعدة وكل أحجار النمل. ذلك هو الهدف: اذكريه جيداً! هذا هو الطريق الذي أبينه لك! لعلني أتحدث للمرة الأخيرة. وإذا لم أحضر غداً لسوف تعلمين كل شيء بنفسك وعندئذ تذكري كلماتي. وفي المستقبل، مع الزمن، بعد عام من اليوم، لعلك تفهمين ماذا تعني تلك الكلمات. إذا جئت غداً لسوف أقول لك من قتل إليزابيت. الوداع!...

ارتعدت سونيا من الذهول وسألت وهي متجمدة من الخوف تتأمله بشرود.

ـ لكن هل تعرف من الذي قتلها؟

أعرفه وسأقوله لك.. لك أنت وحدك! إنك أنت التي انتقيتها. لن

أحضر غداً لأطلب صفحك بل سأقوله لك بكل بساطة: لقد انتقيتك منذ زمن بعيد لأقوله لك. منذ الوقت الذي حدثني أبوك عنك وكانت إليزابيت على قيد الحياة كنت أفكر في ذلك. الوداع. لا تمدي لي يدك! إلى الغد...!

خرج. وكانت سونيا تنظر إليه نظرتها إلى مخبول. لكنها كانت نفسها كمخبولة أيضاً وكانت تشعر بذلك. شعرت بدوار في رأسها: «رباه! كيف يعرف قاتل إليزابيت؟ ماذا كانت تعني كلماته؟ إن ذلك غريب!» رغم ذلك فإن «الفكرة» لم تخطر لها على بال مطلقاً. «آه كم هو تعيس تعاسة مريعة!.. لقد هجر أمه وأخته. لماذا؟ ماذا حدث؟ ما هي نواياه؟ ماذا قال لي؟ لقد قبل قدمي وقال لي... لقد قال لي ـ نعم، تلك هي كلماته ـ إنه لن يستطيع العيش بدوني... رباه!».

أمضت سونيا ليلتها فريسة الحمى والهذيان. كان تنتفض أحياناً فتبكي وتلوي يديها وتستغرق في نوم محموم أحياناً أخرى. رأت في الحلم بوليا وكاترين إيفانوفنا وإليزابيت وقراءة الإنجيل وهو.. هو، بوجهه الشاحب وعينيه المتقدتين يقبل قدميها ويبكي.. آه! رباه!.

ووراء الباب الأيمن، وراء ذلك الباب الذي يفصل مسكن سونيا عن مسكن جيرترود كارلوفنا ريسليش كانت تقوم حجرة ملاصقة، كانت خالية منذ زمن طويل وكانت تابعة لمسكن السيدة ريسليش التي كانت تريد تأجيرها بدلالة اللوحة الموضوعة على الباب الخارجي والأوراق الملصقة على زجاج النوافذ المطلة على القنال. كانت سونيا منذ بعيد قد اعتادت اعتبار تلك الغرفة خالية غير مسكونة مع ذلك. فقد كان السيد سفيدريكايلوف قابعاً طيلة ذلك الوقت في الغرفة الخالية وأذنه إلى الباب يسترق السمع. وعندما خرج راسكو لنيكوف لبث برهة يفكر ثم عاد على أطراف قدميه إلى غرفته الملاصقة للغرفة الخالية فجاء بمقعد وعاد يضعه

دون ضجة لصق الباب الذي يصل بين غرفة سونيا والغرفة الخالية. لقد بدا له الحديث مهماً جديراً بالاستماع إليه: لقد أحس بسرور عميق ورغبة عنيفة حتى أنه جاء بذلك المقعد ليستطيع في المرة القادمة، منذ الغد مثلاً، أن يجنب نفسه عناء الوقوف ساعة كاملة، فيجلس بكل راحة وهدوء، كي يصبح سروره في المرة المقبلة أكثر كمالاً من كل وجهات النظر.

الفَصْلُ الخَامِسُ

صباح اليوم التالي، قدم راسكو لنيكوف نفسه في الساعة الحادية عشرة إلى قسم البوليس ـ حيث كان قاضي التحقيق يشغل مكتباً خاصاً ـ وأعلن عن قدومه لبورفير بيتروفيتش. أدهشه أن ينتظر طويلاً قبل أن يُستقبل، إذ انقضت عشر دقائق على الأقل قبل أن يدعى للدخول، بينما كان ينتظر ـ بحسب تخميناته ـ أن يلقوا بأنفسهم عليه حالما يصل. لبث بانتظار استدعائه، واقفاً في غرفة الانتظار بين عدد من الناس يروحون ويغدون حوله دون أن يبدو على أحد منهم أنه يلتفت إليه أو يهتم بشأنه. وفي الغرفة التالية التي كانت تشبه مكتباً رسمياً كان عدد من الكتاب منهمكين في الكتابة حتى أنه كان من الواضح أن أياً منهم لا يضمر أية فكرة نحوه ولا يدري سبب وجوده هناك. كان يجيل حوله نظرة متشككة قلقة ويتساءل: ألا يوجد مخبر أو شرطي سري ما مكلف بمراقبته وبالتالي بمنعه من الخروج؟ لكن شيئاً من هذا القبيل لم يكن موجوداً، لم ير حوله إلا كتبة متواضعين منهمكين في أعمالهم وأشخاصاً آخرين لم يكونوا معيرينه التفاتاً بل كانوا يتركون له حرية التنقل في أربع زوايا المكان! راحت فكرة تتركز في رأسه بشدة وحزم: لو أن ذلك الشخص المجهول الذي ظهر أمس، ذلك الشبح الذي انشقت عنه الأرض، كان يعرف كل شيء، وكان قد رأى كل شيء، فهل كانوا يتركونه ـ هو راسكو لنيكوف ـ ينتظر كل

هذا الوقت بهدوء وراحة حيث هو؟ هل كانوا سينتظرون الساعة الحادية عشرة لكي يتعطف أخيراً ويزعج نفسه بالحضور لتقديم إفادته؟ إذن.. إما أن يكون ذلك الرجل لم يش به بعد... أو أنه كان ـ بكل بساطة ـ لا يعرف شيئاً ولم ير شيئاً بأم عينيه. ثم كيف كان يمكنه أن يرى؟ على ذلك فإن كل ما وقع له البارحة ـ هو راسكو لنيكوف ـ ليس إلا وهماً وتخيلاً راحت مخيلته تجسمه له بسبب شدة تهيجه ومرضه.

كان قد تصور أمس هذه النتيجة بالذات أثناء غمه الشديد ويأسه، وبينما هو يفكر في كل هذا ويهيئ نفسه لصراع جديد شعر فجأة بأنه يرتعد فراح يغلي غيظاً عندما فكر بأن ارتعاده هذا راجع إلى خوفه من الظهور أمام ذلك البغيض: بورفير بيتروفيتش. كان لقاء ذلك الرجل من جديد شديد الرهبة في نفسه: كان يمقته إلى أقصى حدود المقت، مقتاً لا حدَّ له، ويخشى بعد ذلك أن يفضح نفسه بنفسه بشكل من الأشكال بسبب ذلك البغض. كان غضبه من الشدة حتى أن رعدته قد زالت تماماً، واستعد للدخول بهيئة يبدو عليها البرود والتثاقل وأقسم في سره على أن يتكلم بأشد اختصار ممكن وأن يفتح أذنه وعينه وأن يسيطر هذه المرة على مزاجه الذي تبلغ فيه سرعة الغضب مبلغاً مرضياً مهما كانت الأسباب... وفي تلك اللحظة بالذات أدخل إلى حضرة بورفير بيتروفيتش!

كان بورفير بيتروفيتش في تلك اللحظة وحيداً في مكتبه. وكان ذلك المكتب عبارة عن غرفة لا كبيرة ولا صغيرة فيها مكتب كبير وضع قباله أريكة مغطاة بقماش مشمع، ودولاب صغير وخزانة في ركن آخر مع بعض المقاعد. وكانت هذه القطع كلها مقدمة من الإدارة مصنوعة من الخشب الأصفر الذي راح طلاؤه يتساقط. وفي الحاجز القائم في صدر المكان، كان هناك باب مغلق يدل على وجود غرف أخرى وراء ذلك الحاجز.

لما أُدخل راسكو لنيكوف، أغلق بورفير الباب وراءه مباشرة، ولبث كلاهما في خلوة. استقبله بوجه شديد الجذل وبمظهر كثير الإيناس، واستطاع راسكو لنيكوف بعد دقائق معدودة أن يلمس بعض الدلالات التي تثبت أن نوعاً من الارتباك كان قائماً في نفس بورفير: كان يبدو كأنه فقد الأثر الذي كان في يده وأنه أزعج وشوش باله بأعمال معينة. هتف بورفير وهو يمد ذراعيه نحوه:

ـ آه! أيها الباسل! ها أنت ذا. في نواحينا! هيا اجلس أيها الطيب! لكن لعلك لا تحب أن أناديك بـ «أيها الباسل» و«أيها الطيب» فقط دون الاسم. لا تلق بالك إلى هذا أرجوك، لا تعتبر تكلفاً.. هنا... اجلس على الأريكة.

جلس راسكو لنيكوف دون أن تبارح عيناه وجه بورفير. راح يتساءل في سره: «في نواحينا»، وذلك الاعتذار عن أنسه وهو عبارة فقط دون الاسم إلخ.. إن كل ذلك بشكل أدلة بينة! لقد مد إلي يديه ولم يعطني واحدة منهما إذ سحبهما في الوقت المناسب!

كان راسكو لنيكوف يفكر بحذر في كل هذه الأمور راح كلاهما يرقبان بعضهما بعضاً لكنهما كانا يغضان طرفهما بسرعة البرق كلما التقت أبصارهما.

ـ لقد جئتك «بمعروض» يتعلق بالساعة... ها هوذا... هل هو مناسب على شكله الحالي، أم ينبغي تبديله؟

قال بورفير وكأنه كان على عجلة من أمره بسبب عمل ما.

ـ ماذا؟ أي «معروض»؟ نعم نعم... لا تزعج نفسك... إنه مناسب جداً...

لم يلق نظرة على «وريقه» راسكو لنيكوف إلا بعد أن أكد صلاحها دون أن يراها، ولما نظر إليها استرسل بلهجته السريعة:

ـ نعم... إن ذلك حسن، لا حاجة إلى شيء آخر.

ثم وضع «المعروض» على مكتبه ولم تمض دقيقة ـ وبينما كانا يتحدثان بشأن آخر ـ أخذ تلك الورقة ووضعها بعناية في الدولاب.

قال راسكو لنيكوف:

ـ خيل إلي بأنك قلت لي البارحة بأنك ترغب في استجوابي... قانوناً... بصدد علاقاتي مع الـ.. مرأة القتيل!

مرت في خاطره بسرعة البرق فكرة فناجى نفسه: «لِمَ أضفت كلمة (خيل إلي)؟ لكن فكرة أخرى ترددت في ذهنه بمثل سرعة الأولى إذ قال: لم أقلق بهذه الشدة لمجرد أنني أضفت كلمة (خيل إلي)؟».

وفجأة شعر بأن اتصاله مع بورفير وتلك الكلمات القليلة المتبادلة بينهما، وتلك النظرات المتعاقبة، هي وحدها التي جسمت في نفسه ذلك الحذر العجيب.. وأن ذلك كان شديد الخطورة...

«عادت أعصابي إلى التهيج... لسوف أفضح نفسي من جديد».

غمغم بورفير وهو يذرع غرفة مكتبه ويدور حول المنضدة:

ـ حسناً... حسناً، حسناً! لا تبتئس! لدينا الوقت الكافي، لدينا الوقت الكافي!

لكنه بدأ وكأنه لم يفكر في ذلك مطلقاً إذ راح يلقي النظر إلى الشارع خلال زجاج النافذة ثم يعود إلى مكتبه أو إلى المنضدة تارة أخرى، وتارة يتحاشى نظرة راسكو لنيكوف المرتابة ثم يتوقف ليحدق في ثياب عينيه تارة أخرى. كان منظره، ـ وهو الرجل الضخم المستدير، كالكرة التي تتدحرج من جهة إلى أخرى، ثم تقفز من جديد بين الجدران الأربعة ـ يثير الفضول!

ـ لدينا الوقت، لدينا الوقت... آه! هل تدخن؟ هل لديك تبغ؟ ها هي ذي سيجاره. إنك تعرف بأنني أستقبلك هنا.. لكن مسكني وراء هذا الحاجز، هنا أيضاً... إنني أقطن هنا على نفقة الدولة، أما في الوقت الحاضر فإنني غير مستقر إلى حين. كان ينبغي إدخال بعض الترميمات هنا. إنها انتهت تقريباً... هل تعرف أن الإسكان على نفقة الدولة شيء معروف؟ هم؟ ما رأيك فيه؟

أجاب راسكو لنيكوف وهو ينظر إليه نظرة فيها سخرية:

ـ نعم... إنه أمر معروف!

كرر بورفير بيتروفيتش الذي كان يبدو شارد الذهن.

ـ أمر شهير... أمر معروف.. أمر مشهور!

ثم توقف على بعد خطوتين من راسكو لنيكوف وراح يحدق في وجهه. كان ذلك الترديد الرتيب «أن إيواء الشخص من قبل الدولة أمر معروف، بديع... شهير» وذلك البرود يتناقضان بشدة مع تلك النظرات الجدية الغامضة التي كان يصوبها إلى زائره في تلك اللحظة. لكن كل هذا ما كان إلا ليزيد غضب راسكو لنيكوف حتى أنه لم يستطع الامتناع عن إعلان تحدٍّ طائش بمظهره الاستفزازي!

قال فجأة وهو ينظر إليه في شيء من الوقاحة وكأنه يشعر بلون من التلذذ في تلك الوقاحة:

ـ أتدري أن هناك قاعدة حقوقية، أو أسلوباً حقوقياً ينهج عليه قضاة التحقيق ويتبعونه: وهو يقضي بالتحدث بالحماقات أو بأشياء جدية خارجة تماماً عن الموضوع بقصد تنشيط أو بعبارة أصح تلهية الشخص

المستجوَب، وتحذير يقظته، ثم الانهيال على رأسه فجأة بالسؤال القاتل الشديد الخطورة أليس كذلك؟ أعتقد تماماً أن هذه القاعدة لا زالت تتبع بكل دقة حتى الآن.

قال بورفير بيتروفيتش وهو يغمز بعينه وقد طفح وجهه بأمارات الوداعة والمكر وزالت التجعدات عن جبينه وغدت عيناه ضيقتين وتمددت قسمات وجهه وراح ينظر فجأة في عيني راسكو لنيكوف:

ـ هكذا... هكذا إذاً تفكر بأنني حدثتك عن المسكن المقدم من قبل الدولة لكي... هِمْ!

انفجر ضاحكاً ضحكة عصبية طويلة هزت جسمه بعنف. كاد راسكو لنيكوف أن يشاطره الضحك بأن يرغم نفسه قليلاً عليه لمجاراته، لكن بورفير عندما وجد أنه على وشك الضحك، راح في حماسة فظيعة صبغت وجهه بلون قرمزي فتخطى راسكو لنيكوف حدود التعقل: توقف عن الضحك وقطب حاجبيه وراح يتأمل بورفير بنظرة طويلة حاقدة طيلة نوبة الضحك التي استولت عليه والتي بدت مصطنعة بعض الشيء!.. كان عدم التروي بادياً من الجانبين: كان بورفير يضحك مستهزئاً من زائره الذي اعتبر تلك الضحكة لوناً من الحقد مع ذلك فإن بورفير لم يبد ارتباكاً. كانت هذه المناسبة الأخيرة تستلفت انتباه راسكو لنيكوف: فهم فجأة أن بورفير بيتروفيتش لم يكد أبداً منزعجاً بل على العكس كان هو، راسكو لنيكوف، الذي ترك نفسه يسقط في الشرك! كان هناك ولا شك شيء لا يزال يجهله، كان الأمر كله يسير حسب خطة مرسومة: لعل كل شيء كان معداً ولعل المفاجأة ستقع بعد قليل.

أراد أن يحسم الموضوع مباشرة فأخذ قبعته بيده وقال بصوت حازم يتخلله انفعال شديد:

يا بورفير بيتروفيتش لقد أعربت البارحة عن رغبتك في رؤيتي لتخضعني لاستجواب معين ـ وضغط بصورة خاصة على كلمة استجواب ـ ها قد جئت. فإذا كنت تريد استجوابي وإلا فاسمح لي بالانسحاب. ليس عندي وقت أضيعه ـ إنني مشغول... ينبغي أن أحضر دفن ذلك الموظف الذي دهسته عربة أمس والذي... سمعت عنه من قبل.

انزعج لأنه أضاف هذه العبارة فراح غضبه يتزايد! أضاف بصوت مرتفع:

ـ لقد عيل صبري من كل هذا. إني أشعر منذ زمن بعيد بإرهاق مفرط بسببه! وأعتقد أن مرضي ناجم عنه أكثر من أي سبب آخر!

تضاعف غضبه إزاء تلفظه بهذه الجملة الأخيرة المتعلقة بمرضه وشعر أنها في غير موضعها واسترسل:

ـ وبكلمة واحدة تفضل باستجوابي أو دعني أنسحب في الحال. لكنك إذا أردت أن تستجوبني فليكن ذلك ضمن الأصول المتبعة وإلا فإنني لن أسمح لك بغير ذلك. وبالانتظار أودعك طالما أننا لا نجد ما يدعو لوجودنا معاً في الوقت الحاضر.

هتف بورفير بيتروفيتش وقد أبدل فجأة لهجته وتصرفاته وكف عن الضحك.

ـ رباه! ماذا دهاك؟ لكن لِمَ استجوبك؟ لا تبتئس أرجوك.

وعاد يذرع الغرفة بادي الانشغال حيناً ويتهافت على راسكو لنيكوف ليجلسه حيناً آخر:

ـ لدينا الوقت. لا شيء يدعونا إلى العجلة ثم إن كل هذا دون الأهمية! إنني على العكس مسرور جداً إذ جئت أخيراً إلينا... إنني أستقبلك

كزائر. أما ضحكتي الملعونة فاعذرني يا روديون رومابوفيتش الباسل. تلك هي أسماؤك أليس كذلك؟ إنني رجل عصبي وقد شغلتني دقة ملاحظتك.

صحيح إنني أحياناً أقفز ككرة المطاط خلال نصف ساعة كاملة... إنني ضحوك بطبعي.. إن مزاجي يجعلني أخشى أن أصاب بالشلل. لكن... اجلس أرجوك أيها الباسل وإلا فسأعتقد بأنك منزعج.

كان راسكو لنيكوف صامتاً يسمع ويراقب وقد قطب الغضب حاجبيه ثم جلس ولكن دون أن يترك قبعته من يده.

استرسل بورفير بيتروفيتش الذي لبث في تجواله في الغرفة يحاول أن يستأثر بنظرة ضيقة.

ـ سأقول لك شيئاً يا روديون رومانوفيتش الشجاع، يتعلق بي ويجعلك تفهم عقليتي. إنني عازب وبالتالي لا أختلط بالأوساط الراقية إلا نادراً لأنني مجهول منها ثم إنني رجل قضي عليه و... و... هل لاحظت يا روديون رومانوفيتش أن عندنا ـ وأقصد في روسيا وبصورة خاصة في محيطنا في بطرسبورغ ـ عندما يلتقي شخصان ذكيان لم يتعرفا بعد على حقائق بعضهما تماماً لكنهما يميلان إلى بعضهما بعضاً كما هو الحال بيني وبينك، فإنهما لا يجدان خلال نصف ساعة كلمة واحدة يتبادلانها بل يتبادلان النظر كالتماثيل ويشعر كلاهما بالارتباك. إن الناس يجدون موضوعات للكلام. خذ مثلاً النساء... الأشخاص في المجتمع إنهم جميعاً يجدون موضوعاً يتحدثون فيه. بل يجب أن يجدوا موضوعاً للحديث. أما رجال الطبقة الوسطى مثلنا فإنهم يرتبكون وينطوون على أنفسهم صامتين... إنهم يفزعون فكيف يحدث ذلك أيها الباسل؟ أليس لنا نحن مصالح اجتماعية؟ أم هل نحن شديدو النزاهة حتى أننا نعزف عن خداع بعضنا بعضاً؟ لست أدري أما أنت

فما رأيك في ذلك؟ لكن دع قبعتك. إن من يراك يعتقد أنك تريد الذهاب على الفور وذلك يزعجني لأنني على العكس سعيد جداً...

وضع راسكو لنيكوف قبعته في صمت ملح وقد تقطب حاجباه وراح يصغي إلى ثرثرة بورفير الملحاح. فكر: «ماذا؟ إنه يهدف إلى إشغال انتباهي بلطف بذلك السبيل المتدق من الحماقات».

تابع بورفير:

ـ إنني لن أقدم لك القهوة لأن المجال لا يسمح بها. لكن لِمَ لا تقضي خمس دقائق مع صديق لترفه عنه؟ ثم ـ وأنت تعرف ـ كل هذه الضرورات المصلحية... هيا لا تنزعج يا صديقي الباسل. إذا كنت تراني غادياً رائحاً فاعذرني كذلك أيها الباسل. إنني أتحاشى جداً أن أسبب لك أية صدمة لكنني في حاجة قصوى إلى الحركة لأنني أجلس باستمرار ويسعدني جداً أن أتمشى خمس دقائق.. إنني مصاب بالباسور... وقد عنيت أبداً بأن أعالج نفسي بالرياضة، إذ يبدو أن مستشاري دولة سابقين وكذلك مستشارين سريين لا ينقطعون عن القفز بالحبل بانتظام. إن العلم يفرض ذلك في هذه الأيام أما واجباتنا هنا واستجواباتنا وكل هذه الرسميات... إنك ترى أيها الباسل أنك أنت الذي بدأت تتحدث عن الاستجوابات... إذاً فاعلم يا روديون رومانوفيتش الباسل أن تلك الاستجوابات تحير أحياناً القاضي أكثر مما تحير الموقوف كما أبدت ملاحظتك الدقيقة منذ حين (مع العلم أن راسكو لنيكوف لم يبد أية ملاحظة حول هذا الموضوع). إن الإنسان لينفعل حقيقة، إنه ليرتبك... ثم دائماً المسألة بالذات كضربات البطل المتناسقة. ومن هنا التهذيب الذي يحصل لنا أو بالأحرى الذي نحن مدعوون إلى العمل به. ها! ها! ها! أما فيما يتعلق بوسائلنا الحقوقية ـ وإنني أستعمل اصطلاحك البارع ـ فإنني من رأيك تماماً. من هو؟ ـ قل لي ـ ذلك الموقوف

ـ حتى ولو كان قروياً من أكثر الأشخاص جهالة ـ الذي لا يعرف أننا سنبدأ. بمحاولة إشغاله (حسب تعبيرك البديع) بطرح أسئلة غريبة عن الموضوع ثم بالانهيال عليه بالمسألة المطلوبة كضربة فأس على جمجمته؟ ها! ها! ها! تماماً على جمجمته حسب تشبيهك البديع. ها! ها! ها! على ذلك فإنك فكرت بأنني إذ حدثتك عن المسكن أردت.. ها! ها! ها! إن روح التهكم لا تنقصك. لكن لعمري لن أعمل شيئاً من هذا! آه! نعم! على فكرة إن كلمة تذكر بأخرى وفكرة تستدعي فكرة ثانية: منذ حين تفضلت بالحديث حول الأصول فيما يتعلق بالاستجواب كما لعلك تذكر... لكن ما هي الأصول! ليس للأصول في حالات كثيرة أي معنى. في بعض الحالات يجدر التذرع بمحادثات ودية تماماً.

إن الأصول لا تختفي أبداً ـ واسمح لي أن أطمئنك حول هذا الموضوع ـ لكن ما هي الأصول في الحقيقة؟ إنني أسألك رأيك. إن قاضي التحقيق لا ينبغي أن يجد نفسه في كل خطوة موثوقاً بالأصول المرعية. إن مهنة هذا القانوني تشبه الفن الحر أو شيئاً من هذا القبيل... ها! ها! ها! ها!

التقط بورفير بيتروفيتش أنفاسه وصمت دقيقة. كان يتحدث بلا انقطاع فيلقي أحياناً جملاً محرومة من المعنى تماماً وأحياناً يسقط كلمات صغيرة غامضة ويعود بعدها إلى لون من البله. كان في تلك اللحظة يجري في الغرفة بدلاً من المشي وكان يحرك ساقيه الغليظتين أكثر فأكثر تاركاً يده اليمنى مخبأة وراء ظهره بينما كان يستعمل اليسرى في حركات مستمرة مختلفة تتناقض كل التناقض مع مدلول أقواله ولونها. لاحظ راسكو لنيكوف فجأة أنه خلال جريه في الغرفة توقف مرتين أو ثلاث مرات قرب الباب وكأنه ينصت برهة... تساءل: «هل ينتظر أحداً؟».

تابع بورفير بوداعة وهو ينظر إلى راسكو لنيكوف بشكل مفرط بطيئة القلب جعل هذا الأخير يرتعد فوراً ويستعد لكل شيء:

ـ الحقيقة أنك على صواب تماماً. لك الحق في أن تتهكم بهذه البداهة الجميلة من الأصول القضائية... ها! ها! إن تلك الأصول ـ بعضاً ولا شك ـ التي تبدو ذات قيمة نفسانية عميقة مضحكة جداً ولنقل كذلك عديمة النفع. لسبب واحد وهو أنهم يمارسونها بنصها الحرفي. لكن ـ لكي ننتهي من البحث في الأصول ـ لنفرض أنني مكلف بالتحقيق في قضية وأنني أعرف ـ أو بالأحرى أعتقد أنني أعرف ـ أن المجرم هو هذا أو ذاك... هل درست القانون يا روديون رومانوفيتش؟

ـ نعم لقد درست الحقوق.

ـ حسناً إليك مثالاً صغيراً قد يكون ذا فائدة لك في المستقبل أقصد، لا تظن أنني أسمح لنفسي بالوقوف منك موقف المعلم خصوصاً بالنسبة إليك وأنت الذي تكتب بحوثاً عن الإجرام! كلا! إنني أقصد فقط مجرد تقديم مثال. على ذلك أقول: إنني أميل مثلاً إلى الاعتقاد بأن هذا أو ذاك أو ثالثاً مجرم، فما الفائدة إذن ـ وإنني لأسألك ـ في أن أضايقه قبل الأوان رغم الأدلة التي تكون في يدي ضده؟ هناك مثلاً من أراني مضطراً إلى توقيفه وآخر ذو عقلية مختلفة، فلِمَ لا أدعه يتجول في المدينة؟ هم؟ هيا حسناً! أرى أنك لا تفهمني تماماً. لسوف أعرض لك رأيي بشكل أوضح! هب مثلاً أنني أوقفته قبل الوقت المناسب فإنني بتوقيفه أهيّئ له لوناً من المساعدة الفكرية إذا أردت أن تسميها كذلك... ها! ها! ها!إن ذلك يضحكك أليس كذلك؟ (لم يكن راسكو لنيكوف إطلاقاً يميل إلى الضحك: لقد كان جالساً يصرف على أسنانه ويحدق بنظرات ملتهبة في عيني بورفير بيتروفيتش) مع ذلك فإن الأمر

هو كما شرحته لك! إنما يصح ذلك مع بعض الأشخاص فقط لأن الناس يختلفون كثيراً ولأن المسألة ليست إلا مسألة خبرة ومران، والآن سوف تقول لي: والأدلة؟ فأقول: لنفترض أن الأدلة موجودة ولكن ألا ترى يا عزيزي بأن الأدلة تكون غالباً ذات وجهتين؟ وأنا نفسي، قاضي التحقيق، أقصد أنني رجل ضعيف، لذلك أوافق على أن العادة جرت أن يقدم القاضي نتائج تحقيقه بدقة رياضية، إذا صح التعبير، وإنه يتوق إلى إيجاد دليل يعادل اثنين، اثنين تساوي أربعة! أي أن يكون دليلاً مباشراً لا يقبل النقض! لكن إذا أوقفت الشخص قبل الأوان ـ حتى ولو كنت واثقاً أنه «هو» ـ فإنني أحرم نفسي من الوسائل التي تجعله يفضح نفسه بصراحة أكثر! وكيف ذلك؟ لأنني قدمت له ـ إذا صح التعبير ـ مركزاً محدوداً أو بعبارة أخرى إنني أثبته وطمأنته من الوجهة البسيكولوجية وبذلك يتسرب بين يدي ويدخل في قوقعته: إنه سيفهم أخيراً أنه أوقف. يقال: إنه في «سيباستوبول» بعد قضية «آلما»، راح أهل الفكر يرتاعون من العدو خشية أن يهاجمهم فوراً ويأخذ منهم «سيباستوبول»، لكنهم عندما رأوا أن العدو يفضل ضرب حصار منظم وأنه مد خطه المتوازي الأول هللوا فرحين يطمئنون أنفسهم بقولهم: سوف يطول الأمر شهرين على الأقل حتى نستسلم بفعل الحصار!» آه! أتضحك أيضاً؟ ما زلت لا تصدقني؟ لعمري إنك على حق من جانبك. إنك على حق! حق! لا شك أن هناك حالات خاصة. إنني من رأيك تماماً. إن ما رآه الآن هو في الحقيقة حالة خاصة. لكن ألا ترى يا روديون رومانوفيتش الباسل أن الحالة التي تنطبق عليها الأصول القضائية المرعية وكل القوانين التي صدرت عنها تلك الأصول وسجلت في السجلات، إن مثل تلك الحالة الدقيقة تماماً غير موجودة أصلاً لسبب بسيط وهو أنها حالما تقع في

الحقيقة وليس بالافتراض فإنها تتحول فوراً إلى حالة خاصة حتى أنها أحياناً تصبح حالة مختلفة كل الاختلاف عن كل ما سبقتها من الحالات. إن المرء ليصادف حالات مضحكة من هذا الطراز. إنني في هذه الحالة أترك الرجل طليقاً لا أوقفه ولا أزعجه لكنني أجعله يعرف أو على الأقل يخمن بأنني أعرف كل شيء وأنني أرقبه كل ساعة ودقيقة دون أن أغمض عيني، فيصبح بذلك فريسة للشك والرعب الدائمين وعندئذ ـ وأقسم لك ـ سوف يفقد أعصابه حتماً. ولسوف يأتي بنفسه أو لعله يسمح لنفسه بارتكاب أمر يعادل اثنين واثنين تساوي أربعة وأقصد أمراً إيجابياً رياضياً وذلك أجمل ما في الموضوع. يمكن أن يحدث ذلك مع بدوي أو فلاح بل وكذلك مع الرجال الأذكياء الشجعان والمتمدينين حتى ومع مثقفين في هذا الموضوع. ولقد لُمِسَ ذلك! على هذا يا صديقي العزيز فإن معرفة اتجاه الشخص قضية صغيرة قائمة بذاتها ثم هناك الأعصاب، الأعصاب التي يبدو أنك نسيتها! ألا ترى أنها اليوم النقطة الضعيفة المريضة الحساسة؟.. وكذا الغضب. وإذاً؟ إن غضباً كثيراً يفترس صدور هذا النوع وأؤكد لك بهذه المناسبة أن غالباً ما يقضي عليهم! وعلى هذا فماذا يعنيني ذا بث طليقاً فترة؟ بلى ليستمر في التنزه بانتظار الوقت المناسب، بينما أنا أعرف بأنه «فريستي الصغيرة» وأنه لن يفلت من يدي! ثم أين يفر؟ أللخارج؟ هم؟ إن البولوني يستطيع الفرار إلى الخارج ولكن ليس «هو» ثم إنني أراقبه دائماً وقد اتخذت كل احتياطاتي. فهل سيفر إلى أعماق البلاد؟ لكن لا يعيش هناك إلا الفلاحون، الروسيون الصميمون: وعلى ذلك فإن رجلنا المثقف ثقافة عصرية ليفضل السجن على الحياة مع أجانب كفلاحينا... ها! ها! ها! لكن كل هذا ليس إلا تفاهات بجانب السؤال الحقيقي؟ ما معنى كلمة الفرار؟ إنها شكلية

بحتة. والأساس المهم غيرها! إنه لن يبتعد عني لا لأنه يعرف أين يفر بل لأسباب بسيكولوجية أيضاً... ها! ها! يا للتعبير الجميل! إنه لن يفر استناداً إلى قوانين الطبيعة حتى ولو عرف إلى أين يذهب. ألم تر مرة فراشة قرب مصباح؟ حسناً. إنه سوف يدور باستمرار حولي أنا وكأنه يدور حول مصباح. لسوف يشعر بثقل حريته. ولسوف يفكر ويسخط وأخيراً يأتي من تلقاء نفسه ليدخل في شبكتي لأنه يخيف نفسه بأفكاره خوفاً مميتاً!.. ثم هناك شيء آخر: سوف يحضر بنفسه مزحة جميلة من نوع اثنين واثنين تساوي أربعة، ويكفي من أجل ذلك أن أقدم له بدوري استراحة قصيرة سوف لا ينفك يحوم ويحط حولي وهو يضيق الحلقة أكثر فأكثر و... هو ب... سيقع أخيراً في فمي ولسوف أبتلعه. الأمر الذي يسبب لي لوناً من السرور اللذيذ! ها! ها! ها! ألا تصدق؟

لم يجب راسكو لنيكوف: كان شاحباً جامداً وعيناه محدقتان في وجه بورفير.

راح يحدث نفسه وقد بعث الخوف في نفسه قشعريرة باردة: «درس ممتاز! إن القط لا يلعب اليوم مع الفأر كما كان يلعب البارحة. إنه يتحاشى اليوم أن يظهر لي قوته دون جدوى وأن!.. يوحي إلي! إنه ماكر جداً اليوم... إنه يتابع هدفاً معيناً. لكن أي هدف؟ هيا يا صديقي إن هذا حمق. أتريد أن تخيفني؟ أين خدعك؟ إنك لا تمتلك أي دليل! إن رجل الأمس لا وجود له! إنك تحاول فقط أن تثير غضبي. إنك تحاول إثارتي سلفاً كي تستطيع تعليقي إلى الكلاّب عندما أكون في حالة الهيجان. لكنك تخطىء خطأً كبيراً. لقد نفذت حيلتك! لكن لماذا، يهمس لي بكل هذه الأشياء؟ هل سيعتمد على أعصابي؟ كلا يا صديقي إنك تضع أصبعك في عينك رغم كل ما هيأت ولسوف نرى الآن ماذا هيأت!».

تذرع بكل قواه استعداداً لاستقبال مصيبة هائلة مجهولة. كان أحياناً يشعر برغبة في خنق بورفير على الفور. لقد كان يوجس خيفة من سورة غضبه منذ أن دخل. شعر بشفتيه تجفان وقلبه يخفق خفقات عنيفة والزبد يحيط بفمه. لكنه رغم ذلك قرر أن يصمت وأن لا يتفوه بكلمة واحدة قبل الوقت المناسب. كان يعرف أن ذلك التصرف هو خير أسلوب يلجأ إليه في موقفه ليس فقط لأنه لن يفضح نفسه بالحديث بل كذلك لأنه سيغضب خصمه بسكوته وسينجم عن ذلك أن يفضح الآخر نفسه. ذلك ما قدره.

تابع بورفير كلامه وهو يمعن في المزاح ولا يني يقهقه من السرور ويتمشى في الغرفة:

ـ كلا! كلا! إنني أرى إنك لا تصدقني. أنك تفكر بأنني أسمعتك تفاهات باردة لقد حباني اللّه بأسلوب في الحديث يوحي إلى الآخرين عني بأفكار ماجنة مضحكة! لكن يجب أن أقول لك ـ وأكرر لك مرة أخرى يا بورفير بيتروفيتش الباسل ـ أن تعذر العجوز الذي يتكلم لأنك شاب في زهرة العمر كما يقال. ولهذا فإنك تضع الذكاء البشري فوق كل شيء على غرار الشباب كلهم.ثم إن الدعاية الفكرية الحادة والاستنتاجات العقلية السلبية تدهشك. وهذا يتماشى على سبيل المثال نقطة فنقطة، مع العقلية الحربية النمساوية القديمة إذا جاز لي الحكم على القضايا العسكرية: كانوا على الورق يعتقدون أنهم سيسحقون نابوليون وأنهم سيسجنونه فراحوا في مكاتبهم يعدون ويتابعون خططهم وبحوثهم بكل نشاط وجد. ثم ـ لاحظ هذا ـ استسلم «جنرالهم» مع كل جيشه. هي! هي! هي! إنني أرى يا روديون رومانوفيتش... إنني أرى أنك تهزأ بي لأنني وأنا ذلك المدني، أستعير تشبيهاتي الصغيرة من التاريخ العسكري. لكن ما العمل؟ تلك هي نقطة الضعف عندي. إنني ضعيف إزاء القضايا الحربية وأحب قراءة كل

المنشورات التي تبحث في الجيوش... لا شك أنني أخطأت في عدم اتباعي ميولي. كان ينبغي أن أدخل في عداد الجيوش. ثق بما أقول. يجوز أنني ما كنت سأصبح نابوليوناً، لكنني كنت أستطيع بلوغ رتبة ضابط كبير! هي! هي! هي! لعمري طالما أنا في سبيل التحدث إليك بالحقيقة بخصوص تلك «الحالة الخاصة» فإن الواقع والطبيعة يا سيدي الباسل أشياء مهمة. يحدث غالباً أنها تحور كل الخطط الحاذقة! هيا! صدق عجوزاً إنني أقول لك ذلك جديا يا روديون رومانوفيتش (كان بورفير بيتروفيتش هذا يتحدث على هذا المنوال وهو في الثلاثين من عمره ولم تكن تبدو عليه مطلقاً هيئة الكهولة. بيد أنه أبدل صوته قليلاً وبدا كأنه منحنياً) هيا، إنني رجل صريح، هل أنا رجل صريح؟ نعم أم لا؟! ما رأيك فيّ! أعتقد أن ذلك واضح تماماً: إنني أقدم لك كل هذه المعلومات لقاء لا شيء بل دون أن أطالب بأية مكافأة ها! ها! هيا سأتابع: إن الفكر ـ بحسب رأيي ـ هو صفة لامعة: إنه ـ ويمكن القول ـ تجميل حبتنا به الطبيعة وتغرية منحتنا إياها الحياة. وهو قادر على كل المخاتلات والشعوذات لدرجة يتساءل المرء بعدها كيف يستطيع قاضي التحقيق المسكين أن يعرف الحقيقة بينها! وهنا التعاسة! نع هنا الشيء الذي لا تفكر فيه شبيبتنا المعتمدة على الفكر ـ وهي تمشي خلال عقبات كثيرة ـ (كما قلته بنفسك بشكل دقيق جداً يدل على شدة الذكاء). لنفرض أنه تذرع بالكذب (والبحث هنا يدور حول شخص ما وحول حالة خاصة مجهولة) وأنه كذب بشكل عجيب مدهش، فإنه يظن بعدئذ أنه سينتصر وأنه سيتلذذ أخيراً بقطف ثمار عبقريته! لكنه فجأة، باء بالفشل! ها هو ذا يغمى عليه في أشد الأمكنة حراجة والتي تعطي إمكانيات أكثر لظهور الحقيقة. ليكن. إنني أفضل أن يكون مريضاً أيضاً إذ يحدث أحياناً أن يضيق المرء في غرفة فيشعر بالاختناق لكن رغم ذلك!

رغم ذلك فإنه يعطي بإغمائه دليلاً! لقد ألقى الرماد في العيون وبشكل لا يبارى لكنه لم يحسب حساب الطبيعة وهنا، هنا فقط السر! ثم راح مرة أخرى يهزأ ـ مدفوعاً بحميته العقلية ـ بالرجل الذي يشك فيه، فشحب وكأنه واضعٌ خطته، بل وكأنه كان يتسلى، شحب بشكل طبيعي تقريباً وكأن الأمر حقيقيٌ تماماً لكنه للمرة الثانية قدم دليلاً آخر! لقد خدع للمرة الأولى، إنه ليستطيع دائماً أن يخدع، لكنه عند المساء. يعود للتساؤل: «ألم أرتكب هفوات صغيرة خلال النهار؟» وسيلبث كذلك في كل خطوة يخطوها! ماذا أقول أيضاً؟ إنه هو نفسه يقف في المقدمة: فهو يحشر أنفه في كل ما لا يعنيه، ويثرثر دون توقف لما تقضي مصلحته بالسكوت ثم يندفع في الافتراضات... هيه هيه! ويأتي من تلقاء نفسه ويسأل عن السبب الذي من أجله لم يوقف بعد! هيه هيه هيه! إن أشياء من هذا القبيل يمكن أن تحدث لأكثر الناس مكراً وللعالم النفساني، وللأديب! إن الطبيعة مرآة وهي من أكثر أنواع المرايا نقاءً! ولا يلزم إلا أن ينظر المرء إليها ويتأملها! لكن لمَ أنت شاحب إلى هذا الحد يا روديون رومانوفيتش؟ هل الهواء خانق؟ أتريد أن أفتح النوافذ؟

صاح راسكو لنيكوف:

ـ أوه! لا تزعج نفسك أرجوك. أرجوك أن لا تزعج نفسك. ثم انفجر ضاحكاً. اقترب بورفير منه وانتظر قليلاً ولم يلبث حتى انفجر هو الآخر ضاحكاً. أما راسكو لنيكوف فقد نهض عن الأريكة وقطع ضحكته العصبية فجأة وقال بصوت مرتفع واضح:

ـ يا بورفير بيتروفيتش! أرى في النهاية بوضوح أنك تشك جدياً في أن أكون أنا قاتل تلك العجوز وأختها إليزابيت. وإنني أصرح لك بأن هذه الشكوك تزعجني منذ طويل. فإذا كنت تجد أن من حقك متابعتي قانونياً

فلتفعل. أو توقيفي فلتوقفني. لكنني لن أسمح أبداً أن يسخر مني وأن أتعرض لهذا التعذيب.

كانت ساقاه لا تقويان على حمله إلا بالكاد. وقد راحت شفتاه ترتعدان وعيناه تومضان بالغضب وصوته الذي سعى حتى تلك اللحظة أن يجعله هادئاً. يجلجل قوياً.

هتف بكل قواه وهو يضرب المنضدة بجمع قبضته:

ـ لن أتقبل ذلك. هل تسمع يا بورفير بيتروفيتش؟ لن أتقبل ذلك!

قال بورفير بيتروفيتش وهو يطلق صيحات صغيرة شأنه من استبد به الخوف:

ـ آه رباه! ماذا حدث أيضاً؟ يا روديون رومانوفيتش! يا صديقي، يا صديقي العزيز، ماذا دهاك؟

صرخ راسكو لنيكوف مرة أخرى:

ـ لن أتقبل ذلك.

همس بورفير مروعاً وقد غدا وجهه شاحباً كوجه راسكو لنيكوف:

ـ هيا! اخفض صوتك! لعلهم يسمعون فيحضرون. فماذا نقول لهم عندئذ؟ فكر في هذا!

كرر راسكو لنيكوف بهمس هذه المرة:

ـ لن أتقبل ذلك، لن أتقبل ذلك!

هرع بورفير فجأة إلى النافذة ففتحها.

ـ قليل من الهواء المنعش؟! يحسن بك يا عزيزي أن تشرب قليلاً من الماء. إنها نوبة!

همّ أن يندفع إلى الباب ليطلب ماء غير أنه لمح في تلك اللحظة زجاجة ملأى بالماء موضوعة في إحدى الزوايا، فهرع إليها وعاد بها إليه وهمس:

ـ اشرب قليلاً يا صديقي العزيز. لسوف يفيدك هذا.

كان رعب بورفير وتودده خاليين تقريباً من التصنع حتى أن راسكو لنيكوف لبث فاغراً يتأمله بفضول وحشي. وغني عن الذكر بأنه رفض أن يشرب الماء.

ـ يا روديون رومانوفيتش! أيها الطيب! لسوف تفقد صوابك إذا لبثت هكذا. أؤكد لك. خذ. اشرب ولو جرعة واحدة!

استطاع أخيراً أن يجعله يأخذ القدح بيده وأن يرفعها بحركة آلية إلى شفتيه لكنه تمالك نفسه فجأة فأعاد القدح باشمئزاز ووضعه على المائدة.

نَق بورفير باهتمام ودي وقد بدا الاضطراب عليه:

ـ نعم! إنها نوبة صغيرة تلك التي اعترتك الآن! ها إنك يا عزيزي تعود للسقوط في مرضك القديم. رباه! هل يعقل أن يهمل المرء صحته بهذا الشكل؟! اسمع لقد جاء دميتري بوركوفيتش مساء أمس إلى منزلي. إنني أعترف، لا شك أن نعم، بأن لي عقلية رديئة قذرة لكن أترى ما هو المغزى الذي استُنتج بسبب ذلك!.... نعم، لقد جاء البارحة مساء، بعد ذهابكما، وكنا نتناول طعام العشاء. فتحدث وتحدث دون أن أستطيع الإفصاح عن رأي واحد... لكنني أفكر في الموضوع. ألا يكون قد جاء من قبَلك؟ هيا اجلس يا عزيزي! ناشدتك الله!

أجاب راسكو لنيكوف بجفاء:

ـ كلا! لم يأتِ من قبلي. لكنني كنت أعرف أنه سيأتيك. وكنت أعرف كذلك لماذا!

ـ كنت تعرفه؟

ـ كنت أعرفه! ثم ماذا!

ـ هيا يا عزيزي روديون رومانوفيتش! أتظن بأنني لا أعرف كل مآثرك؟ إنني أعرفها كلها! إنني أعرف أنك ذهبت عند هبوط الظلام لتستأجر «ذلك المسكن» وإنك جذبت حبل الجرس وإنك سألت عما حل بالدم. الأمر الذي أقلق الخدم والعمال حينذاك. إنني أفهم حالتك الروحية تماماً. هيا، لسوف تفقد عقلك وأقسم لك. لسوف تشعر بالدوار! إن التخيل عنيف في نفسك رغم نبل عواطفك وذلك بسبب الامتهان الذي نالك من الحياة أولاً ومن رجال البوليس. هذا هو السبب في أنك تبحث هنا وهناك لتصغي إلى كل ما يقال ـ إذا جاز هذا التعبير ـ ولترغم الأشخاص على الانتهاء دفعة واحدة، لأنك سئمت تماماً من تلك الحماقات وتلك الرتب. أليس كذلك؟ ألم أضمن حالتك النفسية تماماً؟... غير أنك تفقد السيطرة على أعصابك وتسبب لرازوميخين فقدانها بإرساله إلي لأنه سليم الطوية جداً وأنت لا تجهل هذا. فإذا كنت أنت مريضاً فهو طيب النفس، وسينتهي الأمر بأن ينتقل مرضك إليه... لسوف أشرح لك ذلك عندما تهدأ.. هيا اجلس بحق السماء! أرجوك اهدأ. إنك شديد الاضطراب. اجلس.

جلس راسكو لنيكوف واكتسحت جسده قشعريرة وعادت الحمى تداهم جسمه. راح يصغي باهتمام إلى أقوال بورفير بيتروفيتش وهو في ذهول عميق ودهشة بالغة للشعور الودي الذي أخذ هذا الأخير بيديه نحوه. غير أنه ما كان يصدق كلمة واحدة. رغم أنه ما كان يشعر بميل إلى التصديق. كانت كلمات بورفير غير المنتظرة حول موضوع المسكن قد

أذهلته. راح يتساءل في سره: «كيف ذلك؟ إذاً فهو يعرف أنني ذهبت إلى ذلك المسكن؟ طبعاً إنه يعرفه طالما أنه حدثني به منذ قليل؟».

استرسل بورفير قائلاً بسرعة:

ـ نعم. لقد وقع حادث مماثل خلال مراننا القانوني حادث نفساني مرضي كهذا تماماً: اتهم بعضهم بجريمة قتل. فراح يصف سوء حالة وهمية ويمثل الأوضاع ويروي الظروف فيفسر البعض ويعقد البعض الآخر.

ثم ماذا كان السبب أخيراً؟ لقد كان هو نفسه ـ دون أن يتعمد ـ سبباً جزئياً للجريمة، جزءاً بسيطاً فقط! فلما بلغه بأنه كان المسبب للقتل رُوع تماماً وراح يرتكب حماقات ويتصور أشياء، فيهذي ويشوه الحقائق، حتى انتهى به الأمر إلى اعتبار نفسه قاتلاً. وقد اهتمت محكمة الاستئناف بهذه القضية وهناك بُرّئ التعس ووضع في مأوى شعبي! والفضل في ذلك لمحكمة الاستئناف! لكن إن... إن... هيا أيها الصديق إن الإنسان ليصاب بالحمى الساخنة إذا كانت الأعصاب ميالة للانفعال بهذا الشكل. وإذا كان الإنسان يذهب ليلاً ليجذب حبال الأجراس بل حتى إذا راح يسأل عما جرى للدم! إن كل هذه الحالة النفسانية تعلمتها بالمران. يحدث أحياناً أن يشعر امرؤ بالرغبة في القفز من نافذة أو من برج من أبراج الأجراس. ويكون ذلك الشعور قوياً عنيفاً... كذلك هو قرع الجرس... مرض... مرض يا روديون رومانوفيتش إنك رحت تهمل حالتك المرضية كثيراً. كان عليك أن تستشير أطباء اختصاصيين بدلاً من رجلك الضخم ذاك! إنك تهذي! وكل هذا عندك نتيجة للهذيان!

خلال لحظة شعر راسكو لنيكوف أن كل شيء يدور حوله. راح يتساءل:

ـ ماذا؟ هل سيكذب الآن أيضاً؟ كلا. إن هذا مستحيل! إن هذا مستحيل!

كان هذا السؤال والجواب قد خامر عقله دفعة واحدة فشعر سلفاً بمدى ما سيحل به بتأثير الغضب والانفعال. شعر أن الغضب سوف يفقده الصواب.

هتف مستجمعاً كل قواه العقلية ليستطيع اكتشاف لعبة بورفير وغرضه.

ـ ما كنت أهذي أبداً. لقد كنت في كامل قواي العقلية. بكامل الإشراق والصحو. هل تسمع؟

ـ آه. نعم! إنني أفهم وأسمع! لقد قلت البارحة أيضاً بأنك لا تهذي بل لقد ألححت على هذه النقطة! إن كل ما يمكنك أن تقوله أستطيع أن أفهمه. هيه! هيه! لكن اصغ إلي قليلاً أيها الباسل! روديون رومانوفيتش الطيب! لنفرض جدلاً صحة ذلك... لو أنك كنت حقيقة مرتكباً هذه الجريمة أو كان لك أي اتصال من أي نوع كان بتلك المسألة الملعونة، قل لي: هل كنت تلح وتصر بنفسك بأن ذلك لم يكن تحت وطأة دافع جنوني بل إنه على العكس كان بكل صفاء وإشراق عقل! نعم. بإلحاح وبإلحاح خاص. قل لي هل يمكن أن يكون ذلك؟ في رأيي أن الأمر على العكس. فلو كنت ـ جدلاً ـ مجرماً، ألم يكن من الأجدى الإلحاح دائماً على أنك فاقد عقلك تماماً؟ أليس ذلك صحيحاً؟

كانت هذه الجريمة تخفي في طياتها لوناً من المكر...

تراجع راسكو لنيكوف بظهره حتى استقر على مسند الأريكة وراح ينظر بسكون وصمت إلى بورفير الذي انحنى فوقه وراح ينظر إليه بدوره نظرة ثابتة.

ـ الآن: لنعد إلى مسألة السيد رازوميخين أو بالأحرى لنتساءل عما إذا كان قد جاء إلى مسكني من تلقاء نفسه أو تبعاً لتعليماتك. إنك تقول بأن مجيئه كان من تلقاء نفسه! إن تصرفك الطبيعي يوحي إليك أن تخفي عني مجيئه إلي طبقاً لتعليماتك! هذا هو المنطق، وعليه: أما كنت لتخفي ذلك؟إنك تؤكد بأنه جاء طبقاً لتعليماتك.

لم يكن راسكو لنيكوف قط قد أكد مثل هذا القول لذلك فقد شعر ببرودة في ظهره وغمغم بصوت ضعيف بطيء بينما ارتسمت على شفتيه ابتسامة مريرة:

ـ إنك لا تنفك تكذب.

شعر كأنه يجد صعوبة في ربط الأفكار والكلمات التي يريد التعبير عنها فأضاف:

ـ إنك تريد أن تبين لي بأنك تعرف دخيلتي وأنك تعرف سلفاً أجوبتي! إنك تحاول ترويعي... وبكل صراحة وبساطة: إنك تسخر مني...

استمر وهو ينطق بهذه الكلمات بورفير بثبات وفجأة التمعت عيناه ببريق كراهية لا حدود لها وصاح:

إنك تكذب! إنك تعرف شخصياً أن خير ذريعة يمكن لمجرم أن يلجأ إليها هي أن يحاول التحدث ما استطاع بالحقيقة.... أن لا يخفي شيئاً على قدر المستطاع من الأشياء التي لا يستطيع إخفاءها. لذلك فإنني لا أصدقك.

تضاحك بورفير:

ـ يا لك من شخص غريب! لا يعرف المرء من أية ناحية يأخذ بك: إنك مريض بجنون «المونومانيا»[1]! على ذلك إذاً فإنك لا تصدقني؟ حسناً.

---

(1) نوع من الخبل العقلي تبدو فيه فكرة واحدة مسيطرة على كل القوى العقلية. - المترجم -.

أما أنا فأقول لك بأنك تصدقني بل وإنك صدقتني حتى الآن في ربع ما قلت، ولسوف أعمل لأجعلك تصدقني تماماً لأنني في الحقيقة أحبك وأريد ضمان مصلحتك بكل إخلاص.

ارتعدت شفتا راسكو لنيكوف بينما استرسل بورفير.

ـ نعم، أريد ذلك. إنني أقوله لك (وضغط ضغطاً خفيفاً ودياً على ذراع راسكو لنيكوف فوق المرفق) أقول لك مرة أخيرة: راقب مرضك. إن من أجل هذا جاءت أسرتك وينبغي أن تفكر فيها. يجب أن تطمئن أقرباءك وأن تظهر لهم الود والحب بينما أنت لا تني تروعهم.

ـ وهل يعنيك هذا؟ ماذا تعرف عن هذا الموضوع؟ كيف تهتم بأمرهم إلى هذا الحد ومن أين جاءك هذا الاهتمام؟

ـ لكن يا صديقي لقد علمت ذلك منك. منك بالذات علمت كل ذلك! ألا تلاحظ أنك بانفعالك تفضح سلفاً كل ما في نفسك لي كما للآخرين؟ لقد اطلعت على ذلك مساء البارحة بواسطة السيد دميتري بروكوفيتش رازوميخين كما اطلعت على تفاصيل أخرى مهمة... لكن لا. لقد قاطعتني كنت أقول لك أنك بحذرك ـ مهما كان نشاطك الذهني ـ لا تني تفسر الأمور بشكل غير صحيح. خذ على سبيل المثال مسألة الجرس: إن هذه العملية على جانب كبير من الأهمية. حسناً لقد عملت ما في وسعي وأنا قاضي التحقيق لأنبئك بهذا الخبر! هلا يعني هذا لديك شيئاً؟ لكنني لو كنت أرتاب بك أدنى ريبة هل كان يجب أن أتصرف على هذا الشكل؟ كان يجب علي على العكس أن أموه منذ البداية أية فكرة حول هذا الموضوع وأن أجعلك تعتقد بأنني أجهل كل شيء ثم أدفعك في اتجاه مختلف كل الاختلاف عن هذا وفجأة أنقض عليك بهذا الخبر بما يشبه ضربة المهدة

(وأستعيد تعبيرك الشخصي) لكن قل لي يا سيدي ـ إذا شئت ـ: ماذا ذهبت تعمل في مسكن القتيل في الساعة العاشرة مساء بل وما بعد الحادية عشرة؟ ثم قل لي: لماذا جذبت حبل الجرس؟ ثم ما سبب سؤالك عن الدم؟ ولماذا، أخيراً، أردت أن تخدع الحارسين لترغمهما على سوقك إلى قسم البوليس؟ كذلك ينبغي أن أتصرف لو كان في نفسي ظل من الشك بصددك. كان ينبغي أن ألجأ إلى كل الأصول المتبعة لأنتزع منك إقراراً وأفتش مسكنك بل وأوقفك... ومن هذا يتضح أنني لا أرتاب بك طالما أنني بدأت معك بشكل آخر! آه إن على عينك غشاوة، إنك لا ترى شيئاً. أكرر القول!

انتفض راسكو لنيكوف انتفاضة عنيفة بلغت من القوة أن لاحظها بورفير بيتروفيتش وصرخ:

ـ إنك تكذب. لست أدري ما هي نواياك ولكنك تكذب.. إنك لم تتحدث منذ حين بهذه الروح وهذا المعنى، لا يمكن أن أخدع نفسي.. إنك تكذب!...

قال بورفير وقد بدا يحتدم غيظه ولكن دون أن يبدو عليه تبدل يذكر:

ـ... أكذب!...

بدا وكأن الرأي الذي اتخذه راسكو لنيكوف وأصر عليه لم يؤثر في نفسه مطلقاً. بل لبث مرحاً ساخراً:

ـ أكذب؟... ولكن كيف تصرفت معك منذ قليل، أنا قاضي التحقيق حينما أفهمتك بنفسي وأعطيتك كل وسائل الدفاع وجسمت في نفسك كل هذه النفسية: المرض. لا أكثر ولا أقل. والهذيان، والرزوح تحت وطأة الامتهان والتطير ورجال البوليس. هِمْ؟ لكنني أبادر إلى القول بأن كل وسائل الدفاع هذه والحجج والمبررات قوية ولها وجهتان «المرض، نعم الهذيان، الأحلام، الوهم، لست أذكر»، كل هذا جيد وحسن ولكن لِمَ يا عزيزي يشعر

المرء بهذا النوع من الأحلام الوهمية في حالات المرض والهذيان وليس في حالات أخرى؟ ألا يمكن أن يشعر بهما في غير هذه الحال؟ ها... ها... ها...

كان راسكو لنيكوف يتأمله باعتداد واشمئزاز. صرخ بصوت حازم وهو ينهض دافعاً بورفير بلطف جانباً:

ـ موجز القول، أريد أن أعرف: هل تقر بأنني نهائياً فوق الشبهات أم لا؟ قل يا بورفير بيتروفيتش! تكلم بوضوح ولننته من هذا الموضوع فوراً إذا أردت.

هتف بورفير بلهجة وديعة هازئة خالية من الارتباك:

ـ لا شك. أنه ليس أمراً سهلاً أن يكون للمرء علاقة بك! ثم لماذا تريد وتصر على معرفة ذلك؟ لماذا تريد وتصر على معرفة كل هذه الأشياء طالما أننا لم نبدأ بمضايقتك حتى الآن؟ إنك تشبه الطفل: «أريد أن ألعب بالنار!» لِمَ تقلق نفسك بهذا؟ هل تستطيع أن تعلمني بما يدفعك لطرح هذا السؤال علي؟ هيه، هيه، هيه!.

هتف راسكو لنيكوف وقد انفجر غاضباً:

ـ أكرر ما قلت من أنني لا أستطيع تقبل أكثر من ذلك.

قاطعه بورفير:

ـ ما هو ذلك الـ«ذلك» أهو الشك؟

ضرب راسكو لنيكوف المنضدة بقبضة يده بشدة وصاح:

ـ كفى! لا أريد! قلت لك لا أريد! إنني لا أستطيعه ولا أريده! هل تسمع! هل تسمع!

قال بورفير بصوت خافت أقرب إلى الهمس:

ـ اخفض صوتك، اخفض صوتك! لسوف يسمعونك! إنني أخطرك جدياً بأن تنتبه إلى نفسك. أنا لا أمزح!

لكن وجهه لم يكن يحمل الطابع الذي ارتسم عليه منذ حين، والذي كان يعطيه مظهر السيدة المزوعة، بل كان في تلك اللحظة «يأمر» بلهجة قاسية وهو يقطب حاجبيه ويبدو كأنه فجأة قد كشف عن كل الأسرار وكل الملابسات. لكن ذلك أيضاً لم يدم إلا لحظة واحدة. أما راسكو لنيكوف فقد أثير إثارة عاتية حتى كاد أن يستسلم إلى الغضب الرهيب لكن ـ ولدهشته ـ أطاع الأمر هذه المرة أيضاً فأخفت صوته رغم أنه كان في أعلى ذروات الغضب.

تمتم فجأة كما فعل منذ حين وقد فهم بألم ممتزج بالحقد بأنه لا يستطيع الامتناع عن إطاعة ذلك الأمر مما دعا غضبه يشتد ويتزايد:

ـ لن أدع نفسي أتعذب. أوقفني! واخضعني للتفتيش. لكن اعمل ذلك حسب الأصول دون أن تتلاعب بي! ليس لك الحق في هذا...

قاطعه بورفير بتلك الابتسامة المستهزئة وهو يتأمله بنظرة شره:

ـ لكن لا تبال بالأصول! هيا أيها الباسل لقد دعوتك دون تكلف تماماً كالأصدقاء.

ـ لا أريد صداقتك بل إنني أبصق عليها! هل تسمع؟ خذ! ها إنني أحمل قبعتي وأذهب. فماذا تقول الآن؟ هل تنوي توقيفي؟

وأخذ قبعته واتجه نحو الباب.

قال بورفير ضاحكاً وهو يقبض على ساعده فوق المرفق ويوقفه في اللحظة التي كاد أن يجتاز الباب فيها:

ـ لكن ألا تريد أن أقدم لك مفاجأة صغيرة؟

كان يبدو عليه أنه غدا أكثر انشراحاً وسروراً وأكثر ميلاً للمزاح؛ الأمر الذي جعل راسكو لنيكوف يفقد السيطرة على أعصابه!

سأل وهو يتوقف فجأة وينظر إلى بورفير برهبة:

ـ أية مفاجأة؟ ماذا تريد أن تقول؟

ـ مفاجأة صغيرة موجودة هنا وراء هذا الباب. هيه، هيه، هيه!

أشار بأصبعه إلى الباب المغلق الظاهر في الحاجز والذي يؤدي إلى مسكنه وتابع:

ـ لقد أغلقت الباب على تلك المفاجأة بالمفتاح خشية أن تفر.

ـ ما هي؟ أين؟ ماذا؟

واقترب راسكو لنيكوف من الباب وأراد فتحه لكنه كان موصداً.

قال بورفير وهو يخرج من جيبه مفتاحاً يمد يده به إليه:

ـ إن الباب مغلق بالمفتاح وهذا هو.

زمجر راسكو لنيكوف وقد فقد أعصابه نهائياً:

ـ إنك لا تني تكذب. أنت تكذب أيها المهرج اللعين!..

واندفع نحو بورفير الذي راح يتراجع نحو الباب دون أن يبدو عليه الفزع وصاح:

ـ إنني أفهم كل شيء. أنت تكذب. إنك تهيجني وتثيرني لكي أفضح نفسي...

ـ لكنك لن تستطيع بعد الآن أن تفضح نفسك أكثر من ذلك يا روديون رومانوفيتش الباسل، إنك الآن في حالة حنق وسخط. لا تصرخ وإلا فسأدعو رجالي.

ـ أنت تكذب لن يكون شيء! ادعُ رجالك! أنت تعرف بأنني كنت مريضاً فأردت أن تعمل على إيلامي وإثارتي لتدفعني إلى فقد السيطرة على نفسي وبالتالي فضح أمري. نعم ذلك هو هدفك! كلا. تقدم ببراهينك! لقد فهمت كل شيء! ليست لديك براهين. كل ما لديك ليس إلا تخمينات حقيرة نتنة. تخمينات أدخلها زاميوتوف في رأسك!... إنك عارف بعقليتي فأردت أن تجعلني أفقد السيطرة على نفسي ثم أنهار فجأة بين القساوسة والوكلاء. هؤلاء هم الذين تنتظرهم أليس كذلك؟ ماذا تنتظر؟ أين؟ ائتِ بهم!

دمدم بورفير وهو يصغي بأذنه إلى حركة وراء الباب:

ـ الأمر يتعلق فعلاً بالوكلاء يا صديقي المسكين. يا لها من أفكار! حتى ولو كان لمجرد الشكليات كما تقول. فإنه لا يمكن أن نتصرف هكذا، إنك لا تعرف الأصول، يا عزيزي. لكن الأصول لن تخسر شيئاً. ولسوف ترى بنفسك.

وفي تلك اللحظة بالفعل انبعثت حركة من الغرفة التي يؤدي إليها باب الحاجز.

هتف راسكو لنيكوف:

ـ آه! إنهم آتون، لقد كنت أرسلت في طلبهم!.. كنت تنتظرهم! كنت تعتقد.. حسناً ائت بهم كلهم: وكلاء، شهود كل من تريد! أدخلهم! إنني على استعداد! إنني على استعداد!

لكن في تلك اللحظة وقع حادث غريب، حادث غير منتظر في السياق العادي للأمور حتى أن لا راسكو لنيكوف ولا بورفير كانا ينتظران نتيجة مماثلة...

الفَصْلُ السَّادِسُ

عندما تذكر راسكو لنيكوف تلك الدقيقة الأخيرة فيما بعد، تخيلها على الشكل الآتي:

ازدادت الضجة التي بدأت وراء الباب فجأة ثم وورب الباب قليلاً.

فصاح بورفير بيتروفيتش بغضب:

ـ ماذا هناك؟ لقد نبهت مع ذلك..

لم يسمع جواباً أول مرة لكنه كان من الواضح أن عدداً من الأشخاص كانوا واقفين وراء الباب وكانوا يحاولون دفع شخص ما إلى الداخل!

كرر بورفير بيتروفيتش غاضباً:

ـ ماذا هناك؟

فأجابه صوت:

ـ لقد جئنا بالمتهم نيكولا!

صاح بورفير وهو يندفع نحو الباب:

ـ لست في حاجة إليه! اذهبوا! انتظروا! لم أدخلتموه إلى هنا؟ يا للفوضى!

كررت الصوت:

ـ ذلك أنه...

ثم صمت فجأة.

حدث خلال ثانيتين لون من العراك الحقيقي ثم بدا كأن أحداً قد دفع شخصاً آخر بشدة وبعد ذلك تقدم شخص شديد شحوب الوجه، وقصد مباشرة إلى مكتب بورفير بيتروفيتش.

كان مظهر ذلك الرجل للوهلة الأولى يوحي بشيء غريب جداً. كان ينظر أمامه بحدة ولكنه كان يبدو كأنه لا يرى أحداً. كانت عيناه تلتمعان ببريق حزم وتصميم لكن شحوباً مميتاً كان بنفس الوقت يغطي وجهه وكأنه كان يساق إلى ساحة الإعدام. كانت شفتاه مبيضتين تماماً ترتجفان برعدة خفيفة:

كان رجلاً في مقتبل العمر يرتدي ثياب العمال، متوسط القامة، نحيل البنية، محلوق الشعر على شكل «طاسة» ذا تقاطيع دقيقة جافة. أما الرجل الذي دفعه ذلك الشاب ليدخل الغرفة، فقد اندفع وراءه بدوره إلى الغرفة وتمكن من الإمساك بكتفيه: كان أحد رجال الدرك! دفع نيكولا الدركي عنه وتخلص منه مرة أخرى.

كان هناك بعض المتطفلين اجتمعوا على عتبة مكتب قاضي التحقيق بل إن بعضهم حاول الدخول. وقع كل هذا خلال لحظات معدودة قصيرة.

زمجر بورفير في أوج انزعاجه وغضبه:

ـ اذهب، لم يحن الوقت بعد. انتظر حتى ندعوك. لِمَ أدخلوك الآن؟

ركع نيكولا فجأة على ركبتيه فهتف بورفير ذاهلاً:

ـ ماذا تعمل؟.

تمتم نيكولا فجأة بصوت مختنق ولكن شديد النبرات:

ـ إنني مجرم! إنها غلطتي! إنني قاتل!

خيّم سكون هائل خلال عشر ثوان حتى ليخيل أن العالم كله قد أصيب بداء السكتة. حتى أن الدركي نفسه سقطت يداه دون وعي وتراجع من الغرفة نحو الباب حيث وقف جامداً.

هتف بورفير وقد تخلص من ذهوله القصير:

ـ ماذا تقول؟

كرر نيكولا بعد صمت قصير:

ـ إنني... قاتل...

ـ كيف... أنت! كيف! من قتلت؟

كان يبدو على بورفير أنه فقد اتزانه بشكل ملحوظ.

صمت نيكولا لحظة ثم أضاف فجأة:

ـ أليونا إيفانوفنا وأختها إليزابيت إيفانوفنا... لقد قتلتهما بضربات فأس لم أكن مالكاً قواي...

صمت من جديد دون أن ينهض من جثوه!

بدا على بورفير بيتروفيتش أنه يفكر. لكنه انتفض فجأة ولوح بيده مشيراً إلى الشهود غير المنتظرين بالانسحاب فانسحب هؤلاء فوراً ثم أغلق الباب من جديد. عاد ينظر إلى راسكو لنيكوف الذي كان واقفاً في إحدى الزوايا يتأمل نيكولا بشرود. كاد أن يخاطبه عندما توقف فجأة وراح يتأمله، ثم نقل نظره إلى نيكولا ومنه إلى راسكو لنيكوف وعاد به مرة أخرى إلى نيكولا. وفجأة اندفع نحو نيكولا بشيء من الغضب وصاح به بصوت حاقد:

ـ لِمَ جئت تقول لي سلفاً بأنك كنت فاقداً قواك العقلية؟ لم أسألك بعد إذا كنت ذاهلاً أم لا... تكلم! أأنت القاتل؟

غمغم نيكولا:

ـ إنني القاتل.. إنني أعترف بذلك.

إه... إه... وبأي شيء قتلت؟

ـ بفأس كنت حملتها معي.

ـ إه... إنك تسرع إلى النتائج... أكنت وحيداً؟

لم يفهم نيكولا السؤال.

ـ هل كنت وحيداً حينما قتلتها؟

ـ وحيداً. إن دميتري بريء، إنه لم يشترك مطلقاً في الجريمة.

ـ لا تتحدث بسرعة عن دميتري. إه.. إه... كيف فعلت ذلك؟ كيف تصرفت لتنزل السلم؟ لقد قابلك البوابان.

أجاب نيكولا وقد بدا عليه الاستعداد للإجابة على كل سؤال وكأنه كان يتعجل النهاية:

ـ لقد فعلت ما فعلت لأبدد شكوكهم.. عندئذ... ركضت وراء دميتري..

صرخ بورفير بغضب:

ـ أهذا صحيح.

ثم غمغم يحدث نفسه وقد عاد بصره فتوقف على راسكو لنيكوف:

ـ إنه يكرر ما أوحي به إليه.

لقد اجتذب نيكولا جل اهتمامه حتى أنه نسي أو تناسى وجود راسكو لنيكوف فلما تذكره بدا وكأنه خجل...

ـ يا روديون رومانوفيتش الشجاع، اعذرني...

وأشار له برأسه وهو يمسكه من ذراعه ووجهه نحو الباب:

ـ لا يمكنك البقاء هنا أرجوك... لم يعد لديك ما تفعله هنا... إنني شخصياً كما ترى... آه يا للمفاجأة!.. أرجوك!

قال راسكو لنيكوف الذي لم يكن بدوره قد فهم شيئاً مما حدث ولكنه كان بالمقابل قد استرد الشيء الكثير من رباطة جأشه:

ـ يظهر أنك لم تكن تتوقع هذا؟..

ـ لعمري كلا... ولا أنت على ما أظن، إنك لم تكن تتوقع ذلك بالمثل... هيا ماذا بك... إن يدك ترتجف ها! ها!

ـ إنك أنت أيضاً ترتعد يا بورفير بيتروفيتش.

ـ نعم إنني أرتعد أنا الآخر. إنني لم أكن أتوقع مثل هذا.

كانا قد بلغا باب المكتب وكان بورفير ينتظر بفارغ الصبر أن ينسحب راسكو لنيكوف.

قال راسكو لنيكوف فجأة:

ـ هيا... أين مفاجأتك الصغيرة؟ لِمَ لا ترينيها؟

ـ رباه. إنك تستخر بينما لم تتوقف أسنانك بعد عن الاصطكاك! ها ها! إنك لا تعدم المزاج! إلى اللقاء!

ـ بل أعتقد أنه الوداع.

غمغم بورفير بلون من الهمس:

ـ سيكون كما يشاء الله، نعم كما يشاء الله.

عندما اخترق راسكو لنيكوف المكاتب في طريق الخروج، لاحظ

أن هناك من ينظر إليه محدقاً. كما شاهد في الردهة بين جمع من الناس، البوابين اللذين كانا في ذلك «البيت» والذي عرض عليهما «ذاك المساء» أن يرافقهما إلى قسم البوليس. كانا واقفين يبدو عليهما أنهما ينتظران شيئاً.

لكنه لم يكد يبلغ رأس السلم حتى سمع صوت بورفير بيتروفيتش وراءه ولما استدار، شاهد قاضي التحقيق يلهث من التعب الذي سببه له تهافته على اللحاق به. قال:

ـ كلمة صغيرة يا روديون رومانوفيتش. إن كل ما حدث سينتهي كما يشاؤه الله! مع ذلك فإنني لسوف أستجوبك مراعاة للشكل فقط... إذن، لسوف نلتقي مرة أخرى ولا شك!

توقف بورفير أمامه وعلى فمه ابتسامة. وأضاف مرة أخرى:

ـ لا شك.

كان يمكن القول بأنه كان يرغب الإفصاح عن شيء آخر، لكنه لم يضف كلمة إلى ما قال.

شرع راسكو لنيكوف يقول وقد استعاد هدوءه نهائياً بل وشعر برغبة لا تقاوم تدفعه إلى التهكم:

ـ وأنت يا بورفير بيتروفيتش، اعذر موقفي حيالك منذ حين. لقد غضبت وانفعلت...

أردف بورفير بلهجة أنيسة نوعاً:

ـ لا عليك، لا عليك. إنني شخصياً كنت.. إنني ذو عقلية سامة قاسية أعترف لك نعم أعترف. لكننا سنلتقي. إن شاء الله سنلتقي أكثر من مرة أخرى.

أعقب راسكو لنيكوف:

ولسوف نتعارف نهائياً وتماماً.

أيد بورفير بيتروفيتش أقوال راسكو لنيكوف وهو يغمز له بعينه ويتأمله جدياً:

ـ معرفة نهائية! لسوف تذهب الآن لتقيم حفلة عيد ميلاد؟

ـ بل إلى مأتم.

ـ ماذا؟ أهو صحيح، مأتم! دار صحتك. إن الصحة كما ترى...

ـ عاد راسكو لنيكوف يقول وهو يهبط السلم:

ـ من جهتي، لست أدري أية أمنية أوجهها لك. إنني أتمنى لك كل توفيق عن طيبة خاطر لأنك كما ترى تشغل وظيفة غريبة شاذة!

قال بورفير وقد أنصت باهتمام بعد أن كان قد أدار له ظهره:

ـ لِمَ هي شاذة ومضحكة؟

ـ لكن ماذا دهاك؟ خذ مثلاً نيكولا المسكين. لا شك أنك مزقته وعذبته على طريقتك أشد العذاب ـ من الناحية النفسانية طبعاً ـ لكي يعترف. لقد اضطررت أن تبين له ليل نهار بأنه قاتل. والآن وقد جاء يعترف بأنه قاتل، تبدأ أنت من جديد فتنهال عليه: «أنت تكذب، أنك لست القاتل! ليس أنت من استطاع ارتكاب هذه الجريمة! إنك لا تقول الصدق!» فكيف بعد هذا لا تكون وظيفتك غريبة وشاذة؟

ـ ها، ها، ها! إذن لاحظت منذ حين بأنني قلت لنيكولا بأنه ينطق بما أوحي به إليه؟

ـ كيف لا ألاحظه؟

ـ ها، ها! إنك دقيق الملاحظة، إنك دقيق الملاحظة. إنك تلاحظ كل شيء! إن لك عقلاً ولا شك ميالاً إلى المزاج! ولقد لمست الحبل الهزلي... ها، ها! يقال إن بين كل الكتاب كان غوغول Gogol[1] وحده يمتاز بهذه الخاصة بأشد الإرهاف.

ـ نعم غوغول.

ـ هو كذلك غوغول.. يسرني لقاؤك.

عاد راسكو لنيكوف مباشرة إلى غرفته. كان متعباً منهوكاً حتى أنه لم يكد يدخل الحجرة حتى ألقى بنفسه على الأريكة ولبث ربع ساعة جالساً صامتاً يستريح من عنائه ويحاول ترتيب أفكاره فقط. لم يحاول قط أن يجد تفسيراً لسلوك نيكولا لأنه كان يشعر بالذهول مستولياً عليه، كان يشعر أن وراء اعتراف نيكولا شيئاً لا يفسر، شيئاً مدهشاً لم يك في تلك اللحظة قادراً على التعمق فيه واختراق حجبه. وفجأة بدت له ملابسات هذا الأمر العجيب بوضوح. سوف يظهر خطأ هذا الاعتراف بعد قليل وعندئذ سيعودون من جديد إليه. لكنه حرّ بانتظار ذلك. كان عليه أن يقوم بعمل ما في سبيل نفسه لأن خطراً جسيماً كان يهدده.

لكن إلى أي مدى يهدده ذلك الخطر؟ راح موقفه يتضح. تذكر على الفور الموقف الذي كان له مع بورفير، تذكره بصورة عامة دون التدقيق في التفاصيل فلم يتمالك أن اقشعر من الفزع. صحيح أنه لم يكن قادراً على كشف نوايا بورفير كلها وأفكاره، لكنه مع ذلك كان قد اكتشف لعبته

---

(1) شاعر وكاتب وروائي روسي ولد في سوروتشينزي (1852 - 1809) مؤلف تاراس بولبا، الأرواح الميتة وعدد من المؤلفات الأدبية الروسية القيمة. - المترجم -.

نوعاً ما. لم يكن أحد ـ مثل راسكو لنيكوف ـ يستطيع أن يتكهن بالنقطة الخطيرة الدقيقة التي بلغت إليها اللعبة التي بدأها بورفير معه. لولا قليل من الحظ، لكان فضح نفسه أمام قاضي التحقيق مقدماً إليه أدلة ملموسة تدعم فعلته. ولما كان بورفير عارفاً باضطرار أعصاب راسكو لنيكوف وذلك الاضطراب المرضي، فإنه راح يعمل على هذا الأساس بعد أن اكتشفه للوهلة الأولى. راح يعمل متأكداً من النتائج رغم أن لعبته كانت سابقة لأوانها قليلاً. كان راسكو لنيكوف ـ ولا شك في ذلك ـ قد استجاب لحظة لقاضي التحقيق فكاد أن يثبت على نفسه الاتهام على شكل ما. لكن الأمر لم يكن قد وصل بعد إلى حد «الأدلة». كان مجرد اشتباه واستنتاجات!

لكن، هل كان يرى الأمور الآن على حقيقتها؟ ألم يكن مخطئاً في هذا الاستنتاج؟ ما هي النتيجة التي كان بورفير يتوقعها اليوم؟ هل كان مدبراً أمراً ما لذلك اليوم بالذات؟ وما هو ذلك الأمر على التحديد؟ هل كان ينتظر شيئاً نعم أم لا؟ كيف كانا سيفترقان ذلك اليوم لولا تلك الكارثة غير المنتظرة التي يرجع الفضل فيها إلى نيكولا؟

لقد ترك بورفير خطته كلها تكتشف دون ترو، ذلك لأنه لم يكن ينتظر تلك النتيجة لذا يمكن القول بأن لعبته كان سابقة للأوان. لكن هل كان يعمد إلى تلك اللعبة ـ لعبة الإرهاق والإثارة ـ لو كان يمتلك أشياء أخرى بين يديه؟ إنه ما كان يمكن أن يخفيها وهو الذي عمد إلى كل شيء في حوزته ـ أو على الأقل هكذا خيل إلى راسكو لنيكوف ـ ماذا كانت إذن تلك المفاجأة؟ هل كانت خدعة؟ ماذا كان فيها من حقائق؟ هل كان هناك دليل إيجابي؟ هل كان ذلك رجل الأمس؟ أين اختفى ذلك الرجل؟ أين هو اليوم؟ لو كان بورفير يمتلك ذلك اليوم شيئاً إيجابياً لكان حتماً ذا علاقة بذلك الرجل، رجل البارحة...

كان جالساً على الأريكة، منحنياً وقد ركز مرفقيه على ركبتيه وجعل وجهه في راحتي يديه. شعر برعدة عصبية تهز جسمه، أخيراً نهض واقفاً وأخذ قبعته ثم فكر لحظة واتجه إلى الباب.

شعر بإحساس غريب يؤكد له بأنه يستطيع اعتبار نفسه في أمان ذلك اليوم على الأقل! وفجأة أحس بفرح طاغ يغمر قلبه: أراد أن يذهب فوراً إلى كاترين إيفانوفنا. لا شك أنه كان متأخراً فيما يتعلق بحضوره مراسم الدفن لكنه كان يستطيع الوصول في الوقت المناسب لتناول الغداء الجنائزي ولعله سيلقى سونيا هناك.

توقف فجأة وراح يفكر: ارتسمت ابتسامة مَرَضيَّة على شفتيه: «اليوم! اليوم! نعم اليوم بالذات! ذلك ضروري، واجب...».

كان ذلك هو حديثه مع نفسه، فلما اتجه نحو الباب وأراد أن يفتحه، وجد أن هذا قد فتح من تلقاء نفسه. ارتعد وقفز إلى الوراء. كان الباب يفتح بهدوء وبطء! وفجأة برز على العتبة شكل إنسان: كان هو رجل الأمس ذلك الذي انبعث من تحت الأرض.

توقف الرجل على العتبة وراح ينظر إلى راسكو لنيكوف صامتاً ثم تقدم خطوة داخل الغرفة. كان يرتدي ملابس أمس بالذات وكان رجل أمس بالذات. لكن وجهه كان يحمل تعابير مختلفة جداً عن تعابير أمس: كان يبدو في تلك اللحظة مرتبكاً جداً لذلك فإنه بعد أن توقف برهة أطلق زفرة عميقة! لم يكن ينقصه في تلك اللحظة ليشبه امرأة عجوزاً إلا أن يضغط خده على راحة يده وأن يميل برأسه قليلاً إلى الجانب.

لبث الرجل صامتاً، وفجأة انحنى أمامه حتى كاد أن يلامس الأرض. بل إنه لمسها بالخاتم الموجود في أصبع اليد اليمنى، هتف راسكو لنيكوف:

ـ ماذا تعمل؟

قال الرجل بصوت خافت:

ـ إنني أطلب إليك الصفح.

ـ ماذا؟ تطلب ماذا؟ لأي شيء؟

ـ عن أفكاري السيئة...

راح كلاهما يتبادلان النظر.

ـ لقد كنت منزعجاً! عندما جئتَ ذلك اليوم ـ ولعلك كنت ثملاً بعض الشيء ـ فإنك ناديت البوابين وسألتهما عن الدم. لقد استأت عندما وجدتهما يعتبرانك ثملاً ولا يهتمان بشأنك. لقد بلغ من استيائي أنني لم أستطع النوم، وبما أنني كنت أذكر عنوانك فقد جئت أمس مساء أسأل عنك...

سأل راسكو لنيكوف وقد بدا عليه أنه على وشك فهم القضية بحذافيرها:

ـ من الذي جاء؟

ـ أنا. أقصد أنني أهنئك.

ـ لقد كنت إذاً في ذلك البيت؟

ـ نعم. لقد كنت قرب الباب العام مع الآخرين. هل نسيت؟ إن لي هناك كوخاً خشبياً منذ زمن طويل... إن صناعتي فرّاء وأتعهد كذلك صنع الفراء وتهيئتها... لكن ما أزعجني على الأكثر...

وأخيراً تذكر راسكو لنيكوف بجلاء مشهد أول أمس أمام الباب العمومي. كان يحدث نفسه بأنه كان هناك، علاوة عن البوابين، أشخاص آخرون عديدون وبعض النساء. تذكر أن صوتاً كا قد اقترح سوقه إلى مركز

البوليس فوراً. لم يكن يذكر وجه ذلك الذي تقدم بذلك الاقتراح حتى أنه الآن أيضاً لم يكن متأكداً من أنه سبق رؤية ذلك الوجه هناك. رغم أنه تذكر أنه أجابه بشيء في ذلك الحين وأنه التفت نحوه أيضاً وقال له شيئاً...

وهكذا اتضح أخيراً ذلك السر الرهيب! كان أشد ذلك رهبة تفكيره في أنه كاد يخسر نفسه ويستسلم بنتيجة هذه المسألة «التافهة»! على ذلك، فإن هذا الرجل الواقف أمامه، لم يكن إذاً يستطيع التحدث إلا فيما يتعلق بأسئلته عن الدم، وبالتالي فإن بورفير بالذات لم يكن لديه أي دليل إيجابي، أي برهان باستثناء ذلك الهذيان. تلك البسيكولوجيا ذات الوجهتين! إذاً إذا كان قاضي التحقيق يفتقر إلى وقائع أخرى ـ الأمر الذي كان واضحاً لاستحالة وجود دليل واحد ـ إذاً... إذاً... ماذا يستطيعون أن يعملوا حياله؟ كيف يستطيعون نهائياً إقناعه بإجرامه بل وأن يوقفوه؟ وإذاً فإن بورفير لم يكن على علم بزيارته لذلك المسكن إلا في تلك اللحظة بالذات وإنه كان يجهل أمر تلك الزيارة من قبل.

(هتف راسكو لنيكوف وقد خامرته فكرة مفاجئة:

ـ هل كان تحدثك مع بورفير حول موضوع زيارتي إلى هناك اليوم؟

ـ أي بورفير؟

ـ قاضي التحقيق؟

ـ لقد حدثته بذلك. عندما لم يذهب البوابان ذلك اليوم بالذات ذهبت إليه اليوم.

ـ اليوم؟

ـ قبل وصولك بدقيقة واحدة. لقد سمعت كل شيء، كل شيء! رباه كم عذبك!

ـ أين؟ ماذا؟ متى؟

ـ لكن هناك، في مسكنه، وراء الحاجز! لقد لبثت هناك طوال الوقت!

ـ كذلك إذاً كنت أنت «المفاجأة»؟ لكن كيف وقع ذلك؟ قل أرجوك!

قال الرجل:

ـ عندما وجدت أن البوابين لا يتفقان معي بالرأي ويرفضان الذهاب إلى قسم البوليس بحجة أن الوقت قد فات وأن القاضي سوف يؤنبهما أو يعاقبهما على إغفالهما الحضور فوراً، انزعجت جداً حتى فقدت النوم. جمعت المعلومات عن حديثك، ولما تم لي كل شيء البارحة، ذهبت صباح اليوم أمثل بين يديه. لم يكن في مكتبه في المرة الأولى، فعدت بعد ساعة لكنه لم يستقبلني كذلك. أما في المرة الثالثة فقد أدخلت عليه فقصصت عليه الأشياء كما وقعت، فراح يقفز في الغرفة وهو يضرب صدره بقبضة يده ويصيح: «آه أيها الأشقياء! هكذا إذن تتصرفون معي! لو علمت ذلك لأرسلت رجال الدرك يبحثون عنه ليأتوني به!» ثم خرج راكضاً ونادى أحدهم وراح يتحدث إليه في إحدى الزوايا ثم عاد إلي وراح يمطرني وابلاً من أسئلة وهو يطلق السباب من فمه كالقذائف. لقد حدثته بكل شيء: قلت له أنك لم تجرؤ البارحة على الإجابة على أقوالي، وأنك لم تتعرف على وجهي! فعاد إثر ذلك يقفز من جديد ويضرب صدره بقبضته. وينفعل ويثور فلما أعلن قدومك لي «اختبئ وراء الحاجز وانتظر ولا تتحرك مهما سمعت!» ثم أتاني بمقعد وأغلق علي الباب بمفتاح وهو يقول:«يجوز أن أستدعيك» لكن لما جيء بنيكولا، أطلق سراحي فوراً عقب خروجك وهو يقول «لسوف أستدعيك مرة أخرى ولسوف أستجوبك».

ـ هل استجوب نيكولا بحضورك؟

ـ لقد أخرجني من الغرفة بعد خروجك مباشرة ومن ثم عاد يستجوب نيكولا.

توقف الرجل عن الكلام وعاد ينحني مرة أخرى وهو يلمس الأرض بإصبعه:

ـ اصفح عن وشايتي والألم الذي سببته لك.

فأجاب راسكو لنيكوف:

ـ ليصفح اللّه عنك!

لم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى انحنى الرجل مرة أخرى ولكن انحناءة أخف من الأولى ـ حتى وسطه فقط ـ ثم استدار ببطء وخرج من الغرفة.

قال راسكو لنيكوف بحزم وثبات:

«لا شيء إلا نظريات ذات وجهتين» وغادر غرفته وهو أشد اطمئناناً من أي وقت مضى.

راح يحدث نفسه وهو يهبط السلم: «الآن نستطيع أن نثابر على النضال».

كان يشعر بشيء من الغضب: كان يذكر بخجل واشمئزاز «دناءة نفسه وصغارها!».

القسم الثاني

الفَصْلُ الأوّل

غداة اليوم الذي وقعت فيه المقابلة الخاسرة التي قضت على آمال بيير بيتروفيتش، والتي جرت بينه وبين دونيا وبولشيري ألكسندروفنا، استيقظ هذا من نومه وقد أزيحت الغشاوة عن عينيه. اضطر ـ رغم عظيم انزعاجه ـ أن يعتبر ما وقع البارحة أمراً حقيقياً لا يقبل الجدل رغم اعتقاده السابق بأنه أمر خيالي بعيد الوقوع. شعر بأفعى كرامته المجروحة تنهش قلبه وتدميه. لم يكد يغادر السرير حتى مضى إلى المرآة يتأمل نفسه فيها. كان يخشى أن يكون الاصفرار قد تغلب على وجهه خلال نومه، غير أنه وجد أن لا خطر عليه مطلقاً من هذه الناحية في الوقت الحاضر على الأقل فراح ينظر إلى وجهه النحيل الشاحب المنتفخ قليلاً بفعل الشحم الذي تراكم عليه في الأيام القليلة الأخيرة. راح بيير بيتروفيتش يعزي نفسه مفكراً بأنه سوف يستطيع إيجاد خطيبة أخرى في مكان ما لعلها تكون خيراً من هذه وأرفع قدراً ومكانة! لكنه لم يلبث أن تحرر من هذا الوهم وشعر بوطأة الكارثة، مما جعل صديقه الذي يقطن عنده: السيد أندريه سيميونوفيتش ليبيزياتنيكوف، يضحك ضحكة صامتة ساخرة. لاحظ بيير بيتروفيتش تلك الضحة وسجلها فوراً في عداد نفاق زميله الشاب. كان يرى أن حساب ذلك الزميل قد بدأ يتضخم وبصورة خاصة منذ وقت قصير؛ وتضاعف غضبه عندما فكر في أنه كان يجدر به أن لا يطلع أندريه

سيميونوفيتش على وقائع حادثة الأمس أبداً. اعتبر تلك الصراحة خطيئته الثانية في يوم واحد بدافع انفعاله وسخطه: لقد شعر بأنه تبسط كثيراً واندفع أكثر من اللازم مع غضبه.

وقع له بعد ذلك عدد من المزعجات والمضايقات في تلك الصبيحة ـ وكأن الأمر كان متعمداً ـ إذ خسر الدعوى التي كان يرافع فيها أمام مجلس الشيوخ وأبلغ بفشله في ذلك اليوم، وضاعف غضبه رفض صاحب المسكن الذي استأجره ليعقد فيه زواجه ويقطن فيه ـ والذي كان بناء على الاتفاق قد دفع نفقات عديدة لإجراء التعديلات فيه ـ إدخال أي تبديل على نصوص الاتفاق أو إعادة شيء من النفقات إليه! كان صاحب المسكن من طراز أولئك العمال الحديثي الثراء ـ وهو ألماني الجنسية ـ فاضطر بيير بيتروفيتش أن يعيد إليه مسكنه الذي أضحى في حالة جديدة! ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى مخزن الأثاث الذي رفض كذلك أن يعيد روبلاً واحداً من العرابين التي دفعها بيير بيتروفيتش من ثمن الأثاث الذي أوصى بصنعه والذي لم يكن قد تسلم منه ولا قطعة واحدة! فراح يحدث نفسه وهو يصرف على أسنانه: «هل يجب أن أتزوج عامداً لأنني أوصيت على أثاث جديد؟».

خطرت له فكرة يائسة لكنها راودت ذهنه زمناً: «هل صحيح أنه أضاع كل شيء إلى لا رجعة؟ ألا يمكن بذل محاولة جديدة؟» عادت صورة دونيا الفاتنة تمزق قلبه من جديد وشعر بهذا العذاب طيلة دقيقة حتى أنه لو أتيح له في تلك اللحظة أن يقتل راسكو لنيكوف لمجرد الرغبة لنفذ تلك الرغبة دون تردد.

ناجى نفسه: «لقد ارتكبت خطأ آخر جسيماً: ذلك أنني لم أعطهما نقوداً من قبل! ليحملني الشيطان كم كنت يهودياً! مع إنها لم تكن قضية

مصلحة! كنت أفكر في إبقائهما في العوز ودفعهما إلى اعتباري كملك منقذ هبط من السماء. وهكذا... أوه! كلا لو أنني خلال هذا الوقت أعطيتهما بعض ألف وخمسمائة روبل لإعداد الألبسة وقدمت لهما بعض الهدايا الصغيرة أو اشتريت كل أنواع اللوازم والألبسة الداخلية والخرق وما إلى ذلك من القذارات المشابهة من مخزن «كنوب» أو المخزن الإنجليزي. آه! لو أنني فعلت هذا. لكانت القضية أشد وضوحاً... بل وأكثر قوة ومتانة! ما كان باستطاعتهما القيام بهذا العمل لو أنني فعلت شيئاً من ذلك. إن هؤلاء الناس ذوو عقلية خاصة، يعتقدون أنهم في حال فسخ الخطوبة، ملزمون بإعادة الهدايا والمال: لكن الإعادة كانت ستكون بالنسبة إليهم صعبة متعبة. ثم إنهما كانتا ستنظران إلى الأمر من الوجهة الوجدانية وستقولان في سرهما: «كيف نطرد فجأة رجلاً كان حتى الآن شديد الكرم، كثير الرقة؟..» هم! لقد ارتكبت حماقة! ومن جديد صرف بيير بيتروفيتش عن أسنانه ونعت نفسه بالسخيف... في سره طبعاً.

إزاء هذا القرار الذي اتخذه عاد بيير بيتروفيتش إلى المسكن مضاعف الحنق والغضب أكثر مما كان عليه لما خرج. كانت استعدادات الطعام الجنائزي الذي كان يعد في غرفة كاترين إيفانوفنا تجذب انتباهه. لقد سمع بالأمس عن ذلك الطعام بشكل غير واضح وظن أنه مدعو فقد هرع إلى السيدة ليبيويشسل التي كانت في غياب كاترين إيفانوفنا ـ وكانت هذه متغيبة في المدافن ـ تتشاغل حول المائدة المعدة، يسألها. فعلم بأن الأمر متصل بطعام جنائزي وقور دعي إليه كل المستأجرين حتى الذين لم تسبق لهم معرفة بالمرحوم وأن أندريه سيميونوفيتش ليبيزياتنيكوف في عداد المدعوين رغم مشاجرته الأخيرة قريبة العهد مع كاترين إيفانوفنا وأنه هو ـ بيير بيتروفيتش ـ لم يكن مدعواً فحسب

بل كان منتظراً بفارغ الصبر نظراً لأنه من أرفع المستأجرين اعتباراً. بلغه أيضاً أن إميلي إيفانوفنا نفسها قد دعيت بترحاب رغم الحوادث المؤسفة الأخيرة التي وقعت بينها وبين كاترين إيفانوفنا وأنها بسبب ذلك التسامح من جانب كاترين كانت في تلك اللحظة تقوم بدور ربة البيت الأمر الذي كان يضفي عليها لوناً من السرور. كان ترتدي ثوباً جديداً من الحرير الثمين الأنيق تختال فيه بكبرياء!

كانت هذه المعلومات والوقائع التي توصل بيير بيتروفيتش إلى معرفتها توحي إليه بفكرة ما، فعاد إلى غرفته أو بالأحرى إلى غرفة أندريه سيميونوفيتش ليبيزياتنيكوف وهو فريسة انشغال فكري. كان على حق في قلقه وانشغاله ذلك لأنه عرف أن راسكو لنيكوف في عداد الحاضرين.

لبث أندريه سيميونوفيتش ذلك الصباح في غرفته لسبب من الأسباب، وكان لبيير بيتروفيتش مع ذلك السيد علاقات غريبة لكنها طبيعية: كان بيير بيتروفيتش يحتقره ويكره إلى أقصى الحدود وكان ذلك الشعور يختلج في نفسه منذ اليوم الأول الذي نزل فيه عنده! لكنه كان يشعر إضافة إلى ذلك بلون من الرهبة أيضاً. كان قد حل عنده منذ وصوله إلى بطرسبورغ وليس بسبب عقليته الاقتصادية المتعنتة فحسب ـ رغم أن هذا هو السبب الحقيقي الرئيسي ـ لكنه فعل ذلك لسبب آخر أيضاً. كان قد بلغه ـ لما كان لا يزال في المقاطعة ـ عن أن أندريه سيميونوفيتش الذي كان تحت وصايته من قبل. إنه من أكثر التقدميين الشباب نشاطاً، ويُنظر إليه كما يُنظر إلى رجل يلعب دوراً هاماً في عدد من الأوساط الغامضة التي بلغت سمعتها حد الخرافة! وكانت هذه الشهرة التي حازها ذلك الموصى عليه قد أدهشت الوصي بيير بيتروفيتش لأنه كان يعرف أن تلك الأوساط قوية النفوذ المحيطة علماً بكل شيء، تحتقر كل الناس

وتشهر بكل الناس. فشعر بيير بيتروفيتش بلون خاص من الخوف لم يكن يستطيع تحديده على الضبط، ذلك أنه ـ بسبب إقامته في المقاطعة ـ لم يكن يسهل عليه أن يكون لنفسه أفكاراً حقيقية واقعية عن كثير من الأمور. قد سمع أن في بطرسبورغ تقدميين وملحدين ومتشيعين لإحلال العدالة وإنصاف المغبونين إلخ... إلخ... لكنه كان ـ شأن الكثيرين غيره ـ يبالغ في تفسير المعنى الذي تشتمل عليه تلك الكلمات بل ويشوهه حتى يبلغ به درجة الوهم والشذوذ! كان يخشى منذ سنوات طويلة التشهير بين الجماهير فكان هذا الخوف، هو السبب الرئيسي الذي ارتكز عليه قلقه وراح ينمو خصوصاً عندما قرر أن ينقل حقل نشاطه إلى بطرسبورغ. كان يخاف حتى الأطفال بهذا الصدد. لقد عرض عليه قبل سنوات ـ أثناء وجوده في المقاطعة، وكان في بدء حياته العملية حادثان كان ضحاياهما من الشخصيات القوية التي ذهبت ضحية ذلك التشهير القاسي! تبرع مدافعاً عنهم بكل قواه فبسطوا حمايتهم عليه. لقد انتهت إحدى تينك القضيتين نهاية فاضحة بالنسبة لصاحب العلاقة. أما الحادث الآخر فقد أحدث للضحية عدداً كبيراً من الارتباكات. لذلك عمد بيير بيتروفيتش حال وصوله إلى بطرسبورغ إلى تحسس مواقع خطاه. كان مستعداً أن يأخذ المقدمة بين هؤلاء التقدميين لكي يكسب عطف «أجيالنا الناشئة»! وكان يعتمد في هذه الخطوة على أندريه سيميونوفيتش. وبفضله استطاع، أثناء زيارته لراسكو لنيكوف أن يتدبر ويصوغ تلك العبارات التي ألقاها أثناء الحدث، والتي كان قد التقطها نتفاً من أحاديثه مع أندريه سيميونوفيتش.

غني عن الذكر أنه بعد فترة من بقائه راح بيير بيتروفيتش يعتبر أندريه سيميونوفيتش غاية في التبذل والبساطة. لكنه لم يقتنع بنجاته من الخطر ولم يستطع تبديل رأيه. لم يجد على العموم ما يعمله بكل تلك

المعلومات والأفكار والدراسات والأساليب التي كان أندريه سيميونوفيتش يوقر أذنيه بها! لقد كان له هدفه الخاص. كان يريد أن يعرف بأسرع ما يمكن الأجوبة على «لم وكيف» المتعلقتين بهذا أو ذاك من الأوضاع، وأن يتأكد من قوة هؤلاء «الأشخاص» أو ضعفهم وهل بمقدورهم خلق «شيء» يضربه شخصياً؟ كان يريد أن يعرف: هل يستطيعون فضح أمره مثلاً إذا اندمج في مشاريع معينة أم لا؟ وما هي النقاط التي يستطيعون بناء تشهيرهم عليها؟ إنه كان يريد أن يعرف هل يمكن محاولة الخداع والتلاعب مع هؤلاء «الناس» إذا كانوا بالفعل أقوياء؟ هل يجب خداعهم أم لا يجب؟ هل كان يستطيع الاعتماد على منظماتهم ليبني عليها مركزاً ممتازاً لنفسه؟ وبكلمة واحدة كانت هناك مئات من الأسئلة تتطلب أجوبة.

كان أندريه سيميونوفيتش ذاك رجلاً ساذجاً قصير القامة هزيلاً مصاباً «بداء الخنزير»، كان يشتغل موظفاً في مكان ما. كان لونه أشقر فاتحاً وله سالفان طويلان يفخر بهما يصلان حتى أسفل عظم الحنك، وكان كذلك يشكو دائماً ـ تقريباً ـ آلاماً في عينيه. كان ذا مزاج مائع يظهر في خطاباته وأقواله كثيراً مع الاعتداد الذي كان يبلغ أحياناً مبلغ القسوة ويتناقض تناقضاً مضحكاً مع عقليته الماكرة. وكانت إميلي إيفانوفنا تعتبره من أحسن المستأجرين لأنه لم يكن يثمل أبداً ولأنه كان يدفع أجرة سكنه بانتظام! ولولا هذه المزايا لكان أندريه سيميونوفيتش سخيفاً ثقيل الظل. كان منخرطاً في الحزب التقدمي «والأجيال الناشئة» يبدي نحوه حماساً متوقداً. كان واحداً من أولئك البلهاء المندفعين الذين لا يتورعون أبداً عن اتباع الفكرة الرائجة، يقبح ويشوه كل شيء يلمسه حتى ولو كان يميل إليه بإخلاص!

بلغ ليبيزيا تنيكوف حداً جعله ـ رغم ما كان عليه من الدعة

والتبسط ـ يبرم بوصيه السابق بيير بيتروفيتش حتى بات لا يطيق احتماله بل ويمكن القول أن تلك الكراهية أصبحت متبادلة من كلا الجانبين وقد نبتت بينهما بشكل عرضي. أدرك أندريه سيميونوفيتش أخيراً، رغم بساطته، أن بيير بيتروفيتش كان يخدعه ويزدريه وأنه لم يكن قط كما كان يريد أن يبدو. كان قد حاول أن يعرض عليه أسلوب فوريير Fourier [1] ونظريات داروين. لكن بيير بيتروفيتش راح في الأيام الأخيرة يصغي إليه بشيء من التهكم بل إنه أهانه في الأيام الأخيره! والسبب في ذلك أن لوجين بدأ يفهم مؤخراً أن ليبيزياتنيكوف ليس سخيفاً صغيراً فحسب، بل إنه كذلك مهذار محروم من كل علاقة هامة في الوسط الذي هو منه، وإن كل ما كان يعرفه من معلومات ونظريات كانت تأتيه عن طريق إيحاء شخص ثالث. ثم إنه توقع أن لا يكون قوياً في قضية «الدعاية» التي كان يتوق إليها، لأنه وجده فارغاً لا يمكن الاعتماد على مؤهلاته كواحد من ناشدي العدالة.

نسجل في هذه المناسبة أيضاً أن بيير بيتروفيتش كان ـ طيلة أيامه العشرة التي أقام خلالها مع ليبيزياتنيكوف ـ يتقبل باعتبار ـ وخصوصاً في الفترة الأولى ـ كل الأقوال والآراء الغريبة التي كان يقدمها إليه أندريه سيميونوفيتش، أو أنه على الأقل كان يمتنع عن الاعتراض عليها. فكان يصمت مثلاً لما كان أندريه سيميونوفيتش يعزو إليه قرار إقامة وحدة اشتراكية جديدة مقبلة في مكان ما من شارع «بورجواز» أو أن يدع دونيا وشأنها إذا شاءت بعد شهر واحد من زواجهما أن تتخذ لها عشيقاً، أوـ أكثر من ذلك ـ أن لا يعمد أولاده إلخ... إلخ... كان حسب عادته، لا يناقش تلك الأقوال ولا يناقضها بل ولم يكن ينفي ما يُعزى إليه منها بل وكان يسمح

(1) شارل فورييه فيلسوف وعالم نفساني فرنسي ولد في بيزانسون 1972 ومات 1837 وهو رئيس المدرسة الفالانستيريانية «الوحدة الاشتراكية». - المترجم -.

أيضاً أن يُمتدح على هذا الأساس لشدة ما كان المديح ـ من أي نوع كان ـ يعزيه ويرضيه.

كان بيير بيتروفيتش ـ لسبب ما ـ قد أبدل ذلك الصباح بعض الأسهم بنقود. فكان جالساً إلى المنضدة يعد رزم الأوراق المالية والاعتبارية. أما أندريه سيميونوفيتش الذي كان معدماً أبداً، فإنه كان يتجول في الغرفة ويتظاهر بالنظر إلى تلك الأوراق المالية نظرة لامبالاة بل ونظرة احتقار. غير أن بيير بيتروفيتش ما كان يصدق أبداً أن أندريه سيميونوفيتش ينظر حقيقة إلى ذلك المال باستخفاف وكان أندريه سيميونوفيتش بالمقابل، يفكر بمرارة بأن بيير بيتروفيتش كان في واقع الحال مقتدراً ومستعداً تماماً لانتهاز هذه الفرصة لإغاظة صديقه الشاب بنثر هذه الأوراق المالية على المنضدة مذكراً إياه بتفاهته وبكل الفارق البعيد القائم بينهما بوضوح.

وجده في تلك المرة أكثر انفعالاً وأقل انتباهاً من كل مرة سبقت حتى أنه ـ هو أندريه سيميونوفيتش ـ راح مندفعاً في شرح نظريته المفضلة: إقامة «اشتراكية» جديدة ذات طابع خاص! فكانت الأجوبة القليلة التي راح بيير بيتروفيتش يتفوه بها بين الحين والحين ـ وهو مستمر في إحصاء الرزم النقدية وتبديل مواضعها ـ طافحة بالسخرية الجريئة الوقحة. لكن أندريه سيميونوفيتش ـ كواحد من «الإنسانيين» ـ عزا مزاج بيير بيتروفيتش الغريب إلى التصدع الذي حصل بينه وبين دونيا، فراح يتحرق شوقاً إلى إثارة هذا الموضوع: كان عليه أن يتفوه ببعض العبارات «التقدمية والدعاوية» لكي يعزي صديقه المحترم. ولتكون ذات فائدة في تنمية نفسيته «دون أدنى شك».

سأل بيير بيتروفيتش مقاطعاً أندريه سيميونوفيتش في نقطة من أشد النقاط أهمية في حديثه.

ـ ما هو هذا الطعام الجنائزي الذي يعدونه لدى... تلك الأرملة؟

ـ كأنك لا تعرفه! لقد حدثتك البارحة في هذا الموضوع وعرضت لك آرائي حول كل هذه الاحتفالات. لقد دعتك أنت الآخر حسب ما سمعت وقد تحدثت بنفسك معه البارحة...

ـ ما كنت أنتظر أن تكون تلك الحمقاء ـ وقد بلغت بها الفاقة هذا المبلغ ـ مستعدة لإنفاق مال تلقته من أحمق آخر اسمه راسكو لنيكوف في سبيل إعداد طعام... بل لقد دهشت بنفسي منذ حين حينما مررت هناك وشهدت تلك الاستعدادات: حتى الخمر لم تخلو منه المائدة. لقد دعت عدداً كبيراً من الأشخاص... الشيطان يعرف ما هذا!

أردف بيير بيتروفيتش وقد بدا أنه يغذي فكرة معينة في رأسه:

ـ ماذا؟ أتقول بأنني مدعو كذلك؟ متى؟إنني لا أذكر!

ثم رفع رأسه قليلاً واسترسل متمماً حدثه:

ـ على كل حال، سوف لن أذهب! ماذا سأعمل هناك؟ لم أحدثها البارحة إلا بقولي إنها تستطيع أن تحصل على منحة مباشرة تعادل أجرة زوجها عن عام واحد بصفتها أرملة موظف شديدة العوز. ولعلها دعتني من أجل هذا. ها! ها!

قال ليبيزياتنيكوف:

ـ إنني كذلك لا أنوي الذهاب إلى هناك!

ـ لم يكن ينقص إلا هذا! لقد ضربتها بيدك أمس. ولسوف يفهم أنك تتذرع بهذا السبب لعدم الذهاب هاهاها!

سأل ليبيزياتنيكوف بانفعال وقد احمر وجهه:

ـ ضربت من؟ عمن تتحدث؟

ـ نعم، لقد ضربت كاترين إيفانوفنا منذ شهر.. هيا! لقد علمت ذلك أمس... ها هم أولاء جماعتك بنظرياتهم... هذه هي أساليبهم في تسوية المشاكل النسائية هاهاها!

عاد بيير بيتروفيتش يؤدي عمله بين جمع وإحصاء بلهجة مرحة.

أجاب ليبيزياتنيكوف غاضباً ـ وقد كان من عادته أن يثور وينفعل كلما أعيدت على مسامعه هذه القصة.

ـ إنها حماقة وسبة! لم تحدث الأمور هكذا كما تحدثت... لم تقع الأمور هكذا أبداً مطلقاً! لقد أسأت الفهم! إنها أكاذيب كريهة! إنني كنت أدافع عن نفسي فحسب! إنها هي التي هاجمتني مشرعة أظافرها. لقد جذبتني من سالفي... إنه مسموح للرجل على ما أعتقد أن يدافع عن شخصه... ثم ـ وهذا مبدئي ـ إنني لا أسمح بأن أعامل بالشدة والقسوة لأن ذلك لون من الاستبداد. هل كان يجب بأن أقف أمامها دون حراك؟ إنني لم أعمل أكثر من دفعها عني.

أردف لوجين متضاحكاً بوحشية:

ـ تا! تا! تا!

ـ إنك تحاول مخاصمتي لأنك سيئ المزاج اليوم... لكن هذه ليست إلا حماقات وليس لها أي شأن في قضية «النهضة النسائية» لقد أسأت الفهم. إنني أفكر بأنه إذا كان تساوي المرأة بالرجل في كل المرافق الاجتماعية وحتى من حيث القوة مقبولاً ـ وهو بالواقع مقبول ومؤكد ـ فإن المساواة ينبغي كذلك أن تكون شاملة هذه الناحية بالمثل. لا شك بأنني فكرت بعدئذ بأن مسألة كهذه ما كان يمكن أن تعرض في الواقع لأن المشاجرات

والمخاصمات لا ينبغي أن تكون، وهي ـ أي المخاصمات ـ لن تكون مقبولة أو حاصلة في المجتمع المقبل! على هذا فإنه من الغريب أيضاً البحث في المساواة في التخاصم. إنني لست غبياً إلى هذا الحد... إن المشاحنات والمشاجرات رغم أنها موجودة، أقصد أنها في المستقبل لن تكون، رغم أنها في الوقت الحاضر لا زالت في الوجود!... هه! يا للشيطان... يستطيع الإنسان أن يكون صريحاً معك... إنني لن أختلف عن حضور الوليمة من أجل هذا الحادث العرضي بل حفاظاً على المبدأ! إنني لا أريد أن أشترك في هذا التقليد السخيف الفاسد!... الطعام الجنائزي! هذا هو السبب، مع ذلك فإنني أستطيع الذهاب ولو على سبيل الهزء والسخرية. لكن لسوء الحظ لن يكون هناك قساوسة. وإلا لذهبت حتماً.

ـ تعني أنك كنت في هذه الحالة ستذهب وتجلس إلى المائدة لتبصق على ألوان الطعام بل وعلى الأشخاص الذين دعوك أليس كذلك؟

ـ ليست القضية قضية بصاق مطلقاً! إنها قضية احتجاج ومعارضة! سأعمل ذلك في سبيل غايات نافعة. إنني أستطيع أن أنتهز الفرص بشكل غير مباشر لأخدم الدعاية. إن كل رجل مدعو إلى المساهمة في مجهود الدعاية. وكلما قام بها بشكل حاسم كلما كان ذلك أكثر فائدة وأعم جدوى. إنني أستطيع أن أزرع الفكرة، الحبة... ولسوف ينجم عن تلك الحبة واقع ثابت... هل أنا مدين لهم بشيء؟ إنهم سيشعرون أولاً بشيء من الهوان لكنهم لن يلبثوا حتى يروا بأنفسهم أنني ذو نفع لهم في أمر من الأمور. كذلك عندنا، في قضية «تيربييف» ـ تلك التي انتهت الآن إلى «الوحدة الاشتراكية» ـ لقد تركت منزل أبويها وأسلمت جسدها. فكتبت إلى أبيها وأمها تقول إنها تستطيع العيش وسط معتقدات سخيفة وإنها ترغب في ممارسة الزواج الحر! فاستنكروا منها هذا وزعموا أن الأسلوب كان شديد

الفظاظة والقسوة نحو والديها وإن كان باستطاعتها توفير العناء عليهم والكتابة إليهم بلهجة أكثر لطفاً ولباقة. أما بالنسبة إليّ، فإن كل هذه الأشياء ليست إلا حماقات، فلا حاجة إذن إلى إضافة أو تعديل شيء على الأسلوب والشكل بل على العكس؛ طالما أن الأمر كان بصدد الاعتراض على شيء والاحتجاج ضده! خذ مثلاً السيدة «فارانتز»! لقد عاشت ثماني سنين مع زوجها ثم هجرت فجأة طفليها وفسرت ذلك في رسالتها إلى زوجها بكل وضوح: «لقد فهمت بأنني لن أستطيع أبداً أن أكون سعيدة معكم. سوف لن أصفح عنكم مطلقاً إذ أخفيتم عني وجود تنظيم اجتماعي آخر بواسطة الوحدات الاشتراكية. لقد عرفت بالأمر حديثاً بفضل رجل شهم منحته جسدي ولسوف أذهب معه لنؤسس معاً إقامة اشتراكية. إنني أقول لكم ذلك بصراحة لأنني أعتقد أنني إذا خدعتكم فلسوف يكون عملي هذا غير نبيل. تدبروا أمركم كما يحلو لكم. لا تنتظروا مني أن أعود. إنكم رجعيون شديدو التأخر. إنني أرغب في أن أكون سعيدة». هكذا يجب أن تكتب الرسائل من هذا النوع.

ـ هذه الـ«تيريبيف» أليست هي التي قلت لي عنها بأنها بلغت زواجها الحر الثالث؟

ـ إنها لم تبلغ بعد إلا الزواج الثاني هذا إذا عوينت الأشياء على حقيقتها! ثم لنفرض أنها تزوجت للمرة الرابعة أو الخامسة فإن ذلك عديم الأهمية! إنني إذا أسفت مرة لموت أقربائي فإن ذلك الأسف سيكون اليوم! إنني أتصور أبداً أنهم لو كانوا على قيد الحياة «لأطلقت» عليهم احتجاجاً بديعاً! نعم، كنت تصرفت على هذا النحو عامداً... كنت أفهمتهم نوع العقائد التي أدين بها! وأعتقد أنهم كانوا سيذهلون من الدهشة! حقاً إنني آسف لأنني فقدتهم كلهم!

قاطعه بيير بيتروفيتش:

ـ لتدهشهم؟ هم؟ حسناً افعل ما يروق لك.. لكن، قل لي، هل تعرف ابنة المرحوم تلك الصغيرة الهزيلة... هل صحيح كل ما يروى عن سمعتها؟ هم؟

ـ وماذا بعد؟ في رأيي أقصد: حسب عقيدتي الشخصية، أن موقفها هو الموقف الطبيعي للمرأة. لمَ لا؟ أقصد لتميز الأمر: إن موقفها في المجتمع الحاضر ليس طبيعياً تماماً لأن بواعثه هي الحاجة والعوز اللذين أرغماها على سلوك هذا السبيل أما في المجتمع المقبل فإنه سيكون طبيعياً تماماً لأنه سيكون مجتمعاً حرّاً. ثم إن من حقها الآن أيضاً أن تستسلم لمن تشاء: لقد كانت تتألم وهذا الألم هو رأسمالها الذي لها كل الحق في أن تتصرف به كما تشاء طبعاً! إن المجتمع المقبل لن يكون فيه مكان لمثل هذه الأسس بل إن دور الفتاة العامة سيكون له مظهر آخر، لسوف يُسوى بشكل معقول منطقي. أما صوفي سيميونوفنا، فإنني أنظر إلى تصرفاتها خلال هذه المدة على اعتبارها احتجاجات عنيفة ناطقة ضد التنظيم الاجتماعي! إنني أعطف على تلك التصرفات كثيراً بسبب هذا بل إنني أغتبط إذا رآها على هذا النحو!

ـ مع ذلك فقد سمعت بأنك كنت السبب في طردها من هذه الدار!

غضب ليبيزياتنيكوف حتى غدا وجهه شديد الاحمرار وزمجر:

ـ افتراء جديد! لم يقع الأمر هكذا، ليس هكذا أبداً! إنها كاترين إيفانوفنا التي روجت كذلك هذه الإشاعة المغلوطة لأنها لم تفهم الغاية. هل كنت حقيقة أميل إلى صوفي سيميونوفنا أو كنت مشغوفاً بها؟ أبداً، لقد كنت أقتصر في علاقتي معها على تنشئتها وتثقيفها فقط بشكل خال من الغاية والغرض لأوقظ فيها روح الاحتجاج... إنني لم أكن أنشد إلا

الاحتجاج فحسب ولقد فهمت صوفي سيميونوفنا بنفسها بأنها لا تستطيع الإقامة في هذه الدار المؤثثة.

ـ هل كنت تدعوها إلى الانضمام إلى الوحدة الاشتراكية؟

ـ إنك تتعمد السخرية ولكنك لا توفق ـ واسمح لي بأن ألاحظ هذا ـ إنك لا تسمع شيئاً. ليس في الوحدة الاشتراكية أدوار كهذه. بل إن الوحدة الاشتراكية قد أقيمت خصيصاً لمحو هذه الأدوار وإفنائها. إن هذا الدور يتبدل في الوحدة الاشتراكية تبدلاً كلياً: سيصبح حاذقاً هناك ما هو سخيف وغبي هنا، ذلك الذي يبدو الآن ـ بسبب الظروف الحاضرة ـ مخالفاً للطبيعة سيصبح هناك طبيعياً. كل ذلك يتوقف على البيئة والوسط الذي يكون فيهما الرجل. إن كل شيء متوقف على «الوسط» والرجل لا حساب له فيه. إنني على أحسن تفاهم مع صوفي سيميونوفنا والدليل على ذلك أنها لم تعتبرني أبداً عدواً لها أو شخصاً مهيناً. نعم! إنني أجتذبها في هذه الأثناء نحو الوحدة الاشتراكية لكنني أقوم بذلك تبعاً لمبادئ خاصة. لم تضحك؟ إننا نريد أن نقيم لأنفسنا «وحدة» خاصة مبنية على أسس أكثر شمولاً واتساعاً من كل ما سبقها. إننا نتعمق في عقائدنا ونزداد إنكاراً! ولو أن دوبروليوبوف خرج من ضريحه الآن لوجد أنداداً يتحدث إليهم! إنني ـ بالانتظار ـ أتابع تثقيف صوفي سيميونوفنا. إنها طبيعة جميلة بل كثيرة الجمال!

ـ وإنك تستثمر تلك الطبيعة الجميلة أليس كذلك؟ هاها!

ـ كلا، كلا! آه كلا! بل على العكس!

ـ على العكس! ها! ها! ها! إنه هو الذي يقول ذلك.

ـ لك أن تصدقني! إذ لم أخفِ عنك شيئاً! لم أخفِ الحقيقة عنك؟ قل لي أرجوك!

ـ على العكس إنها بالنسبة إليّ حالة غريبة: إنها في حضوري تبدو مرتبكة، إنها متحفظة بفعل لون من الحياء المذعور و...

ـ وأنت ـ بالطبع ـ تهذبها وتثقفها.. ها ها!.. إنك تبين لها بأن خفرها وحياءها ليسا إلا حماقات؟

ـ مطلقاً! مطلقاً! آه! يا لها من طريقة سمجة وسخيفة ـ واعذرني ـ تلك التي تفسر بها كلمة «التثقيف» لكنك لا تفهم من معاني هذه الكلمة ومراميها شيئاً! رباه، كم أنت سيئ التحضير حتى الآن... إننا نطلب حرية المرأة وأنت لا تفكر إلا.. إذا وضعنا جانباً مسألة العفاف والطهارة، وهي مسألة في حد ذاتها عديمة الأهمية بل وشاذة سخيفة، فإنني أتقبل منها تحفظها حيالي طالما أن تلك هي رغبتها ولها كل الحق في التصرف حسب هواها. لا شك أنها إذا قالت لي: «أريدك» لكنت أعتبر ذلك حظاً عظيماً لأن هذه الفتاة تروق لي كثيراً، لكن في هذه الأثناء، في هذه الأثناء على الأقل، لم يتحدث إليها بعد أحد ـ ولا شك ـ بمثل الأدب واللياقة التي أتحدث بها إليها، بل وبمثل احترامي لأهليتها... إنني أنتظر وآمل وهذا كل ما في الأمر.

ـ قدم لها هدية بدلاً من هذا. أراهنك على أنك لا تفكر في هذا حتى الآن؟

ـ إنك لا تفقه شيئاً كما حدثتك! نعم، تلك هي وضعيتها، ولكن هناك سؤالاً آخر، سؤالاً جديداً خاصاً! إنك تحتقرها بكل جوارحك بسبب تصرف ـ تعتبره أنت خطأ ـ غير مشرف. بل إنك تمضي إلى أبعد من هذا الحد فترفض أن تتأمل بإنسانية مخلوقاً بشرياً. إنك لا تعرف بعد طبيعتها! إنني آسف لشيء واحد: هو أنها منذ بعض الوقت توقفت عن القراءة واستعارة الكتب مني. لقد كنت أعيرها كتباً من قبل. من المؤسف أيضاً أن تكون ـ

رغم عزمها وحيويتها في الاحتجاج، ولقد برهنت من قبل على هذا العزم وهذه الحيوية ـ قليلة الاستقلال، تبدو بمظهر سلبي بعض الشيء، حيال كل هذه التقاليد السخيفة الخاطئة التي يجب أن تتخلص منها دفعة واحدة... كل هذه الحماقات مع ذلك فإنها تفهم تماماً بعضاً من المسائل. مثلاً: إنها فهمت تماماً قضية تقبيل اليد أو بعبارة أصح ذلك الجرح المعنوي الذي يسببه الرجل للمرأة بتقبيل يدها. لقد نوقشت هذه القضية عندنا فأطلعتها على تفاصيل المناقشة فور وقوعها. وقد أصغت بانتباه شديد إلى ما حدثتها به عن النقابات العمالية في فرنسا. والآن، فإنني أمهدها لتفهم قضية الدخول المباح إلى المساكن، كما تبدو للمجتمع المقبل.

ـ ما هذا الذي تقول؟

ـ لقد كان السؤال التالي موضوع مناقشة حادة في الأيام الأخيرة: هل يحق لعضو من أعضاء الوحدة الاشتراكية أن يدخل متى شاء إلى غرفة رجل أو امرأة من الأعضاء الآخرين أم لا... وقد انتهت المناقشة بإيجابية هذا الحق.

ـ لكن ماذا يحدث لو كان العضو الآخر يقوم بإزاحة ضرورة ملحه؟

غضب أندريه سيميونوفيتش وصاح بصوت محنق حاقد:

ـ إنك لا تفكر إلا في هذه الأمور. إنك لا تهتم إلا بتلك «الضرورات» الملعونة. أواه! إنني أنقم على نفسي وآسف كل الأسف لأنني نوهت أمامك قبل الأوان بتلك الواجبات الملعونة! ليحملك الشيطان! إنها حجر العثرة بالنسبة لكل من هم على شاكلتك، والأدهى من ذلك، أنهم يلقون أمامكم بذلك الحجر قبل أن يدركوا الغاية من الموضوع! كأن ذلك حقاً صريحاً من حقوقهم! بل يخيل إليهم أن ذلك يشرفهم! لقد أكدت أكثر من مرة بأن

هذه المسألة لا ينبغي أن تعرض أمام المبتدئين إلا في المرحلة الأخيرة، عندما يكونوا قد اقتنعوا نهائياً بالمبدأ والأسلوب، وبعبارة أخرى: لا يجوز إلا للرجل المثقف تمام الثقافة المتعمق في معرفة الأسرار، أن يبحث في هذا الموضوع. ثم قل لي ماذا تجد من مخجلات وحقارة في حفر المراحيض؟ إنني على استعداد ـ قبل أي آخر ـ أن أقوم «بتعزيل» أي مجرى من هذه المجاري! إنني بذلك لا أبدي أية تضحية! إنه عمل كأي عمل آخر بل وإنه أسمى وأجل من حرفة روفائيل أو بوشكين[1] نظراً لأنه أكثر نفعاً.

ـ بل إنه أنبل أيضاً، أكثر نبلاً لعمري!

ـ ما معنى «نبيل» إنني لا أفهم معنى هذه الكلمة عندما تستعمل في وصف عملٍ إنساني. «أكثر نبلاً» «أكثر شهامة»!. إن كل هذه ليست إلا حماقات، تقاليد بالية أرفض الاستماع إليها! إن كل ما هو نافع «للإنسانية، هو وحده النبل. إنني لا أفهم إلا كلمة واحدة: كلمة «نافع» اضحك ما شئت، إن الأمر كذلك!

استدار بيير بيتروفيتش. كان قد انتهى من إحصاء نقوده وأعادها إلى حافظته. غير أنه ـ لسبب ما ـ ترك على المنضدة مبلغاً من المال. كانت مسألة حفر المراحيض، رغم غرابتها ودناءتها، قد سببت من قبل، أكثر من داعٍ للتنافر بين بيير بيتروفيتش وصديقه الشاب. كانت السخافة في الموضوع أن أندريه سيميونوفيتش كان يغضب حقيقة بينما كانت تلك المسألة بالنسبة إلى لوجين لوناً من التفكه. أما في تلك اللحظة فقد كان يرغب بصورة خاصة أن يثير ليبيزيا تنيكوف وأن يغيظه!

كان ليبيزياتنيكوف رغم «استقلاله» وعقليته «الاحتجاجية» لا

(1) ألكسندر بوشكين شاعر روسي شهير ولد في موسكو (1837 - 1799). - المترجم -.

يجرؤ عادة على مناهضة بيير بيتروفيتش بشكل سافر بل كا يتصرف حياله باستمرار، بذلك الامتثال المهذب الذي تعوده في صباه. مع ذلك فقد أفلتت من بين شفتيه العبارة التالية:

ـ إنك رديء المزاج بسبب إخفاقك البارحة!

فقاطعه لوجين بلهجة اشمئزاز متعالية:

ـ قل لي قبل هذا، هل تستطيع... أو هل أنت على صلة وثيقة بتلك الفتاة الشابة التي نتحدث عنها، أتسمح لك بدعوتها إلى هنا، في هذه اللحظة وإلى هذه الغرفة؟ ينبغي أن يكونوا جميعاً قد عادوا من المقبرة.. لقد سمعت صوت خطاً... وددت أن أرى هذه الفتاة لحظة...

سأل ليبيزيا تنيكوف دهشاً:

ـ لكن لماذا؟

ـ لا شيء! أريد أن أتحدث إليها. إنني أزمع الرحيل اليوم أو غداً وأنوي قبل ذلك أن أطلعها... ثم إنك تستطيع أن تحضر هذه المقابلة، بل إن ذلك أجدى وإلا فإن الله وحده يعرف كيف ستفسر الأمر.

ـ ما كنت لأفكر في أي شيء... لقد سألتك هذا السؤال دون أن أعيره أية أهمية. فإذا كنت في حاجة إليها، فلا أسهل من إحضارها. سأذهب لدعوتها. أما أنا، فثق بأنني لن أزعجكما.

لم تمض خمس دقائق حتى عاد ليبيزياتنيكوف ومعه سونيا. دخلت الغرفة وهي فريسة دهشة قصوى، فكانت ـ كعادتها ـ ترتعد. لقد كانت تضطرب دائماً في مناسبات كهذه، وكانت ترهب رهبة كبيرة كل وجه جديد وكل المعارف الجدد. لقد كانت كذلك في طفولتها وهي الآن تشعر بذلك الخوف أكثر فأكثر... استقبلها بيير بيتروفيتش استقبالاً «ودياً

مهذباً»، ولم يفته أن يضفي على استقباله لمحة من رفع الكلفة، كان يعتقد في نفسه بأنها تتناسب مع مركزه الجدي المحترم، وبأنها ضرورية عندما يخاطب مخلوقة فتية، وبمعنى آخر «مغرية» بادر إلى «تطمينها» وأجلسها بالقرب من المنضدة، قبالته تماماً. جلست سونيا وألقت نظرة حولها، نقلتها بين ليبيزيا تنيكوف والمال الذي على الطاولة أمامها ثم عادت فجأة إلى وجه بيير بيتروفيتش فلم ترفع بصرها عنه منذ تلك اللحظة وكأن شيئاً فيه كان يوثقها إليه. اتجه ليبيزيا تنيكوف نحو الباب فنهض بيير بيتروفيتش ودعا سونيا إلى البقاء جالسة واستوقف ليبيزيا تنيكوف على العتبة وسأله بصوت منخفض:

ـ هل ذلك «الراسكو لنيكوف» هناك؟ هل جاء؟

ـ راسكو لنيكوف؟ إنه هناك. ثم ماذا؟ نعم إنه هناك.. لقد وصل تواً وقد رأيته... ماذا في ذلك؟

ـ في هذه الحال، أرجوك بإلحاح أن تبقى معنا وأن لا تدعني منفرداً مع هذه الفتاة. إنها مسألة تافهة لكن الله يعلم ماذا سيستنتجون منها لا أريد أن يذهب راسكو لنيكوف إلى هناك ويقص... هل فهمت ما أقصد؟

أجاب ليبيزيا تنيكوف وكان قد خمن الفكرة التي تعتلج في رأس زميله:

ـ إنني أفهم، إنني أفهم. نعم لك الحق... ولا شك ـ حسب عقيدتي الشخصية ـ إنك تبالغ جداً في تصور الخطر... ماذا يهم؟ إن ذلك حق من حقوقك. ليكن، سأبقى. سأمضي قرب النافذة كي لا أزعجكما. في رأيي أن هذا من حقك!

عاد بيير بيتروفيتش يجلس على الأريكة أمام الفتاة ينظر إليها

باهتمام وفجأة تبدلت سحنته واتخذت تقاطيعها لوناً من القسوة والخطورة: «لا تحشري في رأسك أيتها الحسناء أفكاراً معينة!» طال الصمت ففقدت سونيا أعصابها.

شرع بيير بيتروفيتش يقول بلهجة شديدة الرزانة أضفى عليها كثيراً من التودد:

- أرجوك أن تتفضلي بالاعتذار عني يا صوفي سيميونوفنا إلى المحترمة والدتك... أعتقد أنني لا أخطئ إذ أنوه بأن كاترين إيفانوفنا تقوم عندك مقام الأم أليس كذلك؟

كان يبدو من لهجته أنه يضمر نوايا ودية صادقة حيالها.

أجابت سونيا بلهجة سريعة مذعورة:

- نعم، في الحقيقة إنها تقوم مقام أم لي!

- حسناً، اعتذري لي إذن منها إذ إنني - بسبب ظروف خارجة عن إرادتي - أراني مضطراً إلى التغاضي عن دعوة والدتك اللطيفة وعدم مشاطرتكم وليمتكم، أقصد طعامكم الجنائزي.

نهضت سونيا مسرعة وهي تقول:

- نعم سأقول لها ذلك، نعم.

استوقفها بيير بيتروفيتش وهو يبتسم لسذاجة الفتاة وجهلها بأساليب المجتمعات الراقية:

- ليس هذا كل شيء. إنك لا تعرفينني إلا قليلاً أيتها العزيزة صوفي سيميونوفنا، ما كنت لأسمح لنفسي بإزعاجك شخصياً وباستدعاء شخص مثلك إلى هنا لسبب تافه كهذا يتعلق بي. إن لي هدفاً مختلفاً كل الاختلاف عن هذا.

جلست سونيا متهافتة وعادت الأوراق النقدية من مختلف الألوان تصافح عينيها لكنها أشاحت بوجهها ونظرت إلى بيير بيتروفيتش: لقد شعرت بأن النظر إلى مال الغير ليس إلا فاحشة كبرى خصوصاً إذا كان الناظر إلى ذلك شخصاً «مثلها». شخصت ببصرها أولاً إلى النظارة ذات الإطار المذهب التي كان بيير بيتروفيتش ممسكاً بها في يسراه ثم إلى الخاتم الجميل الكبير المزين بحجر أصفر والذي كان يلتمع في أصبع تلك اليد الوسطى، لكنها فجأة، أشاحت ببصرها من جديد وحارت في أمرها فرفعت أبصارها أخيراً وراحت تنظر مباشرة في عيني بيير بيتروفيتش.

تابع هذا أخيراً ـ وبعد صمت ـ بلهجة أكثر خطورة من الأولى:

ـ لقد استطعت البارحة أن أتحدث عرضاً بكلمتين مع كاترين إيفانوفنا. لقد فهمت منهما أنها في حالة غير طبيعية ـ إذا جاز لي استعمال هذا التعبير ـ

قالت سونيا تؤيد قوله بشدة:

ـ نعم... غير طبيعية.

ـ أو إذا شئنا التحدث ببساطة أكثر وبإيضاح أكثر: حالة مرضية!

ـ نعم، إذا شئنا التحدث بشكل أكثر بساطة وأكثر ايـ... نعم إنها مريضة.

ـ هكذا. إذن، فقد هزتني العاطفة الإنسانية و... و... الشفقة إذا جاز القول، فأردت من جانبي أن أكون ذا نفع لها بعد أن تصورت المصير التعس المؤلم الذي ينتظرها بلا شك. يبدو أن الأسرة المسكينة كلها الآن تعتمد عليك وحدك.

قالت سونيا فجأة وهي تنهض واقفة:

ـ اسمح لي بأن أسألك سؤالاً. هل حدثتها البارحة عن إمكانية

الحصول على مرتب ثابت؟ لقد قالت لي البارحة إنك ستتخذ التدابير اللازمة لتسهل لها الحصول على جعالة. فهل هذا صحيح؟

ـ أبداً بل إن هذا القول لون من الاستحالة. لقد ألمحت إلي إمكانية حصولها على مساعدة مؤقتة تدفع إليها بوصفها أرملة موظف كان في الخدمة وذلك كله استعانة بالنقود والوساطات. لكنني أعتقد أن أباك ليس فقط لم يمض المدة المحدودة في الخدمة. بل إنه لم يكن موظفاً لما توفي. وبكلمة واحدة، يمكن أن يكون هناك أمل صغير، لكنه أمل غير محقق. لأنه في الحقيقة ليس هناك حق في المساعدة على الإطلاق بل على العكس... وهي التي كانت تفكر في جعالة... هاها! إن السيدة تسرع جداً في بلوغ النتائج!

قالت سونيا وهي تنهض مجدداً محاولة الخروج:

ـ نعم، لقد كان الأمر متعلقاً بجعالة... لأنها امرأة طيبة تصدقه بسرعة، وأنها بسبب هذه الطيبة التي تملأ قلبها، تميل بسرعة إلى التصديق... و... ثم إن هذا في طبعها. نعم... اعذرني..

ـ اسمعي لي، إنك لم تسمعي بعد كل الأمر.

تمتمت سونيا:

ـ كلا، إنني لم أسمع كل شيء

ـ فلتجلسي إذن!

جلست سونيا للمرة الثالثة وهي شديدة الخجل.

ـ عندما فهمت مركزها مع طفليها الصغيرين، أردت ـ كما قلت لك ـ أن أكون ذا نفع لها ضمن حدود إمكانياتي ليس أكثر. نستطيع مثلاً أن

ننظم لمصلحتها اكتتاباً أو «يانصيباً» أو أي شيء من هذا القبيل. إن مثل هذه التدابير تتخذ عادة بين الأقرباء بل وبين الأشخاص الغرباء الذين يرغبون في مساعدة شخص ما. لقد أردت أن أتحدث معك بصدد هذا الموضوع. إن القضية ممكنة.

تمتمت سونيا وهي تحدج بيير بيتروفيتش بشدة:

ـ نعم، سيكون ذلك مفيداً... إن الله من أجل هذا سوف...

ـ نعم، سنستطيع تنظيم ذلك. لكننا سنعود إلى بحث هذا الموضوع فيما بعد.. أقصد أننا نستطيع أن نبدأ اليوم. لسوف نلتقي هذا المساء وسنتفق و ـ كما يقال ـ سنضع الحجر الأساس. تعال إلى مقابلتي مساء اليوم في الساعة السابعة. إنني آمل أن يحضر أندريه سيميونوفيتش حديثاً أيضاً... لكن... هناك مسألة أريد أن أنوه بها سلفاً وقبل كل شيء، ومن أجل هذه المسألة سمحت لنفسي بأن أزعجك يا صوفي سيميونوفنا، باستقدامك إلى هنا. إن من رأيي أن لا يسلم المال إلى كاترين إيفانوفنا بالذات، بل أن تسليمه إليها خطر تماماً وليس طعام اليوم إلا شاهداً ودليلاً على صحة قولي. فهي ـ رغم أنها لا تمتلك لقمة تمضغها غداً بأسنانها، ولا زوجاً من الجوارب تضعه في قدميها ـ قد اشترت شراب الروم والجماييك بل إنها ـ على ما أظن ـ اشترت نبيذ ماديرا وقهوة. لقد شاهدت ذلك وأنا أخطر من هناك. وغداً ستجدين نفسك ملزمة باحتمال كل شيء حتى تقديم خبزهم اليومي: هيا، إن هذا شاذ! وعلى هذا فإن الاكتتاب ينبغي أن يتم بشكل يجعل الأرملة التاعسة لا ترى لون النقود بل تكونين أنت القيمة على المال. فهل هذا موافق؟

ـ لست أدري. إنها اليوم فقط تسير على هذا الشكل من الاتفاق. إن

ذلك لا يحدث إلا مرة واحدة في العمر. إنها تود من صميم قلبها أن تمجد ذكر المرحوم وترفع من شأنه... إنها شديدة الذكاء. على العموم، اعمل ما يروق لك. سأكون جداً جداً...، بل سكونون جميعاً... والله... وكذلك الأيتام.

لم تستطع سونيا إتمام حديثها بل انخرطت في البكاء.

ـ فكري تماماً في كل ما قلته لك. والآن أرجو ـ بالانتظار ـ أن تتفضلي بقبول هذا المبلغ الذي يمثل مساهمتي في الاكتتاب المنشود، لحساب والدتك. إنني أرغب بشدة في أن لا يذكر اسمي في هذه المناسبة: هناك... إنني شخصياً لا أخلو من مشاغل مادية تجعلني عاجزاً عن المساهمة بأكثر من هذا!

ومد يده إليها بورقة من ذات العشر روبلات عني بإظهارها على أحسن ما تسمح به مقاييسها فأخذتها سونيا وهي محمرة الوجه خجلاً ثم نهضت باندفاع وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة وبادرت إلى الانسحاب. خرجت من الغرفة وهي شديدة الانفعال منهوكة تقريباً وعادت إلى حيث كاترين إيفانوفنا وهي فريسة اضطراب خارق.

كان أندريه سيميونوفيتش صامتاً خلال هذا المشهد كله فلم يتدخل في الحديث بل كان ينتقل بين النافذة وركن الغرفة الآخر. فلما خرجت سونيا اقترب فجأة من بيير بيتروفيتش وهو يمد له يده بحركة اعتيادية:

ـ لقد سمعت كل شيء وشاهدت كل شيء (وضغط بصورة خاصة على هذه الكلمة) إنه نبل، أريد أن أقول، إنها إنسانية منك! لقد أردت أن تتحاشى الاعتراف بجميلك، لقد شهدت ذلك! وعلى الرغم من أنني ـ واعترف بذلك ـ مخالفاً لمبدأ الإحسان الشخصي الذي لا يستأصل المصيبة نهائياً بل يتعهدها إلى حين، فإني لا أستطيع رغم ذلك إلا أن أعترف بأنني نظرت إلى تصرفك هذا بسرور نعم، نعم، لقد سرني ذلك.

غمغم بيير بيتروفيتش وهو ينظر بشيء من الحذر إلى ليبيزياتينكوف:

ـ آه! إن هذا تافه!

هتف أندريه سيميونوفيتش الباسل وهو يشعر باحترام متين حيال بيير بيتروفيتش:

ـ كلا، إنه ليس تافهاً! إن رجلاً جرح في كرامته ـ كما كانت حالك أمس أثر تلك الإهانة ـ ثم يهتم بآلام سواه.. إن رجلاً كهذا جدير الاحترام رغم ارتكابه خطأ اجتماعياً بهذا التصرف. لم أكن أنتظر ذلك منك يا بيير بيتروفيتش خصوصاً وأنا الذي درست أسلوبك ووجهة نظرك في الحياة! آه! كم تزعجك تلك الأساليب! خذ مثلاً، مبلغ حزنك من أجل مسألة البارحة! لست أدري لم تتعلق بهذا الزواج كل هذا التعلق، بتلك الرابطة المشروعة يا بيير بيتروفيتش الشديد الاحترام واللطف ماذا تهمك تلك «المشروعية»؟ هيا.. اضربني إذا شئت، لكنني سعيد تماماً إذ أفكر بأن هذا الأمر لم يتم، وبأنك حر لم تمت بعد تماماً ولم تدفن في سبيل الجنس البشري... أنت ترى بأنني حدثتك بما في نفسي!

أجاب لوجين محاولاً الافصاح عن فكرته وهو ساهم قلق:

ـ إذا كنت أستمسك بالزواج فذلك لأنني لا أريد أن أحمل «قروناً» في علاقاتكم الحرة ولا أبغي تربية أبناء غيري..

صخب أندريه سيميونوفيتش كالحصان المدرب تدريباً عسكرياً حينما يسمع قرع الطبول.

ـ الأولاد؟ هل الموت إلى الأولاد؟ إن الأولاد هم ـ كما أوافقك ـ مسألة اجتماعية ذات أهمية قصوى، لكن مسألة الأولاد ينبغي أن تسوى

بشكل آخر. إن بعضهم يمضي في اندفاعه إلى درجة إنكار الأولاد بل وإنكار كل تلميح عن الأسرة. سوف نتحدث عن الأولاد فيما بعد. أما الآن فلنهتم بقضية «القرون»! إنني أعترف لك بأن هذه هي نقطة الضعف عندي. هذا يا سيدي تعبير بذيء، تعبير مبتذل، عزيز على بوشكين؟ لكن قاموس المستقبل سوف ينبذه ويقصيه! ما هي إذن هذه «القرون»؟ يا لها من مغالطة سمجة! أية قرون؟ لماذا قرون؟ إن كل هذا لا معنى له! لكن يكون مثله في الارتباط الحر! إن القرون هي النتيجة الطبيعية للزواج؟ إنها ـ كما يجوز القول ـ الملين أو الملطف، أو إنها حجة مقامة، تجعل وجهة النظر هذه خالية من كل ما يهين... وإذا حدث أبداً ـ وهو افتراض مستحيل ـ إن اضطررت إلى الزواج بالتقاليد الصحيحة، فإنني سأكون شخصياً مرحباً بحملها، تلك القرون المخيفة! سأقول لزوجتي: «حتى الآن يا عزيزتي لم أنقطع عن حبك، أما اليوم فإنني أميل إليك لأنك عرفت كيف ترفعين احتجاجاً!...» أتضحك؟ ذلك لأنك أضعف من أن تستطيع الانقطاع عن التقاليد البالية! ليحملني الشيطان! أنا أفهم لون التعاسة التي تكون عندما يُخدع المرء في زواج شرعي، لكنه ليس إلا النتيجة الحقيرة لتصرف مشين لكلا الجانبين. وعندما تكون القرون مشرعة بشكل صريح، كما يحدث في المجتمع الحر، فإنها لن تبقى في الوجود، لن يشعر بها أحد، وعندئذ ستفقد تسميتها: القرون! بل إن زوجتك على العكس ستريك فقط مبلغ ميلها إليك عندما تؤمن بأنك عاجز عن التصدي لهنائها ومتقدم تقدماً كافياً يجعلك لا تنتقم من علاقاتها مع زوجها الجديد. ليحملني الشيطان، إنني أفكر أحياناً في أنني لو تزوجت (بشكل حر أو بشكل مشروع، سيان عندي) لوجدت في نفسي الاستعداد لإدخال عشيق زوجتي إلى مخدعها بنفسي إذا تأخرت هي عن إيجاد مثل ذلك العشيق! كنت سأقول لها: يا عزيزتي،

إنني أحبك وأريد فوق ذلك أن تقدريني، بل وإنني «أصر على ذلك!» لست على صواب؟..

ضحك بيير بيتروفيتش بشيء من الفتور فقد كان يصغي بأذن ساهمة إلى ذلك الخطاب. كان يبدو مشغولاً بشيء آخر حتى أن ليبيزيا تنيكوف نفسه لم يلبث أن خمن ذلك. كان بيير بيتروفيتش في حالة اضطراب، فقد كان يفرك يديه ويفكر باستغراق.

لقد تذكر أندريه سيميونوفيتش كل هذه الملاحظات فيما بعد، عندما فكر في الموضوع.

الفَصْلُ الثّاني

من الصعب تحديد الأسباب التي خلفت في عقل كاترين إيفانوفنا المشوش، تلك الفكرة الغريبة المتعلقة بذلك الطعام الذي أعدته. لقد اضطرت من أجله إلى إنفاق أكثر من من عشرة روبلات من أصل العشرين التي منحها لها راسكو لنيكوف للاتفاق على تكاليف المأتم والدفن. لعل كاترين إيفانوفنا كانت تحسب أنها مرغمة ـ حيال المرحوم ـ على تمجيد ذكره «كما ينبغي» كي يعرف المستأجرون وعلى الأخص إميلي إيفانوفنا بأنه لم يكن أقل شأناً منهم، بل ليعرفوا بأنه كان أرفع شأناً منهم وأن أياً منهم لا يحق له أن «يحوقل» كلما فكر فيه أو أن يقلب شفتيه ازدراء. لعلها أيضاً استسلمت «لكبرياء الفقراء» التي تدفع كثيراً من التعساء ـ في مناسبات معينة يصعب التخلص منها ـ إلى بذل كل قواهم وإنفاق آخر فلس معهم كي يظهروا في مظهر الآخرين. لذلك فإنه ينتظر جداً أن تكون كاترين إيفانوفنا قد أرادت ـ في تلك المناسبة حيث بدا وكأن الناس كلهم قد انفضوا من حولها ـ أن تثبت لأولئك «المستأجرين المشردين» بأنها لم تكن «تعرف معنى الحياة وتحسن الاستقبال» فحسب بل إنها كذلك قد نشأت وخلقت من أجل لون آخر من الحياة وفي «بيت عريق بل وأرستقراطي: منزل زعيم» أيضاً، وأنها لم تكن مهيأة أبداً لكنس الأرض وغسل خرق الأطفال!

إن مثل تلك النفحات من العظمة والغرور تصيب أحياناً أكثر الناس حتى أنه ليندر أن تنقلب تلك النفحات في بعض الأحيان إلى نوع من الاحتياج الصحيح الذي لا يمكن كبته والصمود لإغرائه. غير أن كاترين إيفانوفنا لم تكن تسمح لنفسها أن تتهدم. كان يمكن أن تخدع أحياناً خداعاً قوياً لكنها لم تكن تتقبل مطلقاً أن تنهار معنوياً. وعلى ذلك فإن رأي سونيا لم يكن قائماً على أساس متين عندما صرحت بأن عقل أمها كان مضطرباً مختلاً. لأنه ـ في الحقيقة ـ لم يكن أمراً واقعاً إيجابياً بل إنه منذ بعض الوقت ـ عام على الأرجح ـ تعرض عقلها المسكين لعدد من التجارب القاسية والمحن يصعب بعدها النجاة منها دون خسارة. وكان السل الذي ينخر رئتيها ـ على ادعاء الأطباء ـ يسهل كثيراً اختلال القوى الفكرية.

كانت الأنبذة لا كثيرة ولا متعددة الأصناف ولم يكن هناك نبيذ ماديرا، لقد كان ذلك القول مبالغاً فيه. كان على المائدة نبيذ وعرق وروم وبورتو، من أنواع رديئة جداً ولكن بكمية متوفرة، وكان الطعام يتألف ـ إلى جانب حلوى الأرز التقليدية ـ من نوعين أو ثلاثة أنواع أخرى، بينها «الفطائر» وكانت تلك الأطعمة قد جهزت كلها وطهيت في مطبخ إميلي إيفانوفنا، أضف إلى ذلك «سماوران» أعدا لأولئك الذين يرغبون في شرب الشاي أو «التنشيفة» بعد الطعام. كانت كاترين إيفانوفنا قد اهتمت بنفسها بشراء لوازمها يساعدها صعلوك بولوني كان يقطن ـ والله أعلم بالسبب ـ لدى السيد ليبيويشسل، وضع نفسه للوهلة الأولى تحت تصرفها وراح طيلة يوم أمس وصباح اليوم التالي يجري في كل مكان ينقل الخبر حتى ليقال إنه كان يعمل على جذب انتباه خاص إلى هذه المناسبة الأخيرة. كان في كل لحظة ـ ولأتفه الأسباب ـ يندفع قرب كاترين إيفانوفنا بل ويتبعها حتى السوق ويكثر انحناءاته وإظهار اعتباره حتى أنهكها وبرمت به كما لم تبرم

بأحد من قبل إلا نادراً، رغم أنها صرحت بادئ الأمر أنها لولا ذلك الرجل «الصدوق الشهم لتاهت في أمر نفسها.

كانت من عقلية كاترين إيفانوفنا أن ترسم لنفسها صورة أول من تصادفه، بأزهى الألوان وأبدعها وأن تغطيه بالمديح لدرجة تجعله مرتبكاً خجلاً من نفسه، وأن تضفي عليه من المزايا التي ليست موجودة في شخصه ثم تؤمن ـ أول الناس ـ بتلك الصورة التي رسمتها إيماناً مخلصاً غير أن كل هذا لم يكن يمنعها من أن تمقت ذلك الشخص فجأة وأن تشتم ذلك الذي غمرته منذ ساعات بالورود وأن تلقي به إلى الباب! لقد حبتها الطبيعة بعقلية هادئة أنيسة بل ومتفائلة. لكن كثرة المصائب وتكرار الإخفاق التي منيت به جعلتها ترغب بخشونة بل «تتطلب» أن يعيش كل الناس في سلام وسرور وأن لا يتقبل أيٌّ كان العيش على غير هذا النمط حتى أن أي شذوذ مهما بلغت تفاهته أو أي إخفاق، كان يخرجها عن طورها فوراً، وينتشلها بعنف من لحظاتها السعيدة التي تهدهد خلالها في نفسها أعذب الأمنيات والآمال، وألمع التخيلات والأوهام، مستسلمة لمصيرها؛ فتقذف حولها بكل ما يصل إلى يدها بل وتضرب الجدار برأسها.

اكتسبت إميلي إيفانوفنا ـ هي الأخرى ـ اعتباراً خارقاً في عيني كاترين إيفانوفنا وراح تقديرها لها يتعاظم فجأة ولعله بسبب إقامة تلك الوليمة التي تطوعت إميلي إيفانوفنا بملء رضاها للمساهمة في إعداد اللوازم والاستعدادات الأولية لها: فقد تعهدت بترتيب المائدة. وتقديم الأغطية اللازمة والأواني إلخ... وأن تطهو الطعام على موقدها. فلما ذهبت كاترين إيفانوفنا إلى المدن، خولتها كل السلطات ودعتها تتصرف على هواها. وقد أجادت إميلي إيفانوفنا في تنفيذ مهمتها: فالمائدة كانت معدة بنظافة كافية والأطباق والملاعق والسكاكين والأقداح الكبيرة

والصغيرة إلخ... كلها كانت رغم ـ رغم تباين أنواعها وأشكالها نظراً لأنها استحضرت لدى العديد من المستأجرين ـ في الساعة المعينة في أماكنها على المائدة. لذلك فقد كانت إميلي إيفانوفنا ـ وهي التي كانت واثقة من إجادتها مهمتها إجادة مرموقة ـ تستقبل المدعوين العائدين من المدفن بشيء من العظمة؛ وقد استعدت لذلك الاستقبال فارتدت ثوباً أسود تدلت عليه شرائط جديدة كانت ملفوفة على الغطاء الرقيق الذي حجبت به شعرها بعد أن أعدته إعداداً مبالغاً فيه. ـ ولقد استاءت كاترين إيفانوفنا من ذلك الكبرياء ـ رغم أنه في محله ـ لسبب أو لآخر: «لعلها تظن أننا ما كنا نستطيع إعداد المائدة لولا إميلي إيفانوفنا!» كذلك كان غطاء رأسها الجديد كل الجدة ذو الشرائط المتدلية على ثوبها، يزعج كاترين إيفانوفنا ولا يعجبها: «لعلها ستعمل على إبداء ترددها تلك الألمانية الحمقاء! هي ـ السيدة ـ تلطفت وتنازلت لمساعدة مستأجرين فقراء! لمجرد الإشفاق! هل ترى هذا! عند أبي كاترين إيفانوفنا الذي كان زعيماً وحاكماً تقريباً كانت تقام حفلات لأربعين شخصاً أحياناً حتى أن واحدة كإميلي إيفانوفنا، أو على الأصح لودويكوفنا، ما كانت لتقبل حتى في المطبخ!...» غير أن كاترين إيفانوفنا قررت عدم إبداء شعورها في الحال، رغم أنها كانت مقررة في نفسها بأن تعاد إميلي إيفانوفنا اليوم بالذات إلى موضعها، وإلا فإن الله وحده يعلم ماذا ستتخيل بعد ذلك! على هذا فإن كاترين إيفانوفنا استناداً إلى قوة هذه الفكرة، اكتفت بإظهار برودها مؤقتاً.

كذلك فقد ساهمت مناسبة مزعجة أخرى في استفزاز استيائها: ذلك أن من بين كل المستأجرين المدعوين إلى المائدة لم يحضر أحد ـ تقريباً ـ عند تشييع الجثمان. باستثناء البولوني الذي استطاع أن يواكب الجثمان حتى المقبرة، وفي المقابل، ـ عندما أصبح الأمر متعلقاً بالطعام ـ لم يتخلف

أشدهم فقراً وأكثرهم تفاهة عن الحضور! بل إن بعضهم جاء بألبسة غير مناسبة أبداً وبالاختصار كان الحاضرون «عديمي الأهمية». أما المستأجرون الأرفع مقاماً. أولئك المتفوقون فكأنهم تعاهدوا بينهم على عدم الحضور. مثلاً: إن بيير بيتروفيتش لوجين الذي يمكن اعتباره أكثر المرموقين في البناء كله، لم يحضر رغم أن مساء البارحة فقط كانت كاترين إيفانوفنا تذيع في كل مكان وأمام كل الناس ـ أي أمام إميلي إيفانوفنا وبوليا وسونيا والبولوني ـ إنه رجل نبيل جداً من أكثر الرجال شهامة كثير العلاقات مع المتنفذين وشديد الغنى، وإنه بوصفه صديق زوجها الأول وفي عداد الذين كانوا يُستقبلون في منزل أبيها من قبل، فقد وعد بالعمل فوراً لتأمين مرتب هام لها. ويجدر الذكر بهذه المناسبة، أن كاترين إيفانوفنا كانت عندما تتبجح بشيء ما، سواء أكان بصدد علاقات أو ثروة، فإنها كانت تفعل ذلك دون أي مقصد أو غاية شخصية. بل لمجرد فيض السخاء ـ إذا صح هذا القول ـ أو لمجرد الرغبة في الامتداح وإعطاء قيمة أعلى لموضوع امتداحها! وجاء في المرتبة الثانية بعد بيير بيتروفيتش «تبعاً لتصرفه» ذلك الخليع المنحط ليبيزياتينكوف. الذي لم يحضر كذلك! ماذا يفكر هذا في نفسه؟ إنه لم يدع إلا على سبيل الإحسان ولأن بيير بيتروفيتش وهو، كانا يقطنان في غرفة واحدة وهما متعارفان مما جعل دعوته أمراً إلزامياً. كذلك لم تحضر سيدة عصرية وابنتها كانتا تعطفان منذ خمسة عشر يوماً لدى إميلي إيفانوفنا، دعتهما، رغم أنهما خلال تلك المدة القصيرة أبدتا عدداً من الملاحظات بخصوص الضوضاء والصخب والصيحات التي تنبعث من غرفة آل مارميلادوف. لا شك أن تلك الملاحظات بلغت مسامع كاترين إيفانوفنا خلال المشاجرة التي وقع بينها وبين صاحبة المسكن في المدة الأخيرة. تلك المشاجرة التي هددتها صاحبة المسكن خلالها بطردها مع

كل أفراد الأسرة وهي تزمجر بأعلى صوتها بأنها تزعج «المستأجرين ذوي الحيثية وهي لا تصل إلى مرتبة أقدامهم». لذلك قررت كاترين إيفانوفنا دعوة تلك السيدة وابنتها اللتين قيل لها: «إنها لا تصل إلى مرتبة أقدامهما» خصوصاً وأنهما كانتا كلما التقتا بها صدفة، أشاحتا بوجهها عنها بشيء من الاحتقار. لسوف تجعلهما تعرفان «إن النبل يتسامى هنا إلى درجة نسيان السباب والإساءات»، وستعرفان بأن كاترين إيفانوفنا لم تكن قط مفطورة على هذا اللون من الحياة. كانت مصممة على إيضاح ذلك لهما على المائدة والتحدث إليهما عن «البابا» الحاكم، بل إنها ستجد في تلك المناسبة مجالاً لتهمس لهما بأنه لا مجال للإشاحة بوجهها عنها إذا التقتا بها وإن ذلك ليس إلا حماقة.

كذلك تخلف نائب زعيم ضخم (وهو لم يكن إلا رئيساً بسيطاً متقاعداً) بسبب سقوطه هو الآخر وتحطم ذراعه منذ أمس. والخلاصة أن الذين حضروا كانوا: البولوني ثم موظفاً هزيلاً ملتهب الوجه بمرض جلدي، صموت كالشبوط، مرتد «فراكاً» قذراً تنبعث منه رائحة مزعجة كريهة، ثم عجوز صغير الحجم أصم وأقرب إلى العمى، كان موظفاً سابقاً في مصلحة البريد وكان بعضهم يدفع ـ دون أن يعرف السبب على الضبط ـ أجرة سكنه إلى إميلي إيفانوفنا منذ وقت قديم. وقد حضر بعد ذلك ضابط متقاعد، من ضباط مصلحة المؤن في الجيش كان يقهقه بشكل يتنافى تماماً مع قواعد الحشمة والأدب وكان «وتصوروا هذا» دون صدارة!

ومضى شخص مباشرة إلى المائدة دون أن يحيي كاترين إيفانوفنا ثم جاء آخر بمعطف منزلي لأنه لا يمتلك ثياباً يرتديها. لكن دخوله على ذلك الشكل جعل كاترين إيفانوفنا تنفجر من الغضب فكان أن استطاع البولوني بالاستعانة بجهود إميلي إيفانوفنا إخراجه على شكل ما من الغرفة. علاوة

على ذلك فإن البولوني كان قد أحضر معه زميلين له من مواطنيه لم يكونا قد قطنا من قبل في تلك الدار ولم يكن أحد من المستأجرين يعرفهما.

كل هذه المضاعفات والأسباب جعلت كاترين إيفانوفنا تبدو مستاءة أشد الاستياء. «إذن لقد قمنا بكل هذه الاستعدادات من أجل هؤلاء!» كانت قد أعدت للأولاد مائدتهم في إحدى الزوايا على صندوق وأجلستهم على مقعد من الخشب سعياً وراء الاحتفاظ بأكبر عدد ممكن من الأماكن حول المائدة التي كانت تشغل أكبر مساحة في الغرفة. وكانت بوليا، وهي الفتاة البكر مكلفة بالعناية بأختها وأخيها الأصغر، تطعمهما وتمسح لهما أنفيهما «كما تمسح أنوف أولاد الأسرة المحترمة». خلاصة القول: إن كاترين إيفانوفنا كانت تستقبل هؤلاء الضيوف بوقار مترفع بل وباستخفاف لم يكن لها يد في إظهارهما. ألقت على بعضهم وهي تدعوهم إلى المائدة نظرة قاسية بشكل خاص... قدرت في نفسها أن إميلي إيفانوفنا هي المسؤولة ـ لسبب أو لآخر ـ عن تخلف المدعويين الممتازين، لذلك فقد اتخذت حيالها موقفاً وقحاً لاحظته هذه فوراً وتأثرت منه شديد التأثر. وأخيراً أنتظم المدعوون حول المائدة.

دخل راسكو لنيكوف في اللحظة التي عاد فيها القوم من المدفن فانشرحت كاترين إيفانوفنا لمجيئه ورؤيته. أولاً لأنه كان المثقف الوحيد بين كل المدعويين «الذي ـ كما يعرف كل الناس ـ سيحتل بعد عامين مركز أستاذ بكرسي في الجامعة في بطرسبورغ» وثانياً لأنه اعتذر لها بكل أحترام فور وصوله عن عدم استطاعته ـ رغم عظيم رغبته ـ أن يشهد المأتم. فلم تنفصل عنه طيلة الوقت وأجلسته إلى يمينها (وكانت إميلي إيفانوفنا جالسة إلى يسارها) وراحت ـ رغم الاحتياطات المتتابعة التي بذلتها صاحبة الدار، ورغم السعال المخيف الذي كان يقاطعها والذي بدا

منذ يومين أكثر خطورة عن ذي قبل ـ توجه الحديث إليه وحده وتبثه ـ نصف هامسة ـ كل ما كان يعتلج في قلبها مغضية إليه بسخطها المحق الذي كانت تشعر به بسبب هذا الحفل الفاشل. وكان غيظها ينقلب غالباً إلى ضحكة مرحة كانت تعجز عن قمعها على حساب مدعويها وعلى الأخص صاحبة الدار نفسها.

ـ كل ذلك ناتج عن غلطة هذه المكروهة. هل تفهم عمن أتحدث؟ إنها هي.. هذه!

وراحت كاترين إيفانوفنا تشير برأسها إلى صاحبة المسكن.

ـ انظر هذا؟ إنها تحملق بعينيها، إنها تشعر بأننا نتحدث عنها، لكنها لا تستطيع الفهم وتكاد عيناها أن تخرجا من رأسها! هوه! بومة حقيقية! هاها ها هي هي هي! ثم ماذا تريد أن تثبت لنا بهذا اللباس؟ هي هي هي! هل لاحظت: إنها تريد إيهام الجميع بأنها تضعني تحت حمايتها وأنها تغمرني بالشرف إذ تجلس إلى مائدتي. لقد رجوتها ـ باعتبارها شخصية مناسبة ـ أن تدعو أناساً «كما يجب» وبصورة خاصة أولئك الذين عرفوا المرحوم. فانظروا ماذا جمعت لي: أشخاصاً مشوهي الخلقة وبعض الخدم! انظروا إلى هذا القذر... حقيقة أنهم حثالة من الحيوانات ذوات قدمين! وهذان البولونيان القذران.. ها، ها، ها، هي، هي، إن أحداً لم يرهما من قبل هنا، وأنا لا أعرفهما لا من آدم ولا من حواء! لماذا حضرا، إنني أسألك؟ إنهما جالسان بكل جلال الواحد إلى جانب الآخر...

هتفت فجأة تخاطب أحدهما:

ـ إه! هل تناولت «فطائر»؟ خذ منها! اشرب جعة، جعة! هل تريد قدحاً من العرق؟

وعادت تحدث راسكو لنيكوف:

ـ انظر، لقد نهض وحيا، انظر، انظر: إنهما على ما يبدو جائعان أشد الجوع، الشيطانان المسكينان! هيا ليأكلا! إنهما على الأقل لا يصخبان... لكنني والحق يقال خائفة على الأطباق الفضية العائدة لصاحبة المسكن!

هتفت بصوت مرتفع قليلاً متحدثة إلى صاحبة المسكن:

ـ إميلي إيفانوفنا، إنني أنذرك سلفاً أنه إذا فقدت ملاعقك فإنني لن أكون مسؤولة! ها! ها! ها!

وهنا، استولى عليها ضحك جنوني وراحت تحدث راسكو لنيكوف وهي تشير برأسها إلى صاحبة المسكن:

ـ إنها لم تفهم، إنها لم تفهمني هذه المرة أيضاً! إنها واقفة هكذا «ومنقارها» مفتوح تدحرج عينيها: إنها بومة حقيقية! بتلك «الشوشة» من الأشرطة الجديدة، ها! ها! ها!

لكن تلك الضحكة انقلبت إلى سعال عنيف فظيع دام خمس دقائق، وتلوث منديلها بالدم، بينما تلألأت حبات من العرق على جبينها. عرضت لطخة الدم على راسكو لنيكوف بصمت وهمست له وهي تتنفس بصعوبة فريسة اضطراب خارق عنيف وقد اصطبغ خداها بلون قرمزي:

ـ كما ترى، لقد عهدت إليها بأدق مهمة ـ إذا جاز هذا القول ـ وهي دعوة السيدة وابنتها، إنك تدري عمن أتكلم. كان يجب أن تتذرع في مثل هذه المناسبة بلباقة شديدة وبفن ومهارة. لكنها تصرفت بشكل جعل تلك الغريبة الحمقاء، تلك المخلوقة، تلك القروية... لأنها في الواقع ليست إلا أرملة ضابط جاءت إلى هنا تلتمس جراية، وتكنس الردهات بذيل

ثوبها، بأنها رغم سنواتها الخمس والخمسين تصبغ وجهها وتتبرج (والناس يعرفون)... أن المخلوقة ليست فقط لم تتفضل بالمجيء بل إنها كذلك لم ترسل حتى ولا كلمة اعتذار كما تتطلب ذلك قواعد الأدب المبدئية. ثم إنني لا أستطيع أن أفهم كذلك لمَ لم يحضر بيير بيتروفيتش؟ لكن أين سونيا؟ إلى أين ذهبت؟ آه! ها هي ذي أخيراً: أين كنت يا سونيا؟ من الغريب أن لا تحضري في الوقت المعين في يوم دفن أبيك! يا روديون رومانوفيتش دعها تجلس إلى جانبك. هذا هو مكانك يا سونيا تناولي ما تشائين من الطعام. خذي من السمك المجمد إنه خير الأصناف الموجودة. لسوف نأتي لك بالفطائر. هل أطعِمَ الأولاد؟ بوليا! هل تناولت كل شيء؟ هي، هي، هي! هيا هذا أحسن. كوني عاقلة يا لينا وأنت يا كوليا لا تحرك ساقيك هكذا، ابق جالساً كطفل صغير من عائلة طيبة. ماذا تقولين يا سونيا؟

بادرت سونيا فوراً بنقل اعتذارات بيير بيتروفيتش إلى كاترين إيفانوفنا وهي تجهد في رفع صوتها كي يسمع المدعوون؛ وكانت تتكلم بعبارات منتقاة، تلك التي كان بيير بيتروفيتش يصوغها ويستعملها بل وزادت عليها بعض الشيء. أضافت أن بيير بيتروفيتش رجاها بحرارة أن تقول لها بأنه سيحضر حالما يتاح له ذلك ليتحدث إليها على انفراد حديث أعمال وليتفاهم معها على الأسلوب الواجب اتباعه بعد ذلك.

كانت سونيا تعرف أن هذا الكلام يطمئن كاترين إيفانوفنا ويرضي غرورها وخصوصاً وأن كرامتها المتطرفة ستجد فيه عزاءً ورضاً. جلست قرب راسكو لنيكوف بعد أن حيته بعجلة وهي تلقي عليه نظرة سريعة متفحصة. غير أنها كانت تبدو طيلة الوقت وكأنها تتحاشى النظر إليه أو التحدث معه بل وبدت أيضاً ساهمة شاردة الفكر رغم أنها كانت تحدق بعينيها في كاترين إيفانوفنا محاولة التنبؤ برغباتها والاستجابة لها. ولم تكن سونيا ولا

كاترين إيفانوفنا مرتديتين ثياب الحداد لافتقارهما إليها فكانت ترتدي ثوباً رمادياً داكناً بينما كانت كاترين إيفانوفنا مرتدية ثوباً من القماش الهندي ذا أقلام بلون داكن أيضاً وهو الثوب الوحيد الذي تمتلكه. ولما أبلغت اعتذارات بيير بيتروفيتش بدت شديدة الاغتباط وراحت ـ بعد أن أصغت إلى حديث سونيا باهتمام ـ تسأل بلهجة خطيرة عن صحة بيير بيتروفيتش، وبعدئذ عادت تهمس إلى راسكو لنيكوف بصوت مرتفع قليلاً إنه من الغرابة في مكان أن يندمج رجل يعتبر ذو مركز ممتاز كبيير بيتروفيتش في «عصبة شاذة كهذه» مهما بلغ من تفانيه نحو الأسرة، ورغم روابط الصداقة التي كانت تربطه بأبيها. وأضافت بصوت مرتفع تقريباً:

ـ ومن أجل ذلك فإنني ممتنة لك بصورة خاصة يا روديون رومانوفيتش لأنك لم تعزف عن ضيافتي والحضور إلى وسط كهذا! إنني مقتنعة الآن بأن صداقتك مع الفقيد المسكين هي وحدها التي دفعتك إلى التمسك بوعدك.

ثم راحت تسرح طرفها باعتداد واحتقار في المدعوين وفجأة رفعت صوتها تستفسر من العجوز الأصم الجالس إلى الجانب الآخر من المائدة: «أتريد شواء أيضاً؟ هل قدم إليك كالبورتو؟» فلم يجب العجوز القصير ولبث برهة لا يتوصل إلى فهم ما يطلب منه؛ حتى أن الجالسين بقربه حاولوا تفسير الطلب بغية الضحك؛ فنظر حوله فاغراً فاه الأمر الذي جعل الموجودين يغرقون في الضحك.

تابعت كاترين إيفانوفنا مخاطبة راسكو لنيكوف:

ـ انظر إلى هذه «المخللة»، انظر إلى هذا! لماذا جاؤوا به إلى هنا؟... أما فيما يتعلق ببيير بيتروفيتش فإنني كنت دائماً واثقة منه.

... وصرخت وهي تلتفت إلى إميلي إيفانوفنا تسخطها بنظرة قاسية جعلتها ترتبك فجأة:

ـ لا شك أنه لا يشبه تينك المتسكعتين المتبرجتين اللتين ما كانتا لتُقبلا عند «بابا» في المطبخ وما كان الفقيد زوجي ليحترمهما إذا ما استقبلهما بدافع طيبة نفسه العميقة.

هتف فجأة ضابط المؤن القديم الذي كان يبتلع في تلك اللحظة القدح الثاني عشر من أقداح العرق:

ـ نعم، كان يحب الشراب، آه! فيما يتعلق بهذا، كان يحب معانقة الزجاجة.

أجابت كاترين إيفانوفنا وهي تكيل له الصاع صاعاً:

ـ إن المرحوم زوجي كان ولا شك مصاباً بهذا الضعف، وكل الناس يعرفون هذا، لكنه كان رجلاً طيباً ونبيلاً وكان يحب ويحترم أسرته وكانت خطيئته الوحيدة أنه كان ميالاً ـ بسبب طيبة قلبه ـ إلى الاختلاط بكل أنواع الخليعين والله يعلم عدد من شرب معهم من هؤلاء! تصور يا روديون رومانوفيتش أنه وجد في جيبه ديك صغير من السكر! لقد كان يفكر في أطفاله رغم أنه كان في حالة من الثمل قريبة من الموت!.

صاح ضابط المؤن:

ـ ديك صغير؟ أقلت: ديك صغير؟

لم تتنازل كاترين إيفانوفنا بالإجابة عليه بل استغرقت في لون من التفكير وندت عن صدرها زفرة ثم تابعت تخاطب راسكو لنيكوف:

ـ لا شك أنك تعتقد ـ ككل الناس ـ أنني كنت قاسية جداً معه. إن

ذلك خطأ! لقد كان يكرمني، كان يقدرني تقديراً عميقاً! لقد كان روحاً طيبة جداً! كم كنت أشفق عليه أحياناً! كثيراً ما وقع له أن ظل جالساً في ركن ينظر إلي دون انقطاع فكان ذلك يعذبني! كنت أتوق إلى ملاطفته لكنني كنت أحدث نفسي: «إذا بدوت رقيقة فلسوف يعود إلى الشراب». لم يكن يمكن كبح جماحه بعض الشيء إلا باللجوء إلى القسوة.

قال الضابط السابق بصوت أشبه بالخوار وهو يكرع قدحاً آخر:

ـ نعم! لشد ما كانت «تدعك شوشته»! كثيراً ما حدث ذلك.

أجابت كاترين إيفانوفنا بلهجة حاسمة:

ـ إن بعض السخفاء لا يستحقون أن يجذب شعرهم فقط بل أن يطردوا بضربات المكانس وإنني طبعاً لا أتحدث عن الفقيد في هذه اللحظة.

كانت اللطختان الحمراوان على خديها قد ازدادتا احمراراً وراح صدرها يعلو وينخفض. لم يكن يوقفها عن إثارة شجار في تلك اللحظة إلا قليل من التعقل!. راح بعض المدعوين يتضاحكون من هذا المشهد الذي بدا مستملحاً مستظرفاً بالنسبة إليهم وراح بعضهم يحرض ضابط المؤن ويهمس في أذنه. كانوا يصبون الزيت على النار بشكل واضح.

شرع الضابط يقول:

ـ همْ! اســ... مــ... حي... لي أن أسألك عمن تتكلمين؟ أقصد بخصوص ماذا... مجرد استفهام... لقد قلت منذ قليل.... مع ذلك لا بأس! إن هذا لا يهم! أرملة! أرملة فقيرة! إنني أصفح... لننسى ذلك!

وعاد يفرغ قدحه في جوفه.

كان راسكو لنيكوف يصغي بسكون وقد اعتراه شعور بالاشمئزاز. كان يتظاهر بتناول الطعام تأدباً رغم أنه لم يكن قد استهلك شيئاً من الأطعمة التي كانت كاترين إيفانوفنا لا تني تملأ طبقه بها: كان يخشى أن يسبب لها صدمة. لبث يحدق في وجه سونيا لكن هذه كانت تزداد اكتئاباً وقلقاً. كانت تشعر هي الأخرى بأن المأدبة لن تنتهي بهدوء فكانت تراقب بوجل انفعال كاترين إيفانوفنا المتزايد. كانت تعرف أنها كانت ـ بين عدد آخر من الأسباب ـ السبب الرئيسي الذي من أجله استنكفت السيدتان الأجنبيتان عن الحضور ورفضتا بكل احتقار دعوة كاترين إيفانوفنا، فقد سمعت من إميلي إيفانوفنا نفسها أن أم الفتاة اعتبرت تلك الدعوة إهانة لها وأنها طرحت السؤال التالي: «كيف أستطيع أن أدع ابنتي تجلس إلى جانب هذه المخلوقة؟»! غير أنها كانت تعرف كذلك أن هذه تعتبر الإهانة الموجهة إلى سونيا أشد نكراً لو كانت موجهة إليها بالذات أو إلى أولادها أو أبيها؛ وبالاختصار فإن الإهانة الموجهة إلى سونيا تعتبر بالنسبة إليها إهانة قاتلة وكانت سونيا تعرف أن كاترين إيفانوفنا لو عرفت الحقيقة لما هدأت قبل أن: «تُري تينك المتسكعتين قيمتهما» إلخ... إلخ..

وأوصل بعضهم إلى سونيا ـ وكان الأمر مدبراً ـ طبقاً كان عليه قلبان تخترقهما نبلة صنعا من لباب الخبز. فغدا وجه كاترين إيفانوفنا أحمر أرجوانياً من الغضب وأعلنت بصوت مرتفع عبر المائدة أن من فعل ذلك هو: «ثمل كالأتان».

كانت إميلي إيفانوفنا هي الأخرى تشعر بسوء المنقلب؛ وكانت منزعجة انزعاجاً عميقاً من لهجة كاترين إيفانوفنا المزدرية فراحت فجأة ـ وكأنها تتعمد تلطيف الجو وتخفيف حدة التوتر وتتوخى الظهور أمام المدعوين ـ تقص: إن واحداً من معارفها «كارل وهو مساعد الصيدلي

كان ذاهباً ذات ليلة في إحدى العربات، وكان السائق يريد القضاء عليه. فراح كارل يرجوه جداً جداً أن لا يقتله وكان يبكي ضاماً يديه وكان خائفاً ولشدة رعبه انفجر قلبه!» فصرخت كاترين إيفانوفنا ـ وهي تبتسم ـ بأن إميلي إيفانوفنا لم يكن ينقصها الذوق لتسرد حكايات روسية فازداد انزعاج هذه وأجابت بأن «أباها الذي في برلين كان رجلاً هاماً جداً جداً وكان يمشي واضعاً يديه في الجيوب...» ولم تستطع كاترين إيفانوفنا الساخرة أن تتمالك نفسها فانطلقت بضحكة مجنونة عنيفة جعلت إميلي إيفانوفنا تفقد الصبر وتكاد أن تنفجر.

تمتمت كاترين إيفانوفنا مجدداً في شيء من الانشراح:

ـ آه! يا للدجاجة الهندية! كانت تريد أن تقول: «يمشي واضعاً يديه في جيبه»، بينما تجعل المرء يعتقد بأنه كان يضع يديه في جيوب غيره، هي! هي! هل لاحظت يا روديون رومانوفيتش أن كل الغرباء الذين يعيشون في بطرسبورغ ـ وخصوصاً الألمان منهم الذين يتغلغلون عندنا في كل مكان ـ كلهم أكثر سخفاً وحماقة منا! هيا ألا توافق؟ هل يعبر الإنسان عن رأيه بهذا الشكل؟ أما ذلك الصيدلي، كارل، فكيف ترى ذلك الأبله الذي بدلاً من أن يوثق السائق: «يضم يديه وينخرط في البكاء». يا للدجاجة الروسية! وهي تعتقد أن قصتها مسلية جداً ولا تعتقد لحظة أنها حمقاء! في رأيي أن هذا الضابط السكير أشد ذكاء منها فهو على الأقل يبدو بوضوح أنه في «كروم الرب» وأنه أودع عقله في أعماق كأسه بينما يتصنع الباقون الجد والوقار... انظر إليها كيف تدير عينيها... إنها تغضب... ها! ها! ها! هي! هي! هي!

بعد أن أعربت كاترين إيفانوفنا عن ابتهاجها بهذا الشكل انهمكت في تقديم طائفة من التفاصيل وأعلنت أخيراً أنها بفضل الجراية التي

ستحصل عليها سوف تفتتح مدرسة للبنات في مدينة «ت...» حيث مسقط رأسها ولم تكن حتى تلك اللحظة قد أخبرت راسكو لنيكوف بشيء عن هذا المشروع لذلك فقد راحت تصف حياتها المقبلة الجديدة بكثير من الإيضاح والتفصيل والتنميق والتزويق.

وفجأة ظهرت في يدها وليس يُعرف كيف ـ تلك الشهادة العتيدة التي كان مارميلادوف المتوفى قد تحدث عنها إلى راسكو لنيكوف عندما كان يفسر له، إبان لقائهما في الحانة، أن امرأته كاترين إيفانوفنا كانت عند تخرجها من المعهد قد رقصت رقصة الشال «بحضور الحاكم وعدد من شخصيات المقاطعة». وكان «الدبلوم» موضوع البحث يقوم ولا شك مقام شهادة تثبت أن لكاترين إيفانوفنا الحق في افتتاح مدرسة. لكنها ما أبرزته إلا بغية إفحام تينك المتسكعتين فيما لو قبلتا الدعوة لتثبت لهما بشكل نير أن كاترين إيفانوفنا كانت من عائلة نبيلة «بل ويمكن القول أنها أرستقراطية، ابنة زعيم، وأنها كانت على ذلك تساوي أكثر من الباحثات عن المغامرات التي راح عددهن يزداد زيادة مدهشة في الأيام الأخيرة».

طافت تلك الشهادة على المدعوين السكارى دون أن تعترض كاترين إيفانوفنا على وقوعها بين أيديهم، لأنه كان مكتوباً عليها بحروف واضحة أنها كانت حقيقة ابنة مستشار قضائي منعم عليه بوسام، الأمر الذي يجعلها ابنة زعيم أو شيء من هذا القبيل. وبعد أن أرضت كاترين إيفانوفنا غرورها راحت على الفور تتبسط في تفاصيل الحياة البديعة جداً والهادئة جداً التي ستحياها يوماً في مدينة «ت...» لسوف تطلب إلى أساتذة الثانويات أن يعطوا دروساً في معهدها. إنها تعرف هناك عجوزاً محترماً يدعى السيد «مانغو» قد علمها من قبل اللغة الفرنسية، وهو يقضي أيامه الأخيرة في مدينة «ت...»، ولسوف يتفق معها على الأجر! ثم تحدثت عن سونيا «التي

ستذهب هي الأخرى إلى ت...» مع كاترين إيفانوفنا والتي ستصبح هناك «مساعدة ثمينة».

فلما بلغت هذا الحد من كلامها سُمِعَ بعضهم من طرف المائدة الأقصى يحاول خنق ضحكة انبعثت من حنجرته. غير أن كاترين إيفانوفنا تظاهرت بعدم السماع ورفعت صوتها لتعدد فوراً ميزات صوفي سيميونوفنا التي لا تقدر ولا يتطرق إليها الشك! وأضافت بأن هذه جديرة بأن تصبح شريكة لها «لأنها هادئة وصبورة ومخلصة ولها عواطف نبيلة وثقافة جيدة» ثم راحت تربت على خدي سونيا، وعانقتها بحرارة مرتين فاحمر وجه سونيا! وعندئذ انفجرت الدموع من عيني كاترين إيفانوفنا وراحت تصرح «بأنها نفسها مخلوقة مسكينة حمقاء ضعيفة الأعصاب، لم تعد تطيق الاحتمال؛ وأن الطعام قد انتهى وأن الوقت قد أزف لتقديم الشاي». وفي تلك اللحظة حاولت إميلي إيفانوفنا ـ التي كانت تبدو شديدة الاستياء لأنها لم تستطع المساهمة في الحديث ولأن أحداً لم يكن يصغي إليها ـ محاولة يائسة وهي تخفي حنقها، وسمحت لنفسها بأن توجه إلى كاترين إيفانوفنا ملاحظة عميقة وصائبة، تتعلق بوجوب انتباه خاص إلى ألبسة الفتيات الداخليات في معهدها؛ وأنه ينبغي السهر على منع الفتيات الشابات من قراءة الروايات سراً أثناء الليل، وإيجاد سيدة مناسبة لتهتم بألبسة الفتيات الداخلية. غير أن كاترين إيفانوفنا التي كانت متوترة الأعصاب تماماً وشديدة الإعياء إلى جانب المضايقات التي كانت تلك الوليمة تحدثها لها، «أغلقت فم» إميلي إيفانوفنا قائلة لها: إنها ـ تثرثر بحماقات ـ لأن العناية بالألبسة الداخلية اختصاص الخازنة وليس مديرة المعهد. أما قراءة الروايات فإن ملاحظة كهذه تكاد أن تمس ناحية اللياقة ورجتها أن تصمت. فأحمر وجه إميلي إيفانوفنا من الحنق وأفهمتها بأنها لم تكن تقصد إلا الخير وأنها

كانت تريد «كثيراً جداً من الخير» وأن أجرة مسكنها لم تدفع إليها منذ زمن بعيد. فأجلستها كاترين إيفانوفنا وقالت بأنها تكذب عندما تدعي بأنها تريد لها الخير خصوصاً وأنها أمس أيضاً، بينما كان المرحوم لا يزال مسجى على الطاولة، جاءت تزعجها بصدد الأجر. عندها أفهمتها إميلي إيفانوفنا بكثير من التعمد «بأنها دعت تينك السيدتين، لكن تينك السيدتين لم تحضرا لأن تينك السيدتين كانتا سيدتين كما يجب لا تستطيعان المجيء عند سيدة ليست كما يجب». فبادرت كاترين إيفانوفنا بالمثل «تبرز» بأنها باعتبارها متشردة عديمة الاعتبار فإنها لا تملك المؤهلات التي تسمح لها بالحكم على معنى كلمة «أن يكون المرء من عائلة طيبة». فخرجت إميلي إيفانوفنا عن وقارها وأعلنت على الفور أن «أباها الذي في برلين كان رجلاً هاماً جداً جداً وأنه كان يمشي دائماً ويداه «الاثنتان» في الجيوب وأنه كان يعمل دائماً: بوف! بوف!» ولكي نعطي صورة حية أكثر دقة عن «أبيها» نهضت إميلي إيفانوفنا وحشرت يديها في جيبها ونفخت خديها وراحت تخرج من فمها أصواتاً واضحة تشبه بوف! بوف! فانفجر المستأجرون ضاحكين وراحوا بتأييدهم يثيرون إميلي إيفانوفنا آملين في إثارة معركة «تجاذب شعر» بينهما!

كانت كاترين إيفانوفنا في أقصى درجات الغليان فأعلنت بصوت مرتفع ليسمع كل الموجودين، أن إميلي إيفانوفنا قد لا تكون قد عرفت أباها مطلقاً وأنها لم تكن إلا من «أطراف» بطرسبورغ، إحدى المرتزقات التي كانت تشتغل من قبل طاهية أو أحقر من هذا عملاً. فغدت إميلي إيفانوفنا حمراء كالسرطان وراحت تزمجر: «إن كاترين إيفانوفنا هي التي يمكن أن تكون بلا أب أما هي فإن أباها كان في برلين. وكان يلبس «ردنجوتاً» طويلاً ويعمل دائماً بوف! بوف! بوف!» وأجابت كاترين

إيفانوفنا بلهجة ازدراء بأن حسبها ونسبها معروفان من كل الناس وأنه حتى في دبلوم الشرف هذا قد ذكر بأحرف مطبوعة أنها ابنة زعيم. أما أبو إميلي إيفانوفنا ـ إذا افترض وكان لها أب ـ فإنه لا يمكن أن يكون أكثر من أحد رعاع بطرسبورغ، بائع حليب مثلاً لكن بحسب الظواهر كلها فإنها لا يمكن أن يكون لها أب طالما أنه لا يعرف حتى الآن إذا كان اسم أسرتها إيفانوفنا أو لودويكوفنا. فأنفجرت إميلي إيفانوفنا غضباً وضربت المائدة بقبضة يدها وراحت تزعق بصوت كالنباح قائلة: إن اسمها هو إميلي إيفانوفنا وليس لودويكوفنا وإن أباها كان اسمه جوهان وإنه كان «شيخ بلد» بينما لم يكن أبو كاترين إيفانوفنا في مثل هذا المركز. وهنا نهضت كاترين إيفانوفنا وأعلنت بصوت قاس لكنه شديد الوقار في ظاهره ـ رغم شحوبها وأنفاسها المبهورة ـ أنه إذا سمحت إميلي إيفانوفنا لنفسها ولو مرة واحدة «أن تضع «باباها» هي، كاترين إيفانوفنا، فإنها ستنتزع غطاء رأسها وستطؤه بأقدامها». فلما سمعت إميلي إيفانوفنا هذه الكلمات راحت تجري في الغرفة بكل قواها مؤكدة أنها هي صاحبة المكان وأن كاترين إيفانوفنا «ينبغي أن تخلي المسكن على الفور»! واندفعت بعدئذ إلى المائدة لتأخذ عنها الملاعق الفضية! وحدث صخب فظيع وانفجر الأطفال بالبكاء وكادت سونيا أن تندفع لتستوقف كاترين إيفانوفنا لكن إميلي إيفانوفنا كانت قد تفوهت بكلمات تلمح إلى «البطاقة الصفراء» وعندئذ جن جنون كاترين إيفانوفنا فدفعت سونيا وألقت بنفسها على صاحبة المسكن لتنفذ على الفور تهديدها المتعلق بكساء الرأس.

في تلك الأثناء فتح الباب وظهر على عتبته فجأة بيير بيتروفيتش لوجين. توقف برهة وسرح الطرف بين الجمع الحاشد وفي عينيه نظرة قاسية متفحصة. رأته كاترين إيفانوفنا فاندفعت إليه.

الفَصْلُ الثالِثُ

هتفت:

ـ يا بيير بيتروفيتش! تعال أنت على الأقل إلى نجدتنا! اسمع هذه المخلوقة بأنه لا يحق لها أن تتحدث بمثل هذه اللّهجة إلى سيدة من أسرة طيبة سقطت في البؤس، وأن هناك قضاة على أجل هذا القول... لسوف أشكو إلى الحاكم العام بنفسه. ولسوف تُسأل هذا.. احمِ الأيتام إكراماً لذكرى الضيافة وعلاقاتك بأبي.

قال بيير بيتروفيتش وهو ينحيها بإشارة من يده:

ـ اسمحي يا سيدتي... اسمحي، اسمحي يا سيدتي، إنني لم أتشرف أبداً ـ وأنت تعرفين ذلك جيداً ـ بمعرفة أبيك... اسمحي يا سيدتي (وهنا انفجر أحد الموجودين ضاحكاً). أما فيما يتعلق بمشاجراتك التي لا تنتهي مع إميلي إيفانوفنا فإنني لست على استعداد مطلقاً للتدخل فيها... لقد جئت إلى هنا بصدد مسألة خاصة... وإنني أرغب بالحصول على تفاهم فوري مع ابنة زوجك صوفي إيفانوفنا، أليس هذا هو اسمها؟ اسمحي لي بالدخول...

وتوجه بيير بيتروفيتش إلى الطرف الآخر من الغرفة حيث كانت سونيا بعد أن أعرض عن كاترين إيفانوفنا...

لبثت كاترين إيفانوفنا جامدة في مكانها وكأن صاعقة انقضت عليها.

ما كانت تستطيع أن تفهم كيف سمح بيير بيتروفيتش لنفسه لنكران ضيافة أبيها؛ لأنها منذ أن تصورت تلك الضيافة آمنت بها بنفسها إيمانها بالعقيدة المقدسة. ثم إن لهجة لوجين، تلك اللّهجة الجافة النابية التي تفيض احتقاراً وتهديداً قد ضاعفت ذهولها. ولما كان رجل الأعمال الخطير ذاك أرفع مستوى من المجتمعين فإنه كان واضحاً أنه ما جاء إلا لسبب هام! سبب خارق أتى به إلى ذلك الوسط وبالتالي فإن حادثاً ما لن يلبث أن يقع! وكان راسكو لنيكوف بالقرب من سونيا فاضطر إلى التنحي ليدعه يمر، فبدا بيير بيتروفيتش كأنه لم يلاحظ وجوده. وبعد برهة شوهد ليبيزيا تنيكوف على عتبة الغرفة لكنه لم يدخل إليها بل ظل واقفاً وفي عينيه نظرة استطلاع غريبة يرى ويسمع باستغراب ولا يبدو عليه أنه قد أدرك سبب ذلك المشهد.

صرح بيير بيتروفيتش بشكل عام دون أن يوجه حديثه إلى شخص معين:

ـ اعذروني إذا أزعجتكم: ولكن القضية خطيرة وإنني لسعيد إذ أكشف عنها بشكل علني. يا إميلي إيفانوفنا، إنني أرجوك بكل خضوع، بصفتك صاحبة هذا المسكن، أن تصغي بانتباه إلى الحديث الذي سأتبادله مع صوفي سيميونوفنا!

وأضاف موجهاً حديثه إلى سونيا التي كانت مشدوهة ترتعد سلفاً:

ـ يا صوفي سيميونوفنا! بعد مغادرتك منذ قليل غرفة صديقي، اختفت ورقة نقدية من ذات المائة روبل كانت موضوعة على المنضدة

فإذا كنت تعرفين بشكل من الأشكال مصير تلك الورقة وتحدثيننا عنها فإنني أعطيك كلمتي وأشهد كل هؤلاء الموجودين على أن أدع القضية تنتهي هنا، وإلا فإنني سأضطر إلى اللجوء إلى تدابير خطيرة وعندئذ تكونين قد تسببت لنفسك بالمتاعب بنفسك.

ران سكون عميق على الغرفة. حتى الأطفال الذين كانوا ينتحبون صمتوا واجمين. كانت سونيا واقفة شاحبة كالأموات تنظر دون أن تستطيع جواباً. كانت تبدو غير فاهمة لحقيقة الأمر. وانقضت بضع ثوان...

سأل لوجين وهو يحدجها ببصره:

ـ إذن، ماذا تقولين؟

غمغمت سونيا بصوت ضعيف:

ـ لست أدري.. لا أعرف شيئاً؟

قال لوجين:

ـ كلا؟ لا تعرفين شيئاً؟

وصمت برهة ثم أردف بصوت قاس:

ـ فكري جيداً يا آنسة! ابحثي، إنني أمنحك الوقت للتفكير. اعلمي أنني لو لم أكن على ثقة تامة وأنا ـ بالطبع ـ كثير التجارب، لما وجهت إليك تهمة مباشرة، لأن مثل هذه التهمة الموجهة علناً ومباشرة إذا ثبت خطؤها ستجعلني مسؤولاً عنها. إنني لست أجهل هذا. هذا الصباح بالذات استبدلت لحاجاتي الشخصية بعض الأسهم بمبلغ نقدي قدره ثلاثة آلاف روبل، ذلك هو الرقم المسجل في مفكرتي. وعندما عدت إلى غرفتي ـ ويشهد على ذلك أندريه سيميونوفيتش ـ رحت أحصي نقودي من جديد فعددت ألفين وثلاثمائة روبل وضعتها في حافظة أودعتها

جيب «رودنجوتي» الجانبي، وبقي على الطاولة حوالي خمسمائة روبل أوراقاً مصرفية بينها ثلاث أوراق من ذوات المائة روبل. وفي تلك اللحظة دخلت أنت ـ بناء على دعوتي ـ وكنت خلال الوقت الذي قضيته عندي بادية الاضطراب والإرتباك. بل إنك خلال حديثنا قمت ثلاث مرات تحاولين الخروج دون سبب معين رغم أن حديثنا لم يكن قد انتهى بعد. إن أندريه سيميونوفيتش يستطيع أن يؤيد هذا القول. ولا شك أنك يا آنسة لن ترفضي الاعتراف والتصريح بأنني استدعيتك بواسطة أندريه سيميونوفيتش لكي أتباحث معك ـ فقط ـ بصدد مركز قريبتك كاترين إيفانوفنا المحزن ـ التي ما كنت أستطيع تناول طعام الغداء عندها ـ بغية إيجاد الوسائل القمينة بإمدادها بالمساعدة سواء أكان ذلك بإعداد قائمة باكتتاب أو بإقامة «يانصيب» أو أي شيء آخر من هذا القبيل. ولقد شكرتني والدموع ملء عينيك (إنني أسرد الأشياء كما وقعت تماماً: أولاً لأذكرك بها وثانياً لأثبت لك بأن أية ملاحظة لم تغب عن ذاكرتي). وأخيراً أخذت ورقة من ذات العشرة روبلات كانت في عداد الأوراق الأخرى على المائدة، فأعطيتها لك باسمي لأثبت لك اهتمامي بأسرتك معلناً أنني أول متقدم للمساعدة. وقد شاهد أندريه سيميونوفيتش كل هذا. ثم شيعتك حتى الباب وأنت في حالة الاضطراب والارتباك التي بدت عليك من قبل. وبعد ذهابك لبثت وحدي مع أندريه سيميونوفيتش فاستغرقت معه في حديث دام خمس دقائق. ثم خرج أندريه سيميونوفيتش فرجعت إلى المنضدة مزمعاً ـ بناء على تصميم سابق ـ وضع بقية النقود على حدة. ولشدة استغرابي ودهشتي لاحظت أن ورقة من ذات المائة روبل قد فقدت من المبلغ. والآن كوني قاضياً: هل أتهم أندريه سيميونوفيتش؟ إنني لا أستطيع، بل إنني لأخجل من مجرد ذلك الاحتمال. كما أنني لا

يمكن أن أكون مخطئاً في حساباتي خصوصاً وأنني قبل قدومك بدقيقة واحدة عددت وأحصيت مجموع المبلغ فوجدته كاملاً. وإنك لتوافقيني بنفسك. على أنني ما تذكرت اضطرابك وتهافتك على الخروج وأنك كنت خلال لحظات طويلة واضعة يديك على المنضدة ثم عندما تأملت وصفك الاجتماعي والعادات التي ترافقه، روعت رغماً عني عندما اضطررت إلى تقبل مثل هذا الشك القاسي. لكن الدوافع إليه سليمة منطقية. وإنني أضيف وأكرر أنني رغم وثوقي الأكيد فإنني أفهم أيضاً أن اتهامي الحالي لا يخلو من بعض المخاطرة، لكنني كما ترين لم أتردد دقيقة واحدة بل إنني ثرت؛ ولسوف أقول لك لماذا: لقد ثرت يا آنسة بسبب جحودك الفظيع!... كيف لا؟ أأدعوك إلي بغية مساعدة قريبك المسكينة وأمنحك لهذه الغاية عشرة روبلات فألقى منك هذا الشكر العجيب؟ كلا! إن هذا ولا شك غير مقبول. ينبغي أن تتلقي درساً. فكري! إنني أتوسل إليك باعتباري أحسن صديق لك (لأنه لا يمكن أن يكون لك في هذه اللحظة صديق خير مني): أن تعترفي بنفسك وإلا فإنني سأكون قاسياً! والآن هل تعترفين؟

تمتمت سونيا مذهولة:

ـ إنني لم آخذ لك شيئاً. لقد أعطيتني عشرة روبلات، ها هي ذي، استعدها.

وأخرجت سونيا منديلها من جيبها وبحثت عن العقدة التي ربطتها فحلتها وسحبت ورقة العشرة روبلات فدفعت به إلى لوجين.

قال هذا بلهجة معاتبة دون أن يستعيد الورقة النقدية:

ـ على هذا إذن. فإنك لا تريدين الاعتراف بالمائة روبل.

سرحت سونيا طرفها فيما حولها. كان الموجودون ينظرون إليها

بارتياع وقسوة وازدراء وحقد؛ ونظرت إلى راسكو لنيكوف... كان هذا واقفاً مستنداً إلى الجدار معقود الذراعين يحدجها بنظرة ملتمعة.

غمغمت سونيا بصوت ضارع:

ـ آه يا رب!

قال لوجين بوداعة لا تخلو من التحبب مخاطباً صاحبة المسكن:

ـ يا إميلي إيفانوفنا ينبغي إحضار البوليس وبانتظار ذلك: أرجوك بكثير من التواضع أن تتفضلي باستدعاء البواب.

نطقت إميلي إيفانوفنا بعبارة بالألمانية إعراباً عن رأيها وقالت وهي تضرب كفاً بكف:

ـ كنت أعرف تماماً أنها سارقة!

فقال لوجين:

ـ كنت تعرفين؟ بناء على ذلك فإن لديك من الأسباب المسبقة ما جعلك تستنتجين هذا الرأي. أرجوك يا إميلي إيفانوفنا الشديدة الاحترام أن تتذكري هذه الكلمات التي تلفظت بها للتو أمام هؤلاء الشهود.

حمي النقاش في كل أركان الغرفة وتفاقم الاضطراب والبلبال حتى شمل كل إنسان.

صرخت كاترين إيفانوفنا فجأة بعد أن استعادت روعها:

ـ كيف؟

ثم قفزت باتجاه لوجين وكأنها اندفعت بقوة لولبية وصرخت:

ـ كيف؟ إنك تتهمنا بالسرقة؟ هي؟ سونيا؟ آه! يا للأنذال! يا للأنذال!

وجرت إلى سونيا تضمها بقوة وعنف مطبقة ذراعيها حولها واسترسلت:

ـ سونيا! كيف جرؤت على تقبل عشرة روبلات من هذا الرجل! آه! يا للحمقاء! رديها إليه فوراً! أعيدي إليه روبلاته العشرة! خذ!

وانتزعت الورقة المالية من بين يدي سونيا، فكورتها بين أصابعها وألقتها في وجه لوجين، فأصابته الكرة الورقية في عينه. وتدحرجت على أرض الغرفة، فاندفعت إميلي إيفانوفنا تلتقطها.

غضب بيير بيتروفيتش وصرخ:

ـ امسكوا هذه المجنونة!

بدا على مدخل الغرفة إلى جانب لوجين عدد من الأشخاص بينهم السيدتان «المتسكعتان».

زمجرت كاترين إيفانوفنا:

ـ ماذا! مجنونة! أأنا المجنونة؟ أيها السخيف! سخيف أنت نفسك! أيها القط المنتفخ! أيها المخلوق القذر! سونيا، سونيا تأخذ منه مالاً؟ سونيا سارقة؟ لكنها تعطيك بدلاً من أن تأخذ منك أيها السخيف!

وانفجرت كاترين إيفانوفنا بضحكة هيسترية وصاحت وهي تجري في أركان الغرفة تشير إلى لوجين:

ـ هل رأيتم هذا السخيف؟ كيف؟

وفجأة دفع بصرها على صاحبة المسكن فصرخت:

ـ وأنت أيضاً! أنت أيضاً تدعين أنها لصة أيتها البروسية القذرة؟ هل ترون هذا! هل ترون هذا! لكنها لم تبرح هذه الغرفة. وقد جاءت منذ

أن خرجت من عندك أيها الرجل الفظ تجلس قرب روديون رومانوفيتش، فتشها! طالما أنها لم تذهب إلى أي مكان فإن المبلغ يجب أن يكون باقياً معها! فتش إذن، فتش فتش! لكنك إذا لم تجد شيئاً فلسوف يكون لي معك شأن يا عزيزي! إلى الإمبراطور! سأمضي إلى الإمبراطور لأشكوك، إلى القصير الرحيم، سألقي بنفسي على قدميه فوراً، اليوم بالذات! إنني يتيمة! ولسوف يدعونني أدخل! أو تظن أنهم لن يدعونني أدخل؟ إنك مخطئ! لسوف أصل إليه! لسوف أصل! لقد كنت تعول على خجلي! وبنيت أملك على هذا الأساس! لكنني ـ ألا ترى ـ لست شديدة الخجل! لسوف تجد من تتحدث إليه! ابحث إذن، ابحث، ابحث... ما بك؟ ابحث!!!

راحت كاترين إيفانوفنا تهز لوجين بعنف وتجره نحو سونيا. غمغم لوجين:

ـ إنني على استعداد للتحمل مسؤولية ما أقدمت عليه يا سيدتي فاطمئني! إنني أرى أنك لست شديدة الخجل... إنه... في الحقيقة... يجدر أن يُستدعى البوليس... ثم إن هناك عدداً أكثر من اللازم من الشهود... إنني مستعد... لكن هذا العمل دقيق جداً بالنسبة للرجل... نظراً لاختلاف الجنس... لو كان يمكن اللجوء إلى مساعدة إميلي إيفانوفنا رغم أن الأمور لا تُسوى على هذا النحو... ما العمل؟

صرخت كاترين إيفانوفنا:

ـ خذ من تشاء! ليفتشها من يشاء! سونيا، اقلبي جيوبك أمامهم! خذا! خذ! انظر أيها الوحش! ألا ترى أنها فارغة؟ كان هناك منديل فقط... أنت ترى أن الحبيب فارغ... والآن إلى الجيب الآخر. خذا! ألا ترى! ألا ترى؟

راحت كاترين إيفانوفنا تعرض جيوب الفتاة على الموجودين

وهي تقلب بطانتها وتهزها بعنف. وفجأة قفزت من الجيب الأيمن، الجيب الآخر، ورقة رسمت في الهواء نصف دائرة وسقطت عند أقدام لوجين. كان الموجودون جميعاً قد شاهدوها، فتعالت صيحات التعجب من حناجر الكثيرين.

انحنى بيير بيتروفيتش والتقط الورقة بين أصبعيه وراح ينشرها على مرأى الجميع كانت ورقة مالية من فئة المائة روبل مطوية ثماني طيات. أخذ بيير بيتروفيتش يدير يده عارضاً الورقة على أنظار الموجودين.

نبحت إميلي إيفانوفنا:

ـ يا سارقة! اخرجي من هنا! الشرطة، الشرطة! ينبغي إرسالها إلى سيبيريا. اخرجي!

ابتعثت صيحات الاستغراب والتعجب من كل مكان، بينما كان راسكو لنيكوف صامتاً ينظر إلى سونيا دون انقطاع إلا خلال فترات كان ينقل بصره منها إلى وجه لوجين، وكانت سونيا جامدة في مكانها وكأنها أصيبت بالخبل حتى أنه لم يكن يبدو عليها شيء من الدهشة. وفجأة اندفع الدم إلى وجهها فأطلقت صيحة خافتة وأخفت وجهها بين يديها. صرخت خلال عبراتها بصوت يمزق القلوب وهي تندفع نحو كاترين إيفانوفنا:

ـ كلا! كلا! لست أنا إنني لم آخذ شيئاً! لست أدري!

ضمتها كاترين إيفانوفنا بعنف إلى صدرها وكأنها أرادت أن تجعل من صدرها درعاً لها وصاحت تكذب عينيها وتهدهد سونيا بين ذراعيها كالطفل وتغمرها بالقبلات:

سونيا سونيا! إنني لا أصدق شيئاً! ألا ترين أنني لا أصدق! أنت

تأخذين شيئاً؟ لكن، أو ليسوا حمقى هؤلاء! رباه! أيجب أن تكونوا جميعاً حمقى. حيوانات!

واستدارت تخاطب الأشخاص الموجودين قائلة بصوت لاهث:

ـ إنكم لا تعرفون شيئاً عن قلبها! إنكم لا تعرفون من هي هذه الفتاة! إنها تعطي آخر قميص عندها، نعم تعطيه، وتسير عارية القدمين، إنها تعطيكم كل شيء إذا كنتم في حاجة إليه. هذه هي سونيا! لقد باعت جسمها وحملت بطاقة لأن أولادي كانوا يموتون جوعاً. لقد باعت نفسها من أجلنا! آه يا زوجي المرحوم المسكين! آه! أيها المرحوم المسكين! يا فقيدي المسكين! هل ترى هذا؟ أو تراه؟ انظر أي نوع من طعام جنائزي كان معداً لك! رباه! لكن احموها أنتم بدلاً من وقوفكم هكذا! يا روديون رومانوفيتش لِمَ لم تدافع عنها أنت؟ هل تصدق أنت الآخر مثل هذه الأشياء؟ إنكم جميعاً مهما سمحت مراتبكم لا تساوون أصبعها الأصغر! كلكم! كلكم! رباه. هيا دافع عنها أخيراً.

أخذت عبرات المصدورة البائسة تثير إشفاقاً كبيراً بين الموجودين. كان في وجهها التالف الهزيل الذي حمره المرض، وشفتيها الذابلتين المدميتين وصوتها الأجش الزافر ونحيبها العنيف، الذي يحاكي نحيب الأطفال وفي ذلك الرجاء البريء المخلص وهي في أعماق يأسها، شيء يثير الإشفاق ويعتصر القلب. كانت حالتها البائسة تستدر العطف حتى أن بيير بيتروفيتش «رأف» بها وأعرب عن ذلك بلهجة رزينة:

سيدتي، سيدتي إن هذا الأمر لا يعنيك في شيء. إن أحداً لا يفكر في اتهامك بسوء التدبير أو الاشتراك بالأمر خصوصاً وأنك أنت التي عرضت أمر تفتيش جيوبها. وإذن، فإنك ما كنت تعتقدين بإمكان حدوث ما حدث.

إنني على استعداد ـ نعم على استعداد تماماً هنا ـ لإبداء الرحمة إذا كانت الفاقة هي التي دفعت صوفي سيميونوفنا إلى ما أقدمت عليه: لكن لِمَ إذن يا آنسة رفضت الاعتراف؟ هل خشيت التعرض للتشهير؟ أهذه هي فعلتك الأولى؟ لعلك كنت فاقدة عقلك. إن القضية مفهومة.. لكن لماذا وضعت نفسك في مثل هذا المأزق!

ثم استشهد بالحاضرين وقال:

ـ رباه! رباه! إنني على سبيل الإشفاق وحسم الموضوع على استعداد الآن أيضاً للصفح رغم الإهانات الشخصية التي وجهت إلي! نعم يا آنسة: ليكن لك من العار والخجل اللذين لحقا بك الآن درس يردعك في المستقبل. إنني لن أدفع الأمر إلى أبعد من هذا وأرغب في أن تتوقف الأمور عند هذا الحد، إن هذا يكفي.

نظر بيير بيتروفيتش من زاوية عينه إلى حيث كان راسكو لنيكوف والتقت نظراتهما. كانت نظرة راسكو لنيكوف الملتهبة تكاد أن تسحق لوجين أما كاترين إيفانوفنا فكانت كأنها لم تسمع شيئاً: كانت لا تزال تعانق سونيا كالمخبولة وحذا الأطفال حذوها. فراحوا يطوقونها بأذرعهم الصغيرة. وانخرطت بوليا في البكاء وراح جسمها يهتز من النحيب. كانت تخفي وجهها الجميل المنتفخ في بالبكاء في كتف سونيا وهي لا تدري عن المأساة شيئاً.

وفجأة انبعث صوت خطير بجانب الباب يقول:

ـ كم هو وضيع هذا!

فالقى بيير بيتروفيتش نظرة سريعة حوله.

كرر ليبيزياتنيكوف وهو يحدج لوجين بقسوة:

ـ يا للدناءة!

شعر بيير بيتروفيتش بما يشبه القشعريرة في جسمه ولاحظ كل الموجودين ذلك. خطا ليبيزيا تنيكوف خطوات إلى داخل الغرفة. وقال وهو يتجه نحو بيير بيتروفيتش:

ـ مع ذلك فقد جرؤت على تقديمي شاهداً عليها؟

نعم لوجين:

ـ ما معنى هذا يا أندريه سيميونوفيتش؟ ماذا تريد أن تقول؟

أجاب ليبيزياتنيكوف باحتداد وهو ينظر إليه بقسوة بعينيه المريضتين الصغيرتين المستعدتين لملاحظة كل كلمة وإعطائها ما تستحق من تقدير:

ـ معنى ذلك أنك مفتر نمام، ذلك ما تعنيه كلماتي!

ران السكون من جديد فبدا بيير بيتروفيتش كأنه فقد سيطرته على أعصابه للوهلة الأولى.

شرع يقول متلعثماً:

ـ إذا كنت توجه الحديث لي... لكن ماذا دهاك؟ هل أنت مالك لقواك؟

ـ نعم! إنني مالك لقواي! لقد سمعت كل شيء! إن معنى ذلك أنك خائن مخاتل. آه! كم هو دنيء كل هذا! لقد سمعت كل شيء ولقد انتظرت عامداً لأفهم كل شيء لأنني ـ وأعترف ـ حتى في هذه اللحظة لا يبدو الأمر لي بشكل معقول تماماً... لكن لمَ عملت كل هذا؟ إنني لا أفهم السبب!

ـ لكن ما هذا الذي عملته؟ هل بدأت تتكلم بأحاج سخيفة أم إنك ثمل؟

ـ بل إنك أنت أيها الرجل المنحط الذي يمكن أن تكون ثملاً وليس أنا! إنني لا أشرب العرق مطلقاً لأن ذلك يخالف عقائدي! تصوروا أنه هو، هو بنفسه الذي أعطى بيده ورقة المائة روبل إلى صوفي سيميونوفنا، لقد رأيته وكنت شاهداً على ذلك. إنني على استعداد للإدلاء بهذا القول أمام المحكمة. إنه هو! إنه هو!

قال لوجين بصوت كالنباح:

ـ لكنك مجنون أيها الغر! لقد ادعت بنفسها أمام الموجودين منذ برهة بأنها لم تأخذ مني روبلاً واحداً أكثر من ورقة العشرة روبلات فكيف أكون قد أعطيتها هذا المبلغ؟

كرر ليبيزياتنيكوف تأكيداته:

ـ لقد رأيتك، لقد رأيتك. وعلى الرغم من تنافر ذلك مع عقائدي فإنني مستعد للإدلاء بقولي في المحكمة بعد أداء اليمين، لأنني رأيتك تدس لها هذا المال سراً في جيبها: لكنني كنت من الحماقة بحيث ظننت أنك فعلت ذلك على سبيل الإحسان. كان ذلك قرب الباب حينما كنت تودعها وبينما استدارت لتصافح يدك الممدودة دسست أنت بيسراك الورقة المالية في جيبها. لقد شهدت ذلك بنفسي! لقد شهدته!

شحب وجه لوجين وهتف بعتو:

ـ ما هذه الخزعبلات التي تروجها؟ لقد كنت قرب النافذة فكيف يتاح لك رؤية هذه الورقة! لقد خيل إليك ذلك!... إنك بعينيك المريضتين تخبط...

ـ كلا، إنه ليس تخيل أو وهم! إنني رغم المسافة بيننا لم تفتني

شاردة من تصرفاتك، نعم إنه من العسير علي تمييز هذه الورقة وأنا في مكاني على النافذة. إنك محق في هذا. لكنني كنت أعرف ـ بسبب ظرف خاص ـ أن ما دسسته في جيبها كان ورقة من ذات المائة روبل. لأنني كنت حينذاك قريباً منك ورأيت الورقة في يدك. لقد طويتها واحتفظت بها طوال الوقت في يدك لكنني بعد قليل نسيت هذه الملاحظة تقريباً. وعندما نهضت نقلتها من يدك اليمنى إلى يدك اليسرى فكادت أن تسقط من يدك، فأتاح لي ذلك أن أتذكرها من جديد. فظننت أنك تريد أن تسدي إلى صوفي سيميونوفنا جميلاً دون أن تشعرني به. وهكذا رحت أرقبك! لقد رأيتك بعدئذ قد توقفت في دس الورقة في جيبها. لقد رأيت ذلك وإنني على استعداد لتأييد أقوالي بالقسم!

كان ليبيزياتنيكوف شديد الانفعال يكاد الغيظ أن يخنقه بينما ارتفعت من أنحاء الغرفة مئات الهمسات وعبارات الاستغراب والدهشة. لكن بعض تلك العبارات كانت تحمل طابع التهديد! والتفت الموجودون حول بيير بيتروفيتش بينما اندفعت كاترين إيفانوفنا إلى ليبيزياتنيكوف وهي تقول وقد جثت على ركبتيها أمامه دون وعي:

ـ يا أندريه سيميونوفيتش لقد كنت مخطئة في حقك! دافع عنها! إنك وحدك الذي نصرتها! إنها يتيمة! لقد أرسلك الله لحمايتها! يا أندريه سيميونوفيتش أيها الباسل العزيز!

«نبح» لوجين وقد اشتد غضبه:

ـ خرافات! هذا ما جئت تلغو به أيها السيدة!: «نسيت، تذكرت، تذكرت، نسيت». ما هذا القول؟ على حد قولك أكون أنا الذي دسست لها المائة روبل عامداً؟ لماذا؟ ماذا يجمع بيني وبين هذا الـ..

ـ ما هي الأسباب؟ هذا هو بالضبط الذي لا أتوصل إلى فهمه. أما ما قلته فإنه الحقيقة نفسها! إنني لا أخدع أيها النذل القذر السافل، إنني كنت أفكر في هذا الكرم الغريب حينما رحت أشكرك على حسن صنيعك ضاغطاً على يدك. لقد تساءلت: لِمَ دسست لها هذه الورقة سراً أو على الأصح: لم تصرفت بتلك الطريقة المكتومة؟ وقلت لنفسي: ألا يجوز أن يكون السبب في ذلك محاولتك إخفاء الأمر عني بعد أن علمت بأن مبادئي تتنافى وهذا الإحسان الخاص، ذلك الإحسان الذي لا يستأصل أبداً عوز أي كان نهائياً؟ لقد فكرت بأنك تشعر بالارتباك لتقديم مثل هذا المبلغ بحضوري وأنك تريد ـ علاوة على ذلك ـ أن تجعل القضية على شكل مفاجأة لتدهشها عندما تعثر في جيبها على تلك الورقة من ذات المائة روبل! ـ إن بعض المحسنين يسرهم أن يجعلوا أعمالهم المحسنة منطبقة بهذا الطابع المميز ـ ثم خطر لي أنه من الجائز أن تكون قد أردت اختبار أمانتها أي أنك أردت أن تعرف ما إذا كانت ستعود لتشكرك عندما تعثر على المائة روبل في جيبها أم لا، لكنك كنت تبدو عازفاً عن التعرض للشكر عملاً بالمبدأ ـ كيف يقولونه عندكم؟ ـ أن تجهل اليد اليمنى ما... لذلك لا تسل عن الأفكار التي مرت برأسي وكثرتها. لكنني قررت بيني وبين نفسي أن أفكر في تصرفك ذاك محاولاً تفسيره عندما يتاح لي فراغ من الوقت أصرفه في التفكير. أما في تلك اللحظة فقد قدرت أنه من غير اللائق أن أدعك تعلم بأنني مطلع على سرك. غير أن فكرة أخرى حلت في رأسي في تلك اللحظة: يجوز أن تضيع صوفي سيميونوفنا هذا المال دون أن تنتبه إلى وجوده. ولهذا السبب تراني جئت إلى هنا. لقد كنت عازماً على استدعائها وإعلامها بأنك دسست لها مائة روبل في جيبها فمررت في طريقي على مسكن السيدتين كوبيليا تنيكوف لأقدم لهما كتاب: «لمحة عامة عن المنهج الإيجابي»

وأوصيهما بدراسة مقال بيديري وفاكنر. ثم جئت إلى هنا لأجد نفسي وسط أغرب قضية يتصورها العقل! فهل يعقل أن أكون قد فكرت كل هذا التفكير وتصورت كل هذه الأمور لو لم أرك حقيقة تدس المائة روبل في جيب صوفي سيميونوفنا؟

لما أنهى أندريه سيميونوفيتش ملاحظاته الغريبة تلك، وأعطى لأقواله تلك النتيجة المنطقة القوية، كان الإجهاد قد أنهكه حتى أن وجهه كان سابحاً في العرق. والمؤسف أنه ما كان يستطيع التعبير عن آرائه بطلاقة باللغة الروسية رغم أنه لم يكن يعرف لغة أخرى غيرها. لذلك فقد بدا فجأة منهوكاً بل ومهدماً بعد تلك المحاولة الخطابية. غير أن تدخله أحدث تأثيراً خارقاً إذ كان يتحدث بلهجة لا تنبئ عن تدبر سابق بل تطفح بالإقناع حتى أن كل السامعين صدقوه.

شعر بيير بيتروفيتش أن القضية راحت تدور ضده بشكل خطير فهتف:

ـ ماذا تعنيني الأسئلة السخيفة الحمقاء التي مرت برأسك؟ إنها ليست دليلاً! يمكن أن تكون قد تخليت كل هذا! إنني أقول لك بأنك كاذب أيها السيد! إنك تكذب وتفتري عليّ بسبب ضغينة في صدرك ضدي بل وعلى التأكيد لأنك سخطت عليّ حينما وجدتني لا أميل إلى نظرياتك الاشتراكية الملحدة، هذا كل ما في الأمر!

غير أن تلك الحركة الدفاعية لم تكن لتحمي بيير بيتروفيتش بل على العكس فقد ارتفعت الهمسات والغمغمات من كل الجهات.

صرخ ليبيزياتنيكوف:

ـ آه! هذا هو إذن هدفك! إنك تكذب! ادع الشرطة. لسوف، أقسم

اليمين! إن هناك أمراً واحداً فقط لا أستطيع فهمه. ما هي الأهداف التي من أجلها غامرت بهذه العملية المنحطة! أوه! يا للرجل الحقير النذل!

وأخيراً تقدم راسكو لنيكوف وقال بصوت مرتفع:

ـ إنني أستطيع أنا، أن أفسر سبب فعلته هذه. وإنني على استعداد إذا اقتضى الأمر أيضاً للتحدث أمام العدالة.

كان يبدو هادئاً شديد الاعتداد بنفسه وكانت نظرة واحدة إلى وجهه تكفي ليشعر المجتمعون أنه وحده عارف دقائق المسألة وأن النتيجة لن تلبث حتى تظهر.

تابع راسكو لنيكوف مخاطباً ليبيزياتنيكوف مباشرة:

ـ لقد فهمت الآن كل شيء. منذ بدء هذه المسألة كنت أرتاب في وجود تدبير قذر وراء هذه القصة. كنت أرتاب في ذلك إثر ملابسات خاصة أعرفها وحدي وسأذكرها قبل كل شيء لأنها هي عقدة القضية وإنك أنت يا أندريه سيميونوفيتش الذي فتحتَ عينيّ نهائياً بأقوالك الثمينة. إنني أرجو الجميع أن ينصتوا. إن هذا السيد (وأشار إلى لوجين) خطب مؤخراً فتاة. ولكي أكون أكثر دقة أقول: إنه خطب أختي أفدوتيا رومانوفنا راسكو لنيكوف. لكنه عندما وصل إلى بطرسبورغ أول أمس تشاحن معي في لقائنا الأول فطردته من غرفتي بحضور شاهدين. إن هذا الرجل شديد الخبث... أول أمس ـ وكنت لا أعرف أنه يقطن في غرفة مؤثثة عندك أنت يا أندريه سيميونوفيتش ـ وأقصد في اليوم الذي تشاجرنا فيه، شاهدني بنفسه أعطي بعض النقود إلى السيدة كاترين إيفانوفنا بصفتي واحداً من أصدقاء زوجها لتقوم بنفقات دفن زوجها المرحوم السيد مارميلادوف. فكتب فوراً إلى أمي يبلغها أنني أعطيت كل نقودي ليس إلى كاترين إيفانوفنا بل إلى صوفي

سيميونوفنا واستعمل بهذا الخصوص أقبح التعابير وأبشعها ليصف صوفي سيميونوفنا أو بالأحرى ليبين علاقاتي مع صوفيٍ سيميونوفنا. وقد هدف كل هذا كما تفهمون ـ إلى إثارة الشحناء بيني وبين أمي وأختي باطلاعهما على أنني أبعثر المال الذي ترهقان نفسيهما في تدبيره لسد حاجاتي، بشكل يثير الاشمئزاز. والبارحة مساء خلال مقابلة جرت مع أمي وأختي بحضوره، كشفت عن الحقيقة وأثبت أني أعطيت المال إلى كاترين إيفانوفنا من أجل نفقات الدفن وليس إلى صوفي سيميونوفنا التي لم أكن أعرف وجهها قبل ذلك الحادث مطلقاً. وأشضفت إلى أقوالي أن بيير بيتروفيتش لوجين رغم كل ميزاته ومواهبه لا يبلغ منزلة موطئ أقدام صوفي سيميونوفنا التي تحدثت عنها بأسوأ العبارات. ولما سألني عما إذا كنت أضع صوفي سيميونوفنا في حضرة أختي وفي سويتها أجبته بأنني فعلت ذلك في ذلك اليوم بالذات. رأى أن أمي وأختي لم تستجيبا لرغبته في التخاصم معي استناداً إلى أقواله وحدها، فغضب غضباً شديداً وراح يحدثهما بعبارات فاحشة لا يمكن التغاضي عنها. فقطعت أختي كل علاقة له بها وباء بما يستحقه من الاحتقار إذ إنه طُرد شر طَردة. كل ذلك حدث مساء البارحة، والآن إنني أطلب إليكم الإصغاء والانتباه: تصوروا أنه لو استطاع في هذه اللحظة أن يثبت أن صوفي سيميونوفنا ليست إلا لصة سارقة فإنه كان يستطيع بعد ذلك أن يثبت لأمي وأختي أنه كان على صواب في ظنونه بها وأن يؤكد لهما أن سبب غضبه لم يكن إلا لرفع صوفي سيميونوفنا إلى سوية أختي. وبعبارة أصح، كان يستطيع إيهامهما أنه بتهجمه عليّ كان يدافع عن شرف أختي ويحافظ عليها بوصفها مخطوبته. والخلاصة أنه كان سيجد بفضل ذلكِ وسيلة لخلق التنافر بيني وبين أسرتي والعودة إلى سابق علاقاته معها. بل وأقول أيضاً إنه بذلك كان يهدف إلى الانتقام كذلك

لأنه يعرف أن شرف صوفي سيميونوفنا وراحتها ثمينان عندي عظيمان في المرتبة. هذه كانت خطته! هذا هو تفسير الأمر وهذا هو السبب الذي جعله يتصرف على هذا الشكل. لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر.

بمثل هذه العبارات أنهى راسكو لنيكوف «خطابه» أمام ذلك الحشد وهو يقاطع غالباً بعبارات التعجب والاستغراب من المستمعين الذين برهنوا على اهتمام كبير بأقواله. كان راسكو لنيكوف يتحدث بلجهة واضحة هادئة دقيقة وبوضوح لا يقبل الجدل: كان صوته المدوي ولهجته المقنعة ووجهه القاسي قد أحدثوا في الجمهور تأثيراً عجيباً.

صرخ ليبيزياتنيكوف وهو شديد الانفعال مؤيداً:

ـ نعم، نعم هو ذلك! ينبغي أن يكون الأمر كذلك لأنه بالضبط سأل حال دخول صوفي سيميونوفنا الغرفة «إذا كنتَ هناك وإذا كنتُ قد شاهدتك في عداد الموجودين لدى كاترين إيفانوفنا». لقد أبعدني إلى قرب النافذة وألقى عليّ هذا السؤال همساً. إنه كان إذن يريد أن تكون حاضراً! نعم إنه كذلك، كذلك تماماً!

كان لوجين صامتاً وعلى شفتيه ابتسامة مقيتة وكان رغم ذلك شديد الامتقاع يخيل للناظر إليه أنه يبحث عن مخرج لنفسه من تلك الورطة. ولعله كان على استعداد لترك القضية في تلك المرحلة والخروج من الباب، لكن ذلك بدا في تلك اللحظة مستحيلاً لأنه يؤكد اعترافه بصحة التهم التي وجهت إليه: أي أنه افترى علناً على صوفي سيميونوفنا. وكان الموجودون قد أثارتهم العبارات والحجج، فراحوا يتحمسون. حتى أن ضابط الإعاشة نفسه، رغم أنه لم يفهم القضية كلها، رفع عقيرته وراح يصرخ بصوت أعلى من أصوات الآخرين عارضاً على لوجين شروطاً مزعجة. وكان بينهم عدد

من السكان هرعوا من غرفهم تواً فكانت هذه الفئة ممتلكة حدة ذهنها لم يقرب أفرادها من الشراب. والبولونيون الثلاثة أنفسهم كانوا في انفعال عنيف يهتفون بلغتهم ما معناه: «إن هذا الرجل لص!» ويتمتمون بعبارات التهديد ضد بيير بيتروفيتش. أما سونيا فقد كانت كمن استفاق للتو من إغماء عميق: تصغي بجهد دون أن تفهم كل شيء. كانت عيناها تلاحقان راسكو لنيكوف وهي تشعر أنه وحده سندها، وكانت كاترين إيفانوفنا بصعوبة وتخرج من صدرها الزفرات وهي الشديدة الإنهاك. وكان أكثر الوجوه بلاهة هو وجه إميلي إيفانوفنا التي كانت فاغرة فاها بذهول، شيء واحد لم يفتها فهمه وهو أن بيير بيتروفيتش كان في مأزق!

أراد راسكو لنيكوف أن يتابع كلامه غير أن الموجودين لم يدعوه يفعل. كانوا يصيحون معاً ويتكأكؤون حول لوجين يمطرونه بالسباب والتهديدات لكن بيير بيتروفيتش احتمل كل ذلك. ولما تأكد من أن حملته ضد صوفي سيميونوفنا قد باءت نهائياً بالفشل، عمِد إلى الصفاقة يتسلح بها.

قال وهو يشق لنفسه طريقاً من الازدحام:

ـ اسمحوا، اسمحوا، أيها السادة، لا تقطعوا عليَّ الطريق. كفوا من فضلكم عن تهديدي. أؤكد لكم أن هذا عبث وأنكم أنتم الذين ستسألون أمام القضاء لأنكم تذرعتم بالعنف لإخفاء جريمة. إن السرقة ثابتة تماماً ولسوف أشكو إلى القضاء. إن القضاة ليسوا عمياناً ولا سكارى. إنهم لن يصدقوا ولا يمكن أن يصدقوا زنديقين فاجرين ثائرين ملحدين يتهمانني بغية الانتقام مني لأسباب شخصية كما اعترفوا بذلك بكل حماقة... نعم اسمحوا!

قال ليبيزياتنيكوف باحتقار:

ـ لتنزح نهائياً عني، بارح غرفتي على الفور ولينته كل شيء بيننا! كلما أفكر أنني كنت أنهك نفسي في شرح.. منذ خمسة عشر يوماً!

ـ لكنني بنفسي كنت منذ قليل أنبئك بأنني سأرحل يا أندريه سيميونوفيتش بينما كنت أنت تلح على بقائي. إنني أضيف الآن كلمة واحدة: وهي أنك سخيف. أتمنى لك أن تشفي عقلك وعينيك المريضتين. اسمحوا أيها السادة!

نجح في التسلل، غير أن ضابط الإعاشة لم يقنع بتلك النتيجة ولم يعتقد أن الأمر ينتهي بمجرد السباب، فرفع كأساً عن المائدة وألقاها بكل قوة باتجاه بيير بيتروفيتش بينما فقد ـ هو ـ توازنه فسقط على المائدة محدثاً ضجة كبيرة. أما القدح فقد مضى مباشرة إلى إميلي إيفانوفنا التي راحت تصرخ صرخات حادة. ذهب بيير بيتروفيتش إلى غرفته فقضى فيها نصف ساعة غادرها بعدها وبارح البناء كله!

كانت سونيا بسبب خجلها الطبيعي، تعرف أن أياً كان يستطيع القضاء عليها، وأن التعديات والإهانات يمكن أن تنهال عليها من قبل أي كان دون أن يُسأل عن عمله. لكنها مع ذلك كانت تؤمن حتى تلك اللحظة أن باستطاعتها تحاشي المصائب الكبرى على شكل من الأشكال، بالحكمة والتواضع والإطاعة والتذلل للأفراد والجماعات. ولا شك أنها كانت تستطيع احتمال كل ذلك باستسلام وتقبل. أما في تلك اللحظة، فإنها ما كانت قادرة على امتلاك نفسها على الرغم من انتصارها وإنصاف الناس لها. قدرت الأمور قدرها فشعرت بأن ذلك التخلي والنبذ اللذين تعرضت لهما، والإهانة التي وجهت إليها، تعتصر قلبها اعتصاراً أليماً. ولما لم تستطع المقاومة، فرت من الغرفة وركضت باتجاه مسكنها. وكان ذلك منها فور خروج لوجين. أما إميلي إيفانوفنا فإنها في اللحظة التي أصابها القدح فقدت أعصابها بسبب عاصفة الضحك التي انفجرت من أفواه الموجودين فراحت كالمجنونة تهاجم كاترين إيفانوفنا. معتبرة أنها وحدها مسؤولة عن كل ما جرى. راحت تصرخ وقد أعماها الغضب:

ـ اخرجي من هنا! فوراً! إلى الأمام سر!.

كانت وهي تزعق بمثل هذه الكلمات، تأخذ كل ما يقع تحت يدها وتلقي به إلى الأرض. وكانت كاترين إيفانوفنا ـ التي كانت مستلقية على سريرها من الإنهاك ـ في حالة مؤسية من الألم. فاندفعت المسكينة بمجهود كبير نحو إميلي إيفانوفنا، غير أن العراك لم يكن متكافئاً إذ راحت هذه تهزها وكأنها غصن صغير.

راحت المسكينة تزمجر والعبرات تخنقها:

ـ كيف! ألا يكفي أن تكون هذه المخلوقة قد افترت على سونيا؟ ها هي ذي تلتفت إليَّ؟ كيف! أأطرَد يوم دفن زوجي! أبعدأن تُقبل ضيافتي ألقى إلى الشارع مع أيتامي! لكن إلى أين أمضي؟ رباه أيجوز أنه لم يبق في الأرض عدل؟ من الذي تحميه يا رب إذا لم نكن نحن الأيتام! لكننا سنرى. هناك قضاة على الأرض ومحاكم. لسوف ألجأ إلى هؤلاء! فوراً! انتظري قليلاً أيتها الكافرة. بوليا ابقي مع الأولاد سأعود بعد قليل. انتظروني في الشارع إذا اقتضى الأمر. سوف نرى إذا كانت العدالة موجودة.

ألقت على رأسها الشال الأخضر العتيد المصنوع من قماش «المدام»، الذي تحدثت عنه مارميلادوف من قبل إلى راسكو لنيكوف، وشقت كاترين إيفانوفنا طريقها بين الحشد الصاحب من المستأجرين الذين ما برحوا يتوافدون إلى الغرفة. هبطت السلم وهي تنتحب باكية آملة في البحث عن العدالة والإنصاف مهما كلفها الأمر. أما بوليا فقد انطوت على نفسه مع إخوتها من الرعب قرب الصندوق وراح الصغار الثلاثة ينتظرون عودة أمهم خائفين وجلين بينما ظلت إميلي إيفانوفنا تصخب في الغرفة وترعد وهي تلقي على الأرض كل ما تصادفه. أما المستأجرون فقد راحوا يتناقشون

بعنف وحماس وكل جماعة منهم تنظر إلى الأمر من زاويتها الخاصة فكان بعضهم يتحدث والبعض الآخر يرفع عقيرته بالغناء معربداً.

فكر راسكو لنيكوف في نفسه:

ـ «لقد حل الوقت بالنسبة إليك. حسناً، سنرى يا صوفي سيميونوفنا ماذا ستقولين الآن»؟.

ومضى متجهاً نحو مسكن سونيا.

الفَصْلُ الرابعُ

أقام راسكو لنيكوف من نفسه محامياً جريئاً متحمساً عن سونيا ضد لوجين رغم أنه كان يقاسي في سره كثيراً من الذعر والألم. لكنه شعر بعد آلام ذلك الصباح برغبة حقيقية في تبديل عواطفه التي أضحت لا تحتمل وخصوصاً تلك العاطفة التي كانت تدفعه إلى التدخل لمصلحة سونيا وكان يفكر أيضاً في موعده القريب مع سونيا ذلك الموعد الذي كان يقلقه أحياناً بوحشية. كان «يجب» عليه أن يطلعها على قاتل إليزابيت، وكان يشعر بسبب ذلك بعذاب حقيقي؛ فراح يلوح بيده وكأنه يطرد تلك الرؤيا. وهكذا عندما خرج من مسكن كاترين إيفانوفنا وهتف لنفسه: «حسناً يا صوفي سيميونوفنا ماذا ستقولين الآن؟ كان يهتف بهذا الكلام تحت تأثير الانفعال الذي أحدثه في نفسه انتصاره الأخير على لوجين. غير أن أمراً شاذاً وقع له بعد ذلك: شعر حينما بلغ مسكن كابير ناؤوموف بأن قواه قد خانته، وأنها أسلمت مكانها إلى الخوف توقف حائراً أمام الباب قليلاً وطرح على نفسه السؤال الغريب التالي: «هل يجب أن أقول من قتل إليزابيت»؟. كان السؤال غريباً لأنه شعر فجأة في تلك اللحظة بالذات. إنه ليس فقط ممنوعاً عليه إخفاء ذلك بل إنه يستحيل كذلك أن ينافي ذلك الاعتراف الحقيقي ولو بأتفه تفصيل. لم يكن يعرف لم كان ذلك مستحيلاً، بل كان يشعر به فقط. وكان ذلك الشعور بالضعف أمام تلك الضرورة الملحة يثقل

عليه ويكاد أن يسحقه. ولكي يضع حداً لأفكاره وقلقه فتح الباب بعنف ونظر من العتبة إلى سونيا. كانت جالسة مسندة مرفقيها إلى المنضدة مخفية وجهها بين يديها. فلما رأت راسكو لنيكوف، نهضت مسرعة وجاءت تستقبله وكأنها كانت بانتظاره.

هتف بشدة وهي تعود به إلى وسط الغرفة:

ـ ماذا كان سيحل بي لولاك؟

بدا كأن تلك العبارة كانت كل ما تريد التفوه به والإفصاح عنه بسرعة كلية، لذلك فقد صمتت فور النطق بها وراحت تنتظر.

اقترب راسكو لنيكوف من المنضدة وجلس على المقعد الذي بارحته سونيا منذ حين فلبثت كذلك واقفة على قيد خطوة منه كأمس تماماً.

قال فجأة بصوت متهدج:

ـ إذن يا سونيا. ألا ترين أن القضية كلها كانت تقوم على أساس: «مركزك الاجتماعي والعادات التي تنجم عنه». هل فهمت ذلك منذ حين؟

ظهر على وجه سونيا طابع الألم. فقاطعته بقولها:

ـ لا تحدثني كحديث البارحة أرجوك. لا تعاود الحديث! كفاني عذاباً ما لقيت.

اغتصبت ضحكة، خشية أن تزعجه ملاحظتها وأردفت:

ـ لقد كنت حمقاء إذ بارحت المسكن منذ حين. ماذا يحدث هناك الآن؟ وددت أن أعود لولا أن فكرت في أنك سوف تحضر:

أطلعها راسكو لنيكوف على أن إميلي إيفانوفنا طردت الأسرة من المسكن وأن كاترين إيفانوفنا خرجت قاصدة مكاناً ما «للبحث عن العدالة».

أطلقت سونيا صرخة قصيرة وهتفت:

ـ آه يا رب! لنعد على الفور.

ومدت يدها تأخذ دثارها فصرخ راسكو لنيكوف بلهجة غاضبة:

ـ دائماً الشيء نفسه. ليس في رأسك إلا التفكير فيهم! امكثي لحظة معي.

ـ لكن... كاترين إيفانوفنا؟

ـ كاترين إيفانوفنا لن تستغني عنك. لسوف تحضر بنفسها إلى هنا طالما أخرجت من الدار.

وأضاف بخشونة:

ـ فإذا لم تجدك فالخطيئة خطيئتك.

جلست سونيا على مقعد وهي فريسة الشك الأليم والحيرة الشديدة بينما صمت راسكو لنيكوف وراح يحدق في الأرض يناقش فكرة في رأسه.

شرع يقول دون أن ينظر إلى وجه سونيا:

ـ لنفرض الآن أن لوجين لم يكن يرغب في ذلك. أما إذا كان راغباً فيه وكانت المسألة داخلة في حسبانه وتصميماته فإنه كان قادراً على سجنك في إصلاحية لولا ليبيزياتنيكوف وأنا، أليس كذلك؟

فأجابت بصوت ضعيف:

ـ نعم.

وراحت تكرر هذه الكلمة ساهمة قلقة.

ـ كان يمكن أن لا أكون موجوداً هناك! أما ليبيزياتنيكوف فلقد كان موجوداً بفعل الصدفة البحتة.

لبثت سونيا صامتة:

ـ إذن؟ لو أنه وضعك في السجن، ماذا كان سيحدث عندئذ؟ هل تذكرين ما قلته لك البارحة؟

ومن جديد ظلت سونيا صامتة وظل هو ينتظر جوابها فترة ولما لم تجب قال وهو يغتصب ضحكة:

ـ أتدرين؟ كنت أعتقد أنك ستصيحين أيضاً: «آه! لا تكلمني بذلك! اصمت!»... ماذا ألا زلت صامتة؟ ما بك؟ ينبغي أن نتحدث بشيء من الأشياء بل وإنني أتلهف لمعرفة أسلوبك في حل «مسألة» كما قال ليبيزياتنيكوف (وبدا كأنه على وشك الهذيان). كلا، صدقيني إنني أتحدث جدياً. تصوري يا سونيا بأنك كنت تعرفين سلفاً كل نوايا لوجين وأنك متأكدة كل التأكيدات من أن كاترين إيفانوفنا سيُقضى عليها بسببه وكذلك سيقضي على أولادها وأنك ستكونين مهانة مرذولة ـ رغم أنك مستعدة لاحتمال هذا ـ وأن بوليا كذلك... لأن ذلك هو الطريق الوحيد الذي سيفتح أمامها. حسناً، بعد كل هذا، إذا كان أمر بقاء هذا أو هؤلاء على قيد الحياة منوطاً بك أو بمعنى أصح: أن يبقى لوجين على قيد الحياة مرتكباً آثامه مسترسلاً في غيه أو أن تموت كاترين إيفانوفنا؛ في مثل هذه الحالة أي طريق تقررين سلوكها؟ وموت أي منهما تفضلين؟ إنني أسألك رأيك.

نظرت إليه سونيا بكآبة. لقد خمنت أن وراء هذه الكلمات المتمثرة فكرة بعيدة ذكرتها بشيء ما.

قالت وهي تنظر إليها بفضول مضطرم:

ـ كنت أتوقع أن تلقي عليّ سؤالاً من هذا النوع.

ـ حسناً، ليكن، أي طريق كنت تنتقين:

فأجابت سونيا بنفور:

لمَ تسألني عن الأمر الذي يمكن أن يقع؟

ـ إذن من الأفضل أن يبقى «لوجين» ويستمر في الحياة مرتكباً شروره وآثامه! إنها مجرد فكرة لا تجدين في نفسك الجرأة على تصورها.

ـ لكن، إنني لا أريد أن أتدخل في أسرار القدرة الإلهية. ما فائدة سؤالي عن أشياء ممنوع التساؤل عنها؟ ما فائدة هذه الأسئلة التي لا طائل تحتها؟ كيف يمكن أفكر بأن أمراً كهذا كان يتوقف على مشيئتي؟ من ذا الذي خولني حق الحكم في من يجب أن يعيش ومن يجب أن يموت؟

غمغم راسكو لنيكوف بلهجة شرسة:

ـ طالما أن القدرة الإلهية تتدخل في هذه الأمور فلم يعد هناك ما يُعمل.

هتفت سونيا بانزعاج:

ـ من الخير أن تقول لي بصراحة ما تريد أن تقوله. ها إنك مرة أخرى تبيت أمراً... أيجوز أن تكون قد جئت لتعذبني فقط؟

لم تتمالك نفسها فراحت فجأة تبكي بمرارة فنظر إليها راسكو لنيكوف نظرة كئيبة حزينة، وانقضت خمس دقائق.

قال بلهجة عذبة:

ـ هيا يا سونيا. إنك على حق.

بدأ فجأة متغيراً كل التغير فقد اختفت اللّهجة الوقحة المتحدية التي كان يتصنعها وأصبح صوته خافتاً:

ـ لقد قلت لك البارحة إنني لن أحضر لأطلب صفحك وها إنني قد بدأت بالاعتذارات تقريباً... إنه بصدد لوجين والقدرة... إذا كنت أعتذر يا سونيا.

أراد أن يضحك. لكن أمارات الضعف والتعب بدت واضحة على ابتسامته الشاحبة، فأطرق برأسه وغطى وجهه بيديه. شعر فجأة شعوراً غريباً غير منتظر، شعوراً بالحقد على سونيا يدمي قلبه، فدهش وذعر من ذلك الاكتشاف. ورفع رأسه بعنف وحدج سونيا بعينيه. غير أنه لم يلمس في نظرة الفتاة القلقة الكئيبة المعذبة إلا لوناً من الحب. فتبخر الحقد من قلبه كالحلم. إن الأمر ليس كذلك! لقد فهم شعوره فهماً خاطئاً. إن كل ذلك يعني أن «الوقت» قد أزف.

ومن جديد راح يطرق برأسه ويخفي وجهه بيديه، وفجأة شحب لونه فنهض من مكانه ونظر إلى سونيا ثم جلس على السرير دون أن ينطق بكلمة واحدة.

كانت تلك الدقيقة ـ وقد شعر بذلك ـ مشابهة تماماً لتلك التي قضاها واقفاً وراء العجوز بعد أن خلص فأسه من العقدة السيالة وهو يشعر بأنه «ليس لديه لحظة واحدة يضيعها».

سألته سونيا وهي شديدة الذعر:

ما بك؟

لم يستطع الجواب. لم يكن ينتظر «أن يفسر» الأمر على هذا الشكل. كان لا يدري في تلك اللحظة ماذا يجري في أعماق نفسه.

اقتربت سونيا من راسكو لنيكوف بلطف وجلست على حافة السرير

بجانبه وراحت تنظر إليه صامتة وقد تضاعف وجيب قلبها حتى كاد أن ينفجر. أصبح الموقف لا يحتمل فأدار وجهه الشاحب شحوب الأموات نحوها وراحت شفتاه تتقلصان بتأثير المجهود الذي كان يبذله عبثاً للتلفظ بأية كلمة فسمر الذعر قلب سونيا.

كررت وهي تبتعد عنه قليلاً:

ـ ما بك؟

تمتم قائلاً كمن لا يعرف عن نفسه أنه يهذي:

ـ لا شيء يا سونيا. لا تفزعي.. حماقات في حقيقتها إذا فكر المرء فيها لكن لمَ جئت أعذبك أنت؟ صحيح لماذا؟ إنني لا أطرح على نفسي هذا السؤال يا سونيا.

لعله طرح على نفسه ذلك السؤال منذ ربع ساعة تقريباً أما الآن فقد كان يتكلم وهو في حالة ضعف كامل لا يكاد يحس بحركاته وتصرفاته. كان كل جسمه ينتفض مرتعداً باستمرار.

قالت بحنان وهي ترفع عينيها إليه:

ـ أوه! كم تتألم!

ـ سخافات!.. هيا يا سونيا (وارتسم على شفتيه طيف ابتسامة لم يلبث إلا ثانيتين) هل تذكرين ما كنت أريد أن أقوله لك أمس؟

لبثت سونيا تنتظر فريسة القلق:

ـ لقد قلت لك وأنا خارج أنني قد أكون أودعك للمرة الأخيرة لكنني إذا عدت اليوم فسأقول لك... من الذي قتل إليزابيت؟

راحت سونيا ترتعد بعنف فجأة:

ـ حسناً. ها قد جئت لأقوله لك.

تمتمت سونيا بمجهود كبير:

ـ نعم لقد قلت لي البارحة حقيقة... لكن كيف تعرفه؟

بدت سونيا إثر هذا السؤال وكأنها استعادت حواسها. كانت تتنفس بصعوبة ووجهها يزداد شحوباً.

ـ إنني أعرفه.

فصمتت دقيقة كاملة ثم سألت بخجل:

ـ هل وجدوه؟

ـ كلا لم يجدوه بعد...

سألت بصوت مختنق بعد دقيقة صمت أخرى:

ـ إذن كيف تعرف ذلك؟

فاستدار إليها وحدق في عينيها وقال ـ وشبح تلك الابتسامة على شفتيه ـ:

ـ احزري...

انتفضت سونيا وكأن تشنجات عصبية انتابتها ودمدمت وهي تبتسم كالطفل الغرير:

ـ لكن أنت.... تـ... لماذا هكذا تخيفني؟

تابع راسكو لنيكوف دون أن ينقطع عن النظر إلى وجهها وكأنه لا يملك القوة على تحويل عينيه:

ـ ذلك لأنني شديد الاتصال به... لذلك أعرف... إنه لم يكن يريد قتل

إليزابيت.. لقد قتلها دون سابق تصميم... كان يريد أن يقتل العجوز... عندما كانت وحدها... وذهب إليها... وعندئذ دخلت إليزابيت. كان هناك... فقتلها.

لبثا يتبادلان النظر وانقضت دقيقة أخرى حافلة بالرعب.

سألها فجأة وهو يرى نفسه كمن يوشك على إلقاء نفسه من أعلى قبة جرس:

ـ ألا تستطيعين التخمين بعد ذلك؟

غمغمت سونيا بصوت لا يكاد يُسمع:

ـ كلا.

ـ ابحثي جيداً، فكري.

لما تفوه بهذه الكلمة، شعر من جديد بذلك الشعور البارد المتجمد الذي عرفه من قبل، يجتاح جسمه فجأة ويتغلغل في أعماق أعماقه. نظر إلى سونيا وفجأة بدا له وجهها شبيهاً بوجه إليزابيت. تذكر على الفور الأمارات التي ارتسمت على وجه إليزابيت في تلك اللحظة التي اقترب منها رافعاً فأسه وهي تتراجع أمامه نحو الجدار رافعة يدها أمامها كالأطفال الصغار تماماً عندما يخافون فينظرون إلى الشيء الذي أرعبهم نظرة ثابتة وجلة وهم على أهبة الانخراط في البكاء. كذلك كان حال سونيا في تلك اللحظة: كانت تنظر إليه في تلك البرهة بذلك الذعر وذلك الارتياع والتشوش. وفجأة رفعت يسراها ولمست صدره بأطراف أناملها ونهضت ببطء وهي تبتعد عنه رويداً رويداً دون أن تنقطع عن النظر إلى وجهه بشدة وقوة. تجاوب الذعر الذي في نفسها مع الإحساس الذي في روحه، فارتسمت على وجه راسكو لنيكوف أمارات الخوف والرهبة ونهض بالوقت نفسه وهو يحدجها بنظرته ويبتسم تلك الابتسامة ـ ابتسامة الأطفال.

تمتم أخيراً.

ـ لقد حزرت.

هتفت سونيا وهي تطلق زفرة محزونة:

ـ رباه!

وسقطت على السرير خائرة القوى وأخفت وجهها في الوسادة. لكنها لم تلبث أن نهضت بنشاط واقتربت منه على الفور فأخذت يديه بين يديها وراحت تضغط عليهما بعنف وعادت تنظر في عينيه وكأنها لا تستطيع الانفصال عنه. كانت تبحث بتلك النظرة اليائسة الأخيرة عن أمل، لكن انتظارها كان عبثاً. لم يبق أي شك. نعم! إن الأمور كانت «كذلك»!

تساءلت بذهول حينما ـ استعادت في ذهنها تلك اللحظة فيما بعد ـ كيف استطاعت التأكد من أنه فعل ذلك دون شك؟ إنها لم تكن تستطيع القول أنها شعرت بهذه الخاتمة شعوراً مسبقاً. مع ذلك فإنه لم يكد يتكلم إليها ويلفظ تلك الأقوال حتى خيل إليها بأنها كانت تتوقع «ذلك الأمر بالذات».

ابتهل إليها بألم:

ـ كفى يا سونيا، كفى! لا تعذبينني.

لم يكن يفكر أبداً في أن يعترف لها على ذلك «الشكل» كلا! ولكن الأمر وقع على ذلك «الشكل» دون أن تكون له يد فيه.

بدت سونيا كأنها فقدت اتزانها إذ قفزت حتى منتصف الغرفة وهي تلوي يديها. لكنها عادت مسرعة إلى جانبه فجلست وكادت أن تلمس كتفه بكتفها وفجأة راحت ترتعد وكأن سهماً اخترق قلبهما. أطلقت صرخة ثم جثت على ركبتيها أمام راسكو لنيكوف دون أن تعرف السبب:

ـ ماذا عملت؟ ماذا عملت ضد نفسك؟

تراجع راسكو لنيكوف قليلاً ونظر إليها وهو يبتسم بحزن:

ـ كم أنت شاذة يا سونيا! أتعانقينني بعد أن قلت لك ذلك؟ إنك لا تعي ما تفعلين.

هتفت مندفعة دون أن تسمع الملاحظة التي أبداها:

ـ كلا، كلا! ليس هناك إنسان في العالم أتعس منك!

وانخرطت فجأة في نوبة من البكاء.

شعر راسكو لنيكوف بإحساس كان مجهولاً منه منذ أمد طويل، شعر به يكتسح قلبه فلم يحاول الاعتراض أو المقاومة. وانبعثت دمعتان من عينيه تعلقتا بأهدابهما، ونظر إليها نظرة تشع بالأمل وقال:

ـ على ذلك يا سونيا فإنك لن تهجريني.

صرخت:

ـ كلا، كلا أبداً، إطلاقاً سأتبعك أينما تكون! سأتبعك في كل مكان!

أوه! رباه! أوه! كم أنا حقيرة! ولكن لمَ، لمَ لم أعرفك من قبل؟ لمَ لم تأتِ إليّ قبل الآن؟ أوه! يا رب!

ـ ها أنت ترين: لقد جئت!

كررت حائرة وهي تعانقه من جديد:

ـ الآن! أوه، ما العمل الآن! معاً، معاً، سأذهب معك إلى «الليمان»!

اخترقت هذه الكلمات صدره كنصل حاد وعادت إلى شفتيه الابتسامة الحقود المتعالية التي ارتسمت عليهما منذ حين:

ـ لعلني يا سونيا لا أرغب حتى الآن في الذهاب إلى «الليمان».

نظرت إليه سونيا بحدة.

شعرت عقب عاطفة الإشفاق العنيف المتألم نحو التعس بفكرة المجرم الشرسة تعاود إيلامها. أحست بأنها تسمع القاتل يتحدث بتلك الكلمات التي فاه بها أخيراً بلهجته المبتذلة فنظرت إليه بذهول كانت لا تعرف حتى تلك اللحظة لماذا وكيف وقع كل هذا؟. استيقظ عدد كبير من الأسئلة في نفسها وراحت من جديد تشك في صحة ما سمعته:«هو، هو، قاتل! هيا هيا، أيعقل ذلك؟»

قالت في دهشة عميقة وكأنها لم تستعد إحساسها بعد:

ـ لكن ماذا هناك؟ أين أنا؟ كيف أنت، أنت، باعتبارك من أنت... وافقت على مثل هذا؟ لكن... لماذا؟..

قال بلهجة متعبة بل وبشيء من الامتعاض:

ـ من أجل السرقة! كفي يا سونيا!

ذهلت سونيا لهذا القول وفجأة هتفت:

ـ أكنت جائعاً؟ أكان... لمساعدة أمك؟ نعم؟

تمتم وهو يتحول عنها ويطرق برأسه:

ـ كلا يا سونيا كلا! لم أكن جائعاً إلى هذا الحد. في الحقيقة إنني كنت أريد مساعدة أمي لكن هذا السبب لم يكن حقيقياً تماماً... لا تعذبيني يا سونيا.

ضربت سونيا كفاً بكف:

ـ هل يعقل؟ هل يعقل أن يكون هذا قد وقع بالفعل، رباه أين هي

الحقيقة إذن؟ من كان يصدق كل هذا؟ ثم كيف يحدث أن تكون، أنت الذي تعطي آخر نقودك للناس، تقتل من أجل السرقة.

وفجأة صرخت:

ـ آه! ذلك المال الذي أعطيته إلى كاترين إيفانوفنا؟؟.. ذلك المال... رباه، هل يعقل أن يكون ذلك المال أيضاً...؟

فقاطعها بعنف:

ـ كلا يا سونيا! إن ذلك المال لم يأتِ من ذلك المصدر فاطمئني. إن ذلك المال أرسل إلي من قبل أمي بواسطة أحد التجار وقد تلقيته أثناء مرضي في اليوم الذي أعطيته... لقد رآه رازوميخين.. وهو الذي قبضته باسمي... إن هذا المال هو ملكي حقيقة.

كانت سونيا تصغي إليه وهي لا تعرف ماذا تصدق وتجهد في لمّ شتات أفكارها.

أضاف قائلاً بهدوء وبلهجة حالمة:

ـ أما المال «الآخر»... على كل حال لست أدري إذاكان هناك مال بالفعل. لقد رفعت عن جثة العجوز حافظة نقود من جلد الماعز... حافظة مملوءة بل ومحشوة حشواً.. لكنني لم أنظر إلى ما فيها... لم يكن لدي الوقت لذلك... ثم إنني وجدت هناك بعض الأشياء، إزار الأكمام وسلاسل فأخذتها كلها مع الحافظة ومضيت أخفيها في باحة منزل في شارع «ف...» ولا زالت هناك حتى الآن.

كانت سونيا تنظر إليه بلهفة فسألت وكأنها تحاول التعلق بالقشة الواهية شأن الغريق:

ـ لكن. كيف ذلك... ألم تقل إنك...: «لتسرق» ومع ذلك لم تأخذ شيئاً!

فأجابها وهو شارد البال:

ـ لست أدري: لم أقرر بعد إذا كنت سآخذ ذلك المال أم لا؟.

وفجأة عاد إليه شعوره فقال:

ـ يا للحماقة التي تلفظت بها! أليس كذلك؟

ومضت في خاطر سونيا فكرة سريعة: «ألا يمكن أن يكون مجنوناً؟» لكنها أبعدت تلك الفكرة فوراً: «كلا هناك شيء آخر». بيد أنها لم تكن تفقه شيئاً.

قال فجأة في شيء من الإيحاء:

ـ أتعرفين يا سونيا، أتعرفين ماذا سأقول لك: إنني لو قتلت مدفوعاً بالجوع لكنت الآن... سعيداً! تأكدي من ذلك.

كان يضغط على كلمة من هذه الكلمات وهو ينظر إليها نظرة غامضة.

هتف بعد لحظة:

ـ ولكن ماذا يهمك! ماذا يهمك أن أكون قد اعترفت بخطئي؟ ما فائدة هذا النصر السخيف على نفسي؟ آه يا سونيا! أمن أجل هذا جئت إليك الآن؟

ومن جديد أرادت سونيا أن تقول شيئاً لكنها لزمت الصمت.

ـ إذا كنت دعوتك أمس فذلك لأنك الوحيدة التي بقيت لي.

سألت سونيا بوجل:

ـ دعوتني إلى أين؟

فأجابها بضحكة غاضبة:

ـ ليس لتسرقي وتقتلي. اطمئني ليس من أجل ذلك. نحن مخلوقان مختلفان... هل تعرفين يا سونيا؟ إنني عرفت فقط إلى أين دعوتك بالأمس. لم أكن أعرف ذلك البارحة. لقد دعوتك لسبب واحد وقد جئت من أجل سبب واحد. أن لا تهجريني. هل ستهجرينني يا سونيا؟

ضغطت سونيا على يده بينما هتف بيأس فجأة وهو يتأملها بألم عميق:

ـ ولمَ، لمَ اعترفت لها؟ ها إنك يا سونيا تسمعين اعترافات مني وأراك تنتظرين المبررات. إنني أرى ذلك. ماذا سأقول لك؟ إنك لن تفهمي منها شيئاً ولن يزيدك هذا إلا ألماً.. بسببي! ها إنك تبكين أيضاً وتعانقينني. لمَ تعانقينني؟ ألأنني استطعت احتمال كل هذا؟! ألأنني جئت أفثأ همومي بحضرة شخص آخر. وأن أقول: «تألم أنت الآخر لسوف يرفه عني ذلك»! هل يمكن أن تحبي نذلاً لهذا؟

هتفت سونيا:

ـ لكن أو لا تتألم أنت الآخر؟

ومن جديد عادت تلك العاطفة تجلد قلبه، ومن جديد هدأ بعض الوقت:

ـ سونيا إنني سيئ القلب فانتبهي لذلك. إن هذه الكلمة تستطيع أن تفسر أشياء كثيرة. لقد جئتك لأنني خبيث. إن آخرين ما كانوا ليأتوا أما أنا، فأنا جبان و... نذل! على كل حال... لا أهمية لهذا! إن الأمر لا يتعلق بهذا. إنني يجب أن أتكلم ولست أدري أين أبدأ؟.

وجلس ثم راح في بحران عميق.

هتف فجأة:

ـ آه! نحن مخلوقان مختلفان يستحيل تفاهمنا. فلماذا جئت؟ لن أغفر لنفسي أبداً.

قالت سونيا:

ـ كلا لقد أحسنت صنعاً بالمجيء! من الخير أن أعلم! من الخير كثيراً!

فنظر إليها بألم وقال وكأنه يتابع فكرة ما:

ـ إن الأمور قد وقعت تماماً على هذا النحو: كنت أريد أن أصبح نابوليوناً. ولهذا السبب قتلت. والآن هل فهمت؟

غمغمت سونيا بسذاجة بصوت خجول:

ـ كلا... لكن... تحدث، تحدث! لسوف أفهم، لسوف أفهم.

ـ لسوف تفهمين؟ حسناً سوف نرى.

صمت فجأة وراح في تفكير عميق:

ـ إن كل القضية محصورة في أنني ألقيت على نفسي مرة السؤال التالي: «ماذا كان يحدث ـ مثلاً ـ لو أن نابوليون كان في مثل مركزي ولم يكن لديه، في بدء حياته لا في طولون ولا في مصر ولا في ممر الجبل الأبيض «مون ـ بلان» بدلاً من كل هذه الأشياء الجبارة الكبيرة، إلا عجوز خبيثة غريبة مرابية كان يجب عليه قتلها ليسلبها مالها المخبأ في صندوقها وذلك خدمة لمركزه ومستقبله، هل تسمعين؟.. حسناً. هل كان يقرر ذلك إذا لم يكن لديه أي وسيلة أخرى؟ ألم يكن يشعر بلون من الخجل العميق لمجرد أن أمراً كهذا تنقصه العظمة... وأنه شديد الإجرام؟» لعمري إن هذا

«السؤال» ما انفك ينكد حياتي زمناً طويلاً لدرجة أنني شعرت بخجل قاتل عندما استنتجت فجأة أنه ماك ان ليخجل مطلقاً بل وأن فكرة افتقار هذا العمل إلى العظمة ما كان ليخطَر له على بال. بل وما كان ليفهم أي خجل يسببه ذلك وأنه إذا لم تكن هناك وسيلة أخرى فإنه كان سيقتل دون أن يفكر لحظة أو أن يتردد. وعلى ذلك فإنني أنا الآخر خرجت بهذا الرأي:

«... لقد قتلت... تشبهاً بالسلطات.... وقد حدث ذلك تماماً كما قلت! أيبدو لك ذلك غريباً؟ نعم يا سونيا إن الأغرب من ذلك أن يكون قد وقع تماماً على هذا الشكل».

لم تكن سونيا ترغب في الضحك فقالت بصوت أشد ذعراً لا يكاد يميز:

ـ قل لي... دون أمثلة.

فاستدار نحوها وتأملها طويلاً وأخذ يديها بين يديه:

ـ إنك على حق يا سونيا. إن كل ذلك شاذ وغريب، إنه ليس إلا ثرثرة! اعلمي أن أمي ـ كما عرفتِ ـ لا تمتلك شيئاً تقريباً، وأن أختي التي تلقت بعض الثقافة على سبيل الصدفة محكوم عليها أن تنتقل من مكان إلى آخر لتشغل وظيفة مربية. كانت كل آمالهما معلقة بي وحدي وقد بدأت دراساتي في الجامعة ثم اضطررت إلى الانقطاع عنها بعدأن فقدت الأسباب المعاشية. حتى إذا افترضنا أنني أتممت دراساتي فإنني كنت بعد عشرة أو اثني عشر عاماً ـ هذا إذا خدمني الحظ ـ آمل أن أصبح أستاذاً أو موظفاً ما لقاء راتب سنوي قدره ألف روبل.

كان يبدو على راسكو لنيكوف أنه يتلو درساً حفظه. استرسل:

ـ وبانتظار هذا الوقت كانت أمي ستفنى في الأحزان والهموم. وما كنت لأستطيع أن أطمئنها. أما أختي... فإنها... كانت معرضة لشر من هذا! فلمَ إذن أسيء إلى حياتي وأحرم نفسي من كل شيء فأهجر أمي ولا أشعر بجرح في كرامتي لما قد يصيب أختي من امتهان؟ ما فائدة كل ذلك؟ ألكي أستطيع ـ بعد أن أدفنهما ـ أن أنشئ لنفسي بيتاً مع زوجة وأطفال أتركهم بدورهم عندما أموت دون قرش واحد أو قطعة من الخبز؟ إذن... إذن... فقد قررت في نفسي أن أكرس أموال العجوز ـ عندما أحصل على أموالها ـ لدراساتي ثم لأستعين بها في تسديد خطواتي الأولى بعد خروجي من الجامعة... كنت أتوقع أن أتصرف بشكل شامل عام حتى أستطيع بلوغ مركز جديد أنعم فيه بكل الاستقلال. نعم هذا هو كل شيء... ولا شك أنني أسأت صنعاً بقتل العجوز... والآن كفى!

أنهى راسكو لنيكوف قصته بإعياء وجهد عنيفين. بدا منهوك القوة فأطرق برأسه.

هتفت سونيا بمرارة:

ـ أوه. إنه ليس كذلك! هل هذا معقول؟ كلا! إنه ليس كذلك!

ـ إنك تقولين بنفسك إنه ليس كذلك! مع ذلك فقد قصصت عليك بإخلاص كل الحقيقة.

ـ ويا لها من حقيقة! أوه، رباه!

ـ مع ذلك إنني لم أقتل يا سونيا إلا حشرة، حشرة قذرة ضارة وعديمة الفائدة.

ـ إن تلك الحشرة كانت مخلوقاً بشرياً.

أجابها وهو ينظر إليها نظرة غريبة:

ـ وأنا أعرف تماماً أنها لم تكن حشرة حقيقية.

وأضاف:

ـ غير أنني أكذب يا سونيا، إنني أكذب منذ زمن طويل...إن الأمر ليس كذلك. إنك على صواب. لقد وقع الأمر لأسباب أخرى مختلفة كل الاختلاف... منذ زمن طويل انقطعت عن التحدث إلى الناس. سونيا... إن رأسي يؤلمني جداً في هذه اللحظة.

كانت عيناه تلتهبان ببريق محموم وكان الهذيان قد بدأ يكتسح عقله بينما راحت ابتسامة قلقة تحوم على شفتيه. كان انفعاله طافحاً بإعياء فظيع وكانت سونيا تدرك تماماً مدى تألمه فشعرت هي الأخرى بدوار في رأسها. إنه كان يتحدث بأسلوب شديد الغرابة: كان يستطيع المرء أن يميز شيئاً في ذلك ولكن «ما هو ذلك الشيء، ما هو ذلك الشيء؟ رباه!» وراحت تلوي يديها من اليأس.

رفع رأسه فجأة واسترسل وكأن أفكاره قد اتخذت شكلاً آخر أبداً لعينيه في تلك اللحظة:

ـ كلا يا سونيا! إن الأمر ليس كذلك. ليس كذلك. أو بالأحرى... تصوري ـ نعم من الأفضل أن تتصوري ذلك ـ بأنني سريع الغضب حسود خبيث منحط ميال إلى الانتقام و... لنقل: مخبول بعض الشيء ـ وقد لاحظتُ ذلك ـ لقد قلت لك منذ حين إنني لم أكن أمتلك الوسائل التي تتيح لي البقاء في الجامعة. لكن أتعرفين أنني كان يمكن لي أن أتابع دراساتي؟ كانت أمي سترسل إليّ ما يلزم من أجل ذلك وكنت أستطيع بعملي الشخصي أن أوفر لنفسي بعض الثياب والألبسة والطعام تقريباً:

إن إعطاء الدروس كان يدر عليّ خمسين كوبيكاً لكل درس. إن رازوميخين يشتغل كما يجب أما أنا فقد ركبت رأسي. هذه الكلمة الفنية. لقد انطويت في زاويتي كالعنكبوت. لقد جئت بنفسك إلى زنزانتي وشاهدتها. أتعرفين يا سونيا أن السقوف المنخفضة والجدران الضيقة تضغط بشدة على العقل والقلب؟ أوه لقد اختبرت طويلاً تلك الزنزانة! مع ذلك فإنني ما كنت أريد الخروج منها! لقد لبثت عامداً. لقد قضيت هناك أياماً كاملة عازفاً عن العمل أرفض حتى تناول الطعام مستلقياً أبداً على جني فإذا أتتني ناستاسيا بشيء أكلته وإن لم تأتني لبثت صائماً يؤلمني أن أطلب إليها شيئاً! وفي الليل ـ ولأنني لم أكن أملك ضوءاً ـ كنت أبقى في الظلام الدامس بدلاً من أن أعمل لأشتري لنفسي مصباحاً. وبدلاً من أن أدرس بعت كتبي. كان على المنضدة وفوق دفاتري طبقة من الغبار تبلغ كثافتها أصبعاً ولا زالت دفاتري في المكان! كنت أفضل أن ألبث مستلقياً أحلم وأتخيل. ما كنت أحسن شيئاً إلا التخيل ولا حاجة إلى القول أن تلك الأحلام كانت غريبة متبدلة ومتحولة. وفي أثناء ذلك التخيل جال في خاطري أن... كلا، ليس هذا أيضاً! إنني لا أسرد الأشياء كما وقعت! كنت أتساءل طيلة الوقت:«لمَ أنا مغفل لدرجة أنني أعرف أن الآخرين مغفلون مثلي مع ذلك فلا أجهد نفسي لأصبح أكثر ذكاء منهم»؟ وعندئذ استنتجت يا سونيا أنه إذا كان المرء ينتظر اللحظة التي يصبح فيها العالم كله من الأذكياء فإن عليه أن ينتظر طويلاً. وقد تأكد لي فيما بعد أن ذلك لا يمكن حدوثه أبداً، وأن الرجال لا يتبدلون وأنه ليس لأحد أن يحولهم وأن ذلك لا يستأهل إضاعة الوقت. نعم إنه كذلك! إنه بالنسبة إليهم قانون...، قانون يا سونيا. إنه لكذلك!.. وإنني أعرف الآن يا سونيا أن ذلك الذي يكون قوياً في ذكائه وروحه، إن هذا يكون سيدهم، إنه يعمل كل شيء فيعذرونه.

إنه ذلك الذي يسخر بكل شيء ويفرض نفسه كمشرع بل إن الأكثر حذقاً ودراية هو الذي تكون له الكلمة الأخيرة! لقد كانت الدنيا أبداً كذلك وستبقى أبداً كذلك. ليس إلا العميان الذين لا يرون هذا!

رغم أن راسكو لنيكوف كان يتكلم وهو ينظر إلى سونيا إلا أنه كف أخيراً عن الاهتمام بتفهمها الأمر. كانت الحمى قد عادت إليه من جديد وعلى أشد ما تكون. لقد كان في لون من الانطلاق القاتم وهو الذي لم يتحدث مع أحد منذ زمن طويل! فأدركت سونيا أن هذا المذهب الوحشي كان عنده في مرتبة الإيمان العميق.

أردف بلهجة جليلة:

ـ وعندئذ ارتأيت يا سونيا أن السلطة لا تعطى إلا للذي يجرؤ على الانحناء لأخذها. يكفي أن يجرؤ المرء! والأمر كله هنا. عندئذ خطرت لي فكرة لأولم رة في حياتي، فكرة لعل أحداً من قبل لم يعن بها. أي أحد! لقد فهمت فجأة وبوضوح كالنهار، أن أحداً لم يجرؤ بعد على الانحناء. لقد اعتقد الناس أنه من الشذوذ والغرابة أن يؤخذ الوحش ببساطة من ذنبه وأن يطوح به إلى الشيطان! أما أنا... أنا... فقد أردت أن أجرب القيام بعمل جريء... وقتلت... لم أكن أريد إلا «إجراء محاولة» فحسب. هذا كل شيء يا سونيا.

صرخت سونيا وهي تضرب كفيها ببعضهما:

ـ أوه، اصمت، اصمت، لقد ابتعدت عن اللّه فضربك اللّه، لقد أسلمك إلى الشيطان!

ـ على فكرة يا سونيا، إنني حينما كنت أستلقي في ظلام حجرتي قاطعاً الوقت في الأحلام وتخيل الأشياء، كان الشيطان هو الذي يغريني أليس كذلك؟

ـ اصمت! لا تضحك أيها الشيطان، إنك لا تفهم شيئاً من شيء.

ـ اصمتي يا سونيا، إنني لا أضحك. إنني أعرف تماماً أن الشيطان هو الذي أغراني.

وكرر بلجاجة كئيبة:

ـ اصمتي يا سونيا! لقد فكرت من قبل في هذا بل وكنت قد همست به لنفسي عندما كنت في الظلمات مستلقياً... لقد تناظرت مع نفسي حول هذا الموضوع وإنني أعرفه كل المعرفة لكثرة ما محصته! ويا للسآمة التي كانت تحدثها تلك الثرثرة في نفسي، كنت أريد نسيان كل شيء وبدء حياة جديدة أخرى. والتخلص من تلك الثرثرة، هل تصدقين يا سونيا أنني كنت أمشي هكذا كالأبله منحني الرأس؟ لقد تصرفت تصرف الرجل المبرهن كثير الحجج وهذا الذي قضى عليّ، هل تظنين أنني كنت أجهل مثلاً أنني إذا سألت نفسي: «لي الحق في السلطة أم لا» لكان الجواب أنه ليس لي الحق؟ أو أيضاً: لو طرحت على نفسي هذا السؤال: «هل الكائن البشري هوام؟» لكان معنى ذلك أن ذلك الكائن قد أصبح بالنسبة إليّ مجرداً من كيانه وأنه ليس هواماً إلا في عيني ذلك الذي لم يفكر قط بل مضى إلى هدفه دون أن يلقي على نفسه أسئلة. إنني خلال تلك الأيام الطويلة، عندما كان السؤال التالي يقض مضجعي: «هل كان نابوليون يذهب ليقتل أم لا؟» كنت أشعر بصراحة، صدقيني، أنني لم أكن نابوليوناً ذلك هو العذاب الذي عانيته يا سونيا والذي أردت أن أنبذه دفعة واحدة. لقد أردت يا سونيا أن أقتل دون الرجوع إلى الضمير. أردت أن أقتل من أجل نفسي فقط! لم أشأ أن أكذب حول هذا الموضوع حتى ولا على نفسي. إنه لم يكن لمساعدة أمي، كلا! ولم يكن كذلك لأفرض من نفسي محسناً إلى الإنسانية بعد أن أحصل على الوسائل، كلا، قد قتلت بكل بساطة. قتلت من أجل

نفسي فقط، من أجلي فقط، لم أكن أتساءل في تلك اللحظة عما إذا كنت سأصبح محسناً ما، أم كنت سأمضي حياتي كالعنكبوت يوقع في نسيجه من الضحايا ليستفيد ويلتهم قواهم الحيوية. خصوصاً وأن المال لم يكن الحاجة الحساسة التي قتلت من أجلها. لقد كانت حاجتي إلى المال أقل من حاجتي إلى أشياء أخرى. إنني أعرف ذلك الآن... افهميني. إذ لو كان الأمر واجب الإعادة لما أعدته. كان ينبغي لي شيء آخر وذلك الشيء الآخر هو الذي دفع ذراعي: كنت أريد أن أعرفه معرفة سريعة عاجلة إذا كنت حشرة حقيرة كالآخرين أم رجلاً. هل أستطيع تخطي العقبة أم لا أستطيع؟ ذلك ما كنت أسأل نفسي عنه. هل أستطيع الانحناء للأخذ أم لا أستطيع؟ هل أنا مخلوق رعديد أم «أن لي الحق؟...».

قالت سونيا وهي تضم يديها:

ـ أن تقتل؟ أن يكون لك الحق في القتل؟

هتف غاضباً:

ـ إيه يا سونيا.

كان يريد أن يجيب غير أنه صمت صمتاً محتقراً وأردف:

ـ لا تحتقريني يا سونيا، لقد أردت فقط أن أثبت شيئاً: أن الشيطان قد جرني أولاً ثم عاد وأفهمني أنه لم يكن لي الحق بالذهاب وأنني لست إلا حشرة كالآخرين، لقد سخر الشيطان مني وهذا هو السبب الذي جئت من أجله إليك، يا للزيارة الجميلة. هل كنت أحضر إليك لو لم أكن حشرة حقيرة؟ اسمعي. عندما ذهبت من قبل إلى مسكن العجوز ما كنت أريد إلا أن أجرب محاولة... اعلمي ذلك.

ـ ولقد قتلت... ولقد قتلت.

ـ لكن. كيف قتلت؟ وهل يقتل المرء هكذا؟ هل تصرفت على هذا النحو؟ لسوف أقص عليك يوماً كيف وقع ذلك... أهي العجوز الصغيرة القذرة التي قتلت... إنني قتلت نفسي وليس العجوز، لقد أفنيت نفسي هكذا إلى الأبد. أما العجوز فإن الشيطان هو الذي قتلها وليس أنا. كفى يا سونيا كفى، كفى، دعيني، دعيني.

كان يصرخ فريسة لحزن وتشنج، فركز مرفقيه على ركبتيه وضغط على رأسه بيديه بشدة وعنف.

زمجرت سونيا:

ـ يا للألم البليغ!

سألها فجأة وهو ينظر إلى وجهها وقد قلب اليأس سحنته فشوهها:

ـ إذن ما العمل الآن؟ تكلمي.

هتفت وهي تبارح مكانها وقد التمعت عيناها اللتان كانتا ممتلئتين حتى تلك اللحظة بالدموع:

ـ ما العمل! انهض.

وقبضت على كتفه فتناهض ونظر إليها بذهول.

وأردفت:

ـ اذهب فوراً في هذه اللحظة بالذات وقف على مفترق الطرق فانحن ثم قبل أولاً الأرض التي دنستها وبعدئذ اركع بخشوع على الجهات الأربع وقل بصوت مرتفع أمام كل الناس: «لقد قتلت!» وعندئذ سيعيد لك اللّه الحياة.

ثم سألته وهي ترتعد وكأنها فريسة نوبة ما وقد قبضت على يديه

الاثنتين وضغطت عليهما بين يديها وشملته بنظرة ملتهبة:

ـ هل تذهب؟ هل تذهب؟

بدا راسكو لنيكوف ذاهلاً بل ومروعاً بعض الشيء من ذلك الحماس المفاجىء. سألها بلهجة كئيبة:

ـ إنك تريدين إذن أن أذهب إلى «الليمان» يا سونيا؟ ينبغي أن أشي بنفسي إذن، أليس كذلك؟

ـ إن ما ينبغي هو تقبل الألم وبواسطته استرداد للروح.

ـ كلا لن أذهب إلى البوليس يا سونيا.

هتفت مستغربة:

ـ لكن لتحيا، كيف العمل لتعيش؟ كيف ستعيش؟ هل ذلك ممكن الآن؟ وكيف تجرؤ على مخاطبة أمك؟ وماذا سيحدث لهما كلتيهما الآن؟ لكن ماذا تقول؟ لقد هجرت أمك وأختك، لقد تركتهما أوه! رباه! إن كل ذلك يفهمه بنفسه. كيف يعيش المرء خارج كل وجود بشري ماذا سيحدث لك الآن!

قال بلهجة وديعة:

ـ كفاك أقوالاً صبيانية يا سونيا! ما هي تهتمي أمامهم؟ لماذا أشي بنفسي إليهم؟ ماذا سأقول لهم؟ إن ذلك ليس إلا أوهاماً وسراباً... إنهم بأنفسهم يذبحون الملايين من الرجال ويكيلون لأنفسهم المزايا والثناء إنهم سفاكون أنذال. تلك هي حقيقتهم. لن أذهب يا سونيا. ثم ماذا أقول لهم؟ أأقول إني قتلت ولكني ما جرؤت على أخذ المال الذي أخفيته تحت حجر؟

ثم أضاف بضحكة ساخرة:

ـ لسوف يسخرون مني وسيقولون بأنني سخيف لأني لم أفد من ذلك المال سخيف وجبان.. لن يفهموا شيئاً يا سونيا. إنهم غير جديرين بفهم مثل هذا التصرف. لماذا أسلم نفسي؟ كوني عاقلة يا سونيا..

كررت متوسلة وقد مدت يديها نحوه بضراعة:

ـ ستكون حياتك عذاباً مقيماً طويلاً. عذاباً طويلاً.

فقال بكآبة وكأنه يحلم في شيء ما:

ـ لعلني أهنت نفسي. لعلني بعد كل هذا لا زلت رجلاً وليس هواماً كما أسميت نفسي متسرعاً. لسوف أقاوم.

وارتسمت على شفتيه ابتسامة متعالية.

ـ أتحمل عبئاً كهذا! وطيلة العمر، طيلة العمر!

أجاب ساهماً ضجراً:

ـ لسوف أعتاد على حمله..

واستطرد بعد برهة:

ـ اسمعي كفى نواحاً! لنعد الآن إلى الواقع: لقد أردت أن أقول لك إنهم يهاجمونني الآن ولسوف يوقفونني.

قالت سونيا مذعورة:

ـ آه!

ـ ماذا بك؟ لمَ تصرخين؟ إنك أنت أنت التي تريدين أن أذهب إلى «الليمان» وها إنك الآن تروعين! لكنهم لن ينالوني. لسوف أكافحهم ولن يستطيعوا شيئاً حيالي. ليست لديهم أدلة ملموسة ضدي. لقد تعرضت البارحة لخطر ماحق ومنذ قليل اعتقدت أنني ضائع لا محالة واليوم

تحسنت الأمور. إن كل الآثار التي بين أيديهم ذات وجهتين وبعبارة أصح إنني أستطيع أن أدير الأمور القائمة ضدي لمصلحتي. هل تفهمين؟ ولسوف أعمل ذلك: لأنني أصبحت الآن ملماً بهذه المهمة... لكنهم سيزجون بي حتماً في السجن. ولولا حادث وقع اليوم لكنت الآن فيه غير أنه يجوز أن يبعثوا بي إلى السجن اليوم أيضاً.. غير أنه لا خطر هناك يا سونيا. لسوف يسجنونني ثم يطلقون سراحي... لأنه ليس لديهم دليل واحد حقيقي ولن يكون لديهم ذلك الدليل. وأعدك. أما فيما يتعلق بما لديهم حتى الآن فإنه لا يكفي للقضاء على رجل. هيا مني هذا الكفاية... أردت فقط أن تعلمي.. أن أختي على ما يبدو في مأمن من الحاجة بالوقت الحاضر... وبالتالي فإن أمي في مأمن كذلك. هذا كل ما في الأمر.. وأخيراً كوني حكيمة. هل ستزورينني عندما أصبح في السجن؟

ـ أوه! سأحضر، سأحضر!

كانا جالسين جنباً إلى جنب حزينين منهوكين أشبه بالغريقين اللذين وجدا وحيدين وقد ألقت بهما العاصفة على شاطئ مقفر. كان يتأمل سونيا وهو يفكر في مقدار حبها له فكان ـ ولغرابة الأمر ـ يشعر بعذاب وألم إذ يرى نفسه محبوباً هذا القدر. نعم، كان ذلك إحساساً غريباً مخيفاً! فهو عندما جاء إلى سونيا شعر بأنها أمله وملاذه الوحيد. ظن أنه قادر على إزاحة جزء من عبئه فإذا به الآن يشعر فجأة بأنه أشد تعاسة من ذي قبل.

قال:

ـ يا سونيا يجدر بك أن لا تأتي لزيارتي عندما أسجن.

لم تجب سونيا بل راحت تبكي وانقضت بضع دقائق.

سألت فجأة وكأنها تذكرت شيئاً:

ـ هل تحمل صليباً معك؟

لم يفهم ذلك السؤال للوهلة الأولى.

ـ كلا؟ ليس معك؟ خذ! خذ هذا! إنه مصنوع من خشب السرو. لدي واحد آخر من النحاس أعطتنيه إليزابيت. لقد أجرينا تبادلاً، إليزابيت وأنا، فأعطتني صليبها وأعطيتها صورتي الصغيرة. والآن ستحمل صليب إليزابيت. وأنت ستحمل هذا.. خذه.. إنه صليبي! وطالما أننا سوف نتألم معاً فلسوف إذن نحمل الصليب معاً...

قال راسكو لنيكوف:

ـ هاته!

أراد أن يجاملها غير أنه سحب فجأة يده الممدودة لأخذ الصليب وأضاف يطمئنها:

ـ ليس الآن يا سونيا. فيما بعد. إنه أجدى.

فأجابت بلهجة مؤمنة:

ـ نعم، نعم، إنه أجدى. ستأخذه عندما تمضي لتكفر عن خطئك لسوف تأتي إلي وسوف أضعه حول عنقك. ولسوف نصلي ونمضي معاً.

وفي تلك اللحظة قرع الباب ثلاثاً: وسمع صوت أنيس معروف يقول:

ـ يا صوفي سيميونوفنا هل أستطيع الدخول؟

اندفعت سونيا مذعورة نحو الباب فظهر على عتبته وجه ليبيزياتنيكوف المضحك.

الفَصْلُ الخَامِسُ

كان الاضطراب والقلق واضحين على وجه ليبيزياتنيكوف.

ـ جئت أبحث عنك يا صوفي سيمونوفنا فاعذرني.

وخاطب راسكو لنيكوف فجأة بقوله:

ـ كنت أنتظر وجودك هنا: أقصد أنني ما كنت أفكر في شيء... مما يمكن أن يفكر الناس به... لكنني كنت أفكر فقط...

توقف برهة حائراً ثم أردف دفعة واحدة:

ـ لقد جنت كاترين إيفانوفنا!

ذهلت سونيا وعقلت الدهشة لسان راسكو لنيكوف.

ـ إنها تبدو كذلك على الأقل. ثم إننا هناك لا نعرف كيف نتصرف! يبدو أنها طُردت حيث مضت، بل ولعلهم ضربوها كذلك... لقد هُرعت إلى رئيس زوجها السابق فلم تجده لأنه كان يتناول الطعام عند واحد من زملائه... تصوروا أنها تبعته إلى حيث كان يتناول الطعام لدى «جنرال» آخر وـ لست أدري إذا كنتم تصدقون ـ أصرت هناك على مقابلة رئيس سيميون زاخاروفيتش واضطرته إلى مغادرة الطعام. أعتقد أنكم تخيلتم الآن النتيجة دون أن أذكرها. لقد طردوها بالطبع! إنها تدعي بأنها شتمته وأنها قذفت بشيء إلى رأسه. إن ذلك غير مستبعد وقد أدهشني شخصياً أنها لا تزال

طليقة السراح. إنها الآن تروي هذه القصة لكل من يرغب في استماعها بما في ذلك إميلي إيفانوفنا. غير أنه من العسير فهم كلماتها لشدة ارتباكها وإسراعها في الحديث...! نعم، إنها تقول عازمة على أصحاب أولادها والمضي إلى الشوارع لتعزف على الأرغن طالما أنها أصبحت مهجورة من الجميع، وهي تؤكد أنها ستجعل أولادها يرقصون ويغنون معها لاستجداء أكف المحسنين، وأنها ستقصد كل يوم نوافذ منزل «الجنرال». إنها تؤكد: «إنه سيرى على هذه الصورة أولاد موظف محترم يتسولون في الشوارع»! إنها تضرب أولادها وهم يبكون. إنها تعلم لينيا «المزرعة الصغيرة»[1] وترغم الطفل الصغير على الرقص وكذلك بولين ميخائيلوفنا.[2] إنها تمزق كل ثيابهم... وتضع لهم قلنسوات كتلك التي يضعها المهرجون على رؤوسهم. وهي تزمع حمل «طست» تضرب عليه على غرار الموسيقيين... إنها ترفض الاستماع إلينا. تصوروا قليلاً كل هذا! لا يمكن تركها تفعل ذلك!

كان ليبيزياتنيكوف على وشك الاسترسال في الحديث غير أن سونيا التي أصغت إليه حتى تلك اللحظة مبهورة الأنفاس لم تستطع الانتظار أكثر من ذلك. اختطفت قبعتها ودثارها واندفعت خارج الغرفة تستكمل ارتداء ثيابها في الطريق، وتبعها راسكو لنيكوف وفي أثره ليبيزياتنيكوف. وبينما هما في طريقهما قال ليبيزياتنيكوف:

ـ إنها مجنونة حقاً! لقد قلت لسونيا: «إنها تبدو كذلك» لكي لا أفزعها غير أنها مجنونة ولا مجال للشك في جنونها. يبدو أن هذه الحالة شائعة في أدمغة المصابين بالسل. إنني لآسف لجهلي بالطب. بيد أنني حاولت إقناعها لكنها لم تكن مصغية لأحد!

---

(1) أغنية شائعة في روسيا - المترجم.

(2) بوليا كبرى بناتها - المترجم.

ـ هل حدثتها عن التدرن والسل؟

ـ لم أحدثها عن التدرن بالذات. ثم إنها ما كانت لتفهم قولي لو أنني حدثتها عنه. لكنني أعتقد أنك إذا استطعت إقناع المرء بواسطة المنطق أنه ليس هناك في الحقيقة ما يستوجب البكاء، لكف عن البكاء على الفور. ألست من رأيي في ذلك؟

أجاب راسكو لنيكوف:

ـ لو صح ذلك لكانت الحياة كثيرة السهولة.

ـ عفواً، عفواً! إنه ولا شك عسير على واحدة مثل كاترين إيفانوفنا أن تفهم ذلك. لكن أتدري أنه أجريت في باريس تجارب جدية تتعلق في إمكانية شفاء المجانين باستعمال الإيحاء وحده؟ إن أستاذاً من كبار العلماء هناك ـ وقد مات مؤخراً ـ قرر أنه يمكن الشفاء على هذا الشكل. إن نظريته ترتكز على أن المجانين لا يشكون خللاً عضوياً بل إن الجنون ليس إلا ـ إذا جاز القول ـ نوعاً من الخطأ في المنطق والتفكير. وإنه ليس إلا وجهة نظر مغلوطة. لذلك فقد راح يناقش أقوال المريض ويدحضها و ـ تصوّر ـ أنه على ما يبدو قد بلغ هدفه! لكن نتائج هذا العلاج بحاجة إلى ضمان طالما أنه استعمل المقاييس البسيكولوجية فيه... غير أنه حسب المظاهر...

كان راسكو لنيكوف لا يصغي إلى حديث ليبيزياتنيكوف، فلما بلغ منزله حياه بإشارة من رأسه وانعطف فجأة يجتاز الباب الخارجي. فتوقف ليبيزياتنيكوف مشدوهاً بعض الشيء وألقى نظرة حوله ثم استمر في سيره.

دخل راسكو لنيكوف «زنزانته» ووقف في وسطها يتساءل عن سبب مجيئه. ألقى نظرة على الأوراق المصفرة الممزقة التي تكسو الجدران وعلى الغبار المتراكم ثم توقف بصره عند «الأريكة السرير». كان صوت

ملح عنيف يتصاعد من الباحة وكأن بعضهم كان يغرس مسامير في مكان ما. فاقترب من النافذة وتطاول على أطراف قدميه وراح ينظر إلى الباحة بانتباه خارق وقتاً طويلاً. غير أن الباحة كانت خالية، لم يكن هناك شبح إنسان يمكن أن يحدث مثل هذا الضجيج. كان إلى اليسار عدد من نوافذ الجناح مفتوحة وقد وضعت من حافة كل منها أصص فيها زهور ذابلة.[1] وعلى الشرفات علقت ثياب وبياضات. كان يعرف هذه المشاهد عن ظهر قلب. فاستدار وعاد إلى الأريكة يجلس عليها.

أبداً لم يشعر أنه شديد الوحدة كتلك اللحظة، أبداً!

نعم، شعر من جديد أنه لا شك يمقت سونيا وخصوصاً الآن بعد أن زاد في تعاستها. خاطب نفسه: «لماذا ذهبت إليها أستجدي دموعها؟ ما الذي كان يدعوني إلى تسميم حياتها؟ يا للنذالة!».

وفجأة قال بعزم: «سأبقى وحيداً! لن تأتي لمشاهدتي في السجن!»

رفع رأسه بعد خمس دقائق وقد غمرت وجهه ابتسامة غريبة. خطرت له فكرة عجيبة: «لعل السجن خير من هنا».

لم يستطع أن يتذكر كم من الوقت مضى عليه وهو يستعرض في رأسه سيلاً من الأفكار الغامضة، وفجأة فتح الباب ودخلت أفدوتيا رومانوفنا. وقفت برهة على العتبة تتأمله كما فعلت من قبل سونيا، ثم تقدمت وجلست قابلته على مقعد في المكان الذي احتلته أمس. فراح يتأملها بسكون ويحدجها بنظرة خالية من كل تفكير.

كان وجه دونيا يحمل طابعاً وقوراً دون صرامة، وكانت نظرتها صافية هادئة. كان يرى أنها لم تأتِ إلا مدفوعة بمحبتها. قالت:

---

(1) جاء في النص ذكر زهره الجيرانيوم (إبرة الراهب).

ـ لا تحنق يا أخي! لن ألبث معك أكثر من دقيقة.

وتوقفت برهة ثم أردفت:

ـ إنني أعرف الآن كل شيء يا أخي، «كل شيء» لقد حدثني دميتري بروكوفيتش بكل شيء، وشرح لي كل شيء. إنهم يضطهدونك ويعذبونك بسبب شبهة حمقاء بشعة. لقد قال لي دميتري بروكوفيتش إنك لا تستهدف لأي خطر، وإنك تزعج نفسك دون مبرر. إنني لست من رأيه لأنني أفهم أن هذا يثيرك وأن أية إهانة كهذه تستطيع أن تترك آثاراً لا تمحى في حياتك وهذا ما أخشاه. لقد هجرتنا ولست أحكم عليك لأنني لا أجرؤ على إصدار الحكم. وأرجو أن تصفح عني للتأنيب الذي وجهته إليك. أشعر أنني لو كنت فريسة لهم كهذه لابتعدت أنا الأخرى عن العالم كله. لن أحدث أمنا بشيء من هذه القبيل بل سأثابر على إقناعها بأنك لن تتأخر في العودة إلينا فلا تبتئس من أجلها. سوف أحدثها عنك وأطمئنها. وأنت من جانبك، لا تعذبها يا أخي. تعال مرة واحدة واذكر أنها أمك.

وتناهضت دونيا مستعدة للخروج وأردفت:

ـ لقد جئت الآن لأقول فقط إنه حالما تحتاج إليَّ لأي سبب كان... لك أن تتصرف بحياتي... ادعني وسأحضر. الوداع.

وأدارت ظهرها فجأة واتجهت نحو الباب.

نهض راسكو لنيكوف واقترب منها وقال:

ـ دونيا إن هذا الـ«رازوميخين»، دميتري بروكوفيتش رجل ممتاز.

صعدت حمرة خفيفة إلى وجه دونيا وسألت بعد لحظة صمت:

ـ إذن؟

ـ إنه رجل نشيط دؤوب شريف ومقتدر، متين العاطفة... الوداع يا دونيا...

كان وجه دونيا مصطبغاً بحمرة قانية، غير أن عبارة أخيها الأخيرة روعتها.

ـ لكن ماذا يا أخي؟ هل نفترق إلى الأبد؟ حتى... توصيني بمثل هذه الوصية؟

ـ ذلك لا يهم... الوداع...

ابتعد متجهاً نحو النافذة، فانتظرت برهة ونظرت إليه باكتئاب ثم خرجت شديدة الغم.

لم يكن يشعر نحو دونيا بالبرود، كلا. لقد مرت عليه لحظة ـ آخر لحظة ـ شعر فيها برغبة عنيفة تدفعه إلى ضمها بين ذراعيه والاستئذان منها ثم اطلاعها على كل شيء. مع ذلك فإنه لم يستطع أن يقنع نفسه بأن يمد لها يده مودعاً.

حدث نفسه قائلاً: «لعلها سترتعد كلما ذكرت أنني عانقتها ولربما قالت إنني سرقت قبلاتها... ثم هل تستطيع احتمال مثل هذا الاعتراف أم لا تستطيع؟ كلا، إنها لن تستطيع احتماله، إنها من تلك النسوة اللاتي لا يحتملن أبداً مثل هذه الأشياء...».

وشرد ذهنه في اتجاه سونيا.

كانت ريح رطبة تدخل من النافذة وقد خفت الضياء قليلاً في الخارج فحمل قبعته فجأة وخرج.

كان لا يستطيع ولا شك، وبالتالي لا يريد أبداً، أن يعنى بحالته المرضية. غير أن هذه الهموم الملحة، وذلك الهول المعنوي لن يلبث أن يحدث انعكاسات في نفسه. وإذا كانت الحمى لم تصهره حتى الآن فلعل

السبب راجع إلى ذلك القلق المقيم الذي يجعله دائماً في حالة من حالات التيقظ والحذر رغم أنها حالة غير طبيعية ومؤقتة:

تاه دون هدف وكانت الشمس قد غربت. كان يحس منذ بعض الوقت بحزن خاص. أوه! لم تكن في ذلك الحزن حدة بل كان يشعره فقط ـ على نسقٍ أبدي ملح ـ بالسنوات التي عليه أن يقضيها فريسة قلق مميت مخيف، وبذلك اللون من البقاء الأبدي «على مساحة قدم مربعة»! كانت تلك الفكرة تضيق عليه ـ عادة ـ وتكاد أن تخنقه في ساعات المسار أكثر من أي وقت آخر.

غمغم بصوت حقود: «كيف أستطيع الامتناع عن ارتكاب حماقات بمثل هذا المرض الجسدي السخيف الذي يتأثر بأي غروب شمس! إنني أكاد أن أمضي، ليس إلى سونيا فحسب بل إلى دونيا كذلك».

شعر بمن يناديه فتلفت حوله وإذا بليبيزياتنيكوف يجري في أثره.

تصور أنني جئت تواً من مسكنك: إنني أبحث عنك. تصور! لقد نفذت مشروعها وأخذت الأطفال معها. ولقد وجدنا صوفي سيميونوفنا وأنا، عناءً كبيراً في اكتشاف مكانهم. إنها تضرب على مقلاة وترغم الأولاد على الرقص. والأطفال يبكون. إنهم يتوقفون على مفارق الطرق أمام الدكاكين. إن عدداً من المأفونين يتبعونهم في كل مكان. هيا بنا!

سأل راسكو لنيكوف قلقاً وهو يحث الخطى في إثر ليبيزياتنيكوف:

وسونيا؟

ـ لقد فقدت عقلها بكل بساطة، أقصد أنه ليس سونيا هي التي فقدت عقلها، بل كاترين إيفانوفنا. بل إن سونيا تكاد أن تصبح مثلها، أما

كاترين إيفانوفنا فقد فقدت عقلها تماماً؛ إنني أقوله لك: إنها مجنونة تماماً. لسوف يسوقونهم جميعاً إلى القسم. باستطاعتك أن تتصور سلفاً تأثير ذلك عليها. إنهم الآن على الرصيف قرب جسر إيكس...» غير بعيد عن منزل صوفي سيميونوفنا، على بعد خطوتين من هنا.

على رصيف القنال غير بعيد عن الجسر قرب البناء الثالث بعد المسكن الذي تقطن فيه سونيا. كان جمع من الناس محتشداً يضم في عداده عدداً كبيراً من الفتيات والغلمان الصغار. وكان صوت كاترين إيفانوفنا الأجش الصدئ يسمع وهي في مكانها قرب الجسر. كان المشهد غريباً حقاً جديراً باكتساب جمهور المتسكعين. كانت كاترين إيفانوفنا مرتدية ثوبها العتيق متشحة بالشال العتيد وعلى رأسها قبعة بالية من القش محطمة مشوهة. كان الجنون واضحاً عليها وكانت تعبة منهوكة لاهثة ينبئ وجهها بالألم الذي لم يظهر عليه مثيل له من قبل. إذ المعروف أن المصدورين يبدون في لاطريق أشد مرضاً مما هم عليه في مساكنهم، رغم ذلك فإن نشاطها لم يكف لحظة... كانت المرأة التعسة تزداد انفعالاً وغضباً دقيقة فدقيقة. كانت تندفع نحو أولادها، تصرخ في وجوههم وتشجعهم وتعلمهم الرقص والغناء على مشهد من المحتشدين فتفسر لهم كل ما هو ضروري واجب في مهنتهم الجديدة، ثم تشعر أن ذكاءهم يعجز من استيعاب ما نقول فتنهال عليهم ضرباً وتدعهم دون أن تنهي تعليماتها، لتخاطب الجمهور. فإذا وجدت بين المحتشدين رجلاً مرتدياً ثياباً فيها شيء من التناسق هرعت إليه تفسر له إلى أي منحدر انحدر «أولاد أسرة نبيلة يمكن القول أنها أرستقراطية». وإذا سمعت بعضهم يضحك بين المتجمهرين أو صك سمعها موضوع شاذ فإنها كانت ترتمي على أولئك المستهزئين تفهمهم وتهاجمهم.

كان بعضهم يضحك حقيقة لهذا المشهد والبعض الآخر يهز الرؤوس. لكن الفريقين كانا ينظران بفضول إلى تلك المجنونة وأولادها المذعورين. لم يكن للمقلاة التي تحدث عنها ليبيزياتنيكوف أي وجود أو على الأقل لم يكتشف راسكو لنيكوف وجودها. لكنها بدلاً من أن تضرب على مقلاة، راحت كاترين إيفانوفنا تصفق بيديها بإيقاع متناسق مرغمة بوليا على الغناء ولينيا وكوليا على الرقص، بل إنها كانت ترغم نفسها أحياناً على الدندنة. لكنها ما أن تبلغ في غنائها المقطع الثاني حتى تنتابها بانتظام نوبة عنيفة من السعال تقطع عليها سير الغناء فكانت تيأس وتلعن السعال بل وتمضي في يأسها حتى البكاء. وكانت دموع كوليا ولينيا ورعبهما يخرجانها عن صوابها أكثر من متاعبها الأخرى. فقد جهدت بكل قوة في إلباس أولادها ما يشبه ألبسة المغنين المتجولين، فكان الطفل الصغير معمماً بقماش أحمر وأبيض، ليبدو كأحد الأتراك، أما لينيا فإن قماش العمامة لم يسمح بفائض تصنع منه ثوباً لها، فألبستها على رأسها قلنسوة ذات لون أحمر فاتح ـ تلك التي كان المرحوم سيميون زاخاروفيتش يضعها على رأسه عند النوم ـ وغرست فيها نتفاً من ريش النعام الأبيض. كانت كاترين إيفانوفنا تحتفظ به عن جدتها الكبرى في صندوقها باسم ذكريات عائلية. وكانت بوليا تلبس ثوبها الاعتيادي وتنظر إلى أمها بخوف وارتباك وتواكبها خطوة فخطوة ساعية إلى إخفاء دموعها عنها عارفة أنها أصبحت مجنونة، فكانت تلقي حولها نظرات مروعة بين حين وآخر، نظرات مروعة تنقلها بين وجوه المارة والشارع.

لبثت سونيا تتبع كاترين إيفانوفنا وهي تتوسل إليها باكية أن تعود إلى المسكن غير أن توسلاتها ودموعها لم تستطع إثناء كاترين إيفانوفنا عن عزمها. كانت تصيح بصوت متهافت وهي تلهث وتسعل:

ـ دعيني يا سونيا دعيني! إنك لا تعرفين شخصياً ماذا تطلبين! إنك كالطفل الصغير! لقد قلت لك من قبل أنني لن أعود إلى مسكن تلك الألمانية القذرة ليشهد العالم ولتشهد بطرسبورغ كلها كيف أن أولاد أب نبيل خدم بلاده طيلة حياته بولاء وإخلاص ومات ـ ونستطيع القول ـ وهو يقوم بواجباته، أصبحوا متسولين في الشوارع (كانت كاترين إيفانوفنا قد صورت لنفسها تلك الصورة الخيالية عن زوجها الأول وآمنت بها إيماناً أعمى على عادتها)، ليشهد ذلك «الجنرال» عديم الشأن هذا! هيا يا سونيا إنك حمقاء، قولي ماذا نعمل لكسب قوتنا؟ لقد استثمرناك حتى اليوم بما فيه الكفاية ولست أرغب في الاستمرار! آه! أهذا أنت يا روديون رومانوفيتش؟

كانت هذه الصرخة التي أطلقتها المجنونة دليلاً على أنها شاهدت راسكو لنيكوف وعرفته. فاندفعت نحوه وقالت بصوتها المبحوح:

ـ أرجوك أن تفهم هذه الحمقاء الصغيرة أنه ليس لنا أحسن من هذا السبيل! إن عازفي الأرغن أنفسهم يستطيعون اقتناص شيء ما، ولسوف يميزنا الجمهور نحن الآخرين، لسوف يعرفون أننا أسرة نبيلة سحقتنا الفاقة. ولسوف يفقد ذلك «الجنرال» القذر مركزه. لسوف ترى! سوف نقف كل يوم تحت نوافذه وسيمر الإمبراطور فأركع على ركبتي وأدفع أولادي أمامه فأقول له مشيرة بيدي إليهم: «أيها الأب! احمنا»! إنه أبو الأيتام، إنه رحيم، وسترون أنه سيحمينا. أما ذلك «الجنرال» الصغير الحقير...

انصبي قامتك يا لينيا وأنت يا كوليا سوف تعيد هذه الرقصة! ما بك تنتحب؟ ها هو ذا يبكي من جديد! أيها السخيف الصغير ممَّ تخاف؟ رباه! ماذا أصنع بهم يا روديون وومانوفيتش؟ ليتك تعلم مقدار غباوتهم! ماذا أعمل بأولاد مثل هؤلاء!

كانت هي نفسها على وشك البكاء ـ رغم أن ذلك كان يمنعها من الاسترسال في الكلام ـ مع ذلك فقد كانت تشير إلى أولادها المنتحبين. حاول راسكو لنيكوف إقناعها بالعودة إلى المنزل. بل إنه استنجد بكرامتها وكبريائها معلناً أنه ليس من المناسب قطع الشوارع كالعازفين على الأرغن بينما كانت تأمل أن تصبح مديرة معهد للبنات.

ـ معهد للبنات! هاهاها! هل تفكر في هذا!

واهتزت كاترين إيفانوفنا إثر ضحكتها بنوبة من السعال فلما تخلصت منها استرسلت:

ـ كلا يا روديون رومانوفيتش. لقد تبخر ذلك الحلم! لقد هجرنا كل الناس وهذا «الجنرال»!... أتعرف يا روديون رومانوفيتش أنني قذفت بمحبرة إلى وجهه، تلك المحبرة التي كانت على النضد في الردهة إلى جانب الورقة التي كان الزوار يكتبون أسماءهم عليها. لقد كتبت اسمي أنا الأخرى وعندما قذفت بتلك المحبرة بادرت إلى الفرار. أوه! الأنذال، الأنذال! لكنني لست أبالي. لسوف أطعم أولادي بنفسي منذ الآن ولن أنحني أمام أحد.

ثم أسارت إلى سونيا وأردفت.

ـ لقد عذبناها كفاية. بوليا! كم جمعنا حتى الآن؟ أرني! كيف؟ كوبيكان فقط؟ أوه! يا للحثالات! إنهم شديدو التمسك بقروشهم... إنهم يكتفون بملاحقتنا والهزء بنا! ما بك يا بوليا كلميني بالفرنسية. كيف يستطيعون معرفة انتماءك إلى أسرة نبيلة والتأكد من أنكم ذوو تربية رفيعة لا تشبهون الموسيقيين المتجولين الآخرين؟ لقد علمتك الفرنسية.

إنك تعرفين بضع جمل. صحيح أننا لن نمثل «غينيول»[1] في الشوارع لكننا سنغني قصصاً شعرية وبصوت جميل. آه! نعم. ماذا سنغني؟ إنكم تقاطعونني دائماً ونحن... كما نرى يا روديون رومانوفيتش لم نتوقف هنا إلا لنقرر ماذا كنا سنغني: ينبغي أن تجد أغنية يستطيع كوليا أن يرافقني على إيقاعها وهو يرقص لأننا ـ ولك أن تعتقد ـ أخذنا في كل هذا على حين غرة. ينبغي أولاً أن نتشاور بخصوص التجارب الأولى ثم سنمضي إلى موضع «نيفسكي» حيث المتنزهون المعتبرون كثيرون ولسوف نلفت الأنظار إلينا هناك. إن لينيا تعرف «المزرعة الصغيرة» لكن تكرار هذه الأغنية باستمرار يصبح مزعجاً ثم إن كل الناس يغنونها! ينبغي أن نغني نحن شيئاً أرفع من هذا... وإذن... بوليا هل خطرت لك فكرة ما؟ ليتك تساعدين أمك قليلاً! إذن ذاكرتي تخونني ولولا ذلك لسهل كل شيء! على فكرة ألا يمكننا أن نغني: «الفارس المتكئ على سيفه»! آه! لنغن بالفرنسية «خمسة قروش» لقد علمتكما هذه الأغنية من قبل وخصوصاً لأنها أغنية فرنسية. لسوف يرى الجميع أنكم أبناء نبلاء، وسيكون ذلك أدعى للشفقة... ونستطيع كذلك أن نغني «مالبرو يمضي إلى الحرب، خصوصاً وأنها قصيدة غنائية للأطفال يغنونها في كل البيوتات الأرستقراطية لتنويم الأطفال.

ما لبرو ذاهب إلى الحرب

لا يدري متى سيعود...

شرعت نغني... لكنها فجأة أبدلت رأيها: لنغن «خمسة قروش!» إنها أحسن. هيا يا كوليا! ضع يديك على وركك، أسرع! وأنت يا لينيا استديري في الاتجاه المعاكس. سنرافقكما ـ بوليا وأنا ـ ونضبط الإيقاع بالتصفيق.

---

(1) Guignol: الشخصية الرئيسية في السينما الشعبية الفرنسية على طريقة «كرا كوز» عندنا ترجع إلى أواخر القرن الثامن عشر. كان (غينيول) وصديقه (ينافرون) مشهورين جداً في طول فرنسا وعرضها. - المترجم -.

خمسة قروش، خمسة قروش

لنتدبر نفقات البيت...

«هي هي هي! ـ وعاودتها نوبة عاتية من السعال ـ أصلحي ثوبك يا بوليا إنه يكاد أن ينزلق عن كتفيك».

واسترسلت تتكلم خلال سعالها:

ـ ينبغي الآن أن تتصرفوا تصرفاً حسناً وأن تظهروا كما يجب ليعرف الناس أنكم أولاد نبلاء. كنت أعتزم أن أجعل هذا الثوب أكثر طولاً لكنك أنت يا سونيا أشرت إليّ أن أجعله قصيراً. فانظري الآن كيف يزيد في بشاعة هذه الطفلة... هيه! ها إنكما تعاودان البكاء!... لكن ماذا بكما أيها الأحمقان؟ هيا كوليا تحرك أكثر، نحن... أوه! إنه طفل لا يحتمل!

خمسة قروش، خمسة قروش...

ماذا! أجندي كذلك! ماذا تبتغي؟

كان أحد جنود المدينة يشق لنفسه طريقاً بين المتجمهرين غير أن رجلاً آخر ـ بلباس رسمي ومعطف مأمور جليل الشأن في الخمسين من عمره يحمل حول عنقه وساماً ـ الأمر الذي زاد في سرور كاترين إيفانوفنا وأرهب جندي المدينة ـ تقدم في تلك اللحظة بالذات نحو كاترين إيفانوفنا ماداً يده إليها بورقة من ذات الثلاثة روبلات، قدمها إليها بصمت.

كان وجهه يعبر عن شفقة بليغة وحنان أكيد، فتقبلت كاترين إيفانوفنا تلك المنحة وهي تنحني أمامه محيية انحناءة مهذبة عميقة.

شرعت تقول بلهجة العظمة:

ـ إنني أشكرك يا سيدي... إن الأسباب التي دفعتنا... بوليا خذي النقود هل رأيت، هناك رجال كرماء شهام مستعدون لإغاثة سيدة نبيلة

سقطت في العوز، انظر يا سيدي! هؤلاء أولاد نبلاء بل ويمكن القول أنهم ينتسبون إلى أرفع الأرومات الأرستقراطية حسباً... وذلك «الجنرال القذر كان جالساً إلى مائدة الطعام يأكل الدراريج. لقد ضرب الأرض بقدمه من الانفعال لأنه أزعج قلت له: يا صاحب السعادة، احم اليتامى. يا من عرفت أكثر من غيرك المرحوم سيميون زاخاريتش. إن ابنته أهينت من قبل أبشع الخليقات».

ووقع بصرها مرة أخرى على الجندي فصرخت تخاطب الموظف الكبير:

ـ احمني! لمَ يتبعني دائماً هذا الجندي؟ لقد فررنا من واحد آخر في شارع «بورجواز» ماذا تريد أيها السخيف!

ـ إن إثارة الضوضاء في الشوارع ممنوعة. أرجو أن تتصرفي بلباقة!

ـ إنك إنت الخالي من اللياقة! إنني أتصرف كما لو كنت أعزف على الأرغن فهل هذا يعنيك في شيء؟

ـ لكي يعزف المرء على الأرغن ينبغي أن يحصل على ترخيص. إنك بهذا الشكل تجمهرين المارة. أين تقطنين؟

صرخت كاترين إيفانوفنا:

ـ كيف! ترخيص؟ لقد دفنت زوجي اليوم وأعتقد أن هذا ترخيص كاف.

قال الموظف متدخلاً:

ـ سيدتي، سيدتي، اهدئي! تعالي سأرافقك... إن وجودك بين هذا الحشد غير لائق... إنك مريضة متألمة...

هتفت كاترين إيفانوفنا:

ـ سيدي، سيدي إنك لا تدري شيئاً. سوف نمضي إلى موقع «بيفسكي» سونيا! سونيا! لكن أين ذهبت؟ إنها تبكي هي الأخرى! لكن ماذا بكم أنتم جميعاً؟...

ثم صرخت فجأة مذعورة:

ـ كوليا، لينيا، أين أنتما؟ أوه! يا للأولاود الحمقى! كوليا لينيا أين أنتما إذن؟...

كان الطفلان، كوليا ولينيا، قد بلغ الرعب بهما، مبلغاً أفقدهما صوابهما خصوصاً بعد تصرفات أمهما الشاذة واشتداد تكالب الجمهور حولهم. فلما شاهدا الجندي مقبلاً وفي نيته سوقهما مع أمهما وأختهما الكبرى، أخذ كل منهما بيد الآخر ومضيا يركضان هاربين وكأن اتفاقاً مسبقاً كان يقوم بينهما! اندفعت كاترين إيفانوفنا المسكينة تركض وراءهما مزمجرة منتحبة. كان هذا المشهد من أشد المشاهد مجلبة للحزم وأكثرها شناعة فقد كان الطفلان يركضان وأمهما على آثارهما، وسونيا وبوليا تتبعانها ركضاً كذلك. كانت الأم تصيح:

ـ أعيديهما! أعيديهما يا سونيا! أوه! يا للأولاد الحمقى! يا للعقوقين! بوليا! أوقفهما... إنني من أجلكم...!

وتعثرت في ركضها فسقطت على الأرض وهتفت سونيا وهي تنحني فوقهما:

ـ آه يا رب! إنها مغطاة بالدم!

تهافت الناس ولم يلبث المتطلعون أن ضربوا حلقة حولهم. كان راسكو لنيكوف وليبيزيا تنيكوف أول من هرع إليها ولم يلبث الموظف أن

وصل لاهثاً يتبعه الجندي وهو يغمغم: «آه! لكن»... ويستعيض عن الكلام بإشارات من يديه ليعبر عن سخطه. راح يصيح بالمتطفلين المجتمعين:

ـ هيا انفضوا! اذهبوا.

هتف أحدهم:

ـ إنها تموت!

وأضاف آخر:

ـ لقد طاش صوابها.

وتمتمت عجوز وهي ترسم علامة الصليب:

ـ رباه! احفظها! هل جاؤوا بالبنية والطفل؟ هه! لقد أطبقت عليهما الأخت الكبرى... هيا أيها الطائشان!

عندما عوينت كاترين إيفانوفنا تبين أن ذلك الدم الذي انسفح على بلاط الشارع لم يكن مصدره جرح أحدثه حجر كما توقعت سونيا بل كان مصدره صدرها: لقد كان الدم ينبعث من فم المسكينة.

همس الموظف مخاطباً راسكو لنيكوف وليبيزيا تنيكوف:

ـ إنني أعرف هذه الأعراض ولقد شاهدتها من قبل. إنه السل. إن الدم يفور هكذا ويسبب الاختناق. لقد كنت شاهداً في حالة مماثلة وقعت لإحدى قريباتي. لقد قذفت هي الأخرى بأكثر من قدح من الدم... فجأة... ما العمل لسوف تموت...

هتفت سونيا ضارعة:

ـ هنا، هنا إلى مسكني! إنني أقطن هنا في هذه الدار... الثانية. لتحمل إلى غرفتي بسرعة. وليستحضر طبيب!... آه يا رب!

كانت سونيا تثب من واحد إلى آخر تستحثه وتتضرع إليه. وقد

توصل الموظف بمجهوداته يساعده الجندي إلى نقل كاترين إيفانوفنا، فلما أسجوها على سرير سونيا كانت في النزع الأخير. لبث النزيف متواصلاً غير أن المريضة بدت على شيء من صفاء الذهن، وكان في الغرفة إلى جانب سونيا وراسكو لنيكوف وليبيزياتنيكوف، الموظف والجندي الذي راح يطرد الفضوليين المتطفلين ويمنعهم من الدخول ووصلت بوليا تمسك بيدي كوليا ولينيا وهما يرتعدان ويبكيان. وهرع بعض أفراد عائلة كابير ناؤوموف. جاء الأب وهو أعرج أعور ذو شعر وسالفين منفوشين كشلة من الحرير يعطيانه مظهراً شاذاً. وتبعته زوجه التي تبدو مذعورة أبداً وعدد من أطفالهما الذين تبدو وجوههم وكأنها قدت من الخشب وأفواههم المفتوحة تنبئ بدهشة مقيمة.

وفجأة ظهر سفيدريكايلوف بين الجمهور المحتشد. نظر إليه راسكو لنيكوف ذاهلاً وهو لا يدرك كيف وجد هنا ومن أين جاء. وتحدث بعضهم عن استدعاء الطبيب والقس فأمر الموظف أن يؤتى بهما رغم أنه همس في أذن راسكو لنيكوف بعبث المحاولة وعقمها. ومضى كابير ناؤوموف ينفذ الأمر.

بدت كاترين إيفانوفنا هادئة قليلاً، وانقطع النزيف مؤقتاً. ألقت نظرة أليمة ثاقبة على سونيا المسكينة التي كانت شاحبة مرتعدة، تمسح العرق الذي كان ينثال على جبينها ثم طلبت أن ترفع قليلاً في مكانها فأجلسوها على السرير بعد أن أسندوها من كل جانب.

سألت بصوت ضعيف:

ـ الأولاد... أين الأولاد؟ هل أتيت بهم يا سونيا؟ أوه! السخفاء!... لمَ فررتما إذن؟... أوه!...

كان الدم يغطي شفتيها الجافتين. سرحت الطرف حولها ثم قالت:

ـ هكذا إذن تعيشين يا سونيا! إنني لم أدخل إلى مسكنك من قبل أبداً... كان ينبغي من أجل ذلك...

ونظرت إليها نظرة مفعمة بالإشفاق والحنان:

ـ لقد استثمرناك يا سونيا... بوليا، لينيا، كوليا، تعالوا هنا... ها هم يا سونيا... خذيهم كلهم... إنني أودعهم بين أيديك... ها! دعوني، دعوني أموت مرتاحة...

وسقط رأسها على الوسادة.

ـ ماذا؟ قسيس؟... لا حاجة... هل لديكم روبل زائد؟... إنني لا أحمل خطايا على ضميري... وحتى لو كنت مخطئة فيجب أن يغفر لي اللّه... إنه يعلم كم تألمت! وإذا لم يغفر، لعمري لا أبالي!

استولى عليها هذيان محزن راح يزداد باضطراد. كانت تنتفض أحياناً فتنظر حولها وتتعرف على الوجوه خلال دقيقة لكنها لا تلبث أن تسقط في هذيانها من جديد بعد فترة الصحو والإشراق، كان تنفسها صعباً أليماً، وكان يتعالى من حنجرتها صوت أشبه بالحشرجة.

صاحت وهي تتوقف بعد كل كلمة:

ـ قلت له يا صاحب السعادة! آه! هذه الـإميلي لوديكوفنا!... لينيا، كوليا، ضعا أيديكما على وسطيكما. اسرعا، أسرع من هذا، تحركا، صححا الخطى! اقرعا كعبيكما... كن طفلاً وديعاً! ما هي تلك الأغنية؟ آه! هذا ما يجب غناؤه.

وراحت تغني بالألمانية أبياتاً لهنري هايني[1] ثم مقطعاً لـ«ليرمونتوف».[2]

آه! كم أحببت هذا! لقد كنت أعيد هذه القصيدة. بوليا، أتعرفين لقد كان أبوك يغنيها لما كنا خطيبين... آه من الأيام! هذا ما كان يجب أن نغنيه! لكن كيف، كيف وقع ذلك؟ لقد نسيتها لكن ذكروني بتلك القصيدة!

كانت شديدة الانفعال والاضطراب تحاول النهوض. وأخيراً رفعت عقيرتها بصوت مخيف أجش محطم وراحت تغني وهي تصرخ صرخة وتشهق بشدة بعد كل كلمة بينما راح وجهها يعبر عن رعب متزايد:

تحت نيران الظهيرة

في وادي داغستان

والرصاص في الصدر...

زمجرت وهي تنتحب نحيباً يمزق القلوب وقد تفجرت الدموع من عينيها:

ـ يا صاحب السعادة! احم اليتامى! إكراماً لذكرى الضيافة التي حصلت عليها لدى المرحوم سيميون زاخاريتش... بل يمكن القول أرستقراطية! آه!...

وانتفضت انتفاضة عنيفة وهي تحاول تذكر شيء وفجأة راحت تتأمل بذعر وجوه الموجودين لكنها عرفت من بينهم سونيا على الفور فهتفت بصوت حان رقيق وكأنها دهشت لرؤيتها أمامها:

(1) هنري هايني: شاعر ألماني ولد في دوسلدوف، له قصائد كثيرة، مفعمة بالعواطف وله إنتاج بالفرنسية والألمانية 1856 - 1897. - المترجم -.

(2) ميخائيل إيوربيفتش ليرمونتوف: 1841 - 1814 ولد في موسكو. - المترجم -.

ـ سونيا! سونيا! عزيزتي سونيا إنك أنت الأخرى هنا:

أجلسوها من جديد. فصرخت بيأس وحقد:

ـ كفى!... لقد آن الوقت! الوداع!... إن الفرس الهزيلة تنفق!...

وتهاوى رأسها على الوسادة...

سكنت قليلاً غير أن تلك اللمحة من الهدوء لم تدم طويلاً. اندفع وجهها المصفر الملطخ إلى الوراء. وانفتح فمها واستطال ساقاها بحركة تشنجية ثم زفرت زفرة عميقة وسكنت...

ارتمت سونيا على جثتها وأحاطتها بذراعيها وضغطت رأسها على صدر المتوفاة بألم بينما جلست بوليا عند قدمي أمها وراحت تقبلهما وتغسلهما بدموعها. أما كوليا ولينيا اللذان ما كانا يفهمان بعدُ شيئاً مما وقع فقد ارتمى كل منهما بين ذراعي الآخر وشخصا بأبصارهما إلى بعضهما وفغرا فاهيهما وشرعا يبكيان. كان كلاهما في ألبسته: ألبسة المهرجين وأحدهما معمم والآخر يضع على رأسه قلنسوة غرزت فيها ريشة نعام.

لم يعرف أحد كيف وصلت الشهادة الفخرية العتيدة فجأة إلى السرير بجانب كاترين إيفانوفنا؟ لقد كانت موضوعة على الوسادة، ورآها راسكو لنيكوف.

انسحب راسكو لنيكوف إلى النافذة فتبعه ليبيزيا تنيكوف مسرعاً وقال:

ـ لقد ماتت.

وهنا تقدم سفيدريكايلوف:

ـ ياروديون رومانوفيتش! عندي كلمتان مستعجلتان أقولهما لك.

فانسحب ليبيزيا تنيكوف متسللاً تاركاً مكانه لسفيدريكايلوف فجاء هذا وأخذ بيد راسكو لنيكوف المشدوه وانتحى به جانباً:

ـ إن كل هذه الأشياء وأقصد، المأتم وما يليه أتعهدها على حسابي ولسوف يكلفني هذا مالاً ولكنني ذكرت لك من قبل أن عندي من المال ما لا حاجة بي إليه. أما الطفلان وبوليا فلسوف أدخلهم إلى ميتم حيث تحسن معاملتهم وسأضع باسم كل منهم ألفاً وخمسمائة روبل حتى يبلغوا سن الرشد وذلك لكي تطمئن صوفي سيميونوفنا. ثم إنني سأنتشل هذه أيضاً من الرغام لأنها فتاة باسلة، أليس كذلك؟ حسناً. يمكنك أن تحدث أفدوتيا رومانوفنا بالشكل الذي تصرفت فيه بروبلاتها العشرة آلاف.

سأل راسكو لنيكوف:

ـ ما هي نواياك التي تهدف إليها من وراء هذا الكرم؟

فأجاب سفيدريكايلوف بضحكة صغيرة:

ـ آه!آه! يا لك من رجل حذر! ألم أقل لك إن هذا الحال غير ذي نفع لي؟ إنك لا تتقبل أن أتصرف كرجل فحسب؟ حسناً. إن هذه ـ وأشار إلى الزاوية التي كانت كاترين إيفانوفنا مسجاة على السرير فيها ـ إنها لم تكن «هواماً» كما كانت ذات عجوز مرابية. هيا قل لي هل من الأفضل أن يكون «لوجينٌ حياً يرتكب آثامه أو تكون هي التي تموت؟» ثم إنني إذا أمسكت مساعدتي فإن «بوليا مثلاً ستكون مضطرة إلى سلوك السبيل الذي سلكته أختها».

نطق بهذه الكلمات بلهجة تشوبها السخرية دون أن يفارق راسكو لنيكوف بعينيه. فشحب هذا وشعر ببرودة تكتسح جسمه وهو يصغي إلى التعابير التي استعملها بنفسه في حديثه مع سونيا. تراجع فجأة وألقى على سفيدريكايلوف نظرة شرسة وغمغم بصوت مختنق:

ـ كيف... تعرف هذا...؟

ـ لكنني أقطن هنا في الجانب الآخر من هذا الجدار، عند السيدة ريسليش، إن هذا هو مسكن كابير ناؤوموف وهناك مسكن السيدة ريسليش وهي صديقة قديمة لي مخلصة كل الإخلاص. إنني جار.

ـ أنت؟

استرسل سفيدريكايلوف وهو يتلوى من الضحك:

ـ أنا. وأستطيع أن أؤكد لك بشرفي يا عزيزي روديون رومانوفيتش العزيز أنك اجتذبت اهتمامي بشكل مدهش. لقد قلت لك من قبل أننا سنتفاهم. لقد تنبأت لك بهذا. حسناً، ها قد تفاهمنا. ألا ترى الآن أنه يمكن العيش معي...؟

القسم الثالث

الفَصْلُ الأوّل

مضى على راسكو لنيكوف حين من الزمن قضاه وكأن غمامة كثيفة حجبته وعزلته عن العالم، فعاش في وحدة ثقيلة لا خلاص منها وعندما ـ بعد زمن طويل ـ تذكر هذه الفترة من الزمن أدرك أن أحاسيسه كانت خامدة وأنه أمضى على ذلك الحال كل أيامه التي سبقت الفاجعة الأخيرة باستثناء إشراقات نادرة كانت تلمع في أفق فكره المظلم، اقتنع تماماً بأنه خلال تلك الفترة الزمنية أخطأ في كثير من الأمور وبصورة خاصة في تحديد تواريخ بعض الأحداث ومُددها. وعلى ذلك فقد راح ـ وهو يتذكر فيما بعد أو يحاول تفسير ما كان يتذكره ـ يلجأ إلى شهادات غريبة عنه ليتأكد من كثير من الوقائع المتعلقة بشخصه. فكان يخلط مثلاً حادثاً بآخر أو يعتبر واحداً نتيجة لآخر لا وجود له إلا في مخيلته. وكان قلقه يستولي عليه أحياناً فيستسلم له حتى ينقلب ذلك القلق إلى لون من الذعر القاتل. كذلك فقد تذكر أنه مرت عليه دقائق وساعات بل وأيام كاملة كان يقضيها غارقاً في لون من الجمود والتبلد الشبيه بذلك النفور الكالح الذي يعتري كثيراً من المحتضرين. ذلك المجهود الذي كان يحس به عقب مخاوفه الأولى. وعلى العموم فإنه كان يتحاشى في ـ الأيام الأولى ـ التطلع إلى حقيقة موقفه. وكان عدد من الوقائع الشائعة في الحياة اليومية التي تتطلب معالجة سريعة تخلق في نفسه نوعاً من الضيق والوساوس لكنه كان يشعر بشيء

من السرور عند إهماله بعض الاحتياطات التي كان إهمالها يستطيع أن يجر ـ وهو في ذلك المركز ـ نتائج سيئة جداً...

كان سفيدريكايلوف يخيفه أكثر من أي كان. حتى يمكن القول أن انتباهه كله كان مركزاً فيه. لقد تبدل سير أفكار راسكو لنيكوف الطبيعي منذ ذلك اليوم الذي كرر فيه سفيدريكايلوف أقواله الواضحة ـ التي لم تشكل تهديداً كبيراً بالنسبة إليه ـ في حجرة سونيا أمام السرير الذي سُجيت عليه كاترين إيفانوفنا للمرة الأخيرة. لقد أصبحت أفكاره بعد ذلك مضطربة مشوشة، لكنه لم يحاول إيضاح القضية بسرعة رغم أن ذلك العنصر الجديد فيها كان يقلقه ويزعجه. كان أحياناً يجد نفسه فجأة في مكان ما من ضاحية بعيدة، جالساً إلى مائدة في أعماق حانة حقيرة، وحيداً غارقاً في تأملاته لا يذكر كيف آل الأمر به إلى ذلك المكان. فكان يفكر فجأة بسفيدريكايلوف. كان يشعر عندئذٍ بجلاء ووضوح أنه ينبغي له أن يقابل هذا الرجل بأسرع ما يمكن وأن ينتهي منه بالسرعة الممكنة. وذات مرة بينما كان يتنزه وراء الحواجز بلغ به الخيال أن تصور أنه كان ينتظر سفيدريكايلوف بناء على موعد بينهما في ذلك المكان. ومرة أخرى استيقظ فجراً فوجد نفسه نائماً على الأرض وسط غابة صغيرة حار في معرفة كيفية بلوغه إليها ونومه فيها. وقد أتيحت له خلال الأيام الثلاثة التي أعقبت موت كاترين إيفانوفنا أن يلتقي مرتين بسفيدريكايلوف. وكان ذلك في مسكن سونيا حيث كان يذهب إلى هناك دون أي هدف اللّهم إلا قضاء لحظة خاطفة عندها. تبادل معه خلال تينك المقابلتين بضع كلمات وقد زهد كلاهما في التطرق إلى بحث النقطة الجوهرية وكأن اتفاقاً مضمراً كان يقوم بينهما يقضي بعدم بحث هذه المسألة إلا في الوقت المناسب. وكان جثمان كاترين إيفانوفنا لا يزال في تابوته هناك وكان سفيدريكايلوف يصدر

التعليمات المتعلقة بشؤون الدفن. وكانت سونيا شديدة المشاغل في ذلك الحين وقد بين سفيدريكايلوف لراسكو لنيكوف خلال المقابلة الثانية أن الترتيبات التي اتخذها بخصوص أطفال المتوفاة قد أثمرت بفضل بعض الاتصالات التي مهدت سبيل مقابلة بعض الشخصيات وهؤلاء استطاعوا إيواء الأيتام الثلاثة في ملجأ مناسب جداً يساعدهم في ذلك المال الذي أودع باسمهم. لأنه تأكد أن كثيراً من الملاجئ المحترمة تقبل الأطفال الذين يملكون رؤوس أموال صغيرة بسهولة شديدة خلافاً لأولئك الذين يحلون دون أي سند مادي. وتحدث عن سونيا حديثاً خاطفاً ووعد بالحضور ذات يوم إلى مسكن راسكو لنيكوف ملمحاً إلى أنه لا يرغب من صميم قلبه استشارته وأن يتفق معه بالسرعة القصوى حول بعض المسائل... جرى ذلك الحديث في الردهة وكان سفيدريكايلوف يحدق في عيني راسكو لنيكوف طيلة الوقت. وفجأة سأله وهو يخفت من صوته:

ـ لكن ماذا بك يا روديون رومانوفيتش؟ إنك تبدو إنساناً آخر... حقيقة إنك تصغي وتنظر ولكنه لا يبدو عليك إنك تفهم ما يقال لك، هيا، ينبغي أن نتحدث معاً، غير أنني شديد الأسف لأنني جم المشاغل في الوقت الحاضر، إنها مشاغل الآخرين ومشاغلي معاً...

ثم أضاف فجأة:

ـ إن الرجال بحاجة إلى الهواء يا روديون رومانوفيتش... الهواء، الهواء قبل كل شيء!...

ثم تنحى جانباً ليسمح للقس وتابعه بالمرور، لأنهما كانا على وشك ارتقاء السلم على جري عادتهما منذ وفاة كاترين إيفانوفنا. إذ كان سفيدريكايلوف قد رتب الأمور بحيث يحضرا مرتين كل يوم للترتيل عن

روحها بانتظام منذ وفاتها. ولم يلبث راسكو لنيكوف بعد تفكير وانتظار أن سار يتبعهما إلى غرفة سونيا.

لبث واقفاً في فتحة الباب يرقب القداس الروحي الذي كان قد بدأ منذ حين بهدوء وتبجيل يوحيان بالحزن. كان راسكو لنيكوف منذ نعومة أظفاره، يشعر برعدة صوفية أمام ذكرى الموت والتفكير فيه. أضف إلى ذلك أنه لم يحضر منذ أمد طويل أي أحتفال ديني جنائزي. لكنه في هذه المرة أحس بتلك الرعدة ممزوجة بشعور من الارتباك والاضطراب والذعر لم يحس بأشد منها وقعاً من قبل! كان الأطفال الثلاثة راكعين قرب التابوت وكانت بوليا تبكي بينما وقفت سونيا تصلي بصوت خافت وهي تحاول إخفاء دموعها. فكر راسكو لنيكوف في نفسه: «إنها لم تنظر إلي مرة واحدة خلال هذه الأيام الأخيرة ولم توجه إلي كلمة واحدة».

كانت الشمس تغمر الغرفة بضوء قوي ودخان المبخرة يرتفع متصاعداً إلى السقف والقس يرتل صلاة جنائزية... لبث راسكو لنيكوف في مكانه حتى نهاية الترتيل، فلما انتهى القس من مهمته وبارك الجثمان نظر حوله غريبة وانسحب. فاقترب راسكو لنيكوف من سونيا. أمسكت هذه بيديه فجأة وأراحت رأسها على كتفه فكان لتلك الحركة الودية اللطيفة أثرٌ عنيفٌ في نفس راسكو لنيكوف جعله يستغرق في أعماق الدهشة. كيف؟ لا تشعر إزاءه بأي مقت؟ ألا تحس بالفزع منه؟ إن يديها ثابتتان لا ترتجفان! لقد كان ذلك لوناً من ألوان التفاني الشخصي! أو أنه فسره على هذا النحو. لم تنبس سونيا بكلمة واحدة. فضغط راسكو لنيكوف على يديها وخرج. كان يحس بإرهاق فظيع وود لو استطاع الذهاب إلى أي مكان وبأسرع ما يمكن ليجد نفسه في وحدة كاملة مدى الحياة. إذن لشعر بسرور وراحة. لأنه لم يكن يشعر مطلقاً أنه وحيد حقاً رغم أنه قضى وقته

في الآونة الأخيرة دون أن يؤنس وحدته أحد. وكثيراً ما كان يبارح المدينة ويبلغ الطريق الخاوية. بل إنه توغل مرة في غابة لكن تلك الأمكنة كانت رغم وحشتها وبعدها والوحدة التي تشملها تشعره شعوراً قوياً بوجود كئيب غامض يحس معه بشيء من الرعب يزعزع ثقته. فكان يبادر مسرعاً إلى العودة إلى المدينة فيختلط بالجماهير ويدخل الحانات والمشارب أو يأوي إلى الأسواق «سوق البراغيث» أو «سوق العلف» فيشعر هناك براحة ما ويحس بالاستئناس. وذات مرة، في دكان شواء. كانت الأغاني تتعالى ذات مساء فأمضى ساعة يصغي إليها وهو يحدث نفسه بأنه يشعر بسرور عظيم في الإصغاء، غير أن اكتئابه سرعان ما عاوده: كان ذلك الاكتئاب لوناً من تبكيت الضمير ينخر قلبه. فراح يفكر في نفسه قائلاً: «إنني هنا جالس أصغي إلى الأغاني! لكن هل هذا هو حقيقة ما يجب علي ضنعه؟»... وسرعان ما أدرك أن سبب اكتئابه وانزعاجه كان وجوب الفراغ من قضية ما بأسرع ما يمكن. أما ما هي تلك القضية؟ فذلك ما كان يحار في معرفته: لم يكن يستطيع التعبير عن تلك الفكرة ولا بكلمة. كان كل شيء يدور في رأسه مدوياً متشابكاً «كلا، من الخير لي أن أناضل! من الخير أن أجابه بورفير... أو سفيدريكايلوف نعم! نعم! من الخير استقبال تحدٍّ جديد أو هجوم جديد» وهرع يغادر دكان الشواء.

كان تفكيره بدونيا وبأمه يسبب له مبعثاً. وفي تلك الليلة استيقظ عند الفجر في غياض جزيرة «كريستوفسكي» وهو يرتعد من الحمى فنهض يسعى إلى «حجره» حيث بلغه في الصباح الباكر جداً، فنام بضع ساعات تخلص من الحمى بعدها. ولما استيقظ كانت الساعة الثانية بعد الظهر. تذكر أن تشييع جثمان كاترين إيفانوفنا سيكون في ذلك اليوم فاغتبط لأنه لم يساهم فيه. ولما أتت له ناستاسيا بطعامه، أكل بشهية كبيرة بل وبشره.

فشعر ببعض الهدوء وبحرارة رأسه تنخفض وأدهشه أن يكون قد أمضى أيامه الثلاثة الأخيرة فريسة ذلك الذعر القاتل الذي لم يكن يحس به في تلك اللحظة. وفتح الباب ودخل رازوميخين.

قال رازوميخين وقد جلس على مقعد قبالة راسكو لنيكوف:

ـ هه! إنه يأكل وإذن فإنه غير مريض.

كان رازوميخين شديد الانفعال فاشلاً في إخفاء انفعاله وكان يتكلم بلهجة مفعمة بالسخط لكن صوته كان منخفضاً وكلماته بطيئة حتى ليقال إنه كان يخفي نية معينة ذات طابع خاص.

استرسل بقوله بلهجة حازمة:

ـ اسمع. ليحملكم الشيطان جميعاً. إنني أرى الآن وأرى بوضوح تام أنني لا أفهم من أمركم شيئاً! أرجو أن لا تعتقد بأنني جئت أطرح عليك أسئلة. إنني لا أبالي بهذا بل إنني أمتنع عنه بنفسي. لكنني جئت لهدف واحد وهو محاولة الاطلاع شخصياً وبشكل نهائي عما إذا كنت حقيقة مجنوناً أم لا؟ لأن هناك بعض الناس ـ ولا يهمك معرفتهم يعتقدون بأنك مجنون حقاً أو على الأقل بأنك على وشك الجنون. بل وأصرح لك بأنني كنت ميالاً بنفسي إلى تأييد هذه النظرية بسبب سلوكك المضحك وتصرفاتك التي لا تخلو من بشاعة ولؤم لا يمكن تفسيرهما، وأخيراً بسبب تصرفك الأخير حيال أمك وأختك. إذ ينبغي أن يكون المرء وحشاً أو نذلاً إن لم يكن مجنوناً حتى يتصرف حيالهما كما تصرفت. وإذن فإنك مجنون...

ـ متى رأيتهما لآخر مرة؟

ـ تواً. وأنت، ألم تعد لرؤيتهما؟ هل أثرت من جديد؟. قل لي أرجوك لأن هذه هي المرة الثالثة التي أحضر فيها إليك. إن أمك مريضة منذ البارحة

مرضاً جدياً. وقد أرادت أن تحضر لتراك رغم محاولات أفدوتيا رومانوفنا التي حاولت ثنيها عن عزمها عبثاً. كانت تقول: «إذا كان ولدي مريضاً أو كان عقله مختلاً فمن الذي يعنى به إن لم تكن أمه؟» وقد جئنا جميعاً إلى هنا لنتحاشى خروجها منفردة. وعملنا كل ما في وسعنا طيلة المدة التي استغرقناها في الطريق على تهدئة خاطرها. فدخلنا وإذا بغرفتك خالية. وقد جلست أمك هنا تماماً ولبثت عشر دقائق ونحن واقفان بجانبها صامتين. وبعدئذٍ نهضت وقالت: «طالما أنه ليس في غرفته فإن ذلك معناه أنه ليس مريضاً بل إنه قد نسي أمه. وعليه فإنه من غير اللائق بل ومن المخجل بالنسبة إلي أن أبقى على عتبة بابه أستجدي ملاطفاته وكأنها إحسان...» وعادت إلى غرفتها واستلقت على السرير وهي الآن تشكو من الحمى. إنها تقول: «إنني أرى بوضوح أنه يجد من الوقت ما يكرسه لصحبة صديقته...» إنها تعتبر أن صوفي سيميونوفنا خطيبتك أو عشيقتك أو لست أدري ماذا. فذهبت إلى دار صوفي سيميونوفنا لأنني أردت يا عزيزي أن أريح ضميري، ولكن ماذا وجدت؟ وجدت تابوتاً وأطفالاً يبكون حوله. بينما صوفي سيميونوفنا تلبسهم ثياب الحداد! ولم تكن أنت هناك فألقيت نظرة واعتذرت وخرجت لفوري قاصداً مسكن أفدوتيا رومانوفنا حيث نقلت لها مشاهداتي. وهنا قام افتراض غريب عجيب وهو أنك لا تكرس الوقت لخطيبة أو عشيقة وإذن فإنك مجنون. لكنني أراك الآن تفتك بلحم البقر المسلوق وكأنك لم تأكل منذ يومين. صحيح أن المجانين أنفسهم يأكلون ولكن على الرغم من أنك لم تتفوه بعد بكلمة، فإنني واثق بأنك لست مجنوناً! بل وإنني على استعداد لوضع يدي في النار إذا ثبت عكس ذلك. وعلى هذا فإنني أبعث بكم جميعاً إلى الشيطان لأن في الأمر سراً لا أفهمه ولست على استعداد لتحطيم رأسي بأسراركم.

وصمت برهة ثم أردف:

ـ لقد جئت لأتشاجر معك ليس أكثر، لأن ذلك يريحني ويخفف ما في نفسي والآن فإنني أعرف ما يجب أن أعمل.

ـ ماذا تريد أن تعمل؟

ـ وهل يعنيك ذلك؟

ـ انتبه... إنك تريد أن تثمل؟

ـ كيف... كيف خمنت؟

ـ هل في ذلك شيء من الذكاء؟

لبث رازوميخين فترة واقفاً صامتاً وفجأة انفجر قائلاً:

ـ لقد أثبت دائماً ذكاءك المتوقد. إنك لم تكن مجنوناً أبداً. نعم. أريد! أن أثمل. الوداع!

وتقدم خطوة نحو الباب.

قال راسكو لنيكوف:

ـ لقد حدثت أختي عنك أول أمس يا رازوميخين!

توقف رازوميخين وقد شحب وجهه قليلاً وسأل:

ـ عني؟

كان واضحاً أن وجيب قلبه أضحى قوياً في صدره!

ـ لقد جاءت إليّ وحدي وجلست على هذا المقعد وتحدثت معي.

ـ هي؟

ـ نعم هي.

ـ ماذا قلت لها؟... أقصد ماذا قلت لها عني؟

ـ قلت لها إنك غلام ممتاز نبيل ودؤوب، ولم أقل لها إنك تحبها لأنها تعرف ذلك.

ـ تعرف؟

ـ يا للسؤال! أينما مضيتُ ومهما حصل ينبغي أن تلبث ساعدهما وحاميهما. إنني أودعك إياها يا رازوميخين. وأقول لك ذلك لأنني عارف بمدى حبك لها، وأثق من نقاء عواطفك ونبلها ثم إنني واثق من أنها تستطيع محبتك إن لم تكن قد أحبتك، والآن لك أن تقرر إذا كان من الخير أن تذهب لتثمل.

ـ روديا ألا ترى... حسناً... آه... يا للشيطان... وأنت إلى أين تمضي؟ انتبه: إذا كان كل ذلك سراً فليكن! لكن... لسوف أعرف هذا السر أخيراً... أنا واثق من أن الأمر متعلق بإحدى الحماقات أيضاً، بلون من الهذر المريع، ثم إنك أحسن الناس، أحسنهم!

ـ أردت أن أضيف شيئاً إلى قولي ولكنك قاطعتني وذلك الشيء الذي أردت إضافته هو: لقد كنت على صواب منذ حين حينما قلت بأنك لن تحاول معرفة تلك المعميات والأسرار. دعها في الوقت الحاضر واهدأ. لسوف يكتشف كل شيء في حينه. لقد قال لي أحدهم البارحة: إن الإنسان يلزمه هواء، هواء! وإنني ذاهب إليه لأسأله عما يقصد بتلك الكلمة!

كان رازوميخين واقفاً يفكر وقد انطبعت تقاطيع وجهه بمسحة من الكآبة وبدا كأنه يتدبر أمراً.

حدث نفسه قائلاً: «إنها مؤامرة سياسية ولا شك! وهو على وشك القيام بخطوة حاسمة. نعم إنه لكذلك! لا يمكن أن يكون غير ذلك... ولا شك أن دونيا تعرف ذلك».

أضاف بصوت مرتفع وهو يهز كلماته:

ـ إذن إن دونيا تأتي إليك وتريد أنت أن ترى الرجل الذي تحدث عن مزيد من الهواء و... وعلى ذلك فإن تلك الرسالة... إنها من ذلك الرجل.

كان في صوته شيء من الشراسة. فسأل راسكو لنيكوف:

أية رسالة؟

ـ لقد تلقت اليوم رسالة أزعجتها كل الإزعاج بل إنها أفزعتها. فألمحتُ إليك لكنها رجتني أن لا أحدثك بشيء، ثم... ثم قالت: إننا قد نفترق زمناً طويلاً وراحت تشكرني بحرارة ثم انسحبت إلى غرفتها وحبست نفسها فيها.

سأل راسكو لنيكوف بلهجة حالمة:

ـ لقد تلقت رسالة؟

ـ نعم! رسالة. هل كانت تجهل ذلك؟ همْ؟

صمت كلاهما.

ـ وداعاً يا روديون. ألا ترى يا عزيزي... أنه خلال زمن ما... على كل حال، الوداع! لقد مضى زمن... هيّا الوداع! عليّ أن أذهب أنا الآخر. لن أشرب. إذ ما فائدة ذلك الآن؟...

وانسحب مسرعاً لكنه ما كاد يتوارى وراء الباب ويغلقه حتى عاد وفتحه فجأة وقال وهو يلقي نظرة مختلسة جانبية:

ـ على فكرة، أتذكر تلك الجريمة، تلك التي كان لها علاقة ببورفير، مقتل العجوز؟ إذن اعلم أن القاتل قد عرف! ولقد اعترف مقدماً بكل الأدلة.

تصور أنه واحد من ذينك العاملين الدهانين وأنا ـ ولعلك تذكر ـ نصبت من نفسي حامياً لهما! هل تصدق أن ذلك المشهد، مشهد الشجار مع صديقه وضحكاتهما وقهقهاتهما على السلم عندما كان الآخرون يصعدون وأقصد البواب والشاهدين، حسناً لقد وضع كل ذلك بنفسه لسبب واحد وهو إيجاد دليل نفي. يا له من سفاك خبيث حاضر الذهن! إن المرء ليصعب عليه تصديق ذلك لكنه هو الذي قدم كل تلك الاعترافات بصدق، تدعمه الأدلة! لقد كنت بنفسي مخدوعاً! في رأيي أن ذلك ليس إلا عبقرية التمويه والتفكه. إنها عبقرية إيجاد دليل النفي. على ذلك فليس في الأمر ما يدهش أكثر من الدهشة العادية! إذ هل يصعب وجود مخلوقات عبقرية مماثلة على الأرض؟ إنما يدهشني أن لا يستطيع الاستمرار في تمثيل دوره حتى النهاية. إن ذلك يدهشني. بل إن الأمر أقرب إلى المعقول!. مع ذلك فقد خُدعت ورحت أدافع عنهما بحماسة عنيفة.

سأل راسكو لنيكوف بادي الانفعال:

ـ قل لي أرجوك كيف اطلعت على هذا؟ ولمَ يثير في نفسك مثل هذا الاهتمام؟

آه! لمَ يثير هذا اهتمامي؟ يا للسؤال! لقد أطلعني بورفير على ذلك بنفسه كما أطلعني على أشياء أخرى.

ـ بورفير؟

ـ نعم!

سأل راسكو لنيكوف مذعوراً:

ـ ماذا قال لك إذن... ماذا قال...؟

ـ لقد فسر لي الأمر بأسلوب ممتاز. لقد فسره نفسانياً على طريقته!

ـ لقد فسره لك؟ أهو نفسه الذي فسره لك؟

ـ هو نفسه، هو نفسه. الوداع! لسوف أقص عليك أمراً آخر في المستقبل أما الآن فإنني على عجلة من أمري. هناك... مرت فترة فكرت فيها... لكن ماذا. سأقص عليك في المستقبل... لمَ سأثمل الآن. لكنك أسكرتني دون كحول. لأنني ثمل يا روديا. ثمل دون أن أكون قد شربت. الوداع. سوف لن أتأخر في العودة وخرج.

وبينما كان رازوميخين يهبط السلم ببطء راح يقول في نفسه: «إن هذه ليست إلا مؤامرة سياسية ولا شك. وبكل تأكيد! لقد استطاع أن يدمج أخته فيها والأمر على غاية من السهولة بسبب عقلية أفدوتيا. إنهم على مواعيد... ألم تلمح لي بذلك؟... إن كل تلك الكلمات الصغيرة... تلك التنويهات... ذلك التلميح... تثبت كلها هذا الرأي! وإلا فكيف يمكن تفسير كل هذا الغموض يعتبر ذلك؟ همْ! وأنا الذي فكرت... رباه! ما هذا الذي حشرت رأسي به؟ نعم لقد أسأت إليه في سري! بل إنه أوحى إليَّ بذلك لما كنت قرب المصباح ذلك المساء. بواه! يا للفكرة القبيحة الدنيئة التي خطرت لي! إن اعترافات نيكولا جاءت في حينها. والآن أصبح كل ما وقع قبلها واضحاً: فالمرض الذي عانى منه وتصرفاته الغريبة العجيبة حتى ما سبق منها هذه الفترة، بل ومنذ أن كان في الجامعة، وعقليته وصحته وكآبته... لكن ما معنى هذه الرسالة الآن؟ هل هناك شيء وراءها؟ من أين تلك الرسالة؟ إنني أشك... همْ! سوف أعرف نهاية هذه القضية».

راحت أفكاره وذكرياته تتجه نحو دونيا فأثلج صدره وأحس بالذهول غير أنه سرعان ما انتزع نفسه منه وتابع السير.

لم يكد رازوميخين يخرج من الغرفة حتى نهض راسكو لنيكوف

واقترب من النافذة وراح يسير من زاوية غرفته إلى الأخرى وكأنه نسي الأبعاد التي بينها ثم عاد فجلس على الأريكة. بدا مخلوقاً جديداً، لأن رغبة النضال قد عادت إليه لذلك فقد اكتشف مخرجاً جديداً!

«نعم. هذا أخيراً مخرج!» لقد كان شديد الضيق، ملتصقاً بالجدار، يختنق حتى ليخيل للناظر إليه أن شيئاً يجثم على صدره منذ الحادثة الأخيرة: حادثة نيكولا عند بورفير. وفي اليوم الثاني كانت حادثة أخرى تنتظره عند سونيا. حادثة لم يجل بعد غوامضها... لقد كان ضعيفاً جداً حتى أنه اعترف بكل شيء، فانهار دفعة واحدة إلى لا قيام، لأنه اعترف أخيراً أمام سونيا، اعترف من صميم قلبه، بأنه لم يستطع الاستمرار على الحياة وهو يحمل وحده مثل ذلك العبء! وسفيدريكايلوف؟ لقد كان سفيدريكايلوف لغزاً... كان سفيدريكايلوف يزعجه حقاً ولكن على شكل آخر مختلفاً تماماً. بل لعله كان مرغماً على النضال ضد سفيدريكايلوف هذا، ولعله هذا سيكون له مخرجاً آخر. أما بورفير فإن أمره يختلف.

كان راسكو لنيكوف خلال الأيام الأخيرة قد تصور باستمرار المشهد الذي كان له مع بورفير غير أنه ما كان يستطيع احتمال تلك التفاصيل كلها لو أنها عُرضت في خياله دفعة واحدة. راح يحدث نفسه:

وعلى ذلك إذن فإن بورفير نفسه هو الذي فسر كل شيء لرازوميخين وفسره له على الطريقة النفسانية! دائماً تلك الطريقة اللعينة! لكن هو، بورفير؟ كيف فسرَّ الأمر حتى آمن دقيقة واحدة بتجريم نيكولا؟ ليس هناك إلا تفسير واحد: لقد قيلت بعض كلمات أشفعت بعدد من الحركات، ووقعت تصرفات وتبودلت نظرات خاصة، وتحدثا فترة بلهجة معينة وإذن فإن نيكولا ليس هو الذي يجعل بورفير يبدل من قناعته، خصوصاً وأن بورفير فضح ذلك منذ كلمات نيكولا الأولى».

«أرأيت! لقد بدأ رازوميخين نفسه يشك في الأمر، وإذن فإن الموقف الذي وقع لي معه قرب المصباح ذلك المساء لم يغب عن نظره تماماً! فهل مضى عقب ذلك إلى بورفير؟ لكن لمَ سخر منه هذا الأخير على هذا الشكل؟ ماذا كان هدفه حينما وجه ظنون رازوميخين ضد نيكولا؟ لا شك أن لديه فكرة ما لكن ما هي تلك الفكرة؟ منذ ذلك الصباح وبورفير لم يحرك ساكناً رغم مرور كل هذا الوقت. إن هذا ليس فأل خير...».

أخذ راسكو لنيكوف قبعته بعد تفكير قصير وغادر الغرفة. كانت هذه أول مرة منذ أيام شعر خلالها بأنه يتمتع بوعيه الفكري كاملاً. فكر في نفسه: «ينبغي أن أنهي من سفيدريكايلوف مهما كلف الأمر وبأسرع ما يمكن، إنه على ما أعتقد ينتظر كذلك أن أذهب إليه من تلقاء نفسي...» كان يشعر في تلك اللحظة بحقد مرير وكره شديد يدميان قلبه حتى أنه كان على استعداد لو أتيح أن يضل واحداً من اثنين، سفيدريكايلوف أو بورفير. بل إنه كان يحس بأنه إذا لم يفعل ذلك الآن فإنه لا شك فاعله في المستقبل لأنه ما فتئ يردد: «لسوف نرى، لسوف نرى».

لكنه لم يكد يفتح باب الممشى حتى اصطدم ببورفير. كان هذا على ما يبدو آتياً لزيارته فاستولى على راسكو لنيكوف ذهول عارض لم يدم أكثر من ثانية. والغريب أنه لم يشعر بمزيد من الدهشة لرؤية بورفير. بل ولم يشعر أيضاً بشيء من الفزع! صحيح أن قشعريرة مرت في جسمه لكنها سرعان ما تبخرت وعاد إليه ثباته واتزانه. تساءل: «أهي الخاتمة؟ لكن لمَ كان يقترب بخطى خفيفة متلصصة كالقط فلم أسمع لخطواته وقعاً؟ كان يسترق السمع وراء الباب؟

هتف بورفير بيتروفيتش مازحاً:

ألم تكن تنتظر زيارتي يا روديون رومانوفيتش؟ لقد كنت أعتزم زيارتك منذ أمد! ولما كنت ماراً بالقرب من هنا فقد قلت لنفسي: لِمَ لا أصعد إليه لخمس دقائق، مجرد زيارة صغيرة، هل كنت على وشك الخروج؟ إنني لن أؤخرك اقبل مني هذه السيجارة.

قال راسكو لنيكوف وهو يقدم مقعداً للزائر ويستقبله ببشاشة وهدوء حتى أنه دهش بنفسه من تصرفاته:

ـ لكن اجلس يا بورفير بيتروفيتش. اجلس.

كانت مشاعره السابقة قد اختفت كلها دون أن يبقى منها أي ظل! وهكذا فإن الإنسان أحياناً يلبث نصف ساعة كاملة فريسة رعب قاتل يوحيه إليه التفكير بأحد اللصوص. لكنه حالما يشعر بالسكين على عنقه تتبخر كل مخاوفه وهكذا جلس راسكو لنيكوف قبالة بورفير وراح ينظر إليه دون أن يرمش بعينيه. فغمز بورفير بعينيه على عادته وأشعل سيجارته ببطء.

وراسكو لنيكوف من أعماق نفسه لو صاح: حسناً تحدث، تحدث لمَ إذن، لمَ أنت صامت لا تتحدث»؟.

الفَصْلُ الثّاني

قال بورفير بعد أن أشعل سيجارته وأطلق من فمه سحابة من الدخان:

ـ آه! هذه السجائر! إنها سم، سم حقيقي لا سبيل إلى الخلاص منه! إنني أسعل منها وأشعر بضيق في حنجرتي أكاد أختنق منه. لقد أقلقني ذلك، وزاد في خوفي، حتى أنني ذهبت أستشير «ب...»، إنه يفحص كل مريض طيلة نصف ساعة كاملة في الحد الأدنى. فلما رآني للوهلة الأولى راح يستهزئ بي وهو يفحصني ويقرع بيده على جسمي وأخيراً قال: «إن التبغ بين عدد آخر من الأشياء يضرّ بك. وإنني أرى تضخماً في رئتيك» نعم. ولكن كيف أعمل على الخلاص منه؟ بأي شيء أستعيض عنه؟ إنني لا أشرب وهنا البلاء! هه هه هه، مصيبة حقيقية أن أكون لا أشرب! إن لكل شيء علاقة بالآخر، ألا ترى ذلك ياروديون رومانوفيتش!

فكر راسكو لنيكوف وهو يشعر بنفور: «هل يزمع العودة إلى مخاتلاته الكريهة؟».

عادت به الذاكرة إلى المواقف التي جرت له معه خلال مقابلتهما الأخيرة وشعر بالغضب الذي أحس به آنذاك يعصف من جديد بقلبه.

أردف بورفير وهو يلقي حوله نظرة شاملة:

ـ لقد أتيت إلى غرفتك أول أمس مساء، ألم تكن تعرف ذلك؟ نعم لقد جئت إلى حجرتك، هنا بالذات كنت أراني ماراً بالقرب من منزلك فقلت لنفسي: «ماذا لو صعدت إليه أعيد إليه زيارته الصغيرة؟» فقعدت وإذا بالباب مفتوح على مصراعيه. فألقيت نظرة وانتظرت دون أن أترك اسمي لدى الخادم. ألا تغلق بابك بالمفتاح؟

راح وجه راسكو لنيكوف يزداد عبوساً. حتى أن بورفير أدرك ما يدور في خاطره. فأردف وعلى شفته ابتسامة خفيفة:

ـ لقد جئت أعتذر يا عزيزي روديون رومانوفيتش. أعتذر! إنني مدين لك باعتذارات وأريد أن أقدمها إليك.

وضرب على ركبة راسكو لنيكوف بحركة ودية وقد علت وجهه مسحة من الكآبة وانشغال الخاطر. فلمس راسكو لنيكوف فيها لوناً من الحزن دهش له، لأنه لم يسبق له أن رأى على وجهه مثل ذلك التعبير من قبل. كان يشك في أن يستطيع قاضي التحقيق تصنع ذلك المظهر. قال:

ـ لقد وقع بيننا حادث غريب يا روديون رومانوفيتش ولم يخل لقاؤنا الأول من مواقف غريبة أيضاً لكن... ما وقع قد وقع! إنني أشعر بأنك تعتبرني مذنباً. لا شك أنك تذكر كيف افترقنا لآخر مرة فقد كانت أعصابك مرهقة تماماً وساقاك لا تحتملانك. أما أعصابي فكانت كذلك متوترة وساقاي متخاذلتين. بل إنني أعترف بأن الأسلوب الذي سارت عليه مقابلاتنا كانت تنقصه السمة الودية مع ذلك فإننا أشخاص مذنبون، ولا ينبغي أن ننسى ذلك. تذكر مع ذلك المدى الذي بلغته الأمور فتجد أنه كان غريباً مهيناً.

تساءل راسكو لنيكوف مذهولاً وهو ينظر في عيني بورفير بجرأة: «ماذا يقصد؟... من يعتقدني؟».

تابع بورفير بيتروفيتش وهو يدير رأسه جانباً ويخفض عينيه وكأنه يخجل من إرباك ضحيته السابقة بنظراته أو كان عازفاً عن اللجوء إلى وسائله وشراك المعتادة:

ـ أعتقد أن من الأنسب لكلينا أن نعمل بصراحة. كلا إن افتراضات ومواقف من ذلك النوع لا ينبغي أن تظل أبداً. لقد جاء نيكولا في المرة الأخيرة فوضع حداً لما كان بيننا. ولولاه لست أدري إلى أي مدى كانت بلغت الأمور. لقد كان ذلك الصانع الملعون مصغياً وراء الباب، هل تتصور ذلك؟ إنك لا تجهل هذه المسألة ولا شك. إنني أعرف أنه جاء إليك حال خروجه من عندي. غير أن الشكوك التي ساورت مخيلتك كانت صحيحة لأنني لم أرسل أي إنسان للتحقق من أي أمر كان. ولعلك تسألني لم لم أعمل ذلك فأجيبك بأن تلك الأقوال قلبت آرائي رأساً على عقب. بل إنني لم أهتم بالبوابين ـ ولقد شاهدتهما بنفسك ـ إلا اهتماماً يسيراً. ومن ذلك فقد كنت أرى يا روديون رومانوفيتش أن قراري قد اتخذ، وكنت أعتقد بأنني إذا أخطأت أمراً فإنني قمين بالعثور على آخر مكانه، وإنني لن أفلت ما أقبض عليه. إنك يا روديون رومانوفيتش ذو طبيعة سريعة التأثر، سريعة الغضب، بل إنك متأثر بهذه الطبيعة أكثر من الحد المعقول إلى جانب الشواذ الأخرى التي تكون عقليتك وعواطفك التي أجرؤ على القول بأنني عرفت قسماً منها. ولا شك أنني حتى تلك اللحظة ما كنت أعتقد أن بالإمكان إيجاد شخص يحدثني بكل ما في نفسه بمحض رضاه واختياره. رغم أن مثل ذلك يحدث عادة إذا كان الشخص قد أنهك باستثناء حالات نادرة جداً. لذلك فقد وضعت هذه النظرية نصب عيني، وكنت أحدث نفسي قائلاً: إنني أكتفي بدليل صغير واحد مهما بلغت تفاهته، دليل أطبق عليه يديّ شريطة أن يكون شيئاً إيجابياً ملموساً، لا علاقة له بالأوضاع النفسانية، لأنني

كنت أحسب أن الرجل إذا كان مجرماً فمن المنطق أن انتظر منه شيئاً ما ايجابياً وملموساً. بل ولي أن أنتظر أكثر النتائج غرابة ومفاجأة. وعلى هذا فقد كنت أعتمد على عقليتك يا روديون رومانوفيتش، نعم كنت أبني على عقليتك آمالاً جسيمة.

غمغم راسكو لنيكوف بسؤال لم يكن يتعمد إلقاءه:

ـ لكن أنت... لمَ تسرد لي الآن كل هذا من هذا الأسلوب؟

وراح يتساءل في سره وقد تاه في عديد من الافتراضات: «ماذا يريد أن يقول؟ هل يمكن أن يعتبرني بريئاً حقاً؟».

ـ لماذا أتكلم على هذا الشكل؟ إنني جئت لأعتذر، بل لأوضح ما اعتبره نوعاً من الواجب المقدس. لقد سردت لك كل هذا من الألف وحتى الياء، كل قصة... منازعتنا الأخيرة كما وقعت. لقد أخضعتك لتجارب قاسية يا روديون رومانوفيتش، لكنني رغم هذا لست وحشاً. إنني أعرف كم كان، ذلك قاسياً صعب الاحتمال بالنسبة لرجل تبهظه الحياة ويحرقه الاعتداد، رجل متسلط نافد الصبر، نعم! خصوصاً نافد الصبر! إنني أعتبرك على كل حال رجلاً ذا قلب يميل بشدة إلى العظمة النفسية رغم أنني مطلع على كل ظروفك ـ وأجد أن من واجبي أن أبين لك هذا فجأة وبكل صراحة لأنني أريد أن لا أخدعك ـ إنني منذ أن عرفتك شعرت بميل نحوك. لعلك تضحك من قولي. إن من حقك أن تضحك. إنني أعرف أنك منذ النظرة الأولى لم تحلني في قلبك. رغم أنه لم يكن في الأمر شيء بعد، لكن ـ ولك أن تعتبر هذا كما يحلو لك ـ أريد بكل الوسائل أن أعرف الشعور الذي أحدثته في نفسك لأثبت لك بأنني ـ رغم كل هذا ـ رجل ذو وجدان وقلب. إنني أحدثك بكل صراحة.

اتخذ بورفير بيتروفيتش مظهراً وقوراً فشعر! راسكو لنيكوف بموجة جديدة من الذعر لأن الفكرة التي نبتت في رأس بورفير الذي بات يعتبره بريئاً أخافته وأزعجته.

وتابع بورفير مسترسلاً:

ـ أعتقد أنه لا مجال لاطلاعك كيف وقع كل هذا من ألفه إلى يائه، بل إنني أظن أن مثل هذا الشرح عديم الجدوى، وأظن أنني لا أجد وسيلة للتعبير عنه بوضوح. إذ كيف يمكن تفسير كل ذلك بشكل توضح فيه الظروف والملابسات؟ لقد راجت شائعات في البداية. لكن من أي نوع كانت تلك الشائعات؟ ومن أين جاءت؟ وكيف بدأت؟... ولأي سبب التصقت بك؟ إنني أعتقد أن البحث فيها غير مرغوب فيه أما أنا شخصياً، فإن ما جذب انتباهي كان الصدفة، والصدفة البحتة، التي كان يمكن كذلك أن لا تقع. والآن ما هي هذه الصدفة؟ همْ! أعتقد أن من الأنسب أن أصمت عن هذا الموضوع أيضاً! كانت تلك الشائعات وتلك الصدفة موضوع البحث تتلاقى عندي في فكرة واحدة! إنني أعترف بصراحة ـ لأنه منذ أن يبدأ المرء بكشف الستر عن خطاياه عليه أن يعترف بها جميعها ـ أنني كنت البادئ في مهاجمتك. لأن ما دونته العجوز على الأشياء المرهونة لديها وكل ما تبع القصة لم يكن إلا حماقات مماثلة، لقد أتيحت لي الفرصة فعرفت حادث قسم الشرطة الذي وقع لك، وكانت الصدفة أيضاً هي التي مهدت لي سبيل معرفة تفاصيل ذلك الحادث. ولم تكن تلك الأقوال قد بلغتني بشكل عرضي، ولكن نقلها إلى شاهد عيان احتفظ بذلك المشهد في نفسه بشكل بارز. فكان هذا بمثابة القلنسوة البيضاء، نعم القلنسوة البيضاء يا عزيزي روديون رومانوفيتش! إذ كيف يجوز أن لا يلتفت قاضي التحقيق إلى جهة ما؟ وهناك مثل إنجليزي يقول: إن مائة أرنب لا تعادل حصاناً،

ومائة شك لا تشكل أدلة! لعمري إنها الحكمة مجسدة. لكن ما العمل مع الرغبات؟ حاول إن استطعت أن تقاوم الرغبات! وقاضي التحقيق ليس إلا رجلاً! ولما تذكرت المقال الذي نشرته في تلك المجلة، أعتقد أنك تذكره، إنه ذلك الذي حدثتني بتفاصيله في المقابلة الأولى ـ رحت أسخر منك في البداية، ولكنه أسلوب لإحراجك وسوقك إلى اعترافات أوسع. وأنت يا روديون رومانوفيتش ـ وأكرر القول ـ نافد الصبر سريع الغضب. ثم إنك إلى جانب ذلك مخاطر مندفع جدي: ولقد تأثرت شديداً: الأمر الذي كنت أشك فيه منذ زمن بعيد. إنني أعرف هذا اللون من الإحساسات. فلما قرأت مقالك خيل إلي أنني أعرفه من قبل. لقد كتبته ولا شك خلال ليال طويلة من الأرق والحمى، كان قلبك خلالها مفعماً مضطرباً عنيف الضربات؛ كنت فريسة حماس واندفاع لا سبيل إلى توقيفهما. إن ذلك الكبت خطير، وحماس الشاب يدفع به دائماً إلى أخطر المواقف! لقد هزأت بك في حينه لكنني أستطيع أن أجزم لك الآن بأنني أحب حباً عميقاً ـ بصفتي من الهواة ـ تلك المحاولة الصاخبة العنيفة التي جرت بها ريشتك. إن مقالك غامض قاتم، ولا شك غير أن وتراً حساساً لا يني يهتز في تلك الظلمة، إنه مقال غريب خيالي، لكنه لا يخلو من الإخلاص يشعر المرء فيه بلون من الكبرياء الخالصة والجرأة البائسة، جرأة عقل ينظر إلى الحياة بمنظار أسود. إنه مقال جيد. ولقد قرأته وحفظته وقلت في نفسي: «إن رجلاً كهذا لا يقف عند حد». والآن قل لي كيف كنت أستطيع كبح جماح نفسي عن الاندفاع وراء التفاؤل بعد تلك البوادر كلها! آه رباه! هل أقول شيئاً؟ هل أقرر شيئاً في هذه اللحظة؟ كلا إنني بصدد إبداء ملاحظة فقط. ماذا كان في الأمر؟ إنني لا أتساءل، لا شيء! لم يكن هناك شيء. بل ويمكن أن أقول بأنه لم يكن هناك شيء على الإطلاق: وعلى ذلك، فإنه ليزعجني أن أكون قد

سلكت ذلك السبيل. وها أنذا الآن أحمل نيكولا على ذراعيّ إلى جانب بعض الأدلة. سواء شئت أم لم تشأ فإنها أدلة قوية كافية!... لقد اضطررت مرة جديدة إلى اللجوء إلى أسلوبي البسيكولوجي وقلت لنفسي: إنه يجب أن أعني به تماماً لأن المسألة مسألة حياة أو موت! أما لمَ أفسر لك كل هذا؟ فلأنني أريدك أن تعلم كل شيء لكي لا تحكم علي في صميم نفسك ووجدانك استناداً إلى المعاملة القاسية التي عاملتك بها ذلك اليوم. إن الأمر لم يكن عن خبث وأؤكد لك بكل إخلاص، هه! هه! لعلك تتساءل لِمَ لم أرسل من يتحرى منزلك في ذلك الحين؟ لكنني جئت لما كنت مريضاً ملازماً فراشك هنا. صحيح إنني لم أحضر رسمياً أو بصفتي الرسمية، لكنني جئت على كل حال. لكن فتشت مسكنك تفتيشاً دقيقاً وبحثت في كل المخابئ الخفية التي فيه. لقد أجريت هذا التفتيش منذ الشكوك الأولى، لكن كان عبثاً. كنت أقول لنفسي: «سوف يأتي هذا الرجل، لسوف يأتي بنفسه بعد زمن قصير. إن أياً كان غيره ما كان ليحضر، أما هذا فإنه سيأتي إذا كان مجرماً». هل تتذكر كيف عنفك رازوميخين بقسوة عند إيلالك؟ وقد كنا سوينا الأمر لتلقي بك في الارتباك، خدعنا رازوميخين فأقنعناه بلزوم توبيخك وتعنيفك ورازوميخين ـ كما تعلم ـ واحد من أولئك الرجال الذين لا يستطيعون كبت انفعالهم وسخطهم، أما السيد زاميوتوف، فإن غضبك وجرأتك غير المحدودة، وهي التي أثرت فيه. راح يتساءل: كيف يمكن الصراخ في حانة عامة: «لقد قتلت!»؟ هل هي المفاجأة؟ إنها أكثر من ذلك. إنها شجاعة مجنونة. وقلت في نفسي: إذا كان هذا الرجل مجرماً فإنه ولا شك ماجن رهيب. لقد انتظرت على هذا الأساس كنت أنتظرك بعد أن أخمدت قوى زاميوتوف المسكين. وهنا ـ كما ترى ـ ليس الخطأ إلا خطأ البسيكولوجية ذات النتائج المزدوجة! لكنني انتظرتك، فأرسلك الله فجأة!

ليتك تعلم كم اشتدت ضربات قلبي! لعمري ماذا دعاك إلى الحضور في ذلك اليوم، وتلك الضحكة، التي دخلت بها مسكني! هل تذكرها؟ لقد كان كل هذا بالنسبة إليّ صافياً واضحاً كماء الصخور! ولو أنني ما كنت انتظرك لذلك السبب الذي كونته لنفسي، لما كانت ضحكتك ذات معنى خاص في نفسي. كان ذلك الموقف من جانبي نتيجة للاستعداد العقلي الخاص الذي كنت هيأته عنك. ثم السيد رازوميخين حينذاك! آه! والحجر، ـ ألا تذكره ـ الحجر الذي أخفيت الأشياء تحته؟... يبدو لي أنني أراها في مكان ما، في بستان أخضر! لقد قلت ذلك لزاميوتوف وكررته عندي أليس كذلك؟ ثم لما رحنا نناقش مقالك، فرحت تحاول إيجازه وعرضه وتلخيصه... إن كل كلمة من كلماتك كانت تحتمل معنيين يمكن أن تؤخذ بهما، وكان وراء كل واحدة منها شيء مستتر! حسناً، هذا هو موجز الأمور التي جعلتني أتصرف كما شهدت والتي لولا أن اصطدم رأسي صدمة قوية لما تماسكت وتمالكت نفسي!

كنت أقول لنفسي: «هيا... إلى أين أمضي على هذه الوتيرة؟ لو شئت، أو على الأصح لو أنصفت، لكان لكل هذه التفاسير معنى عكسي آخر، بل إنها قد تبدو أكثر تصديقاً واحتمالاً. نعم، إنني أعترف بأنها ـ لولا فكرتي المسبقة ـ كانت تبدو أكثر حقيقة واحتمالاً. ليتك عرفت المجهود الذي بذلته. كنت أقول: إن دليلاً واحداً، دليلاً صغيراً واحداً، يكفيني!» فلما سمعت قصة الجرس، كاد أن يغمى علي! شعرت برعدة تسري في جسدي وقلت لنفسي: ها هو ذا الدليل الصغير أخيراً! كنت مؤمناً بذلك تلك المرة! فلم أفكر في تلك اللحظة، بل إنني لم أحاول التفكير. كنت في تلك الأثناء مستعداً لدفع ألف روبل لأراك بعيني هاتين تمشي تلك المائة خطوة جنباً إلى جنب مع ذلك الصانع «الغراء» الذي وصفك بالقاتل دون أن تجرؤ خلال

تلك الخطوات المائة على سؤاله أو الاحتجاج بكلمة!... ثم تلك القشعريرة الفجائية التي اعترتك؟ وقصة الجرس، هل جذبته بفعل المرض والهذيان؟ وعلى هذا يا روديون رومانوفيتش، هل ترى ما يدهش إذا أنا لجأت إلى تلك اللعبة معك؟ ثم لماذا جئت في تلك اللحظة بالذات إلى مكتبي؟ لقد كنت مدفوعاً إلى تلك الزيارة، ولولا أن نيكولا قطع علينا استمرارنا... هل تذكر مجيء نيكولا؟ لقد كانت صاعقة حقيقية! كان وكأن الرعد قد سقط عند أقدامي فزلزلها! وكيف استقبلته؟ لقد أذهلتني المفاجأة، وقد لاحظت ذلك بنفسك. حسناً، لقد دهشت بنفسي وكانت دهشتي عظيمة حينما أجابني بعد رحيلك بشكل دقيق ومفصل، أجوبة حول نقاط معينة كانت غاية في الدقة. غير أنني ما شئت تصديق أقواله! هذه هي نتائج الاحتفاظ بفكرة ما في الرأس! كنت أقول لنفسي: كلا! كلا، إن بيكولا لا علاقة له بهذه القصة!

ـ لقد قال لي رازوميخين منذ برهة: إن اتهامك ينصب الآن على نيكولا وإنك نفسك قد اقنعت رازوميخين بـ...

واختنق صوته فلم يستطع الاستمرار. كان فريسة اضطراب لا يوصف، فقد سمع استدراك الرجل وتراجعه، ذلك الرجل الذي استطاع كشف حقيقته، فكان يخاف أن يصدقه لذلك فإنه لم يصدقه كلمة مما قاله له. كان يحاول بكل قواه إيجاد شيء واضح نهائي خلال أقواله العامرة بكثير من الغموض:

هتف بورفير بيتروفيتش وكأنه ابتهج لسماع راسكو لنيكوف يجيب على كلامه بعد أن لبث صامتاً كالصنم حتى تلك اللحظة:

ـ السيد رازوميخين! هه، هه، هه! كان يجب أن أتخلص من رازوميخين لأنه حيث يكون مكان لاثنين يكون الشخص الثالث غير مقبول!

إن رازوميخين طينة خاصة من الرجال، إنه شخص غريب عن القضية، ثم إنه هرع شاحباً... لندعه جانباً إذا أحببت. أما نيكولا، فإنني سأبين لك نوعه بين الرجال إذا أردت. هل تريد؟ إنه قبل كل شيء طفل لم يبلغ بعد سن الرشد. وهو ليس جباناً لكنه يشبه الفنان في عقليته. لا تضحك إذا كنت أصفه بهذا الشكل. إنه يتحدث عن الغناء والرقص أحاديث تجعل الناس ـ كما يقول ـ يهرعون من بعيد للاستماع إليه. ولما كان في المدرسة، كانت الإشارة تكفي لينفجر التلاميذ بالضحك. إنه يشرب حتى يصبح ثملاً أقرب إلى الموت. وليس السبب ذلك عادة متأصلة في نفسه، بل لمجرد التشبه بالآخرين، وللتسلية، لذا فهو يشرب كل ما يقدم إليه. لم يكد يفهم أنه ارتكب سرقة ما. كان يقول: «لقد التقطت على الأرض ما كان ملقى عليها لكنني لم أسرق! «أتدري أن عدداً من أفراد أسرته كانوا من شيعته «التائهين»، وأنه كان قد أمضى عامين في الريف لدى واحد من هؤلاء. لقد علمت كل هذا من نيكولا ومن بعض مواطنيه من سكان زارائيسك. لقد كان يريد الفرار إلى الصحراء، ثم إنه شديد الورع والتقوى فقد أمضى ليالٍ طويلة وهو يصلي إلى اللّه ويقرأ الكتب المقدسة القديمة «الحقيقية» ويستغرق في تلك القراءة. لقد أثرت عليه بطرسبورغ تأثيراً سيئاً. فغدا مولعاً بالنساء، وكذلك لعمري بالكحول. ولما كانت طبيعته متقلبة حساسة، فإنه لم يلبث أن نسي المرشد الذي كان عنده في الريف. ثم إن أحد الفنانين بدأ يهتم به لإعداده، غير أن هذه المثالة المحزنة جاءت فأوقفت هذا المجهود! لقد روع الغلام؛ بل إنه حاول الانتحار شنقاً كما حاول الفرار! ماذا تريد أن أعمل إذا كان الشعب قد ابتدع لنفسه مثل تلك الفكرة عن رجال القضاء؟ إن مجرد كلمة «محكمة» تبعث الذعر والرعب. لكنها خطيئة من؟ إننا نأمل أن يضع النظام القضائي الجديد كل شيء في مكانه.

إذن لما أدخل نيكولا السجن، عاد مجدداً يذكر مرشده الباسل. وهنا تدخل الإنجيل أيضاً. أتدري يا روديون رومانوفيتش ما معنى «تقبل الألم» بالنسبة إلى بعض هؤلاء المتصوفين؟ إنه لا يعني فقط أن يتألم المرء نيابة عن غيره، بل أن يتألم فقط، أعني إنه ينبغي أن يحتمل الألم الذي تفرضه السلطات وهذا في نظرهم أسمى من الألم العادي. لقد عرفت شخصياً سجيناً وديعاً مرتاح البال أمضى عاماً كاملاً في سجنه كان يقرأ الإنجيل كل ليلة وهو قابع قرب المدفأة، وقد قرأه بتعمق. حتى أنه ذات يوم ـ دون أي سبب ـ نزع قرميده وقذفها على مدير السجن الذي لم يكن قد أساء إليه مطلقاً. لكن كيف ألقاها؟ لقد تدبر الأمر بحيث تسقط القرميدة على بعد متر من الهدف على الأقل فلا تسبب للمدير أن جرح أو أذى! ولا شك أنك تدرك نتيجة مثل هذه العملية بالنسبة لسجين أراد الاعتداء على أحد الرؤساء. لكنه بهذه الطريقة «تقبل الألم! وعلى ذلك فإنني أشك في أن يكون نيكولا لا يهدف إلى مثل هذه الغاية أو إلى شيء من هذا القبيل. إذ يكفيني أن أعاين الوقائع. غير أنه لا يعرف أنني أعرف ذلك. ألا تعتقد بوجود مثل هؤلاء الأشخاص الخياليين في عداد الشعب؟ إنهم كثر. إن تأثير تلك الشيعة الصوفية عاد إلى الظهور في نفسه مجدداً خصوصاً عندما فكر في شنق نفسه. لقد اعترف بذلك شخصياً. لكن أتعتقد أنه سيؤيد هذه الأقوال؟ كلا سترى أنه سوف يسحبها ويتراجع عنها. إنني أنتظر من لحظة إلى أخرى أن ينكر اعترافاته الأولى إنني أشعر بميل إلى هذا الـ«نيكولا» لذلك فإنني أدرسه بتعمق. ثم إنه تقدم بتفاسير واضحة جداً حول بعض النقاط، لقد عرف كيف يقدم المعلومات اللازمة، حتى أنه يُرى تماماً أن كل شيء كان معداً في نفسه. أما فيما يتعلق بنقاط أخرى فقد كان غامضاً لم يستطع إعطاء كل فكرة صحيحة... بل لكنه لا يشك لحظة واحدة في أنه لا

يعرف عنها شيئاً! لذلك ينبغي الدفاع عنه يا روديون رومانوفيتش لأنه بعيد عن كل هذا!... إن المسألة هنا مسألة وهم وغموض، مسألة مفاجئة تُلمس في كل الأزمنة التي يكون القلق مستولياً على القلب البشري خصوصاً في هذا الوقت التي تُسمع فيه عبارات كهذه: «الدم يُصلِحُ» وحيث الهناء والراحة هما ما تهدف إليهما الحياة كمذهب جديد في الوقت الحاضر. إن أحلاماً مقتطفة من الكتب تبرز في هذه القضية. إن فيها عقلية بعض أصحاب النظريات الملتهبة، عقلية تقرير المصير «منذ» الخطوة الأولى. لكنه تقرير من لون خاص. إذ إن المتهم قد حزم أمره، وكأنه يسقط من أعلى جبل أو برج، بدا كأنه صعد إليه بأقدام غيره لقد نسي أن يغلق الباب وراءه ثم قتل، قتل شخصين تنفيذاً لنظريته. لقد قتل ولم يستطع الاستيلاء على المال. أما ما وفق في الاستيلاء عليه فقد ذهب يخفيه تحت حجر، إنه لم يكتف بذلك القلق والخوف اللذين احتملهما لما كان قابعاً وراء الباب الذي كان يُقرع عليه بضربات قوية، بينما كان الجرس يقرع كذلك بعنف. كلا إن ذلك لم يكفه، بل إنه لبث فريسة وهم وهذيان، فتذكر الجرس ومضى نحو المسكن الحالي، ليحس من جديد بتلك القشعريرة المتجمدة بين كتفيه... لنفرض جدلاً أن ذلك كان بتأثير المرض، لكن هناك شيئاً أكثر من ذلك، وهو أنه قتل ويعتقد نفسه رغم ذلك رجلاً شريفاً يحتقر الناس ويرتفع إلى مصاف الملائكة. كلا يا عزيزي روديون رومانوفيتش العزيز إن الأمر هنا لا يتعلق بنيكولا. إنها ليست قضية نيكولا، أبداً.

ارتعد راسكو لنيكوف من رأسه حتى قدميه وكأنه أصيب بطعنة نجلاء كان يظن أن كل ما قبل إن هو إلا استدراك واعتذار غير أن الكلمات الأخيرة بددت تلك الفكرة...

غمغم بصوت مختنق رغم إرادته:

ـ إذن... من الذي... قتل إذن؟

استلقى بورفير بيتروفيتش على مسند مقعده وبدا دهشاً لهذا السؤال غير المنتظر.

... أجاب وكأنه لا يصدق أذنيه:

ـ كيف... من الذي قتل؟

ثم أضاف بصوت قريب إلى الهمس وبلهجة لا تحتمل الجدل:

ـ لكنك أنت الذي قتلت. أنت الذي قتلت يا روديون رومانوفيتش إنه أنت...

انتفض راسكو لنيكوف وهب واقفاً ولبث بضع ثوان دون حراك. ثم عاد وجلس دون أن يتفوه بكلمة. تقلص وجهه بفعل نوبة من التشنج!

أردف بورفير مغمغماً بشيء من الاهتمام:

ـ ها هي ذي الشفة ترتجف تماماً كذلك اليوم، يبدو لي يا روديون رومانوفيتش أنك تفهمت تماماً الأسباب التي دفعتني إلى قول ما قلت. لذلك أراك مبهور الأنفاس مذهولاً. جئت خصيصاً إليك لأروي لك كل الأمر وأكشف القضية أمامك.

غمغم راسكو لنيكوف بشأن الطفل الذي ضبط ملتبساً:

ـ لست أنا الذي قتلت.

فأجابه بورفير بصوت منخفض ولهجة خطيرة مقنعة:

ـ بلى. إنه أنت يا روديون رومانوفيتش! أنا ولا أحد سواك.

صمت كلاهما فترة طويلة تجاوزت العشر ذقائق. كان راسكو لنيكوف متكئاً على المائدة تعبث أصابعه خلال شعره الأشعث. أما بورفير

بيتروفيتش فقد كان ينتظر وهو في مكانه هادئاً. وفجأة نظر راسكو لنيكوف إلى القاضي باشمئزاز:

ـ إنك تعود أبداً يا بورفير بيتروفيتش إلى هذه النقطة! دائماً آراؤك نفسها. ألا يزعجك استمرار هذا أبداً؟

ـ آه! دعك من أساليبي وآرائي! لو كان هناك شهود لاختلف الأمر لكننا نتحدث منفردين كما ترى بنفسك. إنني لم أحضر إليك لأطاردك أو أصطادك كالأرنب البري. وسواء اعترفت لي أم لم تعترف في هذه اللحظة فإن الأمر عندي سيان. إن نظريتي قائمة دون تأييدك.

سأل راسكو لنيكوف بلهجة خائفة:

ـ لماذا جئت إلى هنا طالما الأمر كما تقول؟ إنني أطرح عليك السؤال إياه. إذا كنت تعتبرني مذنباً لمَ لا ترسلني إلى السجن؟

ـ يا للسؤال البديع! لسوف أجيبك على سؤالك فوراً: أولاً إنه ليس من مصلحتي أن أبادر إلى توقيفك على الفور.

ـ كيف لا يكون في مصلحتك؟ إذا كنت مقتنعاً فيجب أن...

ـ آه، ما قيمة قناعتي؟ إنها قائمة حتى الآن على الأحلام. ثم لماذا أضعك هناك في «الراحة»؟ إنك تعرف أنها راحة لك لأن ذلك هو ما تطلبه. فلو أنني مثلاً جابهتك بذلك الفراء وقلت له: «إنك ثمل ولا شك. من الذي شاهدني معك؟ لقد اعتبرتك ثملاً بكل بساطة لأنك كنت كذلك في الواقع» نعم لو أنك قلت له ذلك، فأي جواب أستطيع أن أقوله؟ خصوصاً وأن ادعاءك هذا يحتمل التصديق أكثر من ادعاءاته، لأن أقواله مبنية على المبدأ البسيكولوجي فقط، أما أنت فإنك تبني أقوالك على حقائق ملموسة.

إذ إن للرجل فماً، والحيوان نفسه يشرب. فلا يستبعد والحالة هذه أن يكون هو الآخر قد شرب ولكن كحولاً. إن الأمر واضح تماماً. ألم أخبرك بنفسي أن نظرياتي النفسانية ذات وجهتين إحداهما أقرب إلى الصواب والحقيقة من الأخرى، وأنه ليس هناك في الوقت الحاضر أي دليل إيجابي ضدك؟ لسوف أوقفك ولا شك رغم أنني جئت ـ خلافاً لكل الأصول المتبعة ـ أخطرك بكل هذا. إنني أصرح لك ـ ضد تلك الأصول دائماً ـ إنه ليس من مصلحتي أن أوقفك في الوقت الحاضر. أما السبب الثاني الذي جئت من أجله فهو...

كان راسكو لنيكوف مبهور الأنفاس. سأل:

ـ حسناً ما هو السبب الثاني؟

ـ لكنني ذكرته لك. إنه الاعتذار الذي أريد تقديمه إليك. إنني لا أريد أن تعتبرني وحشاً خصوصاً وأنني أشعر بميل مخلص نحوك سواء أصدقت أم لم تصدق. لذلك فإن هناك سبباً ثالثاً وهو أنني أريد أن أعرض عليك عرضاً لا أخفي وراءه أي شيء: إنني أعرض عليك أن تعترف بنفسك لأن ذلك سيكون أكثر نفعاً وكذلك بالنسبة إلي لأنني سأتخلص من هذا الوزر. هل ترى عرضي صريحاً بهذا الشكل؟

فكر راسكو لنيكوف دقيقة ثم قال:

ـ اسمع يا بورفير بيتروفيتش. لقد قلت بنفسك: إن قناعتك قائمة على أساس نفساني بحت مع ذلك أراك تحاول اللجوء إلى الرياضيات، فماذا يكون موقفك لو كنت مخطئاً في هذه اللحظة؟

ـ كلا يا روديون رومانوفيتش إنني لست مخطئاً! إن في يدي واقعة صغيرة. وتلك الواقعة الصغيرة اكتشفتها ذلك اليوم. لقد أرسلها اللّه إلي.

ـ ما هي تلك الواقعة الصغيرة؟

ـ لن أقولها لك يا روديون رومانوفيتش، غير أنه مهما حصل فإنني لا أجد من حقي أن أمهلك ولسوف أوقفك، وعليه أحكم: إن موقفك في الوقت الحاضر لا يهمني في كثير أو قليل. إنني ما جئت إلا لمصلحتك. واللّه يشهد يا روديون رومانوفيتش أن من مصلحتك الاعتراف.

قهقه راسكو لنيكوف مستهزئاً بشكل آلي:

ـ الحقيقة أن هذا أكثر من شاذ. إنه وقاحة. ثم أنني مجرم حقاً ـ الأمر الذي لم اعترف به مطلقاً ـ لماذا اعترف لك به؟ خصوصاً وإنك قلت منذ لحظة بأنني سأكون في «راحة» في السجن.

ـ إيه يا روديون رومانوفيتش لا تفسر كلماتي حرفياً. قد لا يكون في ذلك كل الراحة. إن القضية مجرد نظرية خاصة بي، إذ ما هي سلطتي أنا بالنسبة إليك؟ لعلني في الوقت الحاضر أخفي عنك شيئاً. لأنه لا يمكنك أخذ اعترافاتي واستعمالها وفق هواك. أما النقطة الثانية فهي: ما هي مصلحتك في الموضوع؟ هل لديك فكرة من تخفيف العقوبة التي تشملك إذا اعترفت؟ فكر في ذلك! فكر فيما ينبغي أن تُعامل به إذا جاء اعترافك في الوقت الذي تقدم فيه آخر معترفاً بجريمته فأدار الانتباه عنك وركزه في نفسه. أما أنا! فإنني أقسم لك أمام اللّه أنني سأتدبر الأمر وأتصرف به بكل قواي حتى أجعلك تستفيد منه دون أي شك، لسوف نهدم كل ذلك البناء النفساني الذي أقمناه. سوف أجعل الشبهات التي حامت ضدك عديمة القيمة حتى أجعل جريمتك تبدو لوناً من الغموض طالما أنها كانت معتلجة في نفسك بشكل غامض غريب. إنني رجل شريف يا روديون رومانوفيتش أتمسك بوعودي.

أحنى راسكو لنيكوف رأسه صامتاً واستغرق في تفكير عميق وأخيراً ابتسم ابتسامة عذبة سويداوية وقال دون أن يحاول خداع بورفير:

ـ لست في حاجة. إن الأمر لا يستوجب العناء. إنني لست في حاجة إلى كرمك.

هتف بورفير بحماسة لا إرادية:

ـ إن هذا ما كنت أخشاه. كنت أنتظر أن أراك عازفاً عن رحمتنا... ألقى عليه راسكو لنيكوف نظرة حزينة ثاقبة. بينما استرسل بورفير:

ـ لا تشمئز من الحياة. إنها لا تزال طويلة أمامك. فكيف لا تريد الرحمة، كيف؟ إنك صعب جداً.

ـ ما الذي سيكون طويلاً أمامي؟

ـ الحياة! هل أنت نبي فتعرف كل هذه الأمور؟ ابحث وسوف تجد. قد يكون الله بانتظارك هناك. فالسجن لن يكون أبدياً.

قال راسكو لنيكوف باسماً:

ـ ستخفف العقوبة إذن...

ـ ماذا؟... أيكون خجلاً برجوازياً ذلك الذي يوقفك؟ قد يكون هو الخوف الذي يراودك دون أن تشعر لأنك شاب. مع ذلك فإنه لا يجب أن تخجل أو أن تخاف من الاعتراف بالإثم الذي ينهش قلبك.

تمتم راسكو لنيكوف بلهجة السأم والاحتقار وكأنه يأبى الكلام:

ـ آه! لست أبالي.

بدا كأنه يحاول النهوض والذهاب لكنه عاد فجلس وهو فريسة يأس واضح.

ـ لست تبالي! إنك حذر وكأنك تعتقد أنني أخدعك بالتلطف معك بهذا الشكل الفظ. لكن هل عشت كل هذا العمر حتى تفكر في مثل هذه الأمور؟ لقد تخيلت نظرية وها إنك خجل إذ تراها تقوم على الماء، وإنه يعوزها الواقع والأساس المتين! بل إن ما نتج عنها رديء. لكن لست سفاكاً لا يرجى صلاحه! إنك لست ذلك السفاك. أبداً لست سفاكاً، بل إنك لم تحاول قبل هذه المرة، بل قمت بفعلتك دفعة واحدة دون مقدمات. أتدري ماذا أفكر عنك؟ إنني أعتبرك من أولئك الرجال الذين يفضلون التهشم والتحطم على الاستسلام وينظرون ضاحكين إلى جلاديهم شريطة أن يكونوا قد آمنوا بمبدأ ما، أو رب ما. حسناً. ابحث عن الله والمبدأ ولسوف نحيا. ثم إنك في حاجة إلى تبديل الهواء منذ زمن طويل. إن الألم شيء جيد أحياناً، فلتتألم إذن. لعل نيكولا على صواب في رغبته في الألم. إنني أعرف أنك لا تؤمن بشيء، لكن لا تحاول تعقيد الأمور. استسلم لسياق الحياة دون مناقشة: كن خلي البال وعندئذٍ ستحملك الحياة إلى الشاطئ وستعود واقفاً على قدميك. أما ما هو ذلك الشاطىء؟ وكيف أستطيع معرفته؟ لست أدري. إن كل ما أعرفه هو أنك ستعيش أيضاً زمناً طويلاً. إنني واثق مما أقول، لك أن تعتبره الآن قسماً معظماً ولعلك ستذكر كلماتي مستقبلاً فتنتفع بها، ومن أجل ذلك أقولها لك. ولك أن تغتبط لأنك لم تقتل إلا عجوزاً خبيثة. إذ لو خطرت ببالك نظرية أخرى، فإنك كنت قادراً على ارتكاب فعلة أشد نكراً بألف مليون مرة... لعلك تشكر الله على هذا؛ ماذا يدريك؟ لعلّ الله يحفظك لأمر آخر. تشدد وكن أقل جبناً. هل تخاف من إنجاز المهمة التي وجبت عليك؟ إن الخجل ينبغي أن يكون من الشعور بالخوف في هذا المضمار! وطالما أنك خطوت الخطوة الأولى، فلا ينبغي أن تتراجع. إن هناك قضية العدالة. فاعمل ما تتطلبه العدالة! إنني أعرف أنك لا تؤمن

بهذه الأقوال لكنني أشهد اللّه على أن الحياة ستنتصر عليك. لسوف تعود إلى محبة الحياة بنفسك. إنك الآن في حاجة إلى الهواء فقط، إن ما ينبغي لك هو الهواء، لا شيء إلا الهواء!

ارتعد راسكو لنيكوف وصرخ:

ـ ولكن من أنت؟ من أنت حتى تتصنع خطورة الأنبياء؟ من أي «سيناء» تتنبأ لي بهذه الحكم؟

ـ من أنا؟ إنني رجل انتهى دوره لا أكثر من ذلك! رجل حساس رؤوف غير محروم تماماً من المعرفة ولكن دوره قد انتهى تماماً! أما أنت فالأمر خلاف ذلك بالنسبة إليك. إن اللّه قد هيأ لك الحياة ومن يدري لعل كل هذه الأمور ستتبخر من سماء حياتك وكأنها سحابة صيف! ماذا يهم إذا كنت الآن تنتمي إلى فصيلة أخرى من الناس؟ أهو الهناء الذي ستأسف له وأنت تملك مثل هذا القلب؟ أم أنك ستأسف على ابتعادك زمناً طويلاً بعيداً عن أنظار الآخرين؟ إن الوقت لا قيمة له، إن المهم في هذا الموضوع هو أنت بالذات. صر شمساً ولسوف يراك الناس أجمعين. لم تبتسم ابتسامتك هذه؟ ألا تحدث نفسك بأنني أحذو حذو شيلر[1] في الحديث؟ أراهنك على أنك تعتقد بأنني أحاول أن أنتزع منك اعترافات لا تريد الإدلاء بها؟ لعمري أنه ممكن، هه، هه، هه! حسناً يا روديون رومانوفيتش. لا تصدق وعدي، لا تصدق أقوالي، إنني أقوم بمهنتي وعملي. غير أنني سأضيف: لك أن تحكم إذا كنت رجلاً شريفاً أو خائناً ماكراً.

---

(1) فريدريك شيلر شاعر تراجيدي ومؤرخ ألماني ولد في مارباخ ألف عدداً كبيراً من الكتب: اللصوص، والانستين، ماري ستوارت، دون كارلوس، وليم تل، حرب الثلاثين إلخ... وكان له تأثير كبير في وطنه وشعبيته استحقها عن جدارة (1805 - 1759). - المترجم -.

ـ متى تنوي توقيفي؟

ـ أستطيع أن أدعك يوماً ونصف اليوم أو يومين آخرين متمتعاً بحريتك. فكر يا صديقي، صل وابتهل إلى الله، ولسوف تربح وأؤكد لك: سوف تربح!

سأل راسكو لنيكوف وهو يضحك ضحكة غريبة:

ـ وإذا فررت؟

ـ كلا، إنك لم تفر! إن أي «موجبك» قادر على الفرار، كذلك المتشيع للأفكار الحديثة، خادم فكرة الآخرين الذي يكفي أن يؤنّب مرة، ليقضي العمر كله يؤمن بما تقول! لكن أنت، إنك لم تعد تؤمن الآن بنظرياتك الشخصية. فكيف إذن تلوذ بالفرار؟ ثم ماذا سيكون وجودك بصفتك هارباً؟ إن حياة الهارب كريهة صعبة. إنك بحاجة قبل كل شيء إلى حياة هادئة مستقرة في جو تحس به وتميل إليه. فهل تكون كذلك إذا فررت؟ إنك إذا ذهبت لن تلبث أن تعود! «لن تستطيع الاستغناء عنا». وعندما سأضعك في السجن، لسوف تعود كلماتي هذه إلى ذاكرتك ولو بعد شهر أو اثنين أو ثلاثة. لكنها ستعود، ولسوف تعترف بنفسك بصحتها وربما اعترفت في وقت لا تتوقعه بنفسك. قبل ساعة من الزمن لم تكن تعترف أنك نضجت للاعتراف بما عملت. بل إنني أرى أنك على استعداد لتحمل الألم وتقبله. إنك لا تؤمن الآن بما أقول ولكنني واثق من أنك ستعود إلى الإيمان به. إن الألم يا روديون رومانوفيتش شيء عظيم ولا شك أنني أعرف ـ ولو أن الأمر يبدو مضحكاً ـ إن في الألم فكرة ما، وإن نيكولا على حق في نهجه. إنك لم تفر يا روديون رومانوفيتش.

نهض راسكو لنيكوف عن مقعده وأخذ قبعته فحذا بورفير بيتروفيتش حذوه.

ـ أتزمع القيام بنزهة؟ إن الليلة جميلة إذا لم تهب عاصفة. لكنها إذا هبت فلسوف تلطف حرارة الجو.

وأخذ قبعته كذلك.

قال راسكو لنيكوف ملحاً بلهجة خشنة:

ـ يا بورفير بيتروفيتش، لا تعتقد أنني اعترفت لك بشيء اليوم. لقد كنت شديد الشذوذ فأصغيت إليك بمحض الفضول. إنني لم أعترف لك بشيء... فلا تنسى هذا!

ـ نعم، نعم، لن أنسى ذلك. ألا ترى نفسك كم أنت مضطرب. لا تبتئس يا عزيزي ستكون مشيئتك محترمة. اذهب وقم بنزهة صغيرة ولكن لا تبتعد.

ثم أضاف بصوت خافت:

ـ إن لي رجاء آخر أتقدم به إليك: إنه رجاء دقيق ولكنه هام: إذا جال في خاطرك ـ رغم أنني لا أعتقد بإمكان حدوث ذلك وأعتبرك غير قادر على صنعه ولكن ينبغي التحفظ ضد كل شيء ـ خلال الثمان والأربعين ساعة المقبلة أن تنتهي من الحياة وتقضي على حياتك بنفسك ـ واصفح عن هذا الافتراض النائي ـ فأرجو أن تترك ورقة صغيرة تفسر فيها موضع الحجر، ورقة وعليها سطران فقط. لأن ذلك سيكون أكثر إباءً. هيا ـ إلى اللقاء... عسى أن تراودك أفكار طيبة وأن تنفذها على الفور!

انسحب بورفير وقد خيل إلى راسكو لنيكوف أنه كان منحني القامة قليلاً، وأنه كان يتحاشى النظر إلى وجهه. فهرع هذا إلى النافذة وانتظر بنفاد صبر محموم، الوقت الذي قدر أن قاضي التحقيق يستغرقه للابتعاد عن المسكن ثم خرج مسرعاً من غرفته...

الفَصْلُ الثّالِثُ

كان يتلهف للقاء سفيدريكايلوف دون أن يدرك ماذا يأمل من لقائه. حسبه أن ذلك الرجل كان يمارس عليه لوناً من السلطة الغامضة؛ ومنذ أن أدرك راسكو لنيكوف هذه الحقيقة لم يشعر قط بالراحة أضف إلى ذلك أن الوقت قد أزف لإيضاح هذه النقطة وجلائها.

كان سؤال واحد يعذبه وهو في طريقه: هل مضى سفيدريكايلوف إلى بورفير وأطلعه على ما يعرف؟ كان راسكو لنيكوف ميالاً إلى الاعتقاد بعدم وقوع الشيء، بل إنه كان واثقاً من ذلك. ولذلك فقد راح يفكر ويفكر. استعاد في مخيلته زيارة بورفير الأخيرة إلى غرفته وخرج بالنتيجة التالية: كلا، إن سفيدريكايلوف لم يذهب إليه، أبداً!

لكن إذا كان لم يذهب حتى الآن فهل سيذهب في المستقبل أم لا يذهب؟

استحسن في تلك الأثناء الرأي القائل أن الزيارة لن تكون. ولكن لِمَ مال إلى هذا الرأي القاتل؟ لم تكن لديه مبررات معقولة، حتى ولو كان يستطيع تفسير الأسباب لما حطم دماغه في التفكير في دوافعها. كان كل هذا يعذبه ويؤلمه، فقد كانت هذه النقطة ثاني أشجانه وأحزانه. والغريب في الموضوع أن مصيره الحالي المباشر، ما كان ليشغل باله إلا

على نطاق ضيق جداً، بل إنه كان يفكر فيه تفكيراً غير جدي الأمر الذي لا يبدو معقولاً. كان شيء آخر يؤلمه أكثر من مصيره الشخصي، شيء أكثر خطورة واستثناءً يخصه وحده ولا يخص أحداً سواه، شيء كان مختلفاً كل الاختلاف عن كل ما عداه ولكنه كان ذا أهمية رئيسية كلية كان يشعر إلى جانب ذلك بإعياء فكري شديد رغم أنه كان ذلك الصباح في حالة فكرية ممتازة أكثر من أي يوم مضى.

ثم، لم يحاول الآن التغلب على كل هذه المصاعب الحقيرة التي عادت إلى الظهور من جديد على طريقه بعد الذي حدث هذا الصباح؟ هل يستوجب الأمر المضي إلى سفيدريكايلوف والتآمر معه لمنعه عن الذهاب إلى بورفير والإدلاء بأقواله إليه؟ هل يستوجب كل هذا إضاعة الوقت في كشف خفاياه والإحاطة بأي سفيدريكايلوف كان والتغلب عليه؟

ألم يكن مغالياً في كل هذا؟

مع ذلك فقد كان يتعجل في البحث عن سفيدريكايلوف. ألم يكن ينتظر منه شيئاً جديداً، أو دلالة ما، أو بعض الوسائل للخلاص؟ إن هذا يكفي للبحث عنه. نعم، إنه يحدث غالباً أن يتعلق المرء بالقشة الواهية! أو ليس المصير أو الغريزة هما اللذان يجمعان بينهما؟ لعل ذلك كان مبعثه إجهاد راسكو لنيكوف فقط أو بائسة لعله لم يكن في حاجة إلى سفيدريكايلوف بالذات، بل إلى آخر سواه، ولكنه تهالك على هذا لعدم عثوره على الآخر! إلى أين يمضي إذن؟ إلى سونيا؟ ولكن لِمَ عند سونيا دون سواها؟ أليستجدي دموعها؟ إن سونيا كانت تخفيه! كان تمثل الحكمة التي لا تنفض، القرار الذي لا ينقض! والذهاب إليها يعني الاستسلام والتخلي عن النضال. إنه لم يكن ـ في تلك اللحظة على الأخص قادراً على احتمال ـ رؤيتها. وعلى ذلك أليس من الأفضل أن يعمد إلى سفيدريكايلوف؟ لم لا؟

لم يكن يستطيع الإنكار في سره، إن هذا الرجل أصبح منذ زمن ما ضرورة ملحة بالنسبة إليه.

لكن، ما هو التفاهم أو التشابه الذي يجمع بينهما؟ أهو إجرامهما؟ إن لكل منهما طابعاً خاصاً يختلف عن الآخر. لقد كان في ذلك الرجل شيء مزعج لا يحتمل، إنه حسب كل المظاهر. ليس إلا شديد الفجور، شديد الحذر والمكر ولعله شديد الخبث كذلك. إن مئات الشائعات تحوم حوله. صحيح أنه راح يعنى بأولاد كاترين إيفانوفنا ولكن من يدري ما هي نواياه! إن رجلاً كهذا لا يمكنه البقاء متعطلاً عن أي مشروع قذر يتدبره!

منذ أيام عديدة، لم تنفك فكرة معينة عن مراودة راسكو لنيكوف وتعذيبه، رغم ما بذل من المساعي لطردها والتخلص من إيلامها العنيف. كان يحدث نفسه أحياناً: «إن سفيدريكايلوف يحوم حولي أبداً، بل إنه يحوم حولي في هذه اللحظة كذلك، لقد اكتشف سفيدريكايلوف سري؛ كانت لسفيدريكايلوف نواياه الخاصة ضد دونيا. فماذا لو كانت نواياه لا زالت كما هي لم تتبدل؟ بل يمكن القول إنها لم تتبدل إطلاقاً. والآن وقد عرف سري، وله نوع من السيطرة عليَّ، ألا يمكن أن يستعمل هذا السلاح ضد دونيا لإخضاعها؟».

تلك هي الفكرة التي كانت تزعجه حتى في منامه. لكنها كانت تبدو لأول مرة بمثل هذا الوضوح، لم تظهر واضحة إلا في هذه اللحظة التي جاء يسعى فيها وراء سفيدريكايلوف. وكانت هذه الفكرة كافية لتثير في نفسه غضباً مكبوتاً. لأن الأمر أصبح شديد الاختلاف بالنسبة إليه وبات يجب عليه أن يفضح سره فوراً أمام دونيا ليقطع الطريق على ذاك. بل لعل الأصوب أن يسلم نفسه إلى العدالة ليحول انتباه دونيا عن أي تصرف طائش قد تكون مصممة على الإقدام عليه في سبيله.

وفجأة قفزت إلى ذهنه كلمة: الرسالة لقد تلقت دونيا رسالة ذلك الصباح! ممن يمكن أن تتلقى دونيا رسالة في بطرسبورغ؟ ألا يمكن أن تكون من لوجين؟ إن الحقيقة أن رازوميخين كان يقوم بحراسة طيبة، ولكن رازوميخين لا يعرف من الأمر شيئاً. لعله إذن يكشف عن نفسه أمام رازوميخين. لكن راسكو لنيكوف شعر بشيء من الرعب عندما بلغت أفكاره هذا الحد.

قرر في نفسه أخيراً! «على كل حال، ينبغي مقابلة سفيدريكايلوف بأسرع ما يمكن. وإنني أحمد الله على أن التفاصيل هنا ليست كثيرة الأهمية لأن صميم الموضوع هو الأهم فيها. لكنه قادر على ذلك... إذا كان سفيدريكايلوف يدبر أي شيء ضد دونيا، فعندئذٍ...

كان راسكو لنيكوف شديد الإعياء بعد هذا الشهر الطويل من النضال والمفاجآت. وقد بلغ به الإعياء أن شعر بنفسه عاجزاً عن حل هذه المعضلات وإيجاد الأجوبة عليها فلم يجد إلا هذه الكلمات اليائسة ينهي بها نجواه: «... إذن، سأقتله». كان يشعر بإحساس أليم يعتصر قلبه فتوقف في منتصف الشارع يجيل الطرف حوله. أي طريق سلك، أي كان في تلك اللحظة؟ وجد نفسه في شارع «إيكس... على بعد ثلاثين أو أربعين خطوة من شارع العلف الذي كان قد اجتازه. كانت الطبقة الأولى من البناء الواقع على يساره، تشغلها حانة فكانت نوافذها كلها مفتوحة. وكان المشرب إذا - اعتبرت الوجوه المطلة من النوافذ غاصاً بالناس. كانت أصوات الغناء تتعالى من «الصالة» يرافقها عزف على الكلارينيت والكمان يصحبه إيقاع طبل. وكانت صرخات نسائية حادة تسمع بوضوح في ذلك الضجيج. همَّ راسكو لنيكوف بالعودة وهو يتساءل عن السبب الذي حمله على المجيء إلى هنا، لكنه فجأة ما لمح وراء إحدى تلك النوافذ، وجه سفيدريكايلوف

وغليونه بين أسنانه وهو جالس إلى مائدة شاي. فشعر بدهشة لم تخل من فزع. كان سفيدريكايلوف يتأمله ويراقبه بصمت. بل وأغرب من ذلك: بدا على سفيدريكايلوف أنه يحاول النهوض ليتسلل من مكانه قبل أن يلاحظه راسكو لنيكوف، الأمر الذي زاد في دهشته هذا واستغرابه.

تظاهر راسكو لنيكوف بأنه لم يره، وراح ينظر إلى جهة أخرى بشيء من الاضطراب والحيرة دون أن يغفل عن مراقبته بزاوية عينه. كان القلق يزيد في ضربات قلبه! تأكدت ظنونه، لأن سفيدريكايلوف كان يحاول أن لا تقع العين عليه. لذلك فقد نزع غليونه من فمه وأراد الاختفاء لكنه لما نهض وأزاح المقعد أمامه، تأكد من أن راسكو لنيكوف قد شاهده وأنه كان يراقبه بإمعان. وقع بينهما مشهد ماثل لذلك الذي وقع إبان لقائهما الأول في غرفة راسكو لنيكوف لما كان هذا يتصنع النوم. لاحت ابتسامة ماكرة على شفتي سفيدريكايلوف راحت تتسع حتى غمرت وجهه. وهكذا فإن كلاً منهما شعر أن الآخر كان يراقبه ويتأمله. وأخيراً أطلق سفيدريكايلوف قهقهة مجلجلة وهتف من النافذة:

ـ هيا، هيا؟ ادخل إذا شئت، إنني هنا!

فصعد راسكو لنيكوف إلى الحانة.

وجد سفيدريكايلوف جالساً في إحدى الحجرات الخلفية المتصلة «بالصالة» الكبرى، حيث كان عدد من التجار والموظفين ومن مختلف الطبقات والدرجات يشغلون حوالي عشرين مائدة يتناولون الشاي وسط ضجيج المغنين وفرقهم وصخب الزبائن الذي يصم الآذان! وكانت هناك أصوات ارتطام كرات البيلياردو تصل من مكان ما إلى أسماعه. كان سفيدريكايلوف يمسك بيده كأساً من الشمبانيا ممتلئة حتى نصفها وعلى

المائدة زجاجة من هذه الخمر الراقية، وكان في تلك الحجرة، غلام يحمل أرغناً صغيراً يعزف عليه بينما راحت فتاة سمينة في الثامنة عشرة من عمرها ذات خدين منتفخين شديدي الاحمرار تغني لحناً شعبياً بصوت منخفض أجش، رغم الضجة القوية التي كانت منبعثة من الصالة الكبرى. كانت ترتدي «تنورة» مخططة تبرز تقاطيع جسمها وتضع على رأسها قبعة ذات أشرطة ملونة على غرار أهل التيرول.

قاطعهما سفيدريكايلوف حينما دخل راسكو لنيكوف:

ـ هيا، هذا يكفي!

فتوقفت الفتاة على الفور، ووقفت محترمة تنتظر. لقد كانت منذ قليل تحمل ذلك الطابع من الخطورة والاحترام قبل أن تسرع في ترديد قذاراتها الملحنة...

هتف سفيدريكايلوف:

ـ آه، فيليب! أعطني قدحاً!

فقال راسكو لنيكوف:

ـ لن أحتسي الخمر.

ـ كما تشاء، إنني لم أطلب القدح لك. اشربي يا كاتيا واذهبي، إنني لم أعد في حاجة إلى شيء اليوم.

وصب لها كأساً من الخمر ودس في يدها ورقة نقدية، فوضعت كاتيا القدح على فمها شأن النساء المدمنات وشربته على عشرين جرعة صغيرة دون أن ترفعه على شفتيها، وأخذت الورقة النقدية ثم قبلت يد سفيدريكايلوف ـ الذي لم يمانع في ذلك بل مد لها يده وعلى وجهه أمارات الجد ـ وبارحت الحجرة يتبعها الغلام وهو يجر أرغنه جراً. لقد كانا

كلاهما من أولاد الشارع. لم يكن قد انقضى على وجود سفيدريكايلوف في بطرسبورغ أكثر من ثمانية أيام مع ذلك فقد راح يجول فيها ويلهو وكأنه في منزله! وكان فيليب. النذل المولج بتلك الحجرة أحد «معارفه» فكان يقوم على خدمته باحترام وتفان. فإذا أدار سفيدريكايلوف المفتاح في قفل الباب، أصبح في تلك الحجرة وكأنه في مسكنه الخاص، ينعم بكل الحرية. ولعله كان يقضي هناك أياماً كاملة. كان المشرب قذراً كريهاً لا يمكن أن يرفع إلى مصاف حانات الدرجة الثانية.

شرع راسكو لنيكوف يقول:

ـ كنت أريد رؤيتك وكنت أبحث عنك! ولست أدري لِمَ انعطفت في هذا الشارع بعد أن اجتزت سوق العلف! إنني لم أمر مرة واحدة من هنا قبل اليوم بل جرت عادتي على المضي إلى يمين السوق. ثم إن هذا الطريق لا يقود إلى مسكنك، مع ذلك فإنني لم أكد أستدير قليلاً حتى شاهدتك. أليس هذا غريباً؟

ـ لِمَ لا تقول بكل بساطة إنها معجزة!

ـ لأنها قد تكون محض صدفة!

قال سفيدريكايلوف وهو ينفجر ضاحكاً:

ـ يا لسذاجة الناس المضحكة! إنهم يرون المعجزة بأم عينهم لكنهم لا يقرونها! إنك نفسك تقول إنها «قد تكون» صدفة. يا لجبن الناس إزاء آرائهم الشخصية! إنك لا تستطيع تكوين فكرة عن ذلك يا روديون رومانوفيتش! إنني لا أقول هذا لك ولا شك لأنك تمتلك فكرة شخصية لم تخش من الاحتفاظ بها والحصول عليها. بل إن هذا هو السبب الذي أثار فضولي نحوك.

ـ أهذا هو السبب فقط؟

ـ إنه سبب كاف!

كان سفيدريكايلوف في حالة انفعال غير ظاهرة تماماً إذا لم يكن قد شرب بعد إلا نصف القدح الأول.

قال راسكو لنيكوف ملمحاً:

ـ أظن أنك جئت إليّ قبل أن تعرف إذا كنت قادراً على امتلاك «فكرة خاصة»، أليس هذا هو الاسم الذي أطلقته؟

ـ صحيح. غير أن الأمر كان في ذلك الحين مختلفاً. إن لكل إنسان أسلوبه في الحياة. أما فيما يتعلق بهذه المعجزة، فإنني أخالك قد أمضيت هذه الأيام الثلاثة الأخيرة نائماً. لقد أنبأتك بنفسي عن هذه الحانة فليس هناك إذن أية معجزة إذا كنت قد جئت مباشرة إلى هنا. لقد بينت لك الطريق الذي ستسلكه والمكان الذي يقع فيه هذا المشرب ثم أوضحت لك الساعات التي أكون فيها موجوداً هنا. ألا تذكر؟

أجاب راسكو لنيكوف مأخوذاً:

ـ لقد نسيت هذا.

ـ أظن! لقد ذكرت لك العنوان مرتين فانطبع بصورة آلية في ذاكرتك لقد انعطفت بصورة آلية أيضاً من هذا الطريق دون أن تتذكر العنوان على الضبط. إنني أذكر أنني عندما كنت أحدثك، لم أكن أنتظر منك أن تفهمني. إنك تهمل نفسك كثيراً يا روديون رومانوفيتش. إنني أصبحت واثقاً أن في بطرسبورغ عدداً كبيراً من الناس يحدثون أنفسهم وهم يسيرون إنها مدينة أنصاف المجانين. ولو كان لدينا بعض من العلوم، بين أطباء وقضاة وفلاسفة، لاستطاع كل منهم في اختصاصه، أن يؤلف عن بطرسبورغ

ملاحظات ثمينة جداً غاية في الدقة. لن يجد الإنسان بسهولة مدينة أخرى، تمارس مثل هذه التأثيرات المظلمة الحادة الغريبة سلطانها على النفوس البشرية، كما هو الحال في بطرسبورغ. إن من الجائز أن يكون المناخ سبب كل هذا! مع ذلك، فإن هذه المدينة بوصفها المركز الإداري في البلاد، يجب أن يمتد تأثيرها هذا على كل الأرض الروسية. غير أنني لا أريد التحدث عن هذا الأمر في الوقت الحاضر. كنت أريد أن أقول لك: إنني شهدتك أكثر من مرة دون أن تشعر. فكنت إذا خرجت من مسكنك، رفعت رأسك. لكنك لا تكاد تقطع عشرين خطوة حتى تعود إلى أحنائه وتعقد ذراعيك وراء ظهرك. إنك تنعم بالنظر ولكنك لا ترى شيئاً أمامك أو حولك. وأخيراً فإنك تحرك شفتيك وتتحدث مع نفسك! بل إنه يحدث لك احياناً أن تحرك يديك وكأنك تهدد أو تتوعد، ثم تتوقف في منتصف الطريق فترة طويلة. إن هذا لا يجديك نفعاً إذ يجوز أن يراقبك الآخرون وعندئذٍ ستكون المسألة على غير ما تشتهي. إن هذه القضية لا تهمني مطلقاً ولست أنا الذي أقدر على شفائك. إنك تفهمني ولا شك!

نظر إليه راسكو لنيكوف بفضول وسأل:

ـ أتدري بأنهم تتبعونني؟

فأجاب سفيدريكايلوف بدهشة:

ـ كلا، إنني لا أعرف شيئاً.

قطب راسكو لنيكوف حاجبيه وغمغم قائلاً:

ـ إذن لنسقط التحدث عني من حسابنا.

ـ حسناً، لم نعود إلى الكلام عنك.

ـ قل لي: إذا كنت ترتاد هذا المكان لتسكر، وكنت قد أطلعتني

مرتين على هذا العنوان لألقاك فيه، فكيف إذن حاولت الاختباء منذ حين لما كنتُ في الشارع أنظر إليك؟ لقد حاولت التسلل، إنني واثق من ذلك.

ـ قد تكون هناك... أسباب... إنك تعرفها بنفسك!

ـ وأنا أيضاً قد تكون لدي أسباب قد لا تعرفها!

اتكأ راسكو لنيكوف بذراعه الأيمن على المائدة وأسند ذقنه على أصابع تلك اليد وراح ينظر إلى سفيدريكايلوف نظرة ثابتة عميقة. كان يتأمل منذ دقيقة مضت ذلك الوجه الذي كان يشعر دائماً بتأثيره في نفسه. كان وجهاً غريباً يشبه القناع: أبيض، أحمر، بشفتين قرمزيتين ولحية شقراء صهباء وشعر غزير أبيض. كانت عيناه شديدتي الزرقة ونظراتهما ثقيلة عميقة وثابتة. كان في ذلك الوجه الجميل الذي لبث رغم السنين محتفظاً بشبابه الخارق، شيء يبعث على النفور العنيف العميق! كان سفيدريكايلوف مرتدياً ثوباً صيفياً أنيقاً من قماش خفيف ويمتاز بقميصه الثمين الأنيق. وكان يحلي إصبعه بخاتم كبير يزينه حجر كريم مشع.

قال راسكو لنيكوف فجأة وهو يمضي إلى هدفه بلهفة محمومة:

ـ هل يجب أن تثير أنت الآخر بعض المتاعب حولي؟ على الرغم من أنك أكثر الرجال خطراً عليّ حينما يصمم على الإضرار بي فإنني لم أحاول التمويه وقتاً أطول بل سأثبت لك على الفور أنني لا أخاف على نفسي. اعلم أنني ما جئت إلا لأنذرك بأنك إذا قررت الاستمرار على نواياك السابقة إزاء أختي أو أنك تفكر في استغلال السر الذي اطلعت عليه مؤخراً فإنني سأقتلك قبل أن تستطيع الزج بي في السجن. ثق بكلمتي إنك تعرف أنني قادر على تنفيذها. إذا كنت ترغب في اطلاعي على شيء ما ـ ولقد شعرت منذ بعض الوقت أنك تريد البحث معي حول موضوع معين ـ فأسرع في إعلامي بما تريد لأن الوقت ثمين ولعله يفوت بعد قليل!

سأل سفيدريكايلوف وهو يتأمله بفضول:

ـ ما الذي يضايقك إلى هذا الحد؟

فأجاب راسكو لنيكوف بلهجة غامضة:

ـ لكلٌ أعماله!

قال سفيدريكايلوف باسماً:

ـ إنك تدعوني إلى الصراحة معك وإذا بك ترفض الجواب على السؤال الأول! إنك تعتقد دائماً بأنني أتدبر أمراً ما، لذلك فإنك تنظر إلي بريبة وتشكك. إنني أفهم الأمر تماماً بالنسبة لمن كان في مثل مركزك. لكن مهما كانت رغبتي في إيجاد علاقات جيدة بيننا فإنني لن أضيع وقتي في دحض آرائك وتسفيهها. واللّه إن الأمر يستوجب هذه العناية إنني لم أكن مطلقاً على الاستعداد للتفاهم معك حول موضوع معين أو بشكل خاص.

ـ لمَ إذن كنت شديد الاهتمام بي؟ إنني أراك تحوم أبداً حولي!

ـ لأنك ـ بكل بساطة ـ موضوع طريف يجدر ملاحظته. لقد أعجبتني بسبب حالتك الخارقة الدقيقة. هذا هو السبب كله! ثم إنك أخو فتاة أعجبتني فيما مضى كل الإعجاب ولقد سمعت عنك أشياء كثيرة من قبل نقلت إلي بواسطة تلك الفتاة بالذات فاستنتجت من ذلك أن لك عليها تأثيراً كبيراً. فهل هذا كله أمر تافه؟ هه، هه، هه! ثم إنني أعترف بأن سؤالك عميق ودقيق جداً من الصعب عليّ الإجابة عليه. خذ مثلاً، إنك لم تحضر إلى هنا لتحدثني فقط عن الأعمال بل لتطلعني على شيء جديد أليس كذلك؟

قال سفيدريكايلوف هذا بشيء من الإلحاح وعلى شفتيه ابتسامة هازئة، ثم أردف:

تصور إذن، أنني لما كنت في القطار في طريقي إلى بطرسبورغ، كنت أعتمد عليك آملاً أن تقول لي شيئاً «جديداً» أو أن أوفق في استعارة شيء منك. نحن جميعاً هكذا معشر الأغنياء!

تستعير مني ماذا؟

ـ كيف أفسر لك الأمر... هل أدري؟ لكن انظر في أية بؤرة قذرة أقضي وقتي. مع ذلك، فإنني أشعر بسرور، لمجرد أنني أنعم بالجلوس في مكان ما حتى ولو لم يكن فيه إلا تلك المسكينة كاتيا... هل رأيتها؟... إنها تكفي! كم أتمنى لو كنت أكولاً أو ميالاً إلى الشراب... مع ذلك... خذ... هذا ما أستطيع أن آكله.

وأشار بإصبعه إلى طبق من الحديد الأبيض (تنك) كان على طرف المائدة وفيه بقايا لحم بقر مشوي «بفتيك» مهيأ بشكل كريه مع قطع البطاطا. وأردف:

ـ على فكرة، هل تناولت طعامك؟ إنني لم أكد أستهلك جانباً من طعامي ولا أشعر بأية شهية إلى الطعام. أما الخمر فإنني لا أشرب إلا الشمبانيا. حتى هذه فإن قدحاً واحداً منها يكفيني كل الأمسية لأنها تسبب لي الصداع. فإذا كنت قد طلبتها اليوم فذلك لأمتلك نفسي لأن علي أن أمضي بعد حين إلى مكان ما. ألا تراني في حالة فكرية خاصة؟ لقد حاولت منذ لحظات أن أختفي كالتلميذ الخجول لأنني تصورت أنك سوف تزعجني...

ثم أضاف بعد أن أخرج ساعته من جيبه وألقى عليها نظرة:

ـ غير أنني أستطيع قضاء ساعة معك فالساعة الآن الرابعة والنصف هل تصدق؟... لو أنني كنت ملاكاً مثلاً أو أباً لأسرة أو جندياً أو مصوراً أو

صحفياً... لكنني لا أملك أي اختصاص وهذا ما يضجرني أحياناً. الحقيقة أني كنت أنتظر منك اطلاعي على شيء جديد.

ـ لكن من أنت ولِمَ جئت إلى هنا؟

ـ من أنا؟ إنك تعرف. إنني أحد النبلاء وقد خدمت عامين في سلاح الفرسان وأخيراً جئت أحوم هنا في بطرسبورغ وبعدها تزوجت مارت بيتروفنا وعشت في الريف؟

ـ إنك تبدو مقامراً أليس كذلك؟

ـ بل إنني غشاش ولست مقامراً.

ـ وهل غششت؟

ـ نعم لقد فعلت ذلك أيضاً.

ـ أوَ لم تعاقب من أجل ذلك؟

ـ وقع لي مثل هذا الأمر، ماذا بعد؟

ـ يمكنك إذن أن تجابه الأمور على شكل مبارزة شريفة. إن ذلك يثير الدم.

ـ إنني لا أعارضك وأعترف كذلك أنني لا أفهم شيئاً عن الفلسفة. إنني أصرح لك بأن سبب مجيئي كان على الغالب من أجل النساء؟

ـ رغم أنك لم تكد تدفن مارت بيتروفنا؟

أجابه سفيدريكايلوف بضحكة صريحة هادئة:

ـ لعمري نعم. لِمَ لا؟ هل يزعجك أن أتحدث هكذا عن النساء؟

ـ أتسألني إذا كان يزعجني أن يعيش المرء في الفجور والغش؟

ـ في الفجور؟ إنك تسمي الأشياء بأسمائها! لكن لكي أنتهج في

الجواب على أسلوب متسلسل أبداً في بحث النساء. إنك تعرف أنني ميال إلى الثرثرة. قل لي لِمَ أزعج نفسي بذلك؟ لِمَ أكف عن الاهتمام بالنساء طالما أنني أعمل من أجلهن؟ إن قضيتهن لون من العمل.

ـ على هذا فإن كل آمالك مبنية على الفجور فقط؟

ـ حسناً لنقل على الفجور طالما أنك تتمسك بهذا الكلمة. نعم إنني عاشق وهذه بالنسبة إليّ هي المسألة الأولى. إن للفجور على الأقل شيئاً من الاستمرار يضفيه على الطبيعة وليس عليه أن يحتمل نزعات خيالاتنا وأهوائنا. إن فيه شيئاً دائماً أشبه بالشعلة المتوقدة في الدم. على استعداد أبداً لمتابعة اللّهيب الذي لا ينطفئ بمرور السنين. أوَ لا توافقني بعد هذا على أنه لون من الانشغال جدير بالاهتمام؟

ـ في الحقيقة إنه ليس فيه ما يستوجب التهنئة عليه. إنه مرض، ومرض خطير.

ـ آه! هذه هي إذن غايتك التي تهدف إليها! إنني أوافقك على أنه مرض ككل شيء يتجاوز حدوده. والحدود هنا لا يمكن إلا أن تتجاوز. لكن الأمر الذي قد يكون على غرار هذا بالنسبة للبعض لا يكون كذلك بالنسبة للآخرين. ثم إنه يجب على المرء أن يتلطف في هذا الأمر رغم أنه حساب بشع دنيء لكنه بدونه لا يبقى للمرء إلا الموت. مع ذلك فإنني أعترف أيضاً بأن الرجل الشريف يشعر ولا شك بالضجر والضيق.

ـ هل أنت على استعداد لقتل نفسك إذا أخفقت في هذا المضمار؟

أجاب سفيدريكايلوف باشمئزاز.

ـ يا للسؤال!

وأسرع يضيف وقد تبدلت تقاطيع وجهه التي لبث مختفياً وراءها حتى تلك اللحظة. فأصبح وجهه يعبر عن تبدل مفاجئ:

ـ أرجو أن لا تحدثني بهذا. إنني أعترف أن لدي ضعفاً لا يغتفر ألا وهو الخوف من الموت. لذلك فإنني لا أحب أن يتحدث المرء عنه. هل تعرف أنني متصوف على شكل من الأشكال.

ـ آه! آه! لعلك ستتحدث عن شبح مارت بيتروفنا! وعلى فكرة ألا تزال تلك الرؤيا تعرض لك؟

ـ دعنا من هذا، إنك لا تؤمن به، ثم إنني لم أعد أرها هنا في بطرسبورغ... ليحملهم الشيطان.

كان صوته طافحاً بالغضب وأضاف:

ـ كلا، لنتكلم على الأصح عن... همْ إن الوقت يمضي ولا أستطيع البقاء معك زمناً طويلاً. يا للأسف! كان يمكنك أن تطلع على أمر جديد!

ـ هل الأمر متعلق بامرأة أيضاً؟

ـ نعم بامرأة. وإنه موعد منتظر... كلا إنه ليس ما تظن.

ـ أوَ لم تشعر ببشاعة هذه البؤرة؟ أليس لديك من العزيمة ما يساعدك على التوقف؟

ـ ماذا، أهو أنت الذي تتكلم عن العزيمة؟ هاهاها! إنك تغرقني بالذهول يا روديون رومانوفيتش! مع ذلك فقد كنت أنتظر ذلك. إنه أنت الذي تحدثني عن الفجور والجمال. أنت؟ شيلر! مثالي! إنه جميل ولا شك أن يكون المرء كذلك بل وإنه أدعى للدهشة أن يكون المرء خلافاً لذلك. على كل حال إنه ليس مدهشاً إلى هذا الحد... من المؤسف أن يكون

الوقت متسلطاً علينا بهذا الشكل لأنك إنسان تستثير الفضول! على فكرة هل تحب شيلر؟ إنني أتذوقه بكل متعة.

قال راسكو لنيكوف بشيء من الاحتقار:

ـ يا للمشعوذ النادر الذي تبدوه!

أجاب راسكو لنيكوف وهو ينفجر ضاحكاً:

ـ لعمري إنك مخطئ! مع ذلك فإنني لا أنقض كلمتك حول الشعوذة، لكن لمَ لا يشعبذ المرء في الحياة إذا كان الأمر لا يسيء إلى أحد؟ لقد عشت سبع سنين بصحبة مارت بيتروفنا في الريف لذلك فإنني ما كدت ألتقي برجل فكر مثلك حتى ارتميت عليك. إنني أقول رجل فكر. بل وأقول رجلاً مثيراً. نعم إنني مرتاح تماماً للثرثرة معك. أضف إلى ذلك أن نصف القدح من الخمر الذي شربته قد أثر تأثيراً خفيفاً في رأسي. لكن هناك حدثاً آخر سبب هذا الاضطراب الذي تراه وإنني أفضل أن لا أتفوه بكلمة عنه.

وفجأة سأل سفيدريكايلوف مروعاً:

ـ إلى أين تذهب؟

ذلك أن راسكو لنيكوف كان قد نهض. لقد شعر بارتباك لمجيئه إلى هنا بل وأحس بأنه يكاد أن يختنق. أدرك في اللحظة أنه إزاء أسوأ فاجر شرير حقير حملته الأرض.

قال سفيدريكايلوف متوسلاً:

ـ آه! ابق، ابق أرجوك. اشرب كأساً من الشاي، هيا اجلس. هكذا. لسوف أكف عن التحدث إليك بمثل هذا الهذر، أي أنني سأكف عن

التحدث عن نفسي. سوف أقص عليك شيئاً. أتريد أن تعلم كيف أنقذتني امرأة؟ إن تلك المرأة كانت أختك. هل أستطيع التحدث؟ إن ذلك يقتل الوقت.

ـ تكلم. غير أنني أرجو...

ـ أوه! لا تبتئس! إن أفدوتيا رومانوفنا لا يمكن إلا أن توحي بالاحترام العميق حتى بالنسبة إلى رجل في مثل دناءتي.

وشرع سفيدريكايلوف يروي قصته.

الفَصْلُ الرابعُ

إنك لا تجهل ولا شك ـ خصوصاً وأني حدثتك به من قبل ـ إنني سجنت من قبل بسبب ديون، وكان سجني هنا بالذات. كان الأمر يتعلق بمبلغ كبير لم أكن أملك منه القرش الأول. أعتقد أنك تصرف إلى أي مدى تفقد المرأة المحبة عقلها. لذلك فلا حاجة بي إلى سرد تفاصيل شراء مارت بيتروفنا حريتي. لقد كانت امرأة شريفة عاقلة رغم افتقارها التام إلى الثقافة. تصور أن تلك المرأة الغيور الشديدة النزاهة أقدمت أخيراً ـ بصدد عديد من مواقف التوبيخ ـ على عقد لون من الاتفاق معي ظلت محافظة على شروطه طيلة المدة التي لبثنا فيها متحدين. ولا يفوتني في هذا المضمار التنويه بأنها كانت تكبرني سناً بشكل ملحوظ وكانت أبداً تمضغ لوناً من الزهور لعله عقار.

لقد بلغت بي الحماقة وشدة الصراحة أن أعلنت لها استحالة بقائي مخلصاً لها كل الإخلاص فاندفع غضبها من عقله غير أن صراحتي راقت لها بعض الشيء رغم ما فيها. لعلها قالت في نفسها: «إنه لا يريد أن يخدعني طالما أنه ينذرني سلفاً». وهذا بالنسبة إلى المرأة الغيور أمر جوهري. لذلك فإنها بعد أن ذرفت دموعاً كثيرة قام بيننا اتفاق شفهي خلاصته أولاً: إنني لا يجب أن أهجر مارت بيتروفنا أبداً وأن أظل أبداً زوجها، ثانياً: أن لا أتغيب دون إذنها وموافقتها، ثالثاً: أن لا تكون لي عشيقة فاتنة جذابة،

رابعاً: تسمح لي مارت بيتروفنا بمقابل ذلك أن أغازل الخادمات شريطة أن أعلمها سراً بالأمر. خامساً: لا ينبغي أن أعشق امرأة من وسطنا، سادساً وأخيراً: في حال وقوعي فريسة بعض العواطف الجدية ـ ولا سمح اللّه ـ فينبغي علي أن أصارح مارت بيتروفنا بالأمر. ولقد تأكدت مارت بيتروفنا ووثقت بي فيما يتعلق بهذه المادة الأخيرة لأنها كانت امرأة ذكية. لذلك فإنها ما كانت تستطيع اعتباري أكثر من فاجر فاسق عاجز عن الوقوع في الحب الصادق. غير أن امرأة ذكية غيوراً تساوي اثنتين وهنا المصيبة! ولكي يستطيع المرء أن يحكم على إنسان ما بتجرد، عليه أولاً أن يتخلص من بعض آرائه وعاداته اليومية المتخذة ضد أشخاص أو أشياء تحيط به وإنني ألجأ إلى حدة ذهنك وبعد نظرك في الحكم، يجوز أنك سمعت كثيراً من الحماقات عزيت إلى مارت بيتروفنا، والحقيقة أنها لم تكن خالية من بعض الشذوذ، مع ذلك فإنني آسف بكل إخلاص ـ ولا أخشى الاعتراف به ـ للأحزان الكثيرة التي سببتها لها. إنني أعتقد أن هذا القول كافٍ ليكون تأبيناً مناسباً يليق بأكثر الزوجات حناناً ويصدر عن فم أكثر الأزواج تحناناً.

عندما كان يحصل بيننا شقاق أو شجار، كنت أسكت معظم الوقت متسلطاً على غضبي متخلياً عنه، فكان موقفي النبيل هذا يبلغ دائماً غايته. لأن زوجتي كانت تتأثر به بل وكانت ترتضيه، حتى أنها لم تعدم مناسبات كانت تجد نفسها فخورة بي رغم ذلك فإنها لم تستطع هضم تلك القصة التي كانت أختك طرفاً فيها. أما كيف غامرت باستخدام فتاة على هذا القدر من الجمال كأختك في منزلها كمدرسة؟ إنني لا أستطيع تفسير ذلك، إلا على اعتبار أن مارت بيتروفنا كانت امرأة حساسة شديدة التأثر تعلقت بأختك ـ والحقيقة أنها كانت شديدة التعلق بها ـ ولما رأيت أفدوتيا رومانوفنا، فهمت للوهلة الأولى أن الأمور ستكون سيئة. لذلك فقد قررت ـ

لست أدري إذا كنت تصدق ـ أن لا أرفع عيني إليها. لكن أفدوتيا رومانوفنا ـ سواء أصدقت أم لم تصدق ـ قامت بنفسها بالخطوة الأولى. فهل تصدق أن مارت بيتروفنا سخطت عليّ أول الأمر لأنني ما كنت أتحدث أبداً إلى أختك بل كنت أتصرف حيالها بلا مبالاة وأتهكم من كل ما يتعلق بها؟ إنني لم أكن أعرف بعد ما ترمي إليه أفدوتيا رومانوفنا. ولا شك أن زوجتي روت لها كل ما تعرفه عني، لأنها كانت «تتمتع» بخطيئة نقل أسرارنا العائلية والشكوى مني أمام كل الناس. لذلك فإنها ما كانت لتتخلى عن مثل تلك الحليفة الفتانة. أستطيع القول أنهما في أحاديثهما ما كانتا تتحدثان إلا عني. لذلك فإن أفدوتيا رومانوفنا كانت ولا شك مطلعة على كل مشاكلي القذرة وكل الشائعات التي كانت تروح ضدي... بل وإني أراهن على أن بعض الشائعات قد بلغ مسامعك.

ـ صحيح. فقد اتهمك لوجين بأنك سبب موت طفلة. هل هذا صحيح؟

أجاب سفيدريكايلوف باشمئزاز:

ـ أرجوك أن لا تحرك هذه القدرات. إذا كنت مصراً على معرفة مصادر مثل تلك الشائعات السخيفة فإنني على استعداد للإفضاء إليك به ذات يوم بمناسبة... أما الآن...

ـ لقد تحدثوا أيضاً عن خادم كان عندك في الريف وادعوا كذلك أنك كنت سبب بعض الأمور هناك.

قاطعه سفيدريكايلوف وقد بدا نافذ الصبر:

ـ أرجوك، كفى!

تابع راسكو لنيكوف بانفعال متزايد:

ـ إنه ذلك الخادم الذي رأيت شبحه بعد وفاته يحشو لك غليونك... لقد حدثتني عنه بنفسك.

نظر سفيدريكايلوف إلى راسكو لنيكوف، فخيل لهذا أنه طالع في عينيه بريقاً خاطفاً ينم عن استخفاف وحشي. لكن ذلك البريق لم يدم إلا لحظة عابرة استطاع بعدها سفيدريكايلوف أن يتمالك نفسه وأن يجيب بلطف جم:

ـ إنه هو بالذات. إني أرى أن ذلك يثير اهتمامك إثارة عنيفة، وأعتقد أن من واجبي أن أرضي فضولك هذا في أول فرصة مناسبة، تعرض لي. ليحملني الشيطان! إنني سأصبح شخصية خيالية في أعين بعض الناس. فاحكم بعد هذا إذا كنت لا أدين لمارت بيتروفنا بشكر عميق للقصص التي سردتها على حسابي إلى أختك. إنني لا أستطيع الحكم على هذه الإحساسات لكنني واثق من أن المنشأ كان في مصلحتي. إذ مهما كان اشمئزاز أفدوتيا رومانوفنا مني لأسباب معروفة، ورغم لهجتها الصارمة وأساليبي الممقوتة، التي تستوجب النفور، فإنني ولا شك أوحيت إليها أخيراً بلون من الحنان، ذلك الحنان الذي يُشعر به حيال رجل ضال. لذلك فإن الفتاة التي تشعر بالشفقة في قلبها تكون في تلك اللحظة في خطر جسيم. لأنها عندئذٍ تكون مستعدة للتضحية بنفسها «لإنقاذ» الشخص الذي تشفق عليه، وإقناعه بالمبادئ الحسنة، ومحاولة انتشاله من وهدته لمساعدته على السير في حياة نبيلة. إنك لولا شك تتصور نظام الأفكار التي تعرض في مثل هذه المناسبات. لذلك فقد توقعت أن يطير العصفور من تلقاء نفسه ليدخل القفص. وعلى ذلك فقد رحت بدوري أنصب شباكي.

يخيل إليّ يا روديون رومانوفيتش أنك تقطب حاجبيك. لا بأس أن تعرف أن القصة قد انتهت أخيراً إلى الفشل... يجوز أن أكون قد ارتشفت

أكثر من طاقتي من الخمر. لكنني أصر على القول بأني شديد الأسف لأن الأقدار لم تجعل أختك تعيش في القرن الثاني أو الثالث للميلاد في مكان ما «تكون فيه ابنة أمير مالك، أو ابنة حاكم ما، أو والٍ من ولاة آسيا الصغرى. لو أنها خلقت في ذلك الحين لكانت واحدة من تلك النسوة اللاتي تعرضن للعذاب، ولكانت ولا شك ابتسمت للحديد المحمى في النار عندما كان يخترق أحشاءها. بل إنها كانت ستمضي من تلقاء نفسها إلى التعذيب! ولو أنها عاشت في القرن الرابع أو الخامس لتعمقت في مجاهيل مصر لتعيش. ثلاثين عاماً تقتات بالحذر والحشائش، وبالرؤيا والتمجيد والتعظيم لأنها لا تنتظر ولا تتوق إلا إلى اللحظة التي تستطيع فيها أن تضحي بنفسها في سبيل شخص ما. بل وإنها قادرة على إلقاء نفسها من النافذة لو أن تلك التضحية منعت عنها!

لقد سمعت حديثاً عن سيد اسمه رازوميخين، وقد قيل لي إنه شاب متعقل كما يستنتج من اسمه، وإنه ولا شك متخرج من مدرسة إكليريكية[1]. حسناً ليسهر إذن على أختك! الخلاصة أعتقد أنني فهمت عقلية أفدوتيا رومانوفنا، وأنني أشيد بها لكنك تقرني على أن الإنسان لما يجهل نفسية شخص ما تكون له به بعض العلاقات فإنه يسهل عليه ارتكاب بعض الخطيئات بل وبعض العثرات. ثم ـ يا للشيطان ـ لِمَ هي جميلة إلى هذا الحد؟ إنها ليست خطيئتي! وبكلمة واحدة، أقول: إنني شعرت بميل وعواطف لا يمكن مقاومتها. إن أفدوتيا رومانوفنا ذات خصر فريد لا يصدق. إنني أقول ذلك ـ وأرجو أن تلاحظ ـ على اعتباره واقعة ملموسة. لأن أختك شديدة التمسك بالاحتشام لدرجة مرضية رغم عقلها النير.

(1) إن أساس كلمة رازوميخين مشتق من كلمة رازوم أي العقل مما يدل على أن صاحبه ينحدر من أسرة إكليريكية «هذا التفسير وارد في الترجمة الفرنسية».

كان لدينا في تلك الأثناء خادمة وهي فتاة اسمها باراشا وكنا ندعوها السمراء باراشا ذات العينين السوداوين، جئنا بها من قرية مجاورة. لم أكن قد شاهدتها حتى تلك اللحظة لأن الفرصة لم تسنح لي. كانت جميلة جداً ولكن حمقاء جداً لدرجة لا يتصورها العقل. وذات مرة غرقت في دموعها وراحت تملأ الباحة بالصياح والعويل حتى نتجت عن ذلك فضيحة. وذات يوم، بعد طعام الغداء، تدبرت أفدوتيا أمرها حيث لاقتني في أحد ممرات البستان «فأصرت» عليَّ وعيناها تلتمعان أن أترك الخادمة المسكينة باراشا بسلام. كانت تلك هي المرة الأولى التي تحدثت بها معها على انفراد. فلما أنهت إلي رغبتها اعتبرت ولا شك أن تنفيذ تلك الرغبة شرف لي، وكنت أسعى للظهور أمامها بمظهر المتهيب المضطرب. وبالإيجاز أقول إنني عرفت كيف أمثل دوري. واعتباراً من تلك اللحظة رحنا نلتقي معاً فتقوم هي بإسداء المواعظ سراً وتلقيني دروساً في الأخلاق بل وتوصيني وتتوسل إلي وأحياناً تبكي أمامي ـ هل تصدق؟ ـ نعم أحياناً تبكي أمامي! ذلك هو الحد الذي تذهب إليه بعض الفتيات اللاتي تشعرن بميل للدعاية والتثقيف؟ ولا شك أنني كذلك كنت أعزو كل خطيئاتي للقدر، وأبدو بمظهر المتعطش للمعرفة والنور، فرحت أمارس أسلوباً رائعاً لا يخطئ أبداً، يوصلني دائماً إلى قلب النساء! أسلوباً لا يخدع أحداً، ولكنه مع ذلك ينجح عند كل النساء بلا استثناء. ذلك الأسلوب هو الإطراء والمديح. لا شيء في الحياة أصعب من ممارسة الإخلاص بإخلاص، وعلى النقيض، فإن لا شيء أسهل من استثمار المديح! لأن الإخلاص إذا اعتراه صدفة أي خطأ أو خيانة مهما كانت تافهة، فإنه يكون شديد الوضوح سريع الاكتشاف فتعقبه... فضيحة. أما في المديح، فإنه ولو كان كله خطأً من أوله إلى آخره، فإن ذلك لا يقلل من شأنه، لأن الناس يصغون إليه دائماً بسرور. وقد

يكون ذلك السرور غير عنيف أو ظاهر، ولكنه على كل حال سرور ولا شك. ومهما كان المديح كاذباً ممجوجاً، فإن نصفه على الأقل يروق لصاحب العلاقة. والأمر كذلك في كل طبقات المجتمع. إن الإنسان قادر على إغواء كاهنة متزمتة بالمديح وعدم التعرض للحديث عن آثام الإنسان الفاني، ولا أستطيع أن أذكر دون أن أضحك كيف أنني ذات يوم أغويت امرأة شديدة الإخلاص لزوجها ولأولادها، شديدة التمسك بالمبادئ والأخلاق. لقد كان الأمر مضحكاً شديد السهولة! مع ذلك فإن تلك السيدة كانت فاضلة تماماً حسب وجهة نظرها على الأقل. لقد كان أسلوبي حيالها يتلخص في الظهور أمامها بمظهر المذهول لفضائلها، العابد لطهرها، وكنت أطريها وأمتدحها بشكل وقح، فما كنت أفوز منها بنظرة، أو بضغطة خفيفة على يدي، حتى كنت ألوم نفسي أمامها بأنني انتزعت تلك الحركة منها انتزاعاً، معترفاً بأنها مانعت فيها واعترضت عليها، وأنها أظهرت مقاومة شديدة كان من جرائها أنني ما كنت أستطيع الحصول على ما استطعت الحصول عليه لولا أن كنت فاسداً. لأنها بطهرها وبراءتها لم تستطع اكتشاف نواياي الخبيثة، فتركت نفسها تنقاد ببراءة دون أن يكون لديها أي شك... إلخ إلخ... والخلاصة إنني بلغت ما كنت أريد ولبثت تلك السيدة مقتنعة بأنها لا زالت عفيفة طاهرة تقوم بواجباتها وخدماتها كاملة، وأنها لم تخطئ إلا بمحض الصدفة. لذلك فقد بلغ سخطها مبلغاً جسيماً، عندما أعلنت لها ـ وتلك هي عادتي أبداً ـ بأنها بدورها كانت تبحث عن اللذة مثلي تماماً.

كانت مارت بيتروفنا نفسها شديدة الاستسلام للمديح كنت أستطيع ـ لو شئت ـ أن أجعلها تهبني كل ممتلكاتها وهي على قيد الحياة. لكن ماذا دهاني؟ إنني لا أكف عن الشراب والثرثرة!... حسناً... أعتقد أنك لن تغضب إذا ذكرت لك الآن أن تلك التأثيرات نفسها بدأت تتسلط على أفدوتيا

رومانوفنا. لكنني أفسدت المسألة كلها بحماقتي ونفاد صبري. فقد حدث أكثر من مرة خلال مقابلاتي مع أفدوتيا رومانوفنا ـ وأخص بالذكر لقاء معيناً ـ أن كان بريق نظراتي يزعجها بشكل فظيع. فهل تصدق؟ لقد كانت نظراتي تشع بنار الشهوة التي كانت تزداد وقاحة والتي كانت تراها شديدة البشاعة. وغني عن الذكر أن مشاحناتنا ومشاجراتنا حول هذا الموضوع كانت لا تنتهي. لقد ارتكبت في هذا المضمار خطيئة إثر خطيئة. إذ رحت أهزأ بشكل قبيح جداً من كل أساليبها ودعاياتها! وبكلمة واحدة فإن المنزل كله أضحى أشبه بمدينة سودوم التي أحرقها الله بناره لفجور سكانها. أوه! لو أنك رأيت مرة يا روديون رومانوفيتش عيني أختك، لعرفت إذن ما تستطيعان بعثه من وميض! لا يهمني أن أكون ثملاً في هذه اللحظة وأن أكون قد احتسيت كأساً كاملة من الخمر، غير أن ما أقوله هو الحقيقة. أؤكد لك. إن نظراتها كانت تلاحقني حتى في نومي. وأخيراً ما عدت أستطيع احتمال حفيف ثوبها. بلغ بي التصوء أنني سأصبح ضحية نوبات قلبية، إذ ما كنت أعتقد أنني سأكون يوماً في مثل تلك الحالة من الشغف والتدله. لذلك وجدت أن الواجب يدعوني إلى التقدم بمصالحة واعتذار. تصور ماذا عملت وإلى أي سخف وشذوذ يقود الغضب الرجل يا روديون رومانوفيتش أن تعمل شيئاً تحت تأثير الغضب؟ كنت أعرف أن أفدوتيا رومانوفنا معدمة ـ آه! اعذرني... ما كنت أريد... لكن ماذا يهم البحث عن تعبير آخر في هذا المعنى؟ ـ وأنها كانت تعيش في الكدح وتعول أمها وأخاها، آه! يا للشيطان! إنك تبدي نفورك مرة أخرى ـ فقررت أن أقدم لها كل المال الذي أملكه ـ وكنت أستطيع أمتلاك ثلاثين ألف روبل ـ لأغريها على الفرار معي حتى ولو إلى بطرسبورغ. وبالطبع فإنني كنت حال بلوغي معها إلى هنا، سأقسم لها مؤكداً حبي الأبدي، والسعادة، ولست أدري ماذا أيضاً. لعلك

تصدقني إذا قلت إنني كنت شديد الاغتباط. حتى أنها لو طلبت ذبح مارت بيتروفنا. أو قتلها بالسم للزواج منها لما ترددت عن تنفيذ طلبها على الفور! لكن الأمر كله. انتهى بالكارثة التي تعرفها. ومع ذلك فإنك تستطيع الحكم على مبلغ الغضب الذي تغلبت عليه. حينما علمت أن مارت بيتروفنا قد أعدت ذلك السخيف الكريه لوجين، وراحت تحيك فكرة زواجه من أفدوتيا رومانوفنا، الأمر الذي لم يكن يختلف في كثير أو قليل عن عروضي التي تقدمت بها بنفسي إلى أفدوتيا رومانوفنا. ألست من هذا الرأي؟ أليس هذا صحيحاً؟ إنني ألاحظ أنك تصغي إلي بانتباه عظيم... أيها الشاب المغري!...

استولى نفاد الصبر على سفيدريكايلوف فضرب المائدة بقبضة يده وغدا وجهه شديد الانفعال. لاحظ راسكو لنيكوف أن القدح الأول ونصف الثاني من الشامبانيا التي احتساها سفيدريكايلوف بجرعات صغيرة، بدأت تعطي مفعولها المدمر. لذلك فقد قرر استغلال هذه الفرصة لأنه كان يشعر بوجوب الحذر الشديد من هذا الرجل الذي يقارعه.

قال راسكو لنيكوف فجأة متوخياً إخراج محدثه:

ـ حسناً. إنني واثق بعد كل هذا أنك ما جئت إلى بطرسبورغ إلا وفي رأسك نوايا معينة تتعلق بأختي.

أجاب سفيدريكايلوف وهو يحاول السيطرة على نفسه:

ـ دعك من هذا! ألم أحدثك؟... إن أختك لا يمكن أن تثيرني وتجعلني دائم التفكير فيها.

ـ أوه لا شك! إنني واثق من ذلك لكن الأمر لا يتعلق بهذه الناحية.

غمز سفيدريكايلوف بعينه وضحك متهكماً:

ـ إنك متأكد إذاً من أن أختك لا تثيرني! إنك على صواب فهي لا

تحبني لكن يجدر بك أن تركن كثيراً إلى ما يحدث بين الزوج وزوجته، والعاشق وخليلته، لأن هناك دائماً زاوية يجهلها الناس ولا يعرفها إلا هما. هل تجيب أن أفدوتيا كانت تنظر إليّ بتقزز ونفور؟

ـ ألاحظ من بعض كلمات وتوريات في حديثك أنك تغذي في نفسك بعض النوايا حيال دونيا وأنه لا يمكنك التجاوز عنها. ولا شك أنها نوايا سيئة قذرة.

سأل سفيدريكايلوف وقد اعتراه خوف بريء دون أن يبالي بالصفة التي وصفت بها نواياه:

ـ ماذا؟ هل أفلت مثل تلك الكلمات والتوريات؟

ـ نعم لقد ظهرت منذ حين. ثم لماذا روعت فجأة؟ كيف تشعر بمثل هذه الخشية؟

ـ أنا خائف؟ أنا مروع؟ أنا أخاف منك؟ بل إنني أخاف من نفسي يا صديقي العزيز. يا لها من كلمات!... لا تنس أنني ثمل قليلاً. إنني أشعر بذلك. ولو اندفعت قليلاً لارتكبت شططاً. ليذهب الخمر إلى الشيطان! آه! أريد ماء!

ثم أخذ الزجاجة وألقى بها من النافذة بكل بساطة وجاءه فيليب بالماء.

أردف سفيدريكايلوف وهو يبلل منشفته في الماء ويضعها على رأسه:

ـ إن كل هذا ليس إلا حماقات. إنني أستطيع بكلمة واحدة أن أبدد ظنونك وأمضي شكوكك. أتدري مثلاً أنني عازم على الزواج؟

ـ لقد أخبرتني بذلك من قبل.

ـ أخبرتك به؟ لقد نسيت. لكنني ما كنت أستطيع أن أقرر لك هذا

الأمر بكل تأكيد لأنني لم أكن قد شاهدت بعد خطيبتي فالأمر إذن كان مجرد مشروع. أما الآن فإن خطيبتي موجودة والأمر منته. ولولا أنني مرتبط بأعمال مستعجلة في الوقت الحاضر لدعوتك تصحبني إلى منزلها لأنني سأحتاج إلى نصائحك. يا للشيطان! لم يبق لي إلا عشر دقائق. خذ، انظر إلى ساعتي. على كل حال سوف أقص عليك الخبر. إن زواجي أمر غريب في نوعه. لكن إلى أين تذهب؟ هل تريد أن تذهب من جديد؟

ـ كلا لن أذهب الآن.

ـ لن تعاود الذهاب؟ حسناً. سنرى! لسوف أصحبك إلى هناك لأريك خطيبتي ولكن ليس الآن. إذ يجب أن أرتحل الآن، فتمضي أنت إلى اليمين وأمضي أنا إلى اليسار، هل تعرف ريسليش؟ تلك التي أقطن عندها في الوقت الحاضر؟ لعلك سمعت شيئاً عنها؟ إنها تلك المرأة التي قيل إنها سببت في إلقاء فتاة صغيرة إلى الماء في صميم الشتاء؟ هيا ألا تعرفها؟ لعمري إنها هي التي قالت لي: «لا شك أنك ستشعر بضيق شديد ببقائك منفرداً، وإنك بالزواج ستمضي وقتاً جميلاً»! والحقيقة أنني رجل كئيب المزاج حزين. هل تظنني مرحاً؟ أبداً. إنني حزين لا أسيء إلى أحد. لكنني أقبع في زاويتي. وقد وقع لي مرة أنني لم أتذوق طعاماً طيلة ثلاثة أيام متعاقبة. أما ريسليش الخليعة فإن لها رأيها الذي أحب إظهاره فوراً. فهي تعتقد أنني سأضيق ذرعاً بزوجتي وأنني سأهجرها وألوذ بالفرار فتبقى المرأة لها. وعندئذٍ تستثمرها بتقديمها إلى أشخاص من طرازنا بل ولعلها تقدمها إلى من هم أرفع منا شأناً. لقد أخبرتني أن أبا الفتاة موظف قديم مريض لم يبارح مقعده منذ ثلاث سنوات لأنه مصاب بشلل في ساقيه، أما أمها فإنها سيدة ذكية، لها ابن يشتغل في مكان ما بالأقاليم لكنه لا يساعد ذويه، ولها أيضاً فتاة متزوجة لا تعرف مصيرها. وكأن عدد أفراد الأسرة

لم يكن كافياً. إذ إنهم تعهدوا كذلك إطعام اثنين من أبناء أخت الأم. لقد تركت الفتاة التي سأتزوجها المدرسة قبل إتمام دروسها، وستنهي السادسة عشرة من عمرها بعد شهر، وعلى ذلك فإننا نستطيع الزواج بعد انقضاء هذا الشهر. ثم إنهم يعولون علي كثيراً.

ذهبنا لرؤية هؤلاء الناس وكان ذلك مضحكاً! لقد قدمت نفسي كما يلي: ملاك، أرمل، من عائلة طيبة، ثري، ذو علاقات ممتازة! فماذا يهم بعد كل هذا أن أكون في الخمسين من عمري وأن تكون هي في السادسة عشرة؟ من ذا الذي يلتفت إلى مثل هذا الفرق؟ هيا، ألست غنيمة طيبة بالنسبة إليهم؟ بل إنني صفقة ممتازة... هاها! ليتك رأيتني أتكلم مع باب وماما! أوكد لك أن رؤية ذلك كان يستوجب التضحية! إذ جاءت الفتاة وانحنت باحترام. تصور أنها لا زالت ترتدي أثواباً قصيرة ـ لأنها لا تزال برعماً صغيراً لم يتفتح بعد ـ وقد احمر وجهها خجلاً. ولا شك أن الدرس كان قد لقن لها من قبل. لست أدري ما هو رأيك حول وجوه النساء، أما أنا فإنني أجد تلك السنين الست عشرة وتينك العينين الصغيرتين المفعمتين بالطفولة وذلك الخجل ودموع الاحتشام تساوي عندي أكثر من الجمال، فكيف إذا كانت بعد كل ذلك جميلة كالصورة. إن لها شعراً أشقر ناعماً مقسماً إلى خصل صغيرة. وشفتين غليظتين حمراوين وقدمين صغيرتين... إنها فتانة!... أعلنت ـ بعد أن تعرفت إليها... أنني مرغم على استعجال الأمور بسبب أعمال عائلية. وفي اليوم التالي، أعني أول أمس، تمت خطوبتنا. ومنذ ذلك الحين، أجلسها على ركبتيّ كلما حضرت ولا أدعها أبداً... إنها تكسف الشمس! إنني أعانقها وأقبلها في فمها. ولا شك أن أمها تفهمها أن لا بأس في ذلك طالما أنني زوجها. والخلاصة إنها لؤلؤة! إن حالة الخطيب أجمل ولا شك وأدعى إلى الراحة من حالة الزواج! لأن فيها كما

يسمى: الطبيعة والحقيقة ها! ها! لقد تحدثت مرتين معها فوجدت أنها متوقدة الفؤاد. إنها تختلس أحياناً النظر إلي... فإذا بي أحترق كعود الثقاب. إن لها وجهاً يشبه صورة عذراء رافائيل «مادونا». ألم تلاحظ أن لـ«مادونة سيكستين»[1] وجهاً يعبر عن حزن غير طبيعي؟ إذن إن فتاتي مثلها. لقد قدمت لها في اليوم التالي من خطوبتنا هدايا قيمتها ألف وخمسمائة روبل بينها حلية من الماس وأخرى من اللؤلؤ ولوازم زينة من الفضة كبيرة الحجم مع كل ضرورياتها وكمالياتها. حتى أن وجه مادونتي أشرق من الاغتباط. وقد أجلستها البارحة على ركبتي دون مقدمات ولا كلفة حتى أنها غدت بلون الأقحوان وانبعثت الدموع من عينيها انبعاثاً. إنها لم تكن تريد الكشف عن نفسها رغم أنها بالنسبة إليّ نار ولهيب. كان ذووها جميعهم قد خرجوا لحظة، فبقينا وحدنا هي وأنا. وفجأة أحاطت عنقي بذراعيها الصغيرين ـ وقد فعلت ذلك من تلقاء نفسها وللمرة الأولى ـ وعانقتني وهي تقسم أنها ستكون لي زوجة طيبة مطيعة مخلصة وأنها ستسعدني وستكرس لي كل حياتها، وكل لحظة من لحظات وجودها دون أن تطالبني مقابل ذلك إلا بشيء واحد، ألا وهو تقديري لها ولا أكثر. لقد أعربت لي أنها لا تريد إلا ذلك التقدير وأنها لا حاجة بها إلى الهدايا!. أرجو أن تعترف معي أن الاستماع إلى هذا التصريح في جلسة خاصة جمعت بين كلينا يتفوه به ذلك الملاك المرتدي ثوباً خفيفاً من الحرير والذي تحجب جبهته خصلات من الشعر الأشقر الناعم المتمرد وخده بلون قرمزي من الخفر بينما تلتمع دموع الحماسة في عينيه، أعترف أن كل ذلك شديد الجاذبية. ألا تعتقد أن كلمة «شديد الجاذبية» هي أصلح ما يستعمل في

---

(1) سيكستين: كنيسة شهيرة من كنائس الفاتيكان بنيت في عهد البابا سيكست الرابع وبناء على أمره. وقد زينت بصور زيتية أشهرها لميكيل آنج تمثل مواقف دينية عديدة منذ خلق الطبيعة حتى يوم الحساب. - المترجم -.

هذا المقام؟ إنها تساوي كثيراً، أليس كذلك؟ حسناً... سنذهب يوماً لرؤية خطيبتي ولكن ليس الآن.

ـ على العموم إن ذلك الفارق الفظيع بالسن والثقافة أدعى لتحريض شهواتك. هل من المعقول أن تفكر حقيقة في إبرام زواج في مثل هذه الشروط؟

ـ ولِمَ لا؟ لا شك. إن كل إنسان يجب أن يعيش حياته، ومن يحسن خداع نفسه يعيش أحسن من سواه. ها! ها! يا اللّه ما أسرع ما أصبحت رجلاً فاضلاً ارحمني يا عزيزي لأنني مخطئ أنا. هيه هيه هيه!

ـ مع ذلك فقد عنيت بأطفال كاترين إيفانوفنا. ثم إنك لا تعمل شيئاً دون مسببات... إنني أفهم كل شيء الآن.

أجاب سفيدريكايلوف وهو ينفجر ضاحكاً:

ـ على العموم إنني أحب الأطفال حباً جماً. وأستطيع أن أقص عليك فصلاً من ذلك الحب لا زال قائماً حتى الآن. منذ اليوم الأول من وصولي تهافتُ على كل البؤر والمواخير في هذا البلد... لا شك أنك تفهمني. لأنني منذ سبع سنين لم أطأ واحدة منها بقدمي. ولعلك لاحظت ولا شك فتوري في ربط صلات جديدة مع أصدقائي القدماء. إنني أنفر منهم كما أنفر من الطاعون. ألا فاعلم أنني عندما كنت أعيش في الريف مع مارت بيتروفنا كنت أشعر بحنين شديد إلى هذه الأماكن السرية حيث يجد العقل النيّر فيها كثيراً مما يثقفه ويزيد في معلوماته. ليحملني الشيطان! إن الشعب كله قد استسلم للسكر. والشبيبة المثقفة تتعفن من قلة الحركة، وهي سابحة في أحلام وخيالات مستحيلة الوقوع، بعد أن أغلظت النظريات الأحاسيس والشعور بينما يهرع اليهود من كل مكان فيستولون على المال

تاركين المواطنين أصحاب البلد غارقين في فجورهم ودعاراتهم. كذلك عرفت هذه المدينة من رائحتها. وذات ليلة وجدتني في واحدة من تلك الحفلات الراقصة التي يطلقون عليها اسم: حفلات عائلية، بينما هي دنس في بيوت دعارة ـ إنني أميل إلى مثل هذه البؤر خصوصاً إذا كان فيها كثير من القذارة ـ لا شك أنهم كانوا يرقصون هناك رقصات غريبة لا يرى المرء مثلها إلا هناك. رقصات لم أشهد مثلها في شبابي. صحيح أن هناك تقدماً في هذا المضمار. وفجأة شاهدت فتاة في الثالثة عشرة من عمرها مرتدية ألبسة لطيفة ترقص مع راقص حاذق محترف يقوم بدور الرفيق لها. كانت أمس تجلس قرب الجدار. إنك تستطيع تخيل هذه الراقصة! كانت الفتاة الصغيرة مرتبكة محمرة الوجه وكأنها أهينت في كرامتها، فقد انفجرت باكية. أما المحترف فقد راح يتلقفها في الهواء ويدربها، وهو يقوم بحركات مضحكة جعلت النظارة يفجرون بالضحك: إنني أحب مواطنينا في مثل هذه المواقف حتى في مثل تلك المواخير. لأنهم يضجون ويضحكون ويصخبون ويصرخون. وأنا لا يهمني من أمرهم أن يتمتعوا بهذه الحقوق المنطقية! أدركت فوراً ماذا يجب علي عمله، وسرعان ما جلست قرب الأم، وبدأت أخبرها أنني أنا الآخر لست من بطرسبورغ وأن كل هؤلاء المجتمعين كانوا أشخاصاً فظين خشنين لا يستطيعون التمييز بين الغث والثمين، وألمحت لها بأنني عظيم الثراء. ثم دعوتها إلى عربتي أنقلها فيها إلى حيث تشاء. وهكذا كان. إذ أوصلتها إلى مسكنها وعرفت مكانه وموقعه ـ كان مسكناً مؤنثاً مزعجاً سيّئ السمعة نزلتا فيه مع ابنتها ـ وأخبرتني أنها تعتقد وابنتها أن تعرفهما بي ليس إلا شرفاً لهما. عرفت أنهما لا تمتلكان شروى نقير وأنهما جاءتا لبطرسبورغ للسعي لدي، لست أدري أية مصلحية حكومية، فقدمت لهما خدماتي ومالي وعرفت أنهما وقعتا خطأ تلك الليلة في تلك

البؤرة لأنهما اعتقدتا أنها حفلة راقصة حقيقية تستطيع الفتاة الصغيرة أن تتعلم فيها شيئاً من الرقص. فعرضت عليها الأمكنة التي أعرفها لتثابر ابنتها على تعلم الرقص فيها، وتتعلم اللغة الفرنسية إلى جانب الرقص. فقبلتا حماسي واعتبرتا كل ذلك شرفاً حقيقياً ولا زالت علاقاتنا قائمة. إنني أستطيع أن أمضي بك إليهما. ولكن ليس الآن.

ـ كفى! لقد كفاني ما سمعت من قصصك القذرة أيها الفاجر القذر!

ـ ها هو ذا شيلر، «شيلرنا»! هل تصدق أنني أجد رغبة في الاستمرار من سرد مثل هذه القصص لأصغي إلى استنكارك وصياحك، إنه سرور حقيقي!

غمغم راسكو لنيكوف.

ـ لست أشك في ذلك. أو لست أنا بنفسي شاذاً بنظري في هذه اللحظة؟

ضحك سفيدريكايلوف بانشراح ملء حنجرته. ثم نادى فيليب وسوى حسابه ثم وقف يريد الانسحاب وهو يقول:

ـ لقد تحدثنا بما فيه الكفاية. لكنني ثمل... كنت سعيداً جداً بمجالسك!

هتف راسكو لنيكوف وهو ينهض بدوره: ـ طبعاً. ولِمَ لا تكون سعيداً إن سرد مثل هذه المغامرات بالنسبة لفاجر كريه مثلك لا زال يغذي أفكاراً من هذا النوع، يعتبر سروراً حقاً خصوصاً في ظروف معينة، وأمام شخص مثلي. إن ذلك يبهجك!

أجاب سفيدريكايلوف بدهشة:

ـ لعمري إذا كنت تعتبر الأمر كذلك، فإنك ماجن جميل حقاً! إنك على استعداد لتدبير بعض الأمور بل وتنفيذها أيضاً. إن هذا يكفي. إنني آسف بكل إخلاص إذا كان لقاؤنا قصيراً على هذا الشكل ولكنني أرجو أن لا تتركني هكذا... انتظر قليلاً...

خرج سفيدريكايلوف من المشرب يتبعه راسكو لنيكوف. لم يكن سفيدريكايلوف شديد الثمل بل كان يشعر بدوار بسيط تخلص منه على الفور. كان يبدو مشغول البال بشيء ما، شيء عاجل جداً كان يزعجه. كان ولا شك فريسة قلق ما. ولم يفت راسكو لنيكوف أن سفيدريكايلوف قد غير لهجته معه منذ بعض الزمن. وإنه كان يبدو سمجاً مستهزئاً أكثر فأكثر. لذلك فقد شعر بشيء وراءه وقرر تعقبه.

لحق به على الرصيف فقال هذا:

ـ ستمضي إلى اليمين وأمضي إلى اليسار إلا إذا كان الأمر على عكس ذلك. الوداع يا «سروري». يسرني لقاؤك. واتجه إلى اليمين من ناحية سوق العلف.

اول مقابلة مع المستلمين بورفير . راسكولنكوف ورازوميجين (تصوير البرت)

الفَصْلُ الخَامِسُ

تأثر راسكو لنيكوف خطاه فالتفت سفيدريكايلوف إليه وهتف:

ـ ما معنى هذا؟ أعتقد أنني أخبرتك...

ـ ما... ذا؟

توقف كلاهما وراح كل منهما يحدث في وجه الآخر وكأنهما يزنان بعضهما بعضاً ودام الموقف دقيقة.

قال راسكو لنيكوف بلهجة حاسمة:

ـ بعد كل القصص التي سردتها عليّ وأنت نصف ممثل. فإنني أعتقد أنك لم تهمل مشاريعك الدنئية حيال أختي فحسب، بل إنها ازدادت أكثر من أي وقت مضى. إنني أعرف أن أختي تلقت هذا الصباح رسالة. أرى أنك بدأت تضطرب. يجوز مع ذلك أن تكون قد اكتشفت امرأة أخرى، غير أنني أرغب في أن أتأكد من الأمر بنفسي.

كان راسكو لنيكوف شديد الارتباك لأنه اضطر إلى الإفصاح عن رغبته في التأكد شخصياً من هذا الأمر:

آه! هكذا إذاً هل تريد أن أستعين بالبوليس؟

ـ ادع البوليس!

ووقفا من جديد وجهاً إلى وجه. ولما رأى سفيدريكايلوف أن راسكو لنيكوف لم يعبأ بتهديده تبدلت أسارير وجهه لحظة. وراح يتحدث بلهجة ودية كلها تشابه:

هذه هي عقليتك! لقد تعمدت ألا أحدثك عن قضيتك رغم أن الفضول ينهض فؤادي؟ إنها قضية خيالية! كنت أريد إرجاءها إلى مرة أخرى لكنك تستطيع أن تستفز شعور الميت... حسناً، هيا! لكنني أحذرك بأنني مضطر إلى العروج على منزلي لآخذ بعض المال. ثم سأغلق الباب بالمفتاح وأقفز إلى عرب تحملني إلى الجزر حيث سأقضي المساء. فلمَ إذن تتبعني.

- إن لي ما أعمله كذلك في البيت على كل حال فإنني لا أقصد منزلك. بل منزل صوفي سيميونوفنا لأعتذر إليها عن عدم حضوري تشييع جثمان أمها.

- كما يحلو لك. لكن صوفي سيميونوفنا ليست في البيت. لأنها ذهبت تقود الأولاد الثلاثة إلى سيدة عجوز، سيدة أعرفها منذ زمن بعيد، ترأس الآن أحد المياتم. لقد أعربت هذه السيدة عن ابتهاجها بوضع الأطفال تحت إشرافها عندما قدمت لها المال الذي حدثتك عنه باسم أطفال كاترين إيفانوفنا إلى جانب مبلغ آخر وهبته للمؤسسة. لقد قصصت عليها قصة صوفي سيميونوفنا دون أن أخفي عنها حرفاً واحداً منها. فأحدثت في نفسها أثراً لا يمكن وصفه. لهذا السبب دُعيت صوفي سيميونوفنا اليوم للمثول في الفندق أمام السيدة المذكورة التي نزلت هناك مؤقتاً عند عودتها من الاصطياف.

- ليكن. سأذهب مع ذلك؟

- كما تشاء. لسوف أصحبك لأن لا عمل لي هناك! حسناً ها قد

وصلنا إنني واثق من أنك إذا كنت تنظر إلي بمثل هذه النظرة المرتابة فما ذلك إلا لأنني تلطفت معك، فما أردت إقلاقك وإرهاقك بالأسئلة، هل تسمعني؟ أراهن على أن هذا التصرف من قبلي بدا لك شاذاً غريباً! فكن إذن رقيقاً بعد هذا.

ـ أنت يا من تسترق السمع وراء الأبواب!

فقال سفيدريكايلوف بعد أن أطلق ضحكة مرحة:

ـ آه! لنقل! لقد أدهشني أن لا تكون قد أبديت هذه الملاحظة من قبل! على الرغم من أنني أعرف نتفاً عن... مشاكلك هناك كما رويتها لصوفي سيميونوفنا، فإنني مع ذلك لم أصل إلى حقيقتها الأخيرة. لا شك أنني رجل متأخر رجعي عاجز عن فهم أي شيء. لذلك أرجو أن تفسر لي الأمر يا عزيزي. بحق السماء أعلمني.

ـ إنك تكذب، ما كان يمكنك سماع شيء!

ـ اللّه! إنني لا أحدثك عن هذا ـ بصرف النظر عن أن أكون قد سمعت كل شيء ـ كلا إنني أهدف إلى زمجراتك الأبدية! ذلك الـ«شيلر» الذي يقلقك في كل لحظة. إنك إذا كنت لا زلت هنا فإن ذلك يعادل عندي الذهاب إلى قسم البوليس والإدلاء بأنه قد وقع لك كذا وكذا. إنه مجرد خطأ في النظرية. فإذا كنت تعتقد أنه لا يحق للمرء الاستماع وراء الأبواب وأنه مع ذلك يستطيع ذبح النساء الطيبات اللاتي يقعن تحت يده فهو لعمري غريب. ارتحل إلى أمريكا أو إلى حيث تشاء! أسرع أيها الشاب! لا زال الوقت مناسباً. إنني أتحدث إليك بإخلاص. وإذا كنت لا تملك مالاً فإنني أمنحك نفقات السفر.

قاطعه راسكو لنيكوف باشمئزاز:

ـ إنني لا أفكر مطلقاً في هذا.

ـ إنني أفهم ـ على كل حال لا تزعج نفسك لأنك إذا كنت لا تريد الكلام فمن العبث أن نستهلك لعابنا ـ إنني أفهم أن هناك أسئلة تجول في رأسك. وأنها أسئلة أخلاقية أليس كذلك؟ من ذلك النوع ذي المساس بالرجل، بالمواطن؟ دع هذه الأسئلة جانباً. لمَ تفكر فيها في هذه اللحظة. هيه هيه!؟ ألا زلت تفكر في الرجل وفي المواطن؟ في مثل هذه الحال ما كان ينبغي لك أن تحشر نفسك في مأزق كهذا. اطلق على رأسك الرصاص. ألم تفكر في هذا ذات مرة؟

ـ إنك تحاول كما يبدو لي إزعاجي بكل الوسائل لأبتعد عنك في هذه اللحظة.

ـ ما أسخف تفكيرك! لكننا وقد وصلنا. ها هو ذا السلم، لنصعد أرجوك. انظر، ها هو ذا مدخل صوفي سيميونوفنا. ألا ترى أن المسكن خال! ألا تصدق؟ سل آل كابير ناؤوموف، إنها تترك مفتاحها لديهم. هه. هذه هي السيدة كابير ناؤوموف. همْ؟ ماذا؟ ـ إنها صماء قليلاً ـ خرجت صوفي إيفانوفنا؟ أين ذهبت؟ حسناً. هل تأكدت الآن؟ إنها غير موجودة ويجوز أن لا تعود إلا متأخرة. والآن تعال إلى مسكني لأنك ولا شك تريد أن تدخل إليه. ها نحن أولاء. إن السيدة ريسليش ليست في المسكن. إن هذه المرأة لا تني تتحرك، لكنها سيدة باسلة وأؤكد لك... يمكنها أن تكون نافعة لك إذا بدوت أكثر تعقلاً. ألا ترى؟: إنني آخذ من مكتبي هذا المبلغ ـ انظر كم بقي لدي من المال ـ أما هذا فلسوف أنفقه اليوم. هيا هل رأيت؟ لا وقت لدي أضيعه! إنني أغلق مكتبي وأغلق باب المسكن وها نحن أولاء على السلم. أتريد أن تستقل عربة؟ إنني ذاهب إلى الجزر. هل يعجبك أن تقوم بجولة في العربة؟ خذ. لسوف أستقل هذه

وأسأل السائق أن يقودني إلى رأس «إيبلاغين». هل ترفض؟ هل أنت تعب؟ هيا لنقم بجولة معاً! إنني أعتقد أن المطر على وشك الهطول. لكن لا بأس لسوف نرفع غطاء العربة.

كان سفيدريكايلوف في تلك اللحظة جالساً في العربة يتحدث، فاقتنع راسكو لنيكوف بأن ظنونه كانت ـ على الأقل في تلك اللحظة ـ خاطئة. فاستدار على عقبيه ومضى دون أن ينطق بكلمة. لكنه استطاع أن يرى سفيدريكايلوف يستوقف العربة بعد مائة خطوة فيدفع للسائق أجرة ثم يسير على الرصيف. لكنه لم يكن يشك في شيء. لذلك سرعان ما انعطف عند زاوية الشارع. كان يشعر بتقزز ينفره من سفيدريكايلوف. كان يهتف دون تعمد: «يا للقذر النذل! كيف استطعت الإصغاء إلى ترهات هذا البغيض!» والحقيقة أن راسكو لنيكوف كان متعجلاً في حكمه ضد سفيدريكايلوف فكان حكمه طائشاً، إذ إن تصرف سفيدريكايلوف كان يوحي إليه بشيء من الغرابة إذا لم نقل من الغموض. وكان راسكو لنيكوف مؤمناً بأنه لن يترك أخته بسلام، لكن هذا الشعور كان يؤلمه ويزعجه مجرد التفكير فيه في تلك اللحظة.

وعلى جري عادته، استغرق ـ بعد أن قطع عشرين خطوة ـ في تفكير عميق. ولما بلغ الجسر، توقف أمام الحاجز وراح يتأمل الماء بينما كانت أفدوتيا رومانوفنا تتابعه ببصرها.

كان قد مر بها عند مدخل الجسر دون أن ينظر إليها، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تلتقي به دونيا في الشارع على ذلك الشكل. لذلك فقد عصرت الدهشة قلبها. فلبثت واقفة مشدوهة بدورها لا تعرف إذا كان ينبغي لها أن تناديه أم لا. وفجأة رأت سفيدريكايلوف آتياً بسرعة من جهة «سوق العلف».

كان يبدو على هذا الأخير أنه يتقدم بحذر وحيطة لأنه لم يتجه مباشرة نحو الجسر بل توقف على الرصيف منتحياً جانباً محاولاً عدم اجتذاب انتباه راسكو لنيكوف. كان منذ بعض الوقت يرى دونيا في موقفها ويشير إليها بعض الإشارات. بدا أنه يشجعها بتلك الإشارات على ترك أخيها واللحاق به حيث كان يقف.

وهكذا تصرفت دونيا، إذ ابتعدت عن أخيها دون أن تنطق بكلمة واقتربت من سفيدريكايلوف.

همس سفيدريكايلوف قائلاً:

ـ هيا أسرعي. لا أريد أن يعرف روديون رومانوفيتش شيئاً عن لقائنا. إنني أخطرك بأنني خرجت للتو من حانة قريبة من هنا، حيث جاء يبحث عني هناك، وإنني وجدت صعوبة من التخلص منه. لقد بلغه شيء من الرسالة التي كتبتها لك. إنه يرتاب في شيء ما. آمل أن لا تكوني قد تحدثت إليه بشيء. لكن إذا لم يكن أنت التي تحدثت، فمن الذي تحدث إذن؟

قاطعته دونيا قائلة:

ـ ها قد انعطفنا حول زاوية الشارع؟ إن أخي لا يمكن أن يرانا الآن. إنني أصرح لك بأنني لن أتبعك إلى أبعد من هنا. فأخبرني بكل ما تريد. إذ يمكن التحدث بكل شيء في الشارع.

ـ أولاً إن الأمر لا يمكن التحدث عنه في الشارع. ثانياً ينبغي أن تسمعي أقوال صوفي سيميونوفنا، وثالثاً لدي مستندات ينبغي أن تطلعي عليها... لكنك إذا كنت ترفضين المجيء إلى مسكني فإنني أرفض بدوري الإدلاء بأي شيء وأذهب من فوري. أضف إلى ذلك أنني أرجوك أن لا تنسي أن سراً خطيراً يتعلق بأخيك المحبوب موجود بين يدي.

توقفت دونيا مترددة وهي تسبر سفيدريكايلوف بنظرة عميقة. قال هذا معقباً:

ـ ممَ تخافين؟ إن المدينة ليست كالريف. لقد سببت لي في الريف من الإساءات أكثر مما سببت لك... وهنا...

ـ هل أخطرت صوفي سيميونوفنا؟

ـ كلا إنني لم أهمس لها بكلمة. بل إنني لست متأكداً مما إذا كانت الآن في مسكنها. لكنها ينبغي أن تكون هناك. لقد دفنت اليوم زوجة أبيها. ومثل هذا اليوم لا يصلح لقيامها بزيارات. إنني لن أتحدث عن هذه الأشياء إلى أي كان قبل اللحظة المناسبة. بل وإنني آسف على ما أطلعتك عليه منها لأن أقل هفوة هنا تعادل تشهيراً كاملاً. انظري إنني أقطن هنا، في هذا البيت الذي أمامك والبواب يعرفني جيداً، ألا ترين أنه يحييني؟ إنه يرى أنني في صحبة سيدة ولا شك أنه لاحظ وجهك وعرفه وهذا يحملك على الاطمئنان إذا ما كنت تخافين مني أو كنت لا تثقين بي. أرجو أن تعذريني إذا كنت أتحدث إليك بهذه الغلظة. إنني أسكن هنا مستأجراً عند سيدة ولا يفصلني عن مسكن صوفي سيميونوفنا إلا جدار، لأنها هي الأخرى تقطن في غرفة مؤثثة. إن الطابق كله مشغول بالمستأجرين. فلمَ إذن تخافين كالأطفال؟ أأكون مرعباً إلى هذا الحد؟

أشرقت على وجه سفيدريكايلوف ابتسامة ليظهر وده وكرمه، لأنه كان في مسيس الحاجة إلى الابتسام. بيد أن قلبه كان يقرع بعنف في صدره اللاهث. كان يحاول تغطية اضطرابه المتزايد بتصنع الخشونة في صوته. غير أن دونيا لم تلاحظ ذلك الاضطراب العنيف الذي كان يعصف بكيانه لأنها شعرت بانزعاج لاتهامه إياها بالخوف كالطفل الصغير وأظهر لها أنه يرعبها بهذا الشكل. فقالت:

ـ على الرغم من أنني أعتبرك رجلاً... عديم الشرف. فإنني لا أخاف منك مطلقاً. سر أمامي.

كانت لهجتها هادئة شرسة لكن وجهها كان شديد الشحوب.

توقف سفيدريكايلوف أمام مسكن سونيا:

ـ اسمحي لي أن أتأكد قبل كل شيء مما إذا كانت سونيا في مسكنها. كلا، يا لسوء الحظ! لكنني أعرف أنها ستحضر بين لحظة وأخرى وأنها إذا كانت متغيبة الآن فما ذلك إلا لذهابها لمقابلة سيدة بصدد الأيتام الثلاثة. لقد ماتت أمهم منذ حين، وأخذت الأمر على عهدتي. فإذا لم تعد صوفي سيميونوفنا خلال عشر دقائق فإنني سأرسل من يبحث عنها إذا شئت. ها هو ذا مسكني، وهاتان هما الغرفتان اللتان أشغلهما. إن صاحبة مسكني تقطن في الجانب الآخر من هذا الباب. والآن انظري هنا، سأطلعك على وسائلي الرئيسية: إن غرفة نومي متصلة بغرفتين أخريين خاليتين معدتين للإيجار. ها هما... ينبغي أن تنظري إليهما الآن بشيء من الانتباه.

كان سفيدريكايلوف يشغل غرفتين مؤثثتين فسيحتين. أجالت دونيا نظرة حولها بشيء من الحذر. فلم تجد شيئاً مريباً، لا في المسكن ولا في إعداد الغرف. لكنها كانت تستطيع أن تلاحظ أن مسكن سفيدريكايلوف كان يقوم بين مسكنين آخرين خاليين تقريباً إذ إن المدخل إلى غرفتيه لم يكن يطل مباشرة على الردهة بل كان ينبغي للوصول إلى مسكنه أن يتخطى الداخل غرفتين شبه خاليتين تشكلان جزءاً من شقة صاحبة المسكن. فتح سفيدريكايلوف باب غرفة كان مغلقاً بالمفتاح وأشار إلى دونيا يدعوها إلى دخول المسكن الخالي المعد للإيجار فتوقفت على العتبة لا تفهم السبب الذي يدعوها سفيدريكايلوف من أجله إلى ولوجها، بادر هذا إلى تقديم التفسير:

ـ انظري إلى هذه الغرفة الثانية وتأملي هذا الباب. إنه مغلق بالمفتاح لاحظي أن هناك مقعداً قرب الباب وأنه المقعد الوحيد في هاتين الغرفتين. لقد جئت به بنفسي من مسكني لأصغي بشكل مريح. إن وراء هذا الباب مباشرة تقع منضدة صوفي سيميونوفنا. وقد كانت جالسة، بالقرب منها تتحدث إلى روديون رومانوفيتش. لقد قضيت هنا أمسيتين متعاقبتين جالساً على هذا المقعد أصغي طيلة ساعتين كاملتين كل ليلة. لقد أتاح لي ذلك الاطلاع على أمر ما. ماذا تعتقدين أنه يكون؟

ـ لقد استرقت السمع وراء الباب؟

ـ نعم لقد استرقت السمع وراء الباب. والآن عودي إلى مسكني. فليس هنا ما نستطيع الجلوس عليه.

قاد أفدوتيا رومانوفنا إلى الغرفة الأولى التي يستعملها كغرفة استقبال وقدم لها مقعداً، ثم جلس بدوره إلى الجانب الآخر من المنضدة على مسافة من الفتاة. لكن عينيه كانتا تلتمعان بذلك البريق الذي كان يخيف دونيا من قبل. فسرت رعدة في أوصالها، ونظرت مرة أخرى بحذر حولها. كانت تريد إظهار خوفها وحذرها. غير أن موقع مسكن سفيدريكايلوف المنفرد جعلها مشوشة البال قلقة. ودت لو سألت عما إذا كانت صاحبة المسكن موجودة. لكن اعتدادها وكبرياءها منعاها من إلقاء ذلك السؤال. كان قلبها فريسة ألم آخر شديد يفوق خوفها على نفسها. وأصبح القلق لا يحتمل فقالت وهي تضع الرسالة على المنضدة:

ـ هذه رسالتك. هل ما جاء فيها صحيح؟ إنك تلمح فيها إلى جريمة تعتبر أن أخي ارتكبها وتلميحاتك واضحة جداً فلا تحاول الآن استدراكها. اعلم أنني سمعت شيئاً عن هذه القصة العجيبة قبل أن أطلع على رسالتك

لكنني لا أصدق كلمة واحدة مما قيل ويقال. إن افتراضاً كهذا مضحك وبشع معاً. إنني أعرف هذه القصة والطريقة التي حيكت بها. إنه يستحيل عليك أن تقدم أي دليل على صحتها. لكنك وعدت بإثبات قولك بالدليل. فتكلم إذن! لكن اعلم أولاً بأنني لا أصدقك! كلا إنني لا أصدقك.

نطقت دونيا بتلك الكلمات بحماسة وطلاقة فاصطبغ وجهها باللون الأحمر:

ـ إن الشجاعة لا تنقصك، ما في ذلك ريب. وقد كنت أعتقد أنك ستطلبين إلى السيد رازوميخين أن يصطحبك إلى هنا، لكنه لم يظهر لا معك ولا في الأمكنة القريبة من هنا. لقد عنيت بالتأكد من ذلك بنفسي. وهذا دليل على تعقلك لأنك أردت التستر على روديون رومانوفيتش. ثم إن الأمر بالنسبة إليك يختلف عنه لدى أي شخص آخر. أما ما يتعلق بأخيك فماذا أقول لك؟ لقد شاهدتيه منذ لحظات. إنه جميل أليس كذلك؟

ـ إنك لا تبني أقوالك على هذا فقط؟

ـ كلا إنني لا أبنيها على هذا، بل على أقواله الشخصية. لقد جاء ليلتين متعاقبتين إلى مسكن صوفي سيميونوفنا، قد بينت لك المكان الذي يجلسان فيه. لقد اعترف لها اعترافاً كاملاً. إنه قاتل، لقد قتل المرابية العجوز التي كان قد رهن بعض أشيائه عندها، وقتل كذلك أختها المدعوة إليزابيت والتي كان من تعاستها أن دخلت عندما كان قد فرغ من قتل الأولى. لقد قتلهما ليسرق، وقد سرق. لقد أخذ نقوداً وحلياً... لقد قص بنفسه هذا القول كلمة فكلمة على صوفي سيميونوفنا. إنها وحدها تعرف هذا السر لكنها لم تكن مشتركة في الجريمة لا بالقول ولا بالفعل بل إنها ذهلت لاعترافه تماماً كما أنت ذاهلة الآن. إنما لك أن تطمئني، لأنها لن تشي بأخيك.

تمتمت دونيا وقد ابيضت شفتاها واختنق صوتها:

ـ إن ذلك لا يمكن أن يكون! إن ذلك لا يمكن أن يكون! لم تكن لديه أية أسباب أو مبررات... إن هذا خطأ! إن هذا خطأ!

ـ لقد سرق والمبرر هو السرقة! لقد أخذ مالاً وحلياً. صحيح أنه ـ حسب اعترافه ـ لم يستفد لا من هذا ولا من تلك، بل إنه أخفاها تحت حجر حيث لا زالت حتى الآن، لكن ذلك مبعثه خوفه من استعمال تلك المسروقات.

هتفت دونيا وهي تنهض واقفة بانتفاضة عنيفة:

ـ هل يتقبل العقل أن يكون أخي سارقاً؟ بل أن يكون قد فكر في هذا مجرد تفكير؟ إنك تعرفه وقد رأيته فهل يمكن أن يكون لصاً؟

كانت تتوسل إلى سفيدريكايلوف بعد أن نسيت خوفها؟

ـ إن في العالم يا أفدوتيا رومانوفنا ملايين وملايين من الاصطلاحات والأنواع. فهناك لص يمارس السرقة لنفسه ولا ينكر أنه لص وقد سمعت بنفسي عن شخص ذي محتد من أسرة كريمة سلب عربة بريد. من يدري؟ لعله فكر بعملية أسوأ من ذلك! لا شك أنني كنت سأتصرف مثل تصرفك لو أن الأمر نقل إلي من قبل شخص ثالث. لكنني لا يمكنني أن أغالط ما سمعته بأذني. لقد سرد على صوفي سيميونوفنا الأسباب الموجبة كلها. لكن هذه أيضاً لم تكن تريد تصديق أذنيها. ولولا أنها شهدته بعينيها لما آمنت بأقواله.

ـ ماذا كانت... تلك الأسباب إذن؟

ـ إن نقل هذه الأسباب يا أفدوتيا رومانوفنا سيطول شرحه. كيف أفسر لك الأمر؟ إنه يستلهم نظريته العتيدة التي يتيح لي مثلاً ارتكاب إثم

بديع إذا كان هدفي الرئيسي صالحاً وعادلاً! أي أن إثماً واحداً تبرره مائة إحسان وحسنة! ثم أليس مخزياً بالنسبة إلى شاب موهوب ذي كرامة لا تضاهى أن يعتقد بأنه لو امتلك ثلاثة آلاف روبل فقط لأمكن له تبديل حياته ومستقبله له؟ فيرى بعد ذلك أنه لا يمتلك تلك الآلاف الثلاثة من الروبلات؟ أضيفي إلى ذلك الانفعال الذي يحدثه الجوع وضيق الزنزانة التي تعيش فيها والأسمال التي يرتديها والضمير الحي والمركز الاجتماعي الذي يشغله ثم موقف أمه وأخته ـ وكذلك على ما أظن ـ الغرور والكبرياء مع ـ واللّه يعلم ـ بعض العواطف الطيبة الأخرى!... إنني لا أتهمه ولا أريد اتهامه. فأرجو أن لا تصدقي ما قلت. ثم إنني لست في مركز يخولني الاتهام لقد كان يحتفظ بنظريته فوق كل ذلك ـ تلك النظرية التي تساوي نظرية أخرى مماثلة ـ والتي بموجبها تنقسم الإنسانية بين رجال ومواد أولية أي بين رجال موهوبين، يمتلكون مستوى عقلياً عالياً يرفعهم فوق القوانين ويجعلهم يملون شرائعهم وقوانينهم على الآخرين، على أولئك الذين يشكلون المواد الأولية أو التراب البشري. نعم إنها نظرية كأية نظرية أخرى. إنه شديد الإعجاب بنابليون حتى إنه استسلم إلى اعتبار ينص على أن العباقرة لا يصغون عادة إلى حالات التعسف الشخصية بل إنهم يتجاوزونها دون أن يشعروا بأي ارتباك فتخيل نفسه ـ كما اعتقد ـ أحد أولئك العباقرة أو أنه على الأقل اقتنع بذلك خلال فترة من الزمن. لقد تألم كثيراً أو لا زال يتألم حتى الآن كلما شعر أنه كوّن نظرية دون أن يستطيع تنفيذها والتجاوز عن حالة خاصة بملء ضميره ليثبت لنفسه أنه رجل عبقري! نعم إن ذلك يخجل شاباً يعمر الإباء قلبه خصوصاً في زمننا هذا...

ـ لكن أين تبكيت الضمير؟ إنك تنكر عليه كل إحساس أخلاقي، فهل كل ما تقوله حقيقة؟

ـ آه يا أفدوتيا رومانوفنا! إن كل شيء قد أصبح اليوم عاليه سافله. أضف إلى ذلك أنه لم يسر حتى اليوم نظام شديد الكمال. إن الروسيين بصورة خاصة يا أفدوتيا رومانوفنا ذوو عقول كبيرة واسعة كأرضهم وهم ميالون إلى الفوضى والأهواء العابرة. إنه من الخطر كل الخطر أن يكون للمرء عقل كبير دون أن يوهب شيئاً من العبقرية. تذكري أحاديثنا القديمة حول هذا الموضوع عندما كنا هناك في الريف جالسين ذات مساء بعد طعام العشاء على الشرفة. لقد كنت ذلك الحين تعيبين عليّ ذلك الاتساع الفكري... من يدري لعلنا حينما كنا نتكلم في هذا الأمر كان «هو» يصمم ويتدبر عمليته التي نحن بصدد التحدث عنها. إن التقاليد المحترمة لا تسمو في مجتمعنا المثقف. إن بعضها يؤخذ من الكتب... أو إنها تُنقل مشوهة عن الأقاويل القديمة غير أن معظمهم علماء يبلغ من سخفهم وتعنتهم أن الرجل العادي يخجل من مقارنة نفسه بهم. على كل حال إنك تعرفين آرائي بصورة عامة. أنا لا أتهم أحداً وإنني شخصياً أتحاشى الاندماج في شيء من هذا. لقد تحدثنا فيه أكثر من مرة، وأعتقد أن نظرياتي قد لاقت بعض القبول منك. إنك شديدة الشحوب يا أفدوتيا رومانوفنا.

ـ إنني أعرف النظريات التي يبشر بها. لقد قرأت في إحدى المجلات مقالاً عن الأشخاص الذين يباح لهم كل شيء. لقد جاءني رازوميخين بتلك المجلة.

ـ السيد رازوميخين؟ هل أتاك بمقال لأخيك؟ هل مثل هذا المقال موجود؟ إنني كنت أجهل ذلك. لعمري إن هذا غريب. لكن إلى أين تذهبين يا أفدوتيا رومانوفنا؟

أجابت دونيا بصوت مختنق:

ـ أريد رؤية صوفي سيميونوفنا. أين الطريق إلى غرفتها؟ لعلها رجعت. أود رؤيتها فوراً. ينبغي أن تكون...

لم تستطع أفدوتيا رومانوفنا متابعة قولها فقد شعرت بضيق في تنفسها واحتبس صوتها:

ـ أعتقد أن صوفي سيميونوفنا لن تعود قبل حلول الظلام لأنه كان عليها أن تكون هنا منذ زمن طويل لولا أن...

صرخت دونيا وهي فريسة انفعال مجنون وقد فقدت السيطرة على أعصابها:

ـ آه! هكذا إذن كذبت! إنني أرى الآن أنك كنت تكذب! لقد كنت كاذباً في كل شيء. لن أصدقك! كلا لن أصدقك!

وسقطت شبه مغمي عليها على المقعد الذي بادر سفيدريكايلوف إلى تقديمه إليها:

ـ ما بك يا أفدوتيا رومانوفنا؟ تمالكي نفسك! إليك جرعة من الماء. أشربي.

ونضح على وجهها قليلاً من الماء فانتفضت دونيا وعادت إلى صوابها.

غمغم سفيدريكايلوف محدثاً نفسه وقد بدا الانزعاج على وجهه:

ـ يا للأثر الذي خلفه ذلك في نفسها؟!

ثم تابع بصوت مرتفع:

ـ يا أفدوتيا رومانوفنا اهدئي! إنك تعرفين أن له أصدقاء! لسوف ننقذه ونخلصه من محنته! أتريدين أن أساعده على اجتياز الحدود؟ إن لدي ما يلزم من المال وأستطيع الحصول على جواز سفر له خلال ثلاثة

أيام. أما بشأن ارتكابه جريمة قتل فإنه يستطيع في المستقبل أن يعمل كثيراً من الأعمال الصالحة التي تمحو هذه الخطيئة فاطمئني. قد يستطيع أن يصبح رجلاً كبيراً. هيا ماذا بك؟ كيف تشعرين بنفسك؟

ـ أيها الرجل الخبيث! ويحك إنك تجد وسيلة للتهكم. دعني...

ـ ولكن أين تذهبين؟... إلى أين تمضين؟

إليه. أين هو؟ هل تعرف مكانه؟ لمَ هذا الباب مغلق بالمفتاح؟ لقد دخلنا من هنا وها هو الباب مغلق بالمفتاح. متى استطعت إغلاقه؟

ـ ليس من الضروري أن نهتف على رؤوس الأشهاد معلنين ما نتحدث عنه. إنني لا أسخر مطلقاً وقد كفاني ما تحدثت به حتى الآن. ولكن أين تمضين هكذا؟ هل تريدين أن يوقف؟ لسوف تثيرين حفيظته فيذهب بنفسه ويستسلم. اعلمي أنهم الآن يراقبونه ويتأثرون بخطاه وإنك بذهابك إليه تعجلين نهايته. انتظري: لقد كنت معه منذ قليل وتحدثت إليه. اصبري واجلسي. سوف نفكر معاً فيما ينبغي عمله. لقد دعوتك من أجل هذا، لكي أتحدث معك في خلوة فنناقش الموضوع مناقشة عميقة. لكن اجلسي!

ـ كيف تستطيع إنقاذه؟ هل يمكن إنقاذه؟

جلست دونيا، فجاء سفيدريكايلوف وجلس إلى جانبها! وقال بهمس وقد اتقدت عيناه ببريق خاطف:

ـ إن الأمر يتوقف عليك، وعليك وحدك.

كان يجد صعوبة كبيرة في إيجاد الكلمات بل إن اضطرابه وانفعاله حالا دونه والتلفظ ببعضها.

ـ ذهلت دونيا وتراجعت إلى مسافة بعيداً عنه. كان سفيدريكايلوف نفسه يرتعد من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. تابع:

ـ أنت... كلمة منك فيها نجاته! سوف... أنقذه. إن لي أصدقاء وما يكفي من المال. سوف أسعى لترحيله وسأحصل على جوازين أحدهما له والآخر لي. إن لدي أصدقاء شديدي الإخلاص لي. هل تريدين؟ ماذا يهمك رازوميخين؟ إن حبي لك ليس أدنى من حبه... إنني أحبك بكل عواطفي. دعيني أقبل طرف ثوبك. دعيني، دعيني أعمل ذلك! إنني لا أستطيع الإصغاء إلى حفيف ثوبك. مريني أن أعمل شيئاً بعينه وسأعمله. المستحيل. سأعمل سأؤمن بما تؤمنين به وسأعمل كل شيء... كل شيء! لا تنظري إلي هكذا، لا تنظري إليّ هكذا. إنك تعرفين بأنك تقتلينني!

راح يهذي وقد وقع فريسة شيء ما. وبدا كأنه فقد صوابه.

فقفزت دونيا إلى الباب وصاحت خلال ثقب القفل وكأنها تدعو أحداً لنجدتها. بينما راحت يداها تهزان الباب بعنف.

ـ افتحوا! افتحوا! هيا افتحوا! ألا يوجد أحد في البيت؟

تمالك سفيدريكايلوف نفسه، فتناهض وقد بدت على وجهه ابتسامة خبيثة مستهزئة، ومر بلسانه على شفتيه المرتجفتين، ثم قال ببطء وبصوت متهدج:

ـ لا يوجد أحد في البيت. إن صاحبة المسكن قد خرجت وإنك لتضيعين وقتك بالصياح. إنك تسببين لنفسك اضطراباً لا فائدة منه.

ـ أين المفتاح؟ افتح الباب فوراً. افتحه على الفور أيها المخلوق النذل!

ـ لقد أضعت المفتاح ولا أستطيع إيجاده.

صاحت دونيا وقد شحب وجهها حتى حاكى وجوه الأموات.

ـ آه إنه اغتصاب!...

واندفعت إلى أحد الأركان حيث احتمت وراء نضد صغير كان قريباً منها. لم تعد تصيح. لكنها كانت تصعق جلادها بنظراتها وهي متيقظة لكل حركة من حركاته. غير أن سفيدريكايلوف لم يتحرك من مكانه بل لبث واقفاً قبالتها في الجانب الآخر من الحجرة. استطاع ـ ظاهرياً على الأقل ـ أن يضبط أعصابه رغم أن وجهه ظل شاحباً والابتسامة الساخرة لم تفارق شفتيه.

ـ لقد تحدثت عن الاغتصاب يا أفدوتيا رومانوفنا. إنها لو كانت خدعة لأمكنك التفكير بأنني اتخذت كل احتياطاتي: فصوفي سيميونوفنا غير موجودة في غرفتها ويفصلنا عن آل كابيرناؤوموف خمس غرف مغلقة بالمفاتيح. ثم إنني أقوى منك مرتين على الأقل. وإلى جانب ذلك فإنني لا أخشى شيئاً آخر. لن تستطيعي شكايتي إلى المسؤولين لأنك لا تريدين خيانة أخيك، أليس كذلك؟ ثم إن أحداً لن يصدقك! إذ كيف يجوز أن تدخل فتاة بمفردها مسكن رجل؟ على هذا فإنك ستفقدين أخاك دون أن تستطيعي التدليل عليَّ بشيء رغم ذلك. إنه من الصعوبة بمكان أن تثبتي وقوع الاغتصاب يا أفدوتيا رومانوفنا.

غمغمت دونيا بغيظ وحنق:

ـ سافل!

ـ إذا شئت. لكن لاحظي أن كل ما قلته لم يكن إلا مجرد عرض. إنني موافق شخصياً على أنك على صواب تماماً! إن الاغتصاب شناعة وفاحشة قبيحة. لقد تحدثت معك فقط لأفهمك بأن ضميرك لن يشعر مطلقاً بأي تبكيت إذا... حتى ولو وافقت بملء رضاك على إنقاذ أخيك كما عرضت عليك فإنك تكونين بذلك قد استسلمت للظروف أو للقوة إذا جاز لنا أن

ننطق بهذه الكلمة. فكري إن مصير أخيك وأمك بين يديك. سأكون عبدك... طيلة عمري... إنني أنتظرك هنا؟

جلس سفيدريكايلوف على الأريكة على بعد ثماني خطوات من دونيا. وما كانت هذه لتشعر بأي شك في تصميمه على ما قال، خصوصاً وأنها ما كانت تجهل عقليته.

وفجأة أخرجت من جيبها مسدساً صلته وأراحت يدها على النضد دون أن تترك المسدس. فنهض سفيدريكايلوف فجأة وهتف بدهشة وهو يتهكم بخبث:

ـ آه! آه! هكذا إذن؟ إن هذا يبدل الموقف من أقصاه! لقد سحبت من قدمي يا أفدوتيا رومانوفنا شوكة مؤلمة كما يقال. لكن من أين لك هذا المسدس؟ هل جاءك من السيد رازوميخين؟ هه، لكنه مسدسي! إنني وإياه صديقان قديمان! ويحي كم فتشت عليه في حينه! إن دروس الرماية التي كان لي شرف تلقينك إياها في الريف لم تذهب ـ كما يبدو ـ هباء.

ـ إنه ليس مسدسك، بل مسدس مارت بيتروفنا التي قتلتها أيها الأثيم! إنك لم تكن تملك شيئاً في بيتها. لقد أخذته عندما ارتبت في نواياك. وفيما تستطيع عمله. أقسم لك أنك إذا خطوت خطوة واحدة قتلتك!

كانت دونيا في أوج غضبها وانفعالها. وكانت تمسك المسدس معداً للإطلاق.

سأل سفيدريكايلوف وهو واقف في مكانه لا يبرحه:

ـ وأخوك؟ إنني ألقي عليك هذا السؤال لمجرد الفضول.

ـ فلتش به إذا شئت! لا تتحرك! لا تقترب! سأطلق! لقد سممت زوجتك وأنا أعرف ذلك. إنك أنت أيضاً قاتل...

ـ هل أنت واثقة من أنني دسست السم لمارت بيتروفنا؟

ـ إنه أنت!... لقد ألمحت بذلك مرة أمامي. لقد حدثتني عن نوع من السم... إنني أعرف أنك ذهبت تستحضره... إن كل شيء كان معداً... إنه أنت... لا يمكن أن يكون أحد غيرك أيها الحقير!

ـ لنفرض أن هذه هي الحقيقة، فإنني أكون قد عملت ما عملت من أجلك... إنك تكونين السبب.

ـ كاذب. لقد كنت أمقتك دائماً.

ـ آه آه! يا أفدوتيا رومانوفنا! أرى أنك نسيت كيف كنت تنحنين عليَّ وأنت في شبه إغماء تحت وطأة تبشيرك بالفضيلة... إنني كنت أقرأ في عينيك: تذكري ذات مساء تحت ضوء القمر. لقد كان هناك بلبل يغرد.

ومضت حدقتا دونيا بلهيب الغضب وصاحت:

ـ كاذب! إنك تكذب أيها المفتري الأثيم!

ـ أنا أكذب؟ حسناً إنني أكذب. لقد كذبت. ليكن.

وضحك ضحكة تقلص لها وجهه وأردف:

ـ لا يليق بي تذكير النساء بمثل هذه الأمور. إنني أعرف أنك ستطلقين النار أيها الحيوان الصغير الجميل. حسناً لعمري اطلقي!

صوبت دونيا مسدسها وهي شاحبة كالموتى مرتعدة الشفة بيضاؤها، ونظرت إليه بعينين سوداوين يشع منهما اللّهيب، تفيضان بالعزم والتصميم وسددت الفوهة نحوه وانتظرت أن يخطو خطوة واحدة. لم يرها سفيدريكايلوف أجمل مما كانت عليه أبداً. كان الوميض الذي ينبعث من عيني الفتاة وهي تصوب المسدس إليه يزيد في تأجج عواطفه حتى أنه

شعر بقلبه يصهره الألم. تقدم خطوة ودوى الانفجار! مست الرصاصة شعره واصطدمت بالجدار فتوقف وابتسم بوداعة.

ـ لقد لسعتني النحلة! إنها تصوب مباشرة إلى الرأس. ما هذا؟ دم؟

أخرج منديله من جيبه ليمسح الخيط الرفيع من الدم الذي راح يسيل على صدغه الأيمن، إذ يبدو أن الرصاصة خدشت رأسه.

خفضت دونيا المسدس ونظرت إلى سفيدريكايلوف بذهول مريع لا يخلو من الخوف، بدت كأنها لم تفقه مما عملت منذ حين. بينما تابع سفيدريكايلوف بهدوء دون أن تفارقه الابتسامة وقد انطبع وجهه بمسحة من الحزن العميق:

ـ حسناً لقد أخطأتني اطلقي مرة أخرى. إنني أنتظر وإلا فإنني سأجد من الوقت متسعاً للقبض عليك قبل أن تستطيعي، صلي الزناد من جديد.

ارتعدت دونيا وأعدت مسدسها بسرعة وسددته مرة أخرى وقالت بيأس:

ـ دعني وإلا فأقسم لك أنني سأطلق عليك مرة أخرى... سوف... أقتلك.

ـ ثم ماذا بعد؟ إنني على قيد ثلاث خطوات منك. ويستحيل عليك أن تخطئي. لكنك إذا لم تفعلي... عندئذٍ...

كانت عيناه تومضان، فاقترب منها خطوتين، وضغطت دونيا على الزناد، لكن الرصاصة لم تنطلق.

ـ لم تحسني صليه. لا بأس! لا زال لديك خرطوشة. أعديها. سوف انتظر.

كان سفيدريكايلوف واقفاً على قيد خطوتين منها منتظراً وهي تنظر

إليه. كان في عينيه تصميم وحشي مفعم ببريق شهواني مقيت. أدركت دونيا أنه يفضل الموت على تركها... و... ولا شك أنها ستقتله الآن وهو على بعد خطوتين فقط.

وفجأة ألقت بالمسدس من يدها.

هتف سفيدريكايلوف وهو يزفر زفرة عميقة وكأن قلبه قد تحرر من ثقل ساحق.

ـ لقد ألقته!

لم يكن قلقاً بسبب الموت المرتقب إذ إنه كان من المشكوك فيه أن يكون شاعراً بمثل هذا الإحساس في تلك اللحظة. لقد كان مستغرقاً في شعور قاتم متطير كان يحار في تفسيره ومعرفة بواعثه. اقترب من دونيا وطوقها بذراعه برقة فلم تقاوم بل نظرت إليه مرتعدة كالورقة الجافة في مهب الريح العاتية. كان في نظراتها ضراعة وتوسل. كانت تريد أن تقول شيئاً لكن شفتيها ما كانتا لتسعفانها بالنطق. استطاعت بعد لأي أن تبتهل إليه قائلة:

ـ دعني.

قالتها بلغة المخاطب المفرد خلافاً لأسلوبها في الحديث، فشعر سفيدريكايلوف برعشة انتفض لها جسمه وأحس أن لهجتها في تلك اللحظة كانت مختلفة تماماً عما سبقها من قبل.

سألها بلطف:

ـ على ذلك فلن تحبيني.

هزت دونيا برأسها نفياً.

كرر القول بهمس ويأس:

ـ ولا... يمكنك أن تحبيني؟ أبداً؟

غمغمت دونيا:

ـ أبداً.

عصفت معركة صامته رهيبة في نفس سفيدريكايلوف خلال لحظة خاطفة. تأملها بنظرة يستحيل وصفها ثم رفع ذراعه من حولها فجأة واستدار يوليها ظهره، واتجه نحو النافذة حيث لبث واقفاً. وانقضت لحظات.

ـ إليك المفتاح خذيه واذهبي بسرعة!

كان قد أخرج المفتاح من جيبه الأيسر ووضعه وراءه على المنضدة دون أن ينظر إلى دونيا.

كان ينظر بعناد من النافذة.

اقتربت دونيا من المنضدة لتأخذ المفتاح فهتف سفيدريكايلوف دون أن يلتفت أو يقوم بحركة:

ـ أسرعي عجلي!

كان في هذه الكلمة، كلمة «أسرعي» صدى غريب.

فهمت دونيا كل شيء فأخذت المفتاح واندفعت نحو الباب تفتحه وهرعت خارجة من الغرفة. ولم تمض دقيقة حتى كانت تجري على طول القنال باتجاه جسر «إيكس» وهي كالمخبولة المسعورة.

لبث سفيدريكايلوف ثلاث دقائق قرب النافذة ثم استدار ببطء ونظر حوله. رفع يده بحركة بطيئة إلى جنبيه فقلصت قسمات وجهه بابتسامة غريبة، ابتسامة باهتة حزينة، ابتسامة يائسة. كان الدم قد تجمد على يده

فنظر إلى ذلك الدم بشيء من الغضب ثم غمس قطعة من القماش في الماء وغسل صدغه. وقع بصره على المسدس الذي ألقته دونيا والذي كان قد تدحرج حتى كان بلغ قرب الباب. كان مسدساً قديماً ذا ثلاث طلقات يمكن وضعه في الجيب وكان فيه طلقتان و«كبسولة» واحدة يمكن استخدامها. فكر برهة ثم دس المسدس في جيبه، وحمل قبعته وخرج.

الفَصْلُ السَّادِسُ

طاف ذلك المساء بالبؤر والمواخير واحدة واحدة حتى تجاوزت الساعة العاشرة وعثر على كاتيا في واحدة منها ففتنته إحدى أغنياتها المبتذلة التي تتحدث عن «رجل جائر بشع»:

الذي راح يعانق كاتيا...

قدم سفيدريكايلوف الشراب إليها وإلى عازف الأرغن الذي يرافقها وكذلك إلى المغنين الآخرين والخدم واثنين أو ثلاثة من الكتبة العموميين، واستغرق معهم في الحديث. كان أنف أحد هؤلاء الكتبة منحنياً إلى اليمين وأنف الآخر ملتوياً إلى اليسار مما أثار انتباهه، فرافقهم بعد ذلك إلى حديقة سمر حيث دفع عنهم أجرة دخولهم! كانت تلك الحديقة تنتزع اسمها من شجرة صنوبر واحدة مغروسة فيها وإلى جانبها ثلاث مجموعات من الشجيرات الصغيرة هي كل ما أوجبت إطلاق هذا الاسم على ذلك المكان! وكان وراءها بناء أطلق عليه ـ تجنباً ـ اسم فوكسهول (حديقة عامة تقام فيها حفلات موسيقية راقصة) رغم أنه كان مجرد مشرب حقير يستطيع المرء أن ينعم بقدح من الشاي وأن يجلس إلى واحدة من موائده المطلية بالأخضر وهو الطلاء الذي كان يكسو كذلك خشب المقاعد. كان هناك فرقة من المغنين تفوق رادءة أصواتهم حد الوسط، وألماني من

ميونيخ، ثمل أحمر الأنف، كان يقوم بدور المشعوذ رغم سيماه الكئيب. وكانت مهمة هؤلاء الترفيه عن الزبائن!

اشتبك الكاتبان العموميان في شجار مع عدد من زملائهما كاد أن يبلغ مرتبة استعمال الأيدي؛ وانتدب سفيدريكايلوف للقيام بدور الحكم بينهم. وقد مضى على صدور حكمه أكثر من ربع ساعة دون أن يكف الفريقان عن الصياح والمهاترة والصخب، الأمر الذي جعل سفيدريكايلوف عاجزاً عن فهم أي شيء من الحديث. لكنه خمن ـ حسب كل الظواهر ـ أن أحدهم كان قد سرق شيئاً ما ونجح بعد ذلك في بيعه إلى أحد اليهود لكنه رغم ذلك كان يرفض اقتسام الثمن مع الباقين. وظهر أخيراً أن ذلك الشيء كان ملعقة شاي سرقت من ذلك «الفوكسهول» فافتضح الأمر واكتشفت السرقة وبدأت القضية تتأزم وتقترب من النهاية المزعجة. وأخيراً اضطر سفيدريكايلوف إلى دفع ثمن الملعقة وغادر حديقة السمر!

كانت الساعة حوالي العاشرة، وسفيدريكايلوف لم يشرب شيئاً رغم ذلك التجوال بل إنه اضطر ـ مراعاة للشكل فقط ـ أن يأمر لنفسه بقدح من الشاي لم يقر به! كان الجو خانقاً والسماء سوداء من الغيوم؛ كانت السحب الكثيفة قد بدأت تجتمع في سماء بطرسبورغ آتية من كل الآفاق المحيطة بها. وفجأة هبت العاصفة الصيفية وهطلت الأمطار غزيرة وكأنها تنصب من أفواه القرب. لم تكن حبات المطر تلك التي تساقطت في تلك الساعة من السماء بل كانت سواقي حقيقية من المياه تنهال بعنف على سطح الأرض وراح البرق يتعاقب فيضيء السماء والأرض وما بينهما حتى كان المرء يستطيع أن يعد إلى خمسة قبل أن يخبو الوميض الخاطف.

بلغ سفيدريكايلوف مسكنه بعد جهد عنيف وقد ابتلت عظامه تحت الثياب. ففتح درج مكتبه وأخرج كل ما يملكه من أسهم الانتفاع،

ومزق ورقتين أو ثلاث أوراق ثم أودع أمواله في جيبه. أراد بادئ الأمر أن يبدل ثيابه لكنه بعد أن نظر من النافذة وأصغى إلى أصوات العاصفة في الخارج، لوح بيده بلا مبالاة وعاد فأخذ قبعته وخرج دون أن يغلق الباب. قصد مباشرة مسكن سونيا فوجدها في غرفتها.

لم تكن سونيا وحيدة في غرفتها حينما دخل سفيدريكايلوف، بل كان يجلس حولها أربعة من صغار أطفال آل كابير ناؤوموف، كانت تسقيهم الشاي. فاستقبلته هذه بنظرة احترام وخضوع ونظرت بدهشة إلى ثيابه المبتلة دون أن تتفوه بكلمة. بينما فر الأطفال الأربعة من الحجرة يمتلكهم رعب لا يوصف!

قال سفيدريكايلوف:

يا صوفي سيميونوفنا، قد أسافر إلى أمريكا قريباً ولعل هذا اللقاء هو الأخير من نوعه بيننا إذا آمنا بكل الظواهر البادية في الوقت الحاضر. لذلك فقد جئت أسوي بعض الأمور. أخبريني هل ذهبت لرؤية تلك السيدة؟

بدرت عن سونيا محاولة للكلام، واحمر وجهها فقاطعها مسترسلاً:

- إنني أعرف كل ما قالته لك فلا حاجة بك إلى تكراره. إن هؤلاء الناس يمتازون بلباقة مهنية خاصة! إن أخواتك وأخاك الصغار سيكونون في مأمن من العاديات، وقد دفعت المبلغ الذي خصصته لهم بنفسي وحصلت على إيصالات أودعتها الجهات المسؤولة، وها إنني أقدم لك الآن «إشعارات الاستلام» لتحتفظي بها خشية حدوث أي طارئ. هذا فيما يتعلق بالأطفال. أما أنت، فإليك ثلاثة سندات انتفاع تدر عليك سنوياً خمسة بالمائة من قيمتها الأساسية. اطلب إليك أن يظل هذا سراً بيننا لأنني لا أريد أن يعرف الأمر أحد. سوف تساعدك هذه السندات في مستقبل الأيام يا

صوفي سيميونوفنا لأنك لم تستطيعي متابعة العيش كما كنت في الماضي خصوصاً وأن الأعباء التي أبهظتك بالأمس لم يعد لها وجود اليوم.

تمتمت سونيا:

ـ لقد غمرتني حتى الآن بعطفك ومساعداتك... وكذلك الأيتام و... والمتوفاة رغم أنني حتى الآن لم أشكرك على حسن صنيعك... فلا تظهر أن...

ـ هيا، هيا، هذا يكفي، هذا يكفي!

ـ أما هذا المال يا أركاد إيفانوفيتش، فإنني شديدة الامتنان لك، ولكنني لست في حاجة إليه في الوقت الحاضر. سوف أستطيع اكتساب قوتي بنفسي بعد اليوم فأرجو أن لا تتهمني بالجحود. وبما أنك تواق إلى فعل الخير كما لمست حتى الآن فإن هذا المال...

ـ إنه لك يا صوفي سيميونوفنا، فأرجوك أن تقبليه ولا حاجة إلى الشكر المطول لأنني في عجلة من أمري. إن هذا المال سينفعك، لأن أمام روديون رومانوفيتش طريقتين لا ثالث لهما: إما أن ينتحر وإما أن يمضي إلى سيبيريا.

فنظرت إليه سونيا مروعة وقد اجتاحت جسمها رعدة عنيفة!

ـ لا تقلقي إنني أعرف كل شيء. إنه حدثني بنفسه بكل شيء لكنني لست ثرثاراً. لن أتحدث بما أعرف إلى أي كان. لقد نصحته أنت آخر مرة بالذهاب إلى قسم البوليس والاعتراف بفعلته؛ وإنها لنصيحة ثمينة نافعة. حسناً، لسوف تصحبينه إلى سيبيريا متى حان الوقت أليس كذلك؟ إذن، طالما الأمر كذلك فستكون حاجتك إلى النقود ماسة. سوف تحتاجين إليها من أجله فهل تفهميني؟ إنني إذا أعطيك هذا المبلغ فكأنني أقدمه إليه.

ثم إنك وعدت إميلي إيفانوفنا بتسديد دينها. لقد سمعت هذا الوعد. ألا تدركين أن كاترين إيفانوفنا هي المدينة لتلك الألمانية وليس أنت؟ لذلك فإنك كنت تستطيعين إرسال تلك الألمانية إلى الشيطان! ما هكذا يتصرف المرء في هذه الحياة؟... هيا، إذا سألك بعضهم، ـ ولنقل غداً أو بعد غد ـ عني فلا تتحدثي عن زيارتي هذه ولا تلمحي بأية كلمة إلى المال الذي أقدمه لك الآن؛ إلى اللقاء!.

نهض واقفاً وأردف قبل أن يخرج:

ـ تحياتي إلى روديون رومانوفيتش. وعلى فكرة، سلمي هذه السندات التي أعطيتها لك إلى السيد رازوميخين بانتظار حاجتك إليها. هل تعرفين السيد رازوميخين؟ لا شك أنك تعرفينه؛ إنه شاب باسل! احمليها إليه غداً أو... عندما تجدين الوقت المناسب. ولكن احتفظي بها بانتظار ذلك الوقت في مكان أمين.

كانت سونيا قد نهضت كذلك بدورها وراحت تنظر إليه بهلع. كانت تريد التحدث بشيء ما، إلقاء سؤال ما، لكنها لم تجرؤ على شيء من ذلك ارتج عليها فلم تنطق إلا بكلمات لا تعبر عما في نفسها. قالت:

ـ إنك إذن... إنك إذن ستذهب رغم هذا المطر المدرار!؟

ـ باه! عندما ينوي المرء السفر إلى أمريكا لا يجب أن يبالي بالمطر! إلى اللقاء يا صوفي سيميونوفنا. عيشي وعيشي طويلاً، لسوف تكونين نافعة للآخرين. على فكرة،... قولي لرازوميخين بأنني أهنئه. قولي له: إن أركاد إيفانوفيتش سفيدريكايلوف يقدم إليك تهانيه. لا تنسي ذلك.

وخرج تاركاً سونيا مذهولة مذعورة وقد غمرها شعور معين كان يثقل فؤادها ويؤلمه.

لم يكتف سفيدريكايلوف بهذه الخطوة إذ أنه توجه بعدها ـ وكانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ـ إلى منزل مخطوبته فقام هناك بزيارة غريبة لم يكن أحد يتوقعها... دخل البنك الذي يقطنه أبو خطيبته في فاسيلي أوستروف، وكانت ثيابه شديدة الابتلال بسبب المطر الذي لم ينقطع حتى تلك اللحظة. كانت قطرات تنثل من أطراف ثوبه... قرع الباب قرعاً متواصلاً حتى فتح له. فأحدث دخوله المسكن هرجاً كبيراً. غير أن أركاد إيفانوفيتش كان يمتاز بأساليب مغرية جذابة يستطيع استعمالها متى شاء ليسقط عنه كل الريب والشكوك. وكذلك فإن ذوي الفتاة الذين كانوا يفقدون اتزانهم أبداً، ما كادوا يكونون فكرة ما حول مجيئه المفاجئ ومظهره، حتى انهارت تلك الفكرة من تلقاء نفسها بعد الجمل الأولى من حديث سفيدريكايلوف. خمنوا أن أركاد إيفانوفيتش كان ثملاً لذلك فإنه ما كان يعقل ما يعمل. وكان هذا التخمين على جانب من الحقيقة رغم اختلاف الأسباب...

هرعت أم المخطوبة الشفوق المتعقلة فقدمت إليه مقعد زوجها الخرف السقيم.

كانت تلك المرأة العاقلة لا تطرح أبداً أسئلة مباشرة. فكانت ـ مثلاً ـ إذا أرادت أن تعرف الموعد الذي يروق لأركاد إيفانوفيتش تحديده لزفافه، ابتسمت أولاً وفركت يديها، ثم سألته بفضول ولهفة عن باريس والمجتمع الراقي فيها لتعود به تدريجياً إلى الشارع الثالث على فاسيلي أوستروف! وكان سفيدريكايلوف يصغي إليها من قبل بصبر وسكون بل وفي شيء من الطاعة. أما تلك المرة، فإنه بدا نافد الصبر متعجلاً فطلب ـ ليقطع السبيل على المتحدثة ـ رؤية مخطوبته على الفور رغم أنهم أبلغوه منذ بدء الحديث أنها قائمة. ولا شك ـ طبعاً ـ أن الفتاة قد جاءت لمقابلته بناء على طلبه الملحاح!

فأنبأها دون لف ولا دوران بأنه عازم ـ بسبب ظروف استثنائية ـ على مغادرة بطرسبورغ خلال فترة من الزمن. لذلك فقد جاء يقدم لها ألفاً وخمسمائة روبل أوراقاً نقدية راجياً أن يقتلها كهدية منه لأنه كان يود تقديم مثل ذلك المبلغ التافه هدية لها قبل الزواج. وعلى الرغم من انعدام الارتباط المنطقي بين ذلك التفسير والمبلغ المقدم الذي سيعقبه رحيل مفاجئ، خصوصاً وأن ذلك ما كان يبرر تلك الزيارة المتأخرة تحت ذلك المطر المدرار، فإن الأم والفتاة لم ترفعا اعتراضاً واحداً. بل أن الأسئلة العادية وأمارات التعجب التي لا غنى عنها في مثل ذلك المقام، ولا كانت ـ خلافاً للعادة ـ تنطبع بطابع التحفظ والتعقل. لذلك فإن «أكثر الأمهات تعقلاً» انقلبت فجأة إلى لسان ينطق بالشكر العميق الحار الذي تبلله الدموع والعبرات. وأخيراً نهض أركاد إيفانوفيتش مبتسماً وعانق مخطوبته وربت على خدها بلطف مؤكداً أن غيابه لن يطول! ولما شاهد في عينيها فضولاً ولهفة تجمع بين الجد والصبيانية يتجسد في سؤال صامت، فكر قليلاً ثم عاد فعانقها من جديد وهو يشعر بأسف بالغ على تقديمه تلك الهدية التي ستجعلها أكثر الأمهات تعقلاً حبيسة في صندوقها المغلق بالمفتاح.

خرج من المسكن تاركاً وراءه حالة من الاضطراب العنيف. وتمكنت الأم الرؤوم، من الوصول إلى جواب على عدد كبير من الأسئلة وهي تعالج الأمر بهمس في غرفتها الحقيرة. قدرت أن سفيدريكايلوف رجل هام، رجلاً وا أعمال جمة، كثير المشاغل والعلاقات، ثريٌ مترف، وأن الله وحده يعلم ما طرأ في ذهنه حتى عزم على الرحيل وأعطى هذا المبلغ إلى ابنتها قبل مغادرته العاصمة. فالأمر إذن لا يدعو إلى الدهشة. صحيح أن من الغرابة أن يكون المرء مغرق الثياب بماء المطر لكن أية غرابة في الموضوع إذا كان قد نهج به على الطريقة الإنجليزية؟ ثم إن رجال الوسط الراقي لا

يبالون بأقاويل الناس وهم معتادون على التحرر من الارتباك فلعله تعمد المضي هكذا تحت المطر ليبرهن على أنه لا يخشى أحداً: لكن ينبغي الحذر وعدم الإفصاح بكلمة واحدة عن هذا الأمر إلى أي كان، لأن اللّه وحده يعلم عندئذٍ إلى أين سيقودهم إفشاء هذا السر، ولسوف توضع الأموال في مخبأ أمين، ولا شك أن فوديسيا حسنة الحظ، إذا كانت ستبقى في مطبخها لا تغادره! ولكن للمرة الأخيرة ينبغي السكوت وعدم التحدث بشيء إلى ريشليش أو إلى أي آخر... إلخ إلخ... لبثت الأم وابنتها تتحدثان هكذا بهمس حتى بلغت الساعة الثانية رغم أن المخطوبة، وإن كانت تتصنع الإصغاء إلى أمها، إلا أنها كانت مستغرقة في نوم عميق قبل ذلك بوقت طويل، وهي فريسة الدهشة والحزن.

عندما قرعت الساعة الثانية عشرة كان سفيدريكايلوف يجتاز جسر «إيكس...» قاصداً بطرسبورغ القديمة. كان المطر قد انقطع عن التهطال، غير أن الريح كانت تعصف بشدة. كان يرتجف من البرد وقد أمضى دقيقة كاملة وهو يسأل نفسه وعيناه تنظران إلى مياه «النيفا» الصغير السوداء. قرر أخيراً أن الوقوف هنا فوق الماء يبعث البرد الشديد في أوصاله فاستدار على أعقابه وعاد إلى شارع «إيكس...». سار طويلاً في ذلك الشارع الذي لا ينتهي وأمضى قرابة نصف ساعة في سيره وتعثر أكثر من مرة في الظلام الحالك على الرصيف الخشبي. كان مصمماً على البحث عن شيء يعتقد أنه كائن في مكان ما إلى يمين الشارع، إذ كان قد لاحظ خلال آخر مرة مر بها من هنا، فندقاً مشيداً من الخشب متسع الأرجاء كان اسمه ـ إذا لم تخنه ذاكرته ـ فندق آندرينوبل. وصدقت ظنونه وتخميناته، إذ إن ذلك الفندق كان يشكل نقطة بارزة في بيداء ذلك الشارع المقفر الضائع، وكان يسهل الاهتداء إليه رغم الظلام.

كان ذلك الفندق بناء من الخشب اسوَّدَ لونه بمرور الزمن وكان النور ـ رغم تلك الساعة المتأخرة ـ يستطيع فيه؛ بل وكان الضجيج ينبعث منه عالياً مسموعاً دخل وطلب غرفة من أجير زري الهيئة، قابله في الممشى، فألقى هذا نظرة على سفيدريكايلوف. ثم انحنى له، وقاده إلى غرفة صغيرة نائية ضيقة، يعوزها الهواء، واقعة في آخر الممشى، في زاوية تحت السلم، ادعى أنها الغرفة الوحيدة الخالية. ووقف الخادم القذر وعلى وجهه أمارات الاستفهام.

سأل سفيدريكايلوف:

ـ هل أجد لديكم شاياً؟

ـ نستطيع أن نهيئه لك.

ـ وماذا لديكم كذلك؟

ـ لحم بقر مشوي، وعرق ومقبلات.

ـ ائتني بلحم عجل وبقدح من الشاي.

ـ سأل الخادم في شيء من التردد:

ـ ألست بحاجة إلى شيء آخر؟

ـ لا شيء؟ لا شيء!

فابتعد الخادم وقد تبددت أحلامه.

حدث سفيدريكايلوف نفسه: «ينبغي أن يكون هذا الموضع نظيفاً! كيف شككت في الأمر؟ يبدو أن مظهري يدل على أنني عائد للتو من إحدى صالات الغناء أو إنني استهدفت لمغامرة ما في الطريق. مع ذلك فإنني تواق إلى معرفة نوع من الناس الذين يتوقفون هنا لقضاء ليلهم».

أضاء سفيدريكايلوف الشمعة وراح يتفحص الغرفة بإمعان. كانت قفصاً صغيراً جداً، يتعذر على الرجل إذا كان يماثل سفيدريكايلوف قامة، أن يقف فيها دون أن يلامس رأسه السقف. كانت لها نافذة واحدة وفيها سرير شديد القذارة ومنضدة من الخشب مغطاة بطبقة رقيقة من الدهان، ومقعد كان يحتل تماماً الفراغ القائم بين السرير والمنضدة كله. كانت الجدران تبدو كأنها صنعت من ألواح الخشب المسمرة بعضها فوق بعض، لصقت فوقها أوراق زينة بالية ممزقة، يعلوها الغبار وتملؤها الثقوب، حتى أن المرء لا يكاد يميز رسماً واحداً على سطحها الأصغر. وكان قسم من الجدار والسقف مقطوعاً بانحراف شأن كل الغرف التي تقع أسفل السلالم، لكنها تمتاز عنها بأن السلم فيها كان منحرفاً يشغل مساحة كبيرة من فراغها.

وضع سفيدريكايلوف الشمعة على المنضدة وجلس على السرير يفكر. لكن ضجة غريبة وأصواتاً صاخبة ما انفكت تصك مسامعه. كانت تلك الأصوات ترتفع تارة حتى تبلغ مرتبة الصراخ، وكانت تنبعث من الغرفة الملاصقة. مما أثار فضوله، لأن تلك الأصوات لم تخفت فترة واحدة منذ دخوله الغرفة. أصاخ السمع، فتناهى إليه صوت أحدهم يشتم ويقرع آخر بصوت أقرب إلى البكاء. لكن الآخر ما كان يرد عليه. نهض سفيدريكايلوف واقفاً وأحاط زبالة الشمعة بيده، فتبين إشعاع من الضوء ينبعث من شق في الجدار، اقترب منه وراح ينظر خلاله. رأى غرفة أكثر اتساعاً من غرفته، فيها شخصان كان أحدهما أشعث الشعر غزيره، هضيم الوجه، مرتدياً قميصاً حسر أكمامه عن ساعديه، ووقف وقفة الخطباء وقد باعد بين ساقيه ليحافظ على توازنه. كان يضرب صدره ويعنف زميله بلهجة مؤثرة، متهماً إياه بأنه سافل عديم القيمة والكرامة الاجتماعية وأنه انتشله من الأوحال ويستطيع وحده إعادته إليها إذا شاء القادر العلي. أما الآخر الذي

كان يحتمل هذا الكلام صامتاً، فقد كان جالساً على مقعد، متقلص الوجه أشبه بمن يوشك على العطاس دون أن يوفق إليه، فكان يلقي نظرة بلهاء مضطربة بين الحين والآخر إلى وجه الخطيب المفوه. ولا شك أنه لم يكن يفهم شيئاً من تلك البلاغة والحِكم، بل ولعله ما كان مصغياً إليها إطلاقاً. وكان على المائدة أمامه، شمعة تشرف على نهايتها، وإلى جانبها زجاجة عرق فارغة تقريباً وحولها أقداح صغيرة وكبيرة، وقطع من الخبز والقثاء. وعلى الرغم من أن عدة الشاي كانت لا تزال بأقداحها وملاعقها وأطباقها مبعثرة على المائدة، فإن الدلائل كلها كانت تشير إلى أن الزميلين قد فرغا من تناوله منذ وقت طويل. وبعد أن تأمل سفيدريكايلوف هذه اللوحة فترة ما. ابتعد عن الشق وعاد يجلس على السرير.

عاد إليه النذل القذر بالشاي ولحم العجل، وسأله مرة أخرى إذا كان يرغب في شيء، ولما أجابه سفيدريكايلوف نفياً، ابتعد نهائياً. بادر سفيدريكايلوف يحتسي الشاي بلهفة المقرور، لكنه لم يمد يده إلى الطعام. لأن شهيته خانته فجأة وبدت عوارض الحمى تغزو جسده! نزع معطفه و«سترته» واستلقى على السرير ملتفاً بالأغطية وهو شديد الكدر. غمغم يحدث نفسه بشيء من الهزء: «يجب أن أكون هذه المرة في صحة جيدة!» كان جو الغرفة خانقاً والشمعة المحترقة تضفي عليها ضوءاً غائماً، والريح تعصف بشدة في الخارج. وفي مكان ما من الغرفة، كانت فأرة تقضم شيئاً ما. وكانت رائحة كريهة تنبعث من الغرفة، رائحة جلود وفئران!

كان مسجّى في سريره فريسة أحلام معينة، وكل فكرة ترد رأسه تطرد سالفتها وتحل محلها، كان يريد بشق النفس أن يتخيل شيئاً بعينه! همس في سره «لا شك أن هناك حديقة تحت النافذة، إن أغصان الأشجار تصطدم ببعضها بفعل الريح. إنني أمقت ضجيج الأشجار ليلاً، تحت العاصفة وفي

طيات الظلام!» ثم عاد يتذكر جسر «إيكس...» ونهر نيفا الصغير، فشعر بإحساس بارد كالذي شعر به لما كان واقفاً منذ حين على الجسر. فكر: «إنني لم أحبب الماء قط حتى ولا في اللوحات والرسوم!» وفجأة خامرته فكرة جديدة جعلته يزداد في سخريته: «أعتقد أن قضية الجمال الطبيعي والرفاهية لا يجب أن تشغل في هذه اللحظة خيراً من تفكيري، مع ذلك فها إنني أتعنت كالحيوان الذي يعنى دائماً في انتقاء مكان جثوه... وفي مثل هذا الظرف! لو أنني يممت منذ حين شطر جزيرة بيتروفسكي لكنت الآن أحسن حالاً. لقد خيل إلي أن الليل شديد الظلمة شديد البرد هه، هه! كان يلزمني ـ لولا قليل ـ إحساسات مستحبة لذيذة... على فكرة، لمَ لا أطفئ الشمعة؟ إن جاريّ نائمان بعد أن انقطعت أصواتهما!» أطفأ الشمعة دون أن يبارح السرير وألقى نظرة إلى حيث كان ضوء الغرفة المجاورة يتسرب منه منذ حين فوجد أن الظلمة شاملة.

«هيا يا مارت بيتروفنا، الآن وقت ظهورك لقد أزف الوقت لتحضري وتلوميني! إن الظلام دامس والمكان مناسب والموقف لا يحتاج إلى شيء من الإبداع! لكنك لن تحضري ولا شك!».

تذكر فجأة دون أي مبرر أو سبب، أنه منذ حين، قبل ساعة على بدء تنفيذ خططه المتعلقة بدونيا، كان قد أوصى راسكو لنيكوف بأن يعهد بأخته إلى رازوميخين، ليسهر على سلامتها فغمغم: «الحقيقة إنني قلت ذلك من قبيل الصلف لا أكثر، ولا شك أن راسكو لنيكوف لم تفته غايتي! يا له من مخاتل ذلك الراسكو لنيكوف! لقد لعب لعبة كبيرة! لكن لكي يصبح المرء محتالاً كبيراً ينبغي أن ينتظر زمناً طويلاً، ينبغي أن تُنسى حماقاته وتندثر. لكنه شديد التعلق بالحياة! إنهم أنذال كلهم فيما يتعلق بهذه الناحية! ليحملهم الشيطان، إنها مسألتهم وحدهم وهي لا تهمني في شيء!».

لم يكن يستطيع الرقاد. عادت صورة دونيا تتمثل في خاطره. وفجأة اكتسحته رعدة عنيفة. همس وهو يفتح عينيه: «كلا، ينبغي أن أتخلص الآن من كل هذا. ينبغي التفكير في شيء آخر. الغريب في أمري والمضحك في آن واحد، إنني لم أمقت إنساناً ما مقتاً شديداً، ولم أفكر مرة تفكيراً جدياً في الانتقام من أحد! إنها بادرة سيئة! كذلك فإنني لم أرغب قط في التشاجر مع الناس ولم أغضب قط غضباً شديداً، إن هذا أيضاً يعتبر بادرة سيئة! لكن كم من وعود قطعتها على نفسي لها منذ حين! يواه! يا للشيطان! لعلها ـ بعد ذلك ـ كانت تستطيع أن تخلق مني رجلاً آخر»! صمت أخيراً وصرف على أسنانه وعادت صورة دونيا تعمر خياله من جديد، تصورها كما كانت عليه عندما أطلقت رصاصتها الأولى فريسة رعب هائل يعصف في كيانها، رعب جعلها تلقى بالمسدس جانباً وتنظر إليه بعينيها الكبيرتين، حتى إنه كان يستطيع أن ينالها مرتين لا مرة واحدة، دون أن تبدي أية مقاومة. لكنه لم يشأ ذلك. بل إنه هو الذي أعادها إلى الصواب. تذكر أنه شعر بإشفاق حقيقي عليها، وأن قلبه انقبض وكأن يداً جبارة كانت تعتصره... «إلى الشيطان! ينبغي الخلاص من هذه الأفكار، ينبغي التخلص منها»!.

لم يكد يشعر بقشعريرة الحمى تفارقه، وبأعضائه تميل إلى التمدد والراحة، حتى أحسَّ فجأة بشيء يجري على ساقه وذراعه. فانتفض وهتف: «يواه أظن أنها فأرة! لقد تركت لحم العجل على المائدة لم أمسه!» كان يخشى إذا رفع الغطاء عن جسده ونهض من فراشه، أن يتأثر بالبرد. لكنه شعر فجأة بدغدغة مزعجة في قدمه، فألقى الأغطية جانباً، ونهض يشعل الشمعة. كان يرتجف من الحمى وهو منحن على السرير يتفحصه. لم يجد فيه شيئاً. هز الغطاء فإذا بفأر يقفز منه إلى السرير. اندفع نحوه يحاول

الإمساك به ـ فلم يحاول الفأر الفرار، بل راح يرسم على السرير خطوطاً متكسرة ويتسلل من بين يديه بمهارة أحنقته. وأخيراً جرى فوق يده وراح يختبئ تحت الوسادة. ألقى سفيدريكايلوف بالوسادة على الأرض لكنه شعر في تلك اللحظة بشيء ما يجري فوق بطنه، يقفز ويتحرك هنا وهناك فوق ظهره وصدره تحت القميص أحس بقشعريرة عصبية، استفاق على أثرها. كانت الغرفة في ظلام حالك كما تركها منذ حين، وكان ـ هو ـ في سريره متدثراً بالأغطية والريح تعصف مزمجرة تحت النافذة. وهتف غاضباً؟ «يا للحلم القذر!».

استوى جالساً على حافة السرير مديراً ظهره إلى النافذة وصمم: «لعل الأفضل أن لا أنام مطلقاً» كانت ريح رطبة باردة تتسلل خلال مصراع النافذة، فجذب الأغطية على نفسه يتدثر بها دون أن يبارح مجلسه. تعمد أن لا يوقد الشمعة لأنه كان لا يفكر في شيء لأنه لم يكن يريد التفكير في أي شيء. لكن الأحلام كانت تتعاقب في عقله، ونتف الأفكار تترى دون بداية ولا نهاية ولا ارتباط بينها. كان كمن سقط فريسة ذهول أو إغماء لا يحس ولا يقدر. هل كان ذلك بسبب البرد، أم الظلمات أم الرطوبة؟ أكان ذلك بسبب الريح المزمجرة تحت النافذة، التي كانت تهز الأشجار هزاً عنيفاً؟ كانت تخيلاته تجنح به إلى أشياء وهمية طريفة فتخلق في نفسه رغبة معينة. كان يوم عيد العنصرة! وكان هناك كوخ منيف رشيق مبني على الطريقة الإنجليزية قائم وسط حديقة يانعة تحيط به مماشٍ مفروشة بالأزهار والرياحين وقد التفت النباتات المتسلقة حول عرائس الورود. وكان عدد من الأصص المصنوعة من الصيني تحوي زهوراً نادرة. تزين حاجز سلم كبير مضيء رطب فرشت على درجاته سجادة بديعة. هناك على حافة النوافذ، كانت بعض أواني الزهر ممتلئة حتى نصفها

بالماء وقد رتبت فيها باقات من النرجس الأبيض الذي كان ينحني على سوقه الطويلة الخضراء فيتضوع الجو بأريج عطر عبق. ودّ لو بقي قريباً من تلك الزهور لا يبارحها، لكنه ارتقى سلماً قاده إلى غرفة فسيحة كبيرة مرتفعة الجدران. كانت الغرفة الفسيحة غاصة كذلك بالزهور التي كانت منثورة على النوافذ والشرفة وفي كل مكان. وكانت الأرض الخشبية مغطاة بالأعشاب العطرة وقد قطعت حديثاً. أما درفات النوافذ فكانت مفتوحة تسمح للريح الهادئة المنعشة بالوصول إلى الغرفة، وكانت العصافير تزقزق مغردة على الأفنان تحت النوافذ، وفي منتصف الغرفة، على مائدة مغطاة بأكفاف من الساتان الأبيض، كان تابوت صغير! كان التابوت مبطناً بالحرير الثمين المزين «بالدانتيلا» تحيط به أكاليل الزهور من كل جانب، فلما نظر بداخله، شاهد فتاة صغيرة غارقة بين الزهور، مسجاة على خشبة من الريش مرتدية ثوباً أبيض من «التول» ومعقودة اليدين على صدرها وكأنها منحوتة من الرخام. كان شعرها الأشعث الأشقر الفاتح مبتلاً وهالات من الزهور تحيط به وتتوجه. وكان مشهد وجهها الجانبي الجامد يبدو كأنه قدّ كذلك من الرخام، لكن ابتسامة شفتيها الشاحبتين كانت مطبوعة بطابع حزن عميق لا يمت إلى الطفولة البريئة بصلة. كانت ابتسامة متألمة يائسة! شعر سفيدريكايلوف بأنه يعرف تلك الطفلة! ولم يكن قرب التابوت أية صورة لقديسين ولا شمعة مضاءة، ولم يكن المرء يسمع أية صلوات وابتهالات: لقد كانت الفتاة منتحرة، كانت غريقة! لم يكن لها من العمر أكثر من أربعة عشر عاماً، مع ذلك، فإن قلبها قد تحطم في تلك السن فبحثت عن الموت، لأنها استهدفت لاعتداء روع إلى الأبد، ضميرها الفتي الطفل! اعتداء ملأ تلك الروح الملائكية بالعار الذي لا تستحقه، وانتزع منها صرخة يأس قاتلة، صرخة خنقها الليل المدلهم، وطوتها الظلمات ولفتها البرد في زمهريره فضاعت بين زمجرة الريح العاتية!

استفاق سفيدريكايلوف، فبارح السرير واقترب من النافذة متحسساً، حتى اصطدمت يده بمقبض الدرقة، ففتحها. وعندئذٍ اندفعت نفحة من الريح إلى الغرفة الضيقة وصفعت وجهه وصدره بموجة البرد فاستعاد هدوءه. وجد أن النافذة كانت تطل على حديقة سمر حيث الناس يغنون في النهار أغانٍ شائعة لطيفة ويحتسون الشاي جالسين إلى موائد صغيرة. وفي تلك الأثناء اندفعت من الأشجار القريبة، قطرات من الماء، كانت عالقة بالأغصان، فحركتها الريح، وقذفت بها خلال النافذة إلى وجهه. كان الليل معتماً أشبه بظلمة النفق، حتى ليتعذر على المرء تمييز الأشباح السوداء التي تنبئ بوجود أجسام قريبة، فلبث سفيدريكايلوف خمس دقائق منحنياً على النافذة نصفه خارج الغرفة، معتمداً على ساعديه، ينظر إلى الظلمة بفضول. وفجأة، دوّى قصف مدفع أعقبه ثان! غمغم يحدث نفسه:

ـ «آه! إنها الإشارة! إن المياه تصعد. لسوف تكتسح الشوارع هذا الصباح فتغمر الأقبية القريبة والمتاجر المنخفضة والمشارب القائمة على الضفتين! لسوف تسبح الجرذان ويهرع الناس، تحت المطر وعصف الرياح، فينقلون أمتعتهم من الطبقات السفلية إلى الأعلى وهم يشتمون ويصخبون. ولكن كم الساعة الآن؟

وبينا هو يفكر في ذلك، سمع صوت ساعة تقرع في مكان قرعاً هادئاً متزناً عميقاً معلنة الثالثة صباحاً!

ـ «آه هه! سوف ينبثق الضياء خلال ساعة! لمَ الخنوع؟ سأذهب على الفور إلى جزيرة بيتروفسكي مباشرة، وسأنتقي دغلاً سخت الأمطار في ريه، حيث لا يكاد المرء يلمس الأغصان، حتى تتساقط ملايين من نقاط المطر فتغمر رأسه!».

انسحب من مكانه بجانب النافذة فأغلقها، ثم أضاء الشمعة ولبس صدارته ومعطفه وأخذ قبعته وحمل المسرجة بيده، وغادر الغرفة إلى الممشى باحثاً عن الندل الذي وجب أن يكون نائماً في إحدى غرف الأمتعة. كان يريد تسوية حسابه ومبارحة الفندق لأنه قدز: «أن الوقت المناسب قد أزف وأنه لا يمكن أن يجد مناسبة أفضل!».

تاه طويلاً في الممشى الضيق الطويل دون أن يعثر على أحد، وهمّ بأن ينادي بصوت مرتفع، لولا أن اكتشف فجأة في زاوية معتمة، بين خزانة قديمة وأحد الأبواب، شيئاً حياً يتحرك. انحنى فوق ذلك الشيء. وأدنى النور منه، فإذا هو طفلة، طفلة في الخامسة من عمرها، لا أكثر، مرتدية ثوباً صغيراً مهلهلاً، أشبه بالخرق التي تجفف بها الصحاف، كانت ترتعد من البرد وتبكي. لم يبد عليها الخوف لرؤية سفيدريكايلوف، بل حدجته بعينيها السوداوين الكبيرتين، وعلت وجهها مسحة من الذهول الأبله. كانت من حين إلى آخر تزفر منتحبة شأن الطفل الذي بكى زمناً طويلاً، ثم كف منذ حين وتماسك لأتفه سبب. كان وجهها الصغير شاحباً متسخاً وجسمها متقلصاً من البرد. فما الذي أتى بها إلى هناك؟ لا شك أنها اختبأت في تلك الزاوية ولم تنم طوال الليل! أخذ يستجوبها، فانتعشت الطفلة فجأة. وراحت تقص عليه قصتها بلغة الأطفال البريئة: كانت القضية متعلقة بأم «صغيلة» صغيرة، وأن تلك الأم «الصغيلة» الصغيرة سوف «تضلبها» تضربها لأنها «تسلت» كسرت قدحاً! كانت الطفلة تتحدث دون توقف ولم يكن حديثها خالياً من المغزى: إنها طفلة غير محبوبة؛ ولعل أمها طاهية مدمنة لا تنفك تشرب، ـ والأرجح أنها تشتغل في هذا الفندق ـ كانت لاتني تضربها وتروعها. والظاهر أن الطفلة كانت قد كسرت قدحاً، فخافت عقاب أمها، ونفرت منذ مساء أمس، حيث ظلت مختفية طوال الوقت تحت المطر في

العراء، ثم تسللت خلسة، وقبعت وراء الخزانة، حيث أمضت الليل كله في تلك الزاوية، باكية مرتجفة، مقرورة من البرد، هالعة من الظلمة، خائفة من الضرب القاسي الذي ستستهدف له بسبب فعلتها. حملها سفيدريكايلوف بين ذراعيه وعاد بها إلى غرفته فوضعها على سريره وراح ينزع عنها ثيابها المبللة. كانت أحذيتها الضخمة البالية تبدو كأنها نقعت في مستنقع لبثت فيه طيلة الليل، ولم تكن الصغيرة تلبس جوارب في قدميها. فلما خلع ثيابها، أسجاها على السرير، وأحاطها بالغطاء حتى عنقها. فنامت على الفور. وعندئذٍ، عاد إلى أحلامه القاتمة.

فكر فجأة وهو يشعر بعاصفة من الانفعال الأليم تنفجر في نفسه:

ـ «لقد عدت فتورطت من جديد في قضية جديدة. يا للحماقة!».

عاد فحمل المسرجة في يده حانقاً وقرر البحث عن النذل والذهاب فوراً، وفتح الباب وهو يسبّ ويناجي نفسه مزمجراً: «آه طفلة!». لكنه عاد إلى السرير ليلقي على الصغيرة نظرة أخيرة، ليتأكد من أنها نائمة، ويرى كيف أضحت في نومها. رفع الغطاء بحذر... كانت الطفلة مستغرقة في نوم سعيد عميق لقد أحست بالدفء تحت الغطاء فعاد اللون الأحمر إلى وجهها الشاحب. لكن الغريب في الأمر، أن ذلك اللون الذي اصطبغ به وجهها. كان صارخاً جداً، لا يمكن أن ينطبع مثله على وجه طفلة صغيرة. فكر سفيدريكايلوف: «إنها حمرة الحمى»! يخيل للناظر إليها أنها سكرى أو أنها أسقيت قدحاً كبيراً من الخمر. كانت شفتاها القرمزيتين تحترقان. كانتا ملتهبتين. آه! خيل إليه فجأة أن أهدابها السوداء الطويلة ترف وتتحرك، وكأنها تغمز له، وأنها تصوب نحوه من بين جفنيها المطبقين، نظرة خبيثة ماكرة. رأى أطراف أهدابها ترتعد، وكأنها تحاول إرغام نفسها على السكون. لكنها لم تستطع مقاومة رغبتها طويلاً. ها هي ذي تضحك،

ضحكة مسموعة فيها وقاحة وجرأة، وأشرق وجهها بالإغراء، إغراء لا يمكن أن يكون للطفولة! إنه دليل واضح على فساد الأخلاق. إنه وجه جميل، وجه غادة كاميليا. بل إنه وجه وقح، وجه غانية فرنسية. ها إن عينيها تفتحان بعد أن عدمت ما تخفيه، إنهما تنظران إليه دون حياء، نظرة ملتهبة تتلظى بالشهوة. إنهما تناديانه، إنهما تضحكان. كان في ضحكتها لون من الحقارة المخيفة والسخرية العميقة، وكذلك في عينيها وفي وجهها، ذلك الوجه الصغير الذي بات يعبر عن سفاهة وفسق. غمغم سفيدريكايلوف مروعاً: «ماذا! في سن الخامسة! ما هذا؟ ما معنى هذا؟» أدارت نحوه وجهاً ملتهباً محموساً بالنشوة ومدت إليه ذراعيها منادية: فصرخ بهول وفزع: «آه! يا للعينة!» ورفع يده يريد صفعها... وفي تلك اللحظة استفاق.

كان هو النائم في تلك اللحظة، مندثراً بالأغطية. وكانت الشمعة مطفأة والصبح يكاد أن ينبثق.

غمغم مغيظاً وهو ينهض على سريره: «كنت هذه الليلة فريسة الأحلام المزعجة» وشعر أن عظامه تؤلمه. كان الضباب الكثيف يخيم على المدينة حتى ليتعذر على المرء رؤية السماء، والساعة تناهز الخامسة. لقد نام زمناً كافياً!

نهض سفيدريكايلوف وارتدى سترته ومعطفه اللذين لم يجفا بعد، وتحسس المسدس في الجيب الذي أودعه فيه فأخرجه، أصلح من وضع «الكبسولة» ثم جلس وأخرج من جيبه دفتراً صغيراً كتب على الصفحة الأولى منه، بضعة أسطر بأحرف كبيرة، أعاد قراءتها ثم استغرق في أحلامه متكئاً بمرفقيه على المائدة. والمسدس والدفتر إلى جانب بعضهما قرب مرفقه! كان الذباب قد استيقظ، وتهالك على قطعة اللحم التي لم يمسها، فنظر إليه ساهماً وحاول بيمناه أن يمسك بواحدة. غير أنه أخفق فيما أراد

رغم جهوده. وأخيراً انتبه إلى ما يعلم، وعجب لما يشغل به نفسه، فانتفض ونهض واقفاً، وغادر بخطوات ثابتة، لم يلبث أن بلغ الشارع.

كان الضباب الكثيف الأبيض يغمر المدينة، وسفيدريكايلوف سائراً على الرصيف الخشبي القذر الأملس، متجهاً نحو نهر نيفا الصغير. كان يتخيل مياه النهر بعد صعودها المنتظر، وجزيرة بيتروفسكي، والمماشي التي تظللها أشجار الجوز، والحشائش المروية، والأشجار والأدغال المغمورة بالماء، وأخيراً الدغل الذي كان يبحث عنه... امتلكه الغيظ، فراح ينظر إلى البيوت التي حوله ليوجه اهتمامه وجهة أخرى. كان الشارع مقفراً لا إنسان ولا عربة! وكانت البيوت الخشبية الصغيرة، ذات اللون الأصفر الفاقع، بأبوابها ونوافذها المغلقة، تبدو قذرة موحشة. عادت الرطوبة تسري في أوصاله وراح يرتعد من البرد فراح يتلهى بقراءة كل لافتة دكان يمر بقربها بعناية ودقة حتى بلغ نهاية الرصيف الخشبي، واقترب من بناء كبير من الحجر. مر بجانبه كلب مقرور، دفع ذيله بين ساقيه من البرد والجوع، ورأى رجلاً ثملاً متدثراً بمعطف، مستلقياً على الرصيف ووجهه إلى الأرض، فألقى عليه نظرة وتابع طريقه. وإلى يساره سمق برج مستدير عال فهتف: «بَهُ! هذا هو المكان المناسب. لمَ أذهب إلى جزيرة بيتروفسكي؟ سأجد هنا على الأقل شاهداً رسمياً». وكاد أن يضحك لهذه الفكرة الطارئة! فانعطف في شارع «إيكس...»، وتوقف قرب البناء الذي يعلوه برج الحراسة. كان على المدخل، رجل قصير القامة، متدثر بمعطف رصاصي اللون من معاطف الجنود مستنداً إلى الجدار وعلى رأسه خوذة «آشيل»[1] النحاسية وفي عينيه نظرة متبلدة باردة لا تستطيع مقاومة

(1) آشيل: ابن ثيتيسي وبيلي ملك الميرميدونيين وهو أشهر أبطال الياذة اليونان. قتل آشيل هكتور في حصار طروادة لكنه أصيب بسهم مسموم في كعب قدمه، أطلقه باريس. وبقي اسم آشيل رمزاً

سلطان الكرى. ألقي الحارس الوسنان نظرة جامدة على سفيدريكايلوف. كان وجهه مطبوعاً بتلك المسحة السويداوية الكالحة، القديمة العهد، التي تضفي كثيراً من المرارة على كل الوجوه المنحدرة من أصل يهودي دون استثناء. راح كلاهما: سفيدريكايلوف وآشيل ينظران إلى بعضهما ويفحص كل منهما وجه الآخر. وأخيراً بدا لآشيل أنه من غير الطبيعي أن يقف أمامه في تلك اللحظة مخلوق غير ثمل وأن ينظر إليه نظرة ثاقبة ويقف علىٰ بعد ثلاث خطوات منه دون أن يتفوه بكلمة.

تمتم دون أن يعتدل في وقفته:

ـ هه! ماذا تبحث هنا؟

أجابه سفيدريكايلوف:

ـ لا شيء! مرحباً أيها الأخ!

ـ ليس هناك المكان الذي تريده.

ـ ألا ترى أيها الأخ، إنني ذاهب إلى الخارج.

ـ إلى الخارج؟

ـ إلى أمريكا!

ـ إلى أمريكا؟

أخذ سفيدريكايلوف مسدسه فصلاه بينما رفع آشيل حاجبيه:

ـ ما هذه الدعابات؟ ليس هنا المكان الذي تريد!

للشجاعة على الزمن وفي كل اللغات. وقد أراد المؤلف بإطلاق هذه التسمية تعريف نوع الخوذة التي كان الجندي يضعها على رأسه لأنها مشابهة في تعميمها للخوذة التي كان آشيل يضعها على رأسه. -المترجم -.

ـ ولمَ لا يكون المكان المنشود؟

ـ لأنه ليس المكان...

ـ هيا، يا صديقي، لا بأس. إن المكان مناسب... فإذا سألوك أجب إنني ذهبت إلى أمريكا!

وسدد المسدس إلى صدغه الأيمن. قال آشيل منفعلاً جاحظ العينين:

ـ لكن هذا غير مسموح... ليس هنا المكان الذي تريد...

وضغط سفيدريكايلوف على الزناد...

الفَصْلُ السَّابعُ

في مساء ذلك اليوم بالذات، حوالي الساعة السادسة أو السابعة، مضى راسكو لنيكوف إلى مسكن أمه وأخته، ذلك المسكن الذي نقلهما رازوميخين إليه والذي تمتلكه كذلك أسرة باكاليك. كان مدخل السلم يفضي إلى الشارع مباشرة. تقدم راسكو لنيكوف متردداً متسائلاً: «أأدخل أم لا أدخل؟» لكنه كان عازماً على الدخول رغم كل شيء، فقد اتخذ قراره في هذا الصدد ولن يحيد عنه، قال يهدئ ثائرة نفسه: «على كل حال، إنهما لا تعرفان عن الأمر شيئاً وقد اعتادتا على اعتباري مخلوقاً شاذاً».

كان مرتدياً ملابسه وقد اتسخت بشكل كريه لأنه أمضى الليل تحت المطر، فعلقت الوحول بثيابه وتهدلت بشكل بشع وكأنه يستعملها للنوم! وكان وجهه غير واضح المعالم بسبب التعب ورداءة الطقس والمجهود الجسدي الذي بذله طيلة الأربع والعشرين ساعة الماضية، والنضال الذهني الذي اشتبك فيه منذ زمن طويل. لقد أمضى الليلة الفائتة وحيداً في مكان لا يعلمه إلا الله. لكنه أفاد من تلك الخلوة إذ خرج منها بقرار جاء ينفذه!

قرع الباب ففتحت له أمه، لأن دونيا كانت خارجة، والخادم ما كانت في تلك الساعة في البيت. عقلت الدهشة والفرح لسان بولشيري ألكسندروفنا فترة، فأمسكت بيده، وقادته إلى الغرفة. ثم شرعت تقول بصوت تهدج من الفرح:

ـ آه! ها أنتذا أخيراً. لا تغضب يا ردويا إذا كنت أستقبلك باكية بكل حماقة! إنني لا أبكي يا بني، هيا، إنني أضحك. أو تظن أنني أبكي؟ كلا. إنني شديدة السعادة. لكنني لا أستطيع التخلص من عادتي الرعناء إن دموعي تنهمر من تلقاء نفسها! إنني فريسة هذه العادة منذ وفاة أبيك يا بني. إن أي شيء يبكيني. اجلس يا عزيزي إنك تعب. إنني أرى التعب بادياً عليك. آه! كم اتسخت.

قال راسكو لنيكوف:

ـ لقد خرجت تحت المطر يا أماه!

قالت بولشيري ألكسندروفنا بحماس مقاطعة:

ـ دعك من هذا! أظننت أنني سأعود إلى استجوابك حسب عادتي العتيقة الكريهة؟ اطمئن، إنني أفهم، كل شيء! لقد فهمت الآن أسلوب الحياة هنا، إنني أرى أنهم هنا أشد ذكاء من عندنا. لقد أفهمت نفسي مرة إلى الأبد إنه لا يجيب علي أن أحاول معرفة أفكارك أو أن أسألك حساباً عن تصرفاتك. إن اللّه يعلم ما هي الخطط والأفكار التي يعمر بها رأسك. بل لعل تلك الأفكار تزعجك، مع ذلك، أتقدم أنا، وأمسك بذراعك لأسألك: هيا، قل لي، بأي شيء تفكر؟ أرأيت... آه يا رب! لم أثرثر هكذا دون هدف ولا نفع؟... أرأيت يا رودي، أنني كنت أقرأ مقالك للمرة الثالثة، ذلك المقال الذي نشرته في هذه المجلة. لقد أتى بها دميتري بروكوفيتش. لقد أطلقت آهة دهشة لما رأيت المقال وقلت لنفسي: «كم كنت حمقاء! هذا إذن ما يشغله. إن هذا يفسر الأمور. إن كل العلماء على هذا المنوال. لعله الآن يغذي فكرة أو أفكاراً جديدة في رأسه، إنه يصممها ويهذبها، ولا شك أن هذه الأمور لا أستطيع فهمها، ولكن ذلك عين الصواب لأنني لا أستطيع أن أكون على مستوى واحد معه!

ـ أرني هذا المقال يا أماه.

... أخذ راسكو لنيكوف المجلة وألقى نظرة عابرة على مقاله. وعلى الرغم من التناقض العجيب القائم بين تلك الصفحات وبين موقفه وحالته العقلية الحالية، فإنه أحسَّ شعوراً لطيفاً بمرارة، شعوراً غريباً يخالج قلوب الكتاب الذين تنشر مقالاتهم للمرة الأولى، زد على ذلك أن ذلك الكاتب كان في الثالثة والعشرين من عمره. لكن ذلك الإحساس لم يدم إلا لحظة عابرة. إذ إنه ما كاد يقرأ بضعة أسطر حتى اكتأب وجهه، وأحس بحزن عميق يمزق قلبه. عادت إلى ذاكرته كل تلك المقاومات العقلية التي أعدها خلال تلك الشهور الأخيرة، فألقى المجلة على المنضدة بحركة اشمئزاز وغضب.

ـ لكنني يا روديا، أستطيع أن أحكم ـ مهما بلغت حماقتي ـ بأنك ستصبح واحداً من ألمع الشخصيات في عالمنا المثقف إن لم تصبح الأول بينها على الإطلاق آه، كلما أفكر في أنهم تجرأوا على اعتبارك مجنوناً، ها! ها ها! إنك لا تعرف شيئاً عن هذا، لكنهم فكروا فيه بالفعل! آه، يا للسذج المساكين! كيف يستطيعون فهم معنى الذكاء! ثم إن دونيا، نعم دونيا نفسها، كادت أن تصدق ذلك أخيراً، هل تصدق! لقد أرسل أبوك المسكين مرتين أوراقاً إلى المجلات. أرسل أبياتاً شعرية أول مرة ـ إنني أحتفظ بالدفتر الذي كتبها فيه وسأطلعك عليه ذات مرة ـ ثم مقالاً وقد رجوته أن يدعني أنسخها. لشدة ما رجوناهم أن يقبلوا نشرها، فقبلوها أخيراً؟ اعلم يا روديا، أنني منذ ستة أو سبعة أيام كنت كلما نظرت إلى ثيابك وفكرت في أسلوب حياتك وما تأكل وأين تقطن، أشعر أن رأسي سينفجر. لكنني اقتنعت الآن بأنني كنت حمقاء. لأنني تأكدت من أنك لو شئت، لأمكنك بلوغ أي شيء. بفضل ذكائك ومواهبك. لكنك الآن لا تريد شيئاً لأنك منهمك ولا شك في أشياء أكثر أهمية.

ـ هل دونيا غير موجودة في المسكن يا أماه؟

ـ كلا يا روديا. إنها تخرج غالباً وتتركني وحيدة. إن دميتري بروكوفيتش يتلطف دائماً بزيارتي والبقاء معي. إنه يتحدث دائماً عنك. إنه يحبك ويقدرك يا عزيزي. إنني لا أزعم أن أختك تبخسني حقي من الالتفات والاعتبار. كلا، وأنا لا ألومها لأن لها عقليتها هي الأخرى ولي عقليتي. إنها تخفي عني أسراراً لا أعرفها، أما أنا، فلا أسرار عندي بالنسبة إليك. لقد تأكدت من أن دونيا شديدة الذكاء وأنها تضمر لي ولك كثيراً من الحب والميل لكنني لست أدري نتيجة تصرفاتها، ثق يا روديا بأنك جعلتني سعيدة كل السعادة بزياراتك هذه. لقد وصلت في اللحظة التي خرجت هي فيها. وعندما تعود، لسوف أقول لها: «لقد جاء أخوك في غيابك فأين كنت في تلك الأثناء؟» لكن أنت يا ولدي، لا تدللني كثيراً. لكن عد كلما وجدت من وقتك متسعاً. سوف أنتظرك. إنني سأعرف بذلك أنك تحبني دائماً وهذا يكفيني. سأقرأ مقالاتك ومؤلفاتك، وسأسمع الناس يتحدثون عنك، ولسوف تأتي لزيارتي من حين إلى آخر، فماذا أبتغي أكثر من ذلك؟ لقد وصلت اليوم في حينك يا ولدي لتغري أمك!

وفجأة انخرطت بولشيري ألكسندروفنا في البكاء. هتفت وهي تنهض واقفة.

ـ ها أنا ذا أعود إلى البكاء، لا تلق بالاً، إنني حمقاء! آه يا رب! كيف ألبث جالسة؟ لدينا قهوة جاهزة ولا أقدم لك قدحاً! أرأيت مبلغ الأنانية عند العجائز! على الفور، على الفور...

ـ دعك من هذا يا أمي الصغيرة، إنني ذاهب من فوري؟ لم أحضر إليك من أجل هذا. اصغِ لي أرجوك.

اقتربت بولشيري ألكسندروفنا بشيء من الذعر.

سأل راسكولنيكوف فجأة من أعماق قلبه دون أن يتدبر كلماته أو أن يزينها:

ـ يا أمي الصغيرة هل ستحبينني تماماً كما تحبيني الآن مهما حدث، ومهما سمعت عني؟

ـ روديا، روديا! ماذا بك؟ كيف تطرح هذا السؤال؟ من ذا الذي سيتحدث إليَّ عنك بسوء؟ لن أصدق كائناً من كان، سوف أطرد المتكلم من حضرتي...

أردف قائلاً دون أن تتبدل لهجته:

ـ لقد جئت لأؤكد لك يا أماه بأنني أحببتك دائماً، وأنني سعيد الآن إذ أكون وحيداً معك، مرتاح حتى لغياب دونيا عن هذا اللقاء؟ لقد جئت لأقول لك إنه يجب عليك في محنتك وتعاستك أن تعلمي بأن ابنك يحبك أكثر مما يحب نفسه، وأن كل ما يمكن أن تكوني اعتقدته، قسوتي وقلة تعلقي بك وحبي، خطأ في خطأ. إنني لن أفتأ أحبك إلى الأبد... هيا، هذا يكفي، لقد قدرت أنه يجب أن أتصرف على هذا النحو وأن أبدأ على هذا الشكل.

ضمته بولشيري ألكسندروفنا إلى صدرها بصمت وراحت تعانقه باكية بصوت خافت وأخيراً قالت:

ـ لست أدري ما بك يا روديا. لقد ظننت حتى هذه اللحظة أننا كنا نزعجك ونسبب لك المتاعب. لكنني أرى الآن أن آلاماً كبيرة تهيأ لك، وأن تلك الآلام هي أسباب حزنك. كنت أتنبأ بهذا منذ أمد طويل يا روديا. اصفح عني إذا حدثتك على هذا النحو، إنني أفكر ولكنني لا أنام. لقد كانت أختك تهذي الليلة الفائتة فكانت لا تنفك تتحدث عنك. لقد سمعت بضع كلمات لكنني لم أفهم منها شيئاً. لقد كنت أشعر به شعوراً مسبقاً، وها هو ذا قد وقع! روديا، روديا، إلى أين تذهب؟! إنك تريد الذهاب أليس كذلك؟ إنك ذاهب!

ـ أنا سأذهب؟

ـ خيل إلي ذلك! لكنني أستطيع الذهاب معك إذا كان ينبغي أن تذهب. ودونيا، إنها تحبك وتحبك كثيراً، وكذلك صوفي سيميونوفنا. فلتأت هي الأخرى معنا اذا وجب الأمر، ثق، إنني على استعداد لنقلهما كابنتي. لسوف يساعدنا دميتري بروكوفيتش في اتخاذ أهبتنا ولكن... إلى أين تذهب؟

ـ الوداع يا أمي الصغيرة!

هتفت وكأنها ستفقده إلى الأبد:

ـ ماذا؟ اليوم بالذات؟

ـ لا أستطيع البقاء أكثر من ذلك، ينبغي أن أذهب حتماً...

ـ وأنا، ألا أستطيع الذهاب معك؟

ـ كلا، ولكن ابتهلي إلى اللّه جاثية من أجلي، علّ صلاتك تصعد إليه.

ـ سأرسم عليك إشارة الصليب، سأباركك، هكذا! آه يا رب ما العمل!

ـ نعم، كان مسروراً جداً، مسروراً حقاً لأن المنزل خالٍ إلا من أمه، لأنه استطاع أن يختلي بها. لقد تحنن قلبه بعد كل تلك الآلام الهائلة التي احتملها، فسقط على أقدام أمه يقبلها، وبكى كلاهما وتعانقا... لم تندهش الأم لتصرف ابنها ولم تلق عليه أي سؤال. كانت منذ أمد طويل فاهمة أن شيئاً مخيفاً يهيمن على نفسية ولدها وأن ساعة مرعبة من ساعات القدر قد أزفت لتحدد مصيره.

قالت والدموع في عينيها:

ـ روديا، يا ولدي العزيز. يا ولدي البكر! ها أنتذا كما عهدتك في طفولتك كنت تقترب مني وتضمني وتعانقني هكذا!. كذلك في حياة أبيك، فكنت عزاءنا، يسعدنا وجودك. ومنذ أن مضى أبوك، كم من مرة لبثنا أنت

وأنا هكذا، متعانقين! لقد بكينا معاً على قبره! إنني إذا كنت أبكي منذ أمد، فذلك لأن قلبي كأم كان يحس بقرب وقوع مصيبته! لقد خمنت كل شيء منذ أول لقاء لي معك، ألا تذكر، منذ يوم وصولنا، وانتفض قلبي مذعوراً. واليوم، عندما فتحت لك الباب. فكرت وأنا أنظر إليك بأن الساعة الحاسمة قد أزفت. روديا، روديا، هل تذهب على الفور؟

- كلا:

- وستحضر مرة أخرى؟

- نعم... سأحضر.

- روديا، لا تسخط يا بني، إنني لا أجرؤ على سؤالك. وأعرف أنني لن أجرؤ أبداً على طرح الأسئلة. لكن قل لي كلمتين: هل تذهب إلى مكان بعيد؟

- بعيد جداً.

- سيكون هناك، مركز!

- ما يهيئه لي الله... صلي فقط من أجلي.

مضى راسكو لنيكوف نحو الباب فتعلقت به أمه وحدقت في عينيه بنظرة يأس. كان وجهها متعلقاً بتأثير الألم.

قال راسكو لنيكوف وقد شعر بندم عميق على مجيئه:

- كفى يا أماه.

- لن تتركيني إلى الأبد؟ قل لي إنك لن تذهب إلى الأبد؟ سوف تأتي سوف تأتي غداً؟

- سوف أحضر، سوف أحضر. الوداع.

تمكن أخيراً من التخلص من يديها ومضى.

كانت الأمسية لطيفة منعشة منيرة لأن الغيوم كانت قد تبددت منذ الصباح، فبلغ راسكو لنيكوف مسكنه كان على عجلة من أمره يريد الانتهاء من آلامه قبل مغيب الشمس. كان حتى تلك اللحظة لا يستحسن مقابلة أحد، فلما صعد إلى غرفته، لاحظ أن ناستاسيا تركت «سماورها» عندما رأته، وتابعته بنظرات ثابتة مستطلعة. فخاطب نفسه قائلاً: «هل يوجد أحد في مسكني؟» راح يفكر في بورفير باشمئزاز وتقزز. لكنه عندما بلغ غرفته وفتح الباب شاهد دونيا. كانت جالسة على الأريكة مستغرقة في تفكير عميق، ولا شك أنها انتظرته زمناً طويلاً. توقف على العتبة، فنهضت مذعورة منتصبة القامة، ووقفت أمامه. كانت نظرة الفتاة الثاقبة تعبر عن فزع ممزوج بضيق شديد. فهم من تلك النظرة وحدها أنها تعرف كل شيء.

سألها مجفلاً:

ـ هل يجب أن أقترب منك أم أن أذهب؟

ـ لقد قضيت سحابة النهار لدى صوفي سيميونوفنا ننتظرك كلتانا. كنا نفكر في أنك لا شك ستعود.

دخل راسكو لنيكوف الغرفة وتهالك على المقعد:

ـ إنني أشعر بضعف يا دونيا، إنني شديد التعب. إنني في هذه اللحظة على الأقل يجب أن أكون مالكاً أعصابي.

ألقى عليها نظرة مستريبة فقالت:

ـ أين كنت في الليلة الماضية؟

ـ لا أذكر تماماً يا أختاه. كنت أريد اتخاذ قرار حاسم. وقد ذهبت عدة مرات قريباً من «النيفا». إنني أذكر ذلك.

كان يتكلم هامساً وهو لا يكف عن إلقاء نظرته المستريبة على دونيا. قالت هذه:

ـ حمداً للّه! كنا صوفي سيميونوفنا وأنا، شديدتي الخوف من هذه النتيجة! على ذلك فإنك لا زلت تؤمن بالحياة. حمداً للّه! حمداً للّه!

سخر راسكو لنيكوف بمرارة:

ـ ما كنت أؤمن بالحياة، ولكن منذ لحظات تعانقنا أنا وأمي وبكينا. إنني لا أؤمن بشيء ومع ذلك طلبت إليها أن تصلي من أجلي! اللّه وحده يعلم كيف يدور هذا الأمر في نفسي لأنني شخصياً لا أفهم منه شيئاً يا دونيا.

هتفت دنيا مروعة:

ـ كنت عند أمنا؟ هل تحدثت إليها؟ هل تجرأت على التحدث إليها بكل شيء؟

ـ كلا لم أقل لها شيئاً عن «ذلك» لكنها فهمت أشياء كثيرة. لقد سمعتك تهذين ليلاً بصوت مرتفع، وأنا واثق من أنها تعرف نصف الحقيقة حتى الآن. لعلني أخطأت بالذهاب إليها. بل إنني أعرف لمَ ذهبت. إنني رجل منحط يا دونيا.

ـ رجل منحط وعلى استعداد لاحتمال العذاب لأنك ستحتمله أليس كذلك؟

قال:

ـ نعم سأحتمله. لقد كنت أريد الانتحار غرقاً للتخلص من هذا العار يا دونيا. لكنني كنت منحنياً فوق الماء، فكرت في أنني، إذا كنت قدرت نفسي حتى تلك اللحظة رجلاً قوياً، فلا ينبغي أن أخاف من العار. إن تفكيري هذا معناه الكبرياء، أليس كذلك يا دونيا؟

ـ نعم يا روديا.

ومضت عيناه الخامدتان برهة. لقد أعجبه أن يكون محتفظاً بكبريائه؟

ـ سألها وهو يحدق في عينيها وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مربكة:

ـ ألا تفكرين يا أختاه أنني تراجعت مذعوراً لمجرد رؤية الماء؟

صاحت دونيا بصوت غاضب:

ـ أوه! كفاك يا روديا!

لبثا صامتين دقيقتين: كان راسكو لنيكوف جالساً مطرقاً برأسه إلى الأرض ودونيا واقفة إلى الجانب الآخر من المنضدة تنظر إليه وعلى وجهها أمارات الألم والعذاب. وفجأة نهض واقفاً:

ـ إن الساعة قد دنت والوقت قد أزف. سوف أمضي لأسلم نفسي. لكنني لست أدري لمَ أفعل ذلك؟.

وانثالت دمعتان كبيرتان على خدي الفتاة. فقال:

ـ أتبكين يا أختاه؟ لكن هل تستطيعين مد يدك إليّ؟

ـ وهل شككت في ذلك؟

وضمته بين ذراعيها ثم صرخت وهي تضمه وتعانقه:

ـ ألست بتقبلك العذاب تمحو نصف جريمتك؟

زمجر بغضب مفاجئ:

ـ جريمة؟ أية جريمة؟ ألمجرد أن قتلت حشرة قذرة ضارة، عجوزاً مرابية يستحق قتلها غفران أربعين خطيئة، عجوز كانت تمتص دماء الفقراء المجرد ذلك يعتبر العمل جريمة؟ لا أظن يا أختاه، ولا أفكر في أن

أغسل يديّ من هذا. ما بالهم يصيحون بي من جانب «جريمة! جريمة!» والآن وأنا الذي على وشك التعرض لخزي مجاني دون سبب أرى بوضوح كم في دناءتي وانحطاط نفسي من شذوذ! لعله لمجرد الانحطاط والعجز أستمسك بهذا القرار بل ولعل فيه بعض المصلحة كما ألمح بورفير!

هتفت دونيا بيأس:

ـ أخي، أخي ماذا تقول؟ لكنك أهرقت دماً.

فاسترسل بعنف وخشونة:

ـ ليهرق كل الناس ما شاؤوا من الدم. إن ما سال منه وما سيسيل جازفاً على الأرض، يهرق كما تسفح الشامبانيا. ومن أجله يتوجون في «الكابيتول»[1]، ويرفعون إلى مصاف المحسنين للإنسانية! انظري إلى الأمر بشيء أكثر من الانتباه واحكمي) إنني شخصياً كنت أريد خير الناس. وكان بودي أن أؤدي مئات الألوف من الأعمال الحسنة لأعوض عن هذه الحماقة البسيطة، التي لم تكن حماقة بالمعنى المفهوم، بل كانت غباوة. إن الفكرة في حد ذاتها لم تكن حمقاء كما بدت الآن بعد الفشل... لأن كل ما يفشل يعتبر شاذاً غريباً، لقد أردت بهذه الفعلة البليدة، أن أخلق لنفسي مركزاً مستقلاً، أن أتقدم، أن أخطو الخطوة الأولى، أن أتدبر موارد لا تنضب وعندئذٍ كنت سأقيم الأمر وأنظمه للصالح العام... لكنني تعثرت عند أول خطوة لأنني نذل! جبان! والقضية كلها هنا! لكنني لا أشاطرك وجهة نظرك: لو أنني نجحت لصيغت لي التيجان بينما يُدفع بي الآن إلى التشهير والخزي!

(1) الكابيتول: هضبة من هضاب روما السبع وبمعنى أصح إحدى قمتي تلك الهضبة التي كان عليها معبد جوبيتر كابيتولن ويراد بهذا التعبير التحدث عن قمة المجد، والكابيتول أيضاً قلعة رومانية قديمة وقصة هجوم الغالبية عليها واندحارهم بسبب طيور الإوز معروفة. - المترجم -.

- كلا يا أخي ليس الأمر كذلك، ليس هذا! ماذا تقول؟

- ماذا! إنني لم أتبع الأصول في عملي، تلك الأصول المأخوذة عن الجمال الطبيعي وواجب بقائه. لعمري لست أفهم بعد الأمر شيئاً. كيف يُعتبر إلقاء القنابل على الجماهير خلال حصار منظم، مراعاة للأصول؟ إن الخوف من الجمال الطبيعي هو أول إشارة من إشارات العجز. إنني لم أحس به أبداً كما أشعر به الآن؛ ولم أفهم من قبل أبداً ما هي جريمتي كما فهمتها الآن. إنني لم أكن أبداً أكثر قوة وقناعة مما أنا عليه الآن.

كان وجهه الشاحب المتقلص قد غدا فجأة أحمر. وبينا هو ينطق بجملته الأخيرة وقع بصره فجأة على عيني دونيا. فقرأ في نظرتها ألماً عميقاً فظيعاً. فتمالك نفسه، وصمت مرغماً. شعر أنه سبب شقاء تينك المرأتين. نعم لقد كان سبب تعاستهما.

- دونيا يا عزيزتي! إنني مذنب فاصفحي عني، رغم أنه لا صفح عني إذا كنت مجرماً. الوداع يا أختي ولنتوقف عن الحديث. لقد أزف الوقت، الوقت المناسب. لا تتبعيني أتوسل إليك. إنني سأقوم بزيارة أخرى... إذهبي من فورك إلى أمي وامكثي قربها. إن هذا آخر رجاء أتوجه به إليك. لا تفارقيها لحظة واحدة. لقد تركتها في ذعر عنيف لن تستطيع التغلب عليه: لسوف تموت منه أو تجن. امكثي إلى جانبها! وسيكون رازوميخين قريباً منكما، لقد تحدثت إليه... لا تبكي عليَّ. سأعمل جاهداً لأكون كل حياتي شجاعاً شريفاً، رغم أنني قاتل. لعلك ستسمعين اسمي يذكر يوماً ما. لن أجعلك تشعرين بالخزي من ذكره. لسوف ترين. سأثبت أيضاً...

توقف برهة وراح يتأمل وجه أخته فوجد تعبيراً غريباً في عينيها، تعبيراً سببته وعوده الأخيرة، فقال مسرعاً:

ـ بالانتظار أودعك يا أختاه. لِمَ تبكين هكذا؟ لا تبكي، لا تبكي. لن نفترق نهائياً! آه! انتظري لقد نسيت!

مضى نحو المنضدة فحمل كتاباً ضخماً يغطيه الغبار، فتحه واستخرج من بين صفحاته صورة صغيرة، صورة زيتية رسمت على قطعة من العاج. كانت صورة ابنة صاحبة المسكن، الشابة التي ماتت من الحمى الساخنة، والتي كانت مخطوبته من قبل، بعد أن كانت تريد إنهاء حياتها في الدير. تأمل ذلك الوجه الصغير المعبر المتألم برهة طويلة، ثم قبل الصورة وقدمها إلى دونيا.

قال وكأنه في حلم:

ـ لقد تحدثت عن نظريتي مراراً معها، معها وحدها. لقد أعطتني قلبها أستودعه أسراري فأودعته كل ما في روحي. اطمئني يا أختاه إنها لم تكن توافق عليه، مثلك تماماً. إنني الآن سعيد لأنها ذهبت من الوجود. إن المهم، المهم في ذلك، هو أن يعاود المرء الحياة مجدداً، أن ينقطع تماماً عن الماضي.

ارتفع صوته عندما بلغ تلك النقطة الحساسة التي سببت ألمه وهتف مردفاً:

ـ هل أنا على استعداد لإجابة ذلك؟ هل أملك الإرادة الكافية؟ إن هذه التجربة ضرورية لي كما يزعمون! ما فائدة هذه التجارب الغريبة؟ ما هي فائدتها؟ أتراني لا أستطيع فهمها إلا بعد أن أكون قد تحطمت من الألم وأصبحت أحمق، عجوزاً مهدماً أنهكه قضاء عشرين عاماً في سجن الأشغال الشاقة؟ أي نفع سيكون لي بعد ذلك في الحياة؟ لمَ تقبلت الآن مثل هذا الوجود؟ أوه! كنت أعرف أنني نذل وجبان! لقد عرفته هذا الصباح عندما انحنيت على نهر «النيفا»...

وأخيراً خرج كلاهما. كانت دونيا تحس بألم عنيف وإجهاد عميق لكنها كانت تحب أخاها. ابتعدت عنه ولكن لم تقطع خمسين خطوة حتى استدارت مرة أخرى لتنظر إليه. كانت لا تزال تستطيع رؤيته. فلما بلغ منعطف الشارع التفت هو الآخر للمرة الأخيرة وتقابلت نظراتهما. فلما رآها واقفة تنظر إليه، أشار لها بيده إشارة تدل على نفاد الصبر والغضب، ليفهما بأنه يريد منها أن تتابع طريقها. ثم اختفى وراء المنعطف.

ندم إذ أشار لها تلك الإشارة العنيفة: «إنني خبيث، إنني أرى ذلك بوضوح. ولكن لِمَ تحبانني طالما أنني محبتهما! آه! ليتني كنت وحيداً، ليت أحداً لم يحبني قط، وليتني ما أحببت إنساناً قط، لو تحقق لي ذلك لما وقع ما وقع! إنني أضحي بشيء كثير لأعرف ما إذا كنت بعد خمسة عشر أو عشرين عاماً سأكون ذا نفس متواضعة أتباكى من النسك والورع أمام الناس، وأتهم نفسي بالسفالة في كل مناسبة. آه نعم، هذا هو السبب الذي من أجله يرسلونني إلى «الليمان»... إنهم على آثاري وكل واحد منهم سافل نذل بفطرته بل وأسوأ من هذا... يا لي من أحمق لكنني إذا حاولت تجنب «اليمان» اعترتهم كلهم غضبة بالتقوى والورع! أوه! كم أمقتهم جميعاً».

استغرق في تفكيره وراحت الآراء تتمثل له: «بأية وسيلة يستطيع أخيراً أن يزيل ما بينه وما بين الجميع وأن يصطلح معهم بإخلاص؟ ثم لمَ لا يصطلح؟ لسوف يكون الأمر كذلك. ألا تكفي عشرون عاماً على العبودية المستمرة للحصول على هذا الصلح؟ إن الماء ينخر الحجر. ثم لمَ أعيش وما الفائدة من الحياة بعد ذلك؟ لمَ أذهب إلى هناك وأنا أعرف أن كل شيء سيتم وكأنه مسطور في كتاب؟».

وعلى الرغم من أنه ألقى على نفسه هذا السؤال للمرة المائة منذ أمس فإنه استمر يتابع الطريق.

الفَصْلُ الثّامِن

لما بلغ مسكن سونيا كان الغسق قد أقبل، وكانت سونيا قد قضت نهارها كله تنتظره بقلق رهيب. لقد أمضت دونيا شطراً طويلاً من النهار معها لأنها تذكرت ما قاله لها سفيدريكايلوف من أن سونيا «تعرف ذلك». لن نورد هنا تفاصيل الحديث الذي دار بين المرأتين، ولن نصف عبراتهما والعواطف التي أحست بها كل واحدة منهما حيال الأخرى، بل نكتفي بالقول أن دونيا خرجت من تلك المقابلة الطويلة، بعزاء واحد: وهو أن أخاها لن يكون في منفاه وحيداً لقد جاء إليها، إلى سونيا، واعترف أمامها قبل أن يعترف أمام إنسان. جاء إليها يسألها وجوداً حياً إلى جانبه، لما كان ذلك الوجود الحي، ضرورة ملحة قصوى بالنسبة إليه. لذلك فإنها ستتبعه إلى أي مكان يودي به إليه مصيره. صحيح أن دونيا لم تطرح أسئلة، لكنها تأكدت من أن الأمر لن يكون إلا على هذا النحو. بل إنها كانت تتأمل سونيا بلون من الاحترام، جعلها أول الأمر تبدو شديدة الخجل، تكاد أن تبكي لشدة اعتقادها بأنها غير جديرة بأن ترفع أبصارها إلى دونيا، على ما عكس ما بدر من هذه نحوها. كانت صورة دونيا التي حيتها لأول مرة بكثير من العناية والاحترام، إبان لقائها الأول بها عند راسكو لنيكوف، محفورة في فؤادها باقية إلى الأبد. وكانت سونيا تنظر إليها كأجمل وأبدع ما في الحياة.

لم تستطع دونيا تمالك نفسها طويلاً، فافترقت عن سونيا، وذهبت

تنتظر أخاها في مسكنه، لأنها خمنت أنه سيمضي إلى هناك أول الأمر. فلما بقيت سونيا وحدها عادت الآلام والمخاوف تستحوذ على نفسها، كان يخشى أن يعمد راسكو لنيكوف إلى الانتحار وكذلك كان شعور دونيا. لكنهما كانتا تحاولان إقناع بعضهما باستحالة لجوئه إلى الانتحار، متذرعتين بشتى الحجج والدلالات مسبغتين بذلك الطمأنينة على قلبهما لكنهما ما كادتا تفترقان عن بعضهما حتى عادت تلك الفكرة الأليمة تنهش فؤاد كل منهما... تذكرت سونيا أن سفيدريكايلوف قال لها أمس: «إن أمام راسكو لنيكوف طريقين: الذهاب إلى سيبيريا أو...» كانت تعرف مبلغ كبرياء راسكو لنيكوف وعقليته واعتداده وفخاره وجحوده، ففكرت واليأس يغزو صدرها: «ألا يمكن أن يدفعه ضعف نفسه وخوفه من الموت إلى التمسك بالحياة؟». كانت الشمس على وشك المغيب وهي لم تبرح مكانها قرب النافذة تنتظر بحزن، شاخصة البصر، إلى نقطة معينة، دون أن ترى شيئاً إلا جدار المنزل المقابل المتسخ. وأخيراً آمنت بأن التعس قد مات فاجتازت عتبة الغرفة.

انطلقت على أعماق قلبها صرخة فرح، لكنها لم تلبث أن امتقع وجهها فجأة حينما تأملت وجه راسكو لنيكوف الذي أطل عليها في تلك اللحظة.

قال راسكو لنيكوف مغمغماً:

ـ حسناً يا سونيا، جئت آخذ صلبانك. لقد قلت لي بنفسك أن أمضي مفترق الطريق، وماذا كذلك؟ الآن الأمر سوف يتم كما قلت، أراك بدأت أنت الأخرى تخافين؟

راحت سونيا تتأمله بذهول. لقد بدت لهجته غريبة جداً على مسامعها فأحست بقشعريرة باردة تجتاح جسمها، لكنها بعد دقيقة واحدة

تأكدت من أن تلك الأقوال وتلك اللّهجة لم تكن إلا خدعة. كان راسكو لنيكوف وهو يتحدث، ينظر إلى إحدى الزوايا متحاشياً التقاء بصره ببصرها.

ـ اسمعي يا سونيا لقد فكرت بالأمر واقتنعت بأن الاعتراف أجدى. إن هناك فرصة... يطول بحثها وشرحها لكن ذلك لا يهم! أتدريت ما يغضبني ويثيرني؟ إنني أشمئز لمجرد التفكير بأن كل هؤلاء السخفاء منتفخو الوجوه، هؤلاء الوحوش، سيلتفون حولي، ويصوبون مصابيحهم نحوي، وأنهم سيطرحون علي أسئلة سخيفة ينبغي أن أجيب عليها ويشيرون إلي بأصابعهم. بواه! لن أذهب إلى بورفير. كفاني ما نلت منه إزعاجاً. سأذهب إلى صديقي بارود. سوف أذهله للوهلة الأولى. ولكن ينبغي للمرء أن يحتفظ بهدوءه. إنني أثير نفسي منذ مدة طويلة دونما سبب. هل تصدقين أنني منذ حين كدت أرفع يدي مهدداً أختي لمجرد أنها التفتت مرة أخيرة لتنظر إليّ؟ إن مثل هذه المواقف تجعلني أتصرف تصرفاً حيوانياً! ترى هل انحدرت إلى هذا الدرك! هيا، أين الصلبان؟

لم يكن يبدو في حالة طبيعية لأنه ما كان يستقر لحظة في مكان واحد، ولا يستطيع تركيز انتباهه في شيء واحد. كانت أفكاره تتعاقب بسرعة عاصفة تدوي في رأسه ويداه ترتعدان قليلاً.

مدت سونيا يدها بسكون إلى علبة أخرجت منها صليبين أحدهما من خشب السرور والآخر من النحاس. وبعد أن رسمت علامة الصليب على نفسها وعلى راسكو لنيكوف طوقت عنقه بالصليب المصنوع من السرو.

ـ على العموم إن هذا يعني رمزياً بأنني أحمل صليبي، هه هه! الحقيقة أنني لم أتألم بما فيه الكفاية حتى الآن؟ إن الصليب المصنوع من السرو وهو صليب شعبي أما ذلك النحاس فهو صليب إليزابيت وإنك

تحتفظين به لنفسك. أرنيه؟... هكذا إذن كانت تحمله في تلك اللحظة؟... لقد رأيت شيئين آخرين مشابهين لهذين: صليباً من الفضة وصورة صغيرة. لقد ألقيت بهما آنذاك على صدر العجوز. كان يجب أن أطوق بهما عنقي. على كل حال إنني أخرف. إنني أنسى قضيتي. إنني ساهم... اعلمي يا سونيا أنني جئت لأبلغك لكي تعرفي... حسناً، هذا كل شيء... لم أحضر إلا من أجل هذا. همْ! مع ذلك كنت أفكر في أن أقول أكثر مما قلت. لكنك أنت دفعتني إلى اتباع هذا السبيل. لسوف أوضع في السجن. ولسوف تنفذ رغبتك. هيا، لمَ تبكين؟ أنت الأخرى؟ هيا كفي. آه؟ كفاني منكما.

في تلك اللحظة نبت في قلبه شعور جديد. شعر أن قلبه يعتصر بينما كان ينظر إليها: فغمغم في سره: «هذه، رباه! ماذا أكون بالنسبة إليها؟ لماذا تبكي؟ لمَ تتصرف كما لو كانت أمي أو دونيا؟».

توسلت إليه سونيا بصوت متهدج مذعور:

ـ ارسم إشارة صليب، صلِّ قليلاً على الأقل.

ـ أوه! إذا كان ذلك يرضيك لسوف أعمل منه بالقدر الذي تشائين. عن طيب خاطر يا سونيا، عن طيب خاطر.

كان يود أن يقول شيئاً آخر. لكنه لم يستطع إلا أن يرسم ويكرر إشارة الصليب. نزعت سونيا منديلها ولفته حول رأسه. كان منديلاً من قماش «المدام» لا شك أنه كان «منديل العائلة» الذي تحدث عنه مارميلادوف. تبادرت هذه الفكرة إلى رأس راسكو لنيكوف لكنه امتنع عن السؤال. بدأ يلمس في نفسه سهوماً شاذاً، ويحكم أن اضطرابه غير طبيعي. كان ذلك يرعبه. وفجأة أذهله أن يرى سونيا تتهيأ للخروج معه.

هتف بلون من الغضب والحنق وهو يتجه نحو الباب:

ـ ماذا تعملين؟ إلى أين تذهبين؟ ابقي؟ سأمضي وحدي؟

ثم أردف مغمغماً وهو يخرج من الغرفة:

ـ لمَ أحتاج إلى مرافقين؟

لبثت سونيا في غرفتها. لقد تركها دون أن يودعها بكلمة، لقد نسيها لأنه كان يسير مدفوعاً بفكرة ثائرة.

تساءل وهو يهبط السلم: «هل يجب أن أعمل ذلك؟ هل هذا ما يجب أن أعمله؟ ألا سبيل إلى إصلاح كل شيء؟... إلى عدم الذهاب إلى هناك؟».

ظل يمشي وهو يحس إحساساً نهائياً بأنه لا يجب أن يطرح على نفسه أي سؤال. فلما بلغ الشارع تذكر أنه لم يودع سونيا، وأنها كانت متسمرة في منتصف الغرفة، ممسكة بمنديلها في يدها، لا تريم ولا تتحرك، خشية أن تغضبه، فيصيح ويزمجر! وفي تلك اللحظة بالذات، ومضت في خاطره فكرة كالبرق؛ فكرة بدت كأنها انتظرت تلك اللحظة بالذات لتظهر على أشد ما تكون سيطرة.

«لماذا ذهبت إلى مسكنها؟ لقد قلت لها بأنني جئت من أجل عمل، أي عمل هو؟ لم يكن لديّ ما أقوله لها! ألمجرد أن أقول إنني ذاهب إلى هناك؟ يا لها من حجة مبررة! ألا يمكن أن أكون أحبها مثلاً؟ لكن كلا ويحي كلا! ألم أنبذها منذ قليل كالكلب؟ هل كنت في حاجة إلى صليبها؟ ويحي هل انحدرت إلى هذا الدرك! كلا كانت دموعها هي التي أردت تأملها، أمارات ذعرها! كنت أريد مشاهدة قلبها يتمزق ويُصهر! إنها حاجتي إلى التعلق بشيء ما، إلى التأني والتأخر، حاجتي إلى رؤية مخلوق حي! وأنا الذي جرؤت على بناء آمال جسام على مقدرتي والتفكير في تلك الأحلام الطامحة، بينما لست إلا متسولاً حقيراً نذلاً جباناً!».

كان يسير على طول رصيف القنال، ولم يكن عليه أن يقطع مسافة طويلة. لكنه ما أن بلغ الجسر حتى توقف، وانعطف فجأة متجهاً نحو «سوق العلف».

راح ينظر بشوق ولهفة يميناً وشمالاً محاولاً عبثاً تفحص كل شيء في طريقه، لأنه ما كان يستطيع تركيز اهتمامه في شيء. كان كل شيء يفر من أمامه. وأتته فكرة: خلال شهر أو ثمانية أيام سوف أنقل إلى مكان ما في إحدى عربات السجن، ولسوف تمر تلك العربة فوق هذا الجسر. فبأي عين سأتأمل القنال؟ هل سأذكر أنني رأيتها على هذا النحو؟ وهذه اللافتة كيف سأقرأ أحرفها؟ إنني أرى مكتوباً عليها الآن «كامباينا» فهل سأذكر حرف الـ«آ» هذا؟ إن عيني توقفتا فترة على هذا الحرف، فهل سأنظر إليه عند ذاك كما أنظر إليه الآن؟ كيف ستكون أحاسيسي ومشاعري؟ رباه، إن كل هذه... المشاغل ينبغي أن تكون حقيرة! لا شك أن هذا مثير في نوعه ها! ها! ها! بأي شيء كنت أفكر! إنني أتشبه بالصبية الصغار! كالأطفال. هيا، لمَ أحمر خجلاً من نفسي؟ أف! إنهم يدفعونني. لا شك أنه هذا الرجل الضخم، إنه ألماني ولا شك وهو الذي دفعني. لكن هل يعرف أنه هذا أصابني بمرفقه؟ إن هذه العجوز التي تجر الطفل معها تطلب مني الإحسان. يا للأمر المثير! إنها تعتقدني أكثر سعادة منها! لكنني أعتقد أن إعطاءها صدقة لا يخلو من مفارقة لطيفة. حسناً إن في جيبي خمسة «كوبيكات» باقية. من أين أتتني؟ خذي، خذي أيتها الأم الصغيرة!

هتفت السائلة بصوت منتحب:

ـ ليحفظك الله!

دخل إلى «سوق العلف» وأحس بشعور كريه، بل كريه جداً

لاضطراره إلى دفع العديد من الأشخاص المجتمعين، ليفسح لنفسه ممراً، مع ذلك فقد كان يتجه إلى حيث الازدحام على أشده. كان مستعداً للتضحية بكل شيء في سبيل البقاء وحيداً، لكنه ما كان يستطيع احتمال تلك الوحدة دقيقة واحدة. كان هناك أحد السكارى يصخب، يبدو أنه كان يريد أن يرقص، لكنه لا يكاد يقف على قدميه، حتى يهوي مرة أخرى على الأرض. فالتف عدد من الفضوليين حوله. وشق راسكو لنيكوف لنفسه طريقاً بين الجمع المحتشد، ونظر بضع لحظات إلى حيث كان الرجل الثمل، فامتلكته ضحكة مجنونة اهتز لها جسده. لكنه بعد دقيقة واحدة، لم يعد يرى السكران أمامه. لقد نسيه رغم أن عينيه كانتا تنظران إليه. ابتعد دون أن يدري إلى أين مضى وأين بلغ. لكنه ما أن وصل إلى وسط الميدان الذي وجد نفسه فيه، حتى انبعثت حركة في نفسه. شعور اكتسحه من رأسه إلى أخمص قدميه. شعور احتل جسده وعقله.

تذكر فجأة أقوال سونيا: «اذهب إلى مفترق طرق، وحي الجمهور، وانحن إلى الأرض فقبلها، لأنك أسأت إليها، واهتف عالياً ليسمعك الناس: إنني قاتل...» ارتعش فجأة وهو يتذكر تلك الكلمات. كانت الآلام الهائلة والمخاوف العنيفة التي مرت عليه خلال أيامه السابقة، وخصوصاً في الساعات الأخيرة، قد هدت قواه، وأنهكت حيويته، فانهار بكليته وكأنه أراد أن يتذوق هذا الإحساس الجديد. امتلكته نوبة عجيبة، وومضت في روحه ومضة ساطعة أزكتها فجأة. أحس بتحنان عميق، فسالت دموعه على وجنتيه. تهاوى في المكان الذي وقف فيه، وجثا على ركبتيه وسط الساحة، وانحنى إلى الأرض. قبل الأرض القذرة الموحلة بحماس وسعادة، ثم نهض وانحنى مرة أخرى.

هتف رجل كان قريباً:

ـ انظروا إلى هذا. لقد شرب كثيراً!

وتعالت الضحكات من حوله.

أردف أحد الصناع وكان نصف ثمل:

ـ إنه أحد الذاهبين إلى أورشليم أيها الأولاد. إنه يبتعد عن أولاده ووطنه فيحيي الناس ويقبل مدينة سان بطرسبورغ وأرضها القبلة الأخيرة.

وأجاب ثالث:

ـ إنه لا زال شاباً فتياً.

فأردف آخر ملاحظاً:

ـ ومن أسرة طيبة.

ـ لا يمكن التمييز اليوم بين أبناء الأسر الطيبة ومن ليسوا كذلك.

أزعجت تلك المحاورات والملاحظات راسكو لنيكوف إزعاجاً كلياً حتى أن كلمتي «لقد قتلت» اللتين كانتا على وشك الانطلاق من صدره ماتتا على شفتيه. لكنه احتمل تلك الصيحات بهدوء عجيب واتجه دون أن يلتفت حوله إلى قسم الشرطة. لكن مشهداً واحداً مثل أمام عينيه بينما كان في طريقه. مشهداً لم يدهش له شعورٌ خفيٌ كان يؤكد له حقيقة ما رأى: في اللحظة التي كان منحنياً فيها إلى الأرض في «سوق العلف» لمح إلى يساره على بعد خمسين خطوة من مكانه، وجهاً مألوفاً: كان وجه سونيا. كانت تحاول التستر وراء كوخ خشبي لتحجب نفسها عن ناظريه. إذن، لقد كانت تتبعه إلى مصيره المؤلم! منذ تلك اللحظة، شعر راسكو لنيكوف وفهم نهائياً، أن سونيا ستبقى معه أبداً، وستتبعه دائماً، ولو كان ذلك إلى نهاية العالم، إلى حيث يقوده مصيره. أحس الفتى بقلبه ينصهر... لكنه كان قد بلغ المرحلة الأخيرة. دخل الباحة بخطى متزنة ثابتة. وكان

عليه أن يصعد إلى الطبقة الرابعة. فهتف يشجع نفسه: «إلى الأمام، ليصعد». خيل إليه أنه لا زال أمامه بعض الوقت وأنه يستطيع خلاله أن يتخيل ما شاء من الأفكار.

صافحت أنظاره تلك القذارة المعهودة والقشور التي كانت مبعثرة على السلم هنا وهناك حيث كانت أبواب المساكن المطلة عليه مفتوحة كعهده بها من قبل وعبقت في أنفه رائحة تلك المطابخ التي كانت تتصاعد منها أبخرة الطعام ورائحة الفحم. لم يكن راسكو لنيكوف قد عاد إلى هذا المكان بعد زيارته الأولى، فشعر بأن ساقيه لا تقويان على حمله. مع ذلك فقد استمر صاعداً. كان يتوقف أحياناً ليسترد أنفاسه كي يدخل إلى القسم كما يدخله «الرجل». راح يتساءل في سره: «ما نفع ذلك: لِمَ أتصنع في حركاتي طالما أنني سأشرب الكأس حتى الثمالة؟ كلما ازداد الموقف حقارة كلما كان أجدى». تمثل في خاطره في تلك اللحظة وجه إيليا بيتروفيتش، فراح يتساءل من جديد: «هل أمضي إليه حقيقة؟ ألا أستطيع أن أتوجه إلى أيّ آخر؟ لِمَ لا أقصد إلى نيكوديم فوميتش؟ ماذا لو ذهبت الآن مباشرة إلى مسكن رئيس البوليس؟ إن استلامي في هذه الحالة سيكون أقل اشتهاراً؟ كلا كلا! عليَّ بـ«بارود». ولنشرب الكأس جرعة واحدة طالما أنه لا بد من شربها...».

كانت قشعريرة باردة تسكن في أطرافه، ولما فتح باب المكتب لم يكن يعي ما يعمل. لم يكن في الحجرة في تلك اللحظة عدد كبير من الأشخاص. كان هناك بواب ورجل من الشعب في الردهة. أما الحارس المنوب فلم يرفع عينيه إلى فوق الحاجز. تخطى راسكو لنيكوف الحجرة إلى الغرفة المجاورة وفكر فجأة: «إنه لا زال يستطيع التزام الصمت». كان أحد المقيدين من رجال الشرطة مرتدياً ألبسة مدنية، جالساً أمام مكتب

يدون شيئاً: وكان آخر قابعاً في إحدى الزوايا أما زاميوتوف فلم يكن موجوداً وكذلك نيكوديم فوميتش لم يكن في مكتبه.

سأل راسكو لنيكوف موجهاً حديثه إلى الجالس وراء المكتب:

ـ ألا يوجد أحد؟

مَنْ تريد؟

وارتفع صوت عرفه راسكو لنيكوف فانتفض:

ـ هيه هيه!... لقد خمنت دون أن أرى أو أسمع شيئاً، إنه روسي كما جاء في إحدى القصص... احتراماتي.

كان «بارود» واقفاً أمامه في تلك اللحظة وقد خرج من الغرفة الثالثة. فكر راسكو لنيكوف في سره: «إن القدر يريد ذلك. لماذا وجد في تلك اللحظة؟».

بدا إيليا بيتروفيتش وديعاً حسن الوجه في تلك اللحظة، فهتف:

ـ أنت عندنا؟ كيف ذلك؟ إنك إذ كنت هنا بصدد عمل ما فإن الوقت مبكر جداً إنني شخصياً لم أحضر إلا بمحض الصدفة. على كل حال أية خدمة أستطيع... ثق أنني... ماذا كان اسمك؟ اعذرني...

ـ راسكو لنيكوف.

ـ صحيح راسكو لنيكوف! لا تظنن أنني كنت ناسياً اسمك. أرجوك أن لا تصدق يا روديون... رو... روديونيتش، أليس كذلك؟

روديون رومانوفيتش.

ـ آه نعم نعم روديون رومانوفيتش، روديون رومانوفيتش! ذلك هو الاسم الذي كنت أبحث عنه. لقد استفسرت أكثر من مرة عن أخبارك. إنني أعترف لك بأنني منذ ذلك اليوم، لا أزال شديد الأسف للمعاملة التي

لقيتها بسببي... لقد أوضحوا لي الأمر بعدئذ، ففهمت أنك أديب شاب بل وعالم... وأنك كنت تخطو خطواتك الأولى إذا صح القول... رباه، من هو ذلك الأديب، بل من هو ذلك العالم الذي لا يتصرف في بدء حياته تصرفاً طائشاً؟. إن زوجتي وأنا نحب الأدباء. أما زوجتي فإنها تشعر نحوهم بميل عنيف! الأدب والفن! مهما بلغ المرء من نبل المحتد فإن الحياة لا يمكن أن تدين له إلا بالموهبة والعلم والعقل والعبقرية. القبعة، ما هي القبعة؟ ما معناها؟ إنها قطعة مستديرة أشتريها من محلات «زيمّيرمان»، لكن ما تخفيه القبعة، أو ما هو تحت القبعة فإنني لا أستطيع أن أشتريه!... أعترف لك بأنني أردت شخصياً أن أزورك في مسكنك لأعتذر لك. لكنني فكرت بأنك قد... على كل حال، هل لك أن تبين سبب زيارتك؟ لقد بلغني أن أسرتك جاءت تزورك.

ـ نعم، أمي وأختي.

ـ لقد تشرفت مرة وأسعدت بالالتقاء بأختك. إنها مثقفة شديدة الفتنة. إنني آسف؛ وأعترف بأن الموقف الذي جرى بيننا، لم يكن إلا صدفة مزعجة! غير أنني إذا نظرت إليك في حينه نظرة شك بسبب إغمائك، فإن أسباب ذلك الإغماء قد وضحت بشكل صارخ! إن نظريتي كانت خالية! إنني أفهم سبب انزعاجك. لكن ألا تفكر في تبديل مسكنك بمناسبة وصول أسرتك؟

ـ كلا... لقد جئت أسألك... كنت أعتقد أنني سأجد زاميوتوف.

ـ آه! نعم... لقد أصبحتما صديقين، سمعتهم يقولون ذلك. حسناً إن زاميوتوف لم يعد عندنا. إنك لن تجده بعد اليوم. نعم لقد فقدنا ألكسندر غريغوربيفيتش! إننا منذ البارحة لم نعد نستفيد من خدماته لأنه قدم

استقالته... بل إيه قبل ذهابه، وجّه كلمات نابية إلى كل الموجودين تقريباً. نعم لقد اندفع إلى حد الخروج عن الأدب واللياقة... إنه أبله ينقصه الاتزان في عقله ليس أكثر. صحيح أنه كان يرجى له بعض الصلاح لكن، هيا وجرب شبيبتنا اللامعة. يبدو أنه سيجتاز الغموض ليسبب لنا متاعب في المستقبل، برهاناً على أنه نجح. لكن أمره يختلف كل الاختلاف عن أمرك أنت، وعن أمر السيد رازوميخين صديقك. لقد أقمت لنفسك كياناً علمياً وسلكت هذا السبيل؛ ولا يمكن لأي إخفاق أن يجعلك تحيد عنه! فيما يتعلق بك، أعتقد أن كل ما يكون جمال الحياة التجديدية الملحدة يروق لك، أليس كذلك؟ إن حياتك تشبه حياة ناسك أو متعبد!... كتاب وقلم وراء أذنك وبحوث علمية تلك هي كل سعادتك! إنني شخصياً إلى حدٍّ ما... هل قرأت مذكرات «ليفيغستون»؟[1]

ـ كلا.

ـ أما أنا فقد قرأتها. إن عدد الملحدين «ينهيلست» يزداد باطراد. والأمر شديد الوضوح في أي وقت نعيش نحن؟ إنني أسألك. لكن ها أناذا أتحدث معك... لا شك أنك لست ملحداً. أجب بصراحة. بصراحة.

ـ كلا.

ـ كلا؟ إنك تستطيع التحدث بكل صراحة. لا ترتبك أبداً. كن معي وكأنك وحيد مع نفسك. إن الوظيفة شيء و... شيء آخر. لعلك ظننت أنني سأقول والصداقة ولكن لا إنك لم تخمن! ليست الصداقة، ولكن شعور الرجل، شعور المواطن، شعور الإنسانية والحب نحو الله القادر صحيح

---

(1) ليفيغستون: دافيد ليفيغستون رحالة إنجليزي ولد في إيقوسيا. زار أفريقيا الوسطى والجنوبية ومنطقة زامبيز في البحيرات الكبرى. وكان مبشراً حارب الرقيق الأسود 1873 - 1813. - المترجم -.

أنني شخصية رسمية، موظف، لكنني لست في حل من التحرر من الشعور بأنني مواطن ورجل، وأنني يجب أن أثبت ذلك... خذ مثلاً... لقد تحدثت عن زاميوتوف. إن زاميوتوف هذا على استعداد لأن يصخب ويمرح على الطريقة الفرنسية في كل الأماكن الموبوءة إذا كان محتسياً قدحاً من الشامبانيا أو من خمرة «الدون» هذا هو زاميوتوف! أما أنا فإنني شديد الإخلاص كما يمكن أن أقول، تشتعل في نفسي عواطف سامية. ثم إن لي مركزي ورتبتي ومرتبتي التي أشغلها! وأنا متزوج وعندي أولاد. إنني أقوم بواجبي كرجل ومواطن. بينما هو، من هو؟ اسمح لي أن أسألك. إنني أتوجه إليك بالحديث بوصفك رجلاً رفعته الثقافة. خذ مثلاً كذلك النساء العائلات. لقد ازداد عددهن أكثر من الحد المعقول...

كان راسكو لنيكوف ينظر إليه بتبلد؛ وكانت كلمات إيليا بيتروفيتش التي اقتبسها ولا شك عن كتاب ما، تدوي في أذنيه، وكأنها كلمات فارغة المعنى. مع ذلك فإنه كان يفهم بعضاً منها، وكان يسأل إيليا بيتروفيتش بعينيه وهو لا يدري كيف يصل إلى نهاية كل هذا.

تابع إيليا بيتروفيتش الذي لم يكن ينضب له معين:

ـ إنني أتحدث عن أولئك الفتيات الناعمات ذوات الشعر المقصوص. لقد أسميتهن بنفسي بالنساء العاقلات. واعتقد بأن هذا اللقب موفق تماماً ها! ها! هذه تدرس، وتلك تتعمق في التشريح. قل لي بربك إذا مرضت ذات مرة، فهل سأستدعي فتاة لتعالجني؟ هه هه!

انفجر إيليا بيتروفيتش ضاحكاً سعيداً بكلماته الطيبة.

ـ ولنفترض أن القضية ليست إلا تعطشاً للعلم، تعطشاً أهوج. ولكن عندما يتثقف المرء سيتوقف، فلِمَ إذن يسيء التصرف؟ لِمَ يهين المرء شخصيات نبيلة كما فعل ذلك الصعلوك زاميوتوف؟ تصور زاميوتوفاً يهينني!

ثم لاحظ هذه السلسلة من حوادث الانتحار التي لا تنفك تتزايد. إنك لا تتصور بشاعتها. إنهم هنا يأكلون آخر قرش معهم ثم ينتحرون. فتيات وغلمان وعجائز من كل نوع. خذ مثلاً هذا الصباح. لقد أبلغنا أن سيداً وصل مؤخراً إلى هنا... نيل بافليتش، آه! نيل بافليتش! ماذا كان اسم ذلك السيد الذي أطلق الرصاص على نفسه في بطرسبورغ القديمة؟

فأجاب صوت صدى آتٍ من الغرفة المجاورة بلهجة لامبالية:

ـ سفيدريكايلوف.

ارتعد راسكو لنيكوف وهتف دون وعي:

ـ سفيدريكايلوف! سفيدريكايلوف أطلق الرصاص على نفسه؟

ـ كيف؟ كنت تعرف سفيدريكايلوف؟

ـ نعم كنت أعرفه... لقد وصل منذ فترة قصيرة.

ـ حسناً جداً. صحيح إنه قدم منذ فترة قصيرة. لقد فقد زوجته، مع ذلك فقد كان من ذلك الطراز الذي لا يعيش إلا في البؤر، وفجأة أطلق على نفسه رصاصة لقد ترك بضع كلمات في دفتره، قال فيها إنه يموت وهو ممتلك لكافة قواه العقلية، وإنه لا ينبغي أن يتهم أحداً بموته. لقد كان يبدو غنياً هذا الرجل، كيف عرفته؟

ـ لقد... عرفته... كانت أختي مدرسة في بيته.

ـ ها ها! فهمت! إنك إذن تستطيع إمدادنا بالمعلومات. هل لديك بعض الظنون؟

ـ لقد رأيته البارحة... كان... يشرب خمراً... لست أعرف شيئاً.

شعر راسكو لنيكوف كأن حملاً ثقيلاً قد انهار فوقه وسحقه.

ـ ها قد عدت إلى الشحوب! إن الحرارة هنا خانقة...

غمغم راسكو لنيكوف:

ـ نعم. آن لي أن أنصرف. اعذرني لقد أزعجتك...

ـ آه لا أرجوك. إنني في خدمتك! لقد سرتني زيارتك. إنني سعيد جداً أن أقول لك...

ـ لقد أردت فقط... لقد جئت أرى زاميوتوف...

مد له إيليا بيتروفيتش وقال:

إنني أفهم، إنني أفهم. سرني حضورك:

فقال راسكو لنيكوف باسماً:

وأنا كذلك سعيد. إلى اللقاء...

خرج مترنحاً وهو يشعر بدوار عنيف في رأسه. لم يكن يحس بأنه واقف على قدميه. راح يهبط السلم، معتمداً يده اليمنى إلى الجدار. خيل إليه أن آذناً كان يحمل دفتراً في يده، اصطدم به، وهو يمر بجانبه داخلاً إلى قسم البوليس وأن كلباً كان يعوي في مكان ما في الطبقة الأولى، وأن سيدة ألقت عليه حصاة وصاحت به تسكته... ولما بلغ أسفل السلم، نزل إلى الباحة، فرأى سونيا واقفة هناك، ممتقعة الوجه كالأموات، تنظر إليه نظرة عابسة. توقف قليلاً أمامها فبان على وجهها ألم ويأس، وباعدت بين يديها يائسة. فارتسمت على شفتيه ابتسامة حائرة، وتوقف برهة ينظر إليها، ثم قفل راجعاً يصعد مجدداً سلم دائرة البوليس.

ـ آه آه آه أنتذا من جديد. هل نسيت شيئاً؟ ولكن ما بك؟

كانت شفتاه ممتقعتين ونظرته شاخصة. مع ذلك فقد اقترب ببطء

حتى بلغ المكتب الذي جلس وراءه إيليا بيتروفيتش واتكأ عليه بيده. كان يريد أن يقول شيئاً لكن الكلمات خرجت من فمه غير مفهومة.

ـ هل أنت مريض؟ أتريد مقعداً؟ هاك اجلس هنا اجلس؟ عليّ بقدح ماء. تهاوى راسكو لنيكوف على المقعد. غير أن عينيه لم تبارحا وجه إيليا بيتروفيتش الذي بدا شديد الذهول والدهشة. راح يتفرس في وجه الآخر خلال دقيقة طويلة، وجيء بالماء.

شرع راسكو لنيكوف يقول:

ـ إنه أنا...

دفع راسكو لنيكوف بيده القدح واعتدل في جلسته ثم قال بهدوء ولهجة واضحة:

ـ إنني أنا الذي قتلت العجوز المرابية وأختها إليزابيت بضربات فأس وسرقتهما.

وقف إيليا بيتروفيتش فاغراً فاه دهشة وتهافت الموظفون حوله من كل صوب.

وجدد راسكو لنيكوف اعترافه.

الخاتمة

الفَصْلُ الأوّل

سيبيريا. على ضفة نهر عريض قاحل تقوم مدينة، هي أحد المراكز الإدارية في روسيا، وفي تلك المدينة حصن، وفي ذلك الحصن سجن. كان روديون راسكو لنيكوف نزيل ذلك السجن منذ شهرين محكوماً عليه بالأشغال الشاقة من الدرجة الثانية. وكان قد مضى على جريمته ثمانية عشر شهراً.

لم تجد قضيته صعوبات تذكر أمام القضاء، فلقد جدد القاتل اعترافه بشيء كثير من الثبات والدقة والوضوح دون أن يخلط بين المناسبات أو أن يحاول تخفيف الأمور وتحوير الحوادث في مصلحته. لم يدع شاردة ولا واردة إلا وأوردها. سرد الوقائع من ألفها إلى يائها، وأوضح سر قطعة الخشب المغطاة بالصفيح، التي وجدت بين يدي العجوز؛ وتحدث عن الطريقة التي انتزع بها المفاتيح من جيب القتيل، ووصف تلك المفاتيح بدقة وكذلك الصندوق. بل وعدد بعضاً من موجوداته! وفسر مقتل اليزابيت الغامض ووصف الطريقة التي قرع بها «كوخ» الباب وكيف وصل الطالب بعد ذلك؛ وروى الحديث. الذي تبادلاه وكيفية فراره وسماعه صرخات نيكولا ودميتري أثناء هبوط السلم، وروى كيف اختبأ في المسكن الخالي الذي بارحه إلى بيته، وعين في «شارع الصعود» الساحة المسورة التي أخفى الأشياء والمال تحت حجر قرب الباب فيها. والخلاصة، فإنه لم يترك

شيئاً غامضاً! وقد دهش المحققون والقضاة بصورة خاصة حينما تأكدوا أن القاتل أخفى المسروقات والمال تحت حجر دون أن يحاول الإفادة منها. وأنه لا يذكر تماماً نوع الأشياء التي سرقها بل إنه يخطئ كذلك في عددها. ثم إن عدم فتحه حافظة النقود واطلاعه على ما بداخلها. كان وحده أمراً يصعب تصديقه. كان في تلك الحافظة ثلاثمائة وسبعة عشر روبلاً وثلاث قطع من فئة العشرين كوبيكاً. وكانت الأوراق المالية قد تأثرت لشدة تعرضها للشمس تحت ذلك الحجر. لبث القضاة زمناً طويلاً لا يفهمون كيف أن المجرم صدقهم القول في كل شيء، وكذب في هذه الناحية فقط. كيف روى كل الملابسات الأخرى بطلاقة وصدق وتستر حول هذا الموضوع. وأخيراً توصل بعضهم ـ وكانوا من العلماء النفسانيين ـ إلى اعتبار ذلك الأمر ممكناً، وأنه يجوز أن يكون لم ينظر إلى ما في المحفظة، وأن يكون جاهلاً بمحتوياتها عندما أودعها تحت ذلك الحجر. لكنهم قرروا على الفور أن الجريمة ما كانت لتقع لو لم يكن المجرم فريسة جنون مؤقت، لون من «المونومانيا» وأن القتل والسرقة قد وقعتا دون مبررات أخرى كالسعي وراء مصلحة شخصية مثلاً. واستشهدوا بالنظرية العلمية الجديدة التي تجيز وقوع شلل عقلي مؤقت والتي يحاول عدد من المحامين تطبيقها على موكليهم للفوز بالأسباب المخففة. ثم إن حالة الذهول الطويل التي كان راسكو لنيكوف فريسة لها قُررت وأيدت بشهادات عدد من الشهود بينهم زوسيموف وأصدقاء راسكو لنيكوف وصاحبة المسكن وكذلك الخدم كل ذلك ساعد على تكوين فكرة عن راسكو لنيكوف مفادها أنه لم يكن مجرماً عادياً، قاتلاً أو لصاً سارقاً، بل إن في الأمر شيئاً آخر ينبغي مراعاته. ولشدة ذعر أصحاب هذه النظرية ومؤيديها، فإن راسكو لنيكوف لم يحاول أبداً أن يدافع عن نفسه لما طُرحت عليه الأسئلة الأخيرة، وسئل عن السبب

الذي جعله يرتكب جريمتي القتل والسرقة. فقد أجاب بدقة خشنة: إن السبب كان الفاقة فقط والحالة السيئة التي كان فيها ورغبته في تأمين خطواته الأولى في الحياة بالاستعانة بمبلغ ثلاثة آلاف روبل كان يعتقد أنه واجدها عند ضحيته. وقال: إنه صمم على قتلها بسبب إسفاف عقله ودناءة طبعه لأنه كان غاضباً يائساً بسبب الحرمان والعوز والحاجة. ولما سئل عن السبب الذي حدا به إلى الاعتراف بجرمه بنفسه، قال: إنه الندم المخلص. كان الأمر يبدو وكله شديد المجون...

لكن حكم المحكمة كان رحيماً. فقد عني فيه بالإشارة إلى أنه نظراً لأن المجرم حاول، بدلاً من السعي إلى تخفيف جرمه، إدانة نفسه بشكل أشد؛ ونظراً للملابسات والظروف الغريبة الخاصة التي أحاطت بهذه القضية، فإن المحكمة لا يمكن إلا أن تنظر إليها بعين الاعتبار. ثم إن حالة المجرم المرضية والفاقة التي كان فيها قبل ارتكابه الجريمة لا شك فيهما. أما سبب عدم استفادته من المسروقات فقد عزته المحكمة إلى يقظة ضميره وإلى حالته العقلية التي لم تكن سليمة حال ارتكابه الجرم. وجاء مقتل إليزابيت العرضي يدعم أقوال المحكمة. لأن المجرم قتل ضحيتين بينما نسي الباب مفتوحاً خلال هذا الوقت! ثم إنه جاء يشي بنفسه في اللحظة التي كانت القضية تتعقد بشكل غريب، وتزداد غموضاً بسبب اعتراف نيكولا الخاطئ، ذلك الاعتراف الذي يدل على أن صاحبه غير سليم العقل أيضاً. إن الاعتراف من قبل القاتل الحقيقي جاء في فرصة له يكون التحقيق يملك أي إشارة أو دليل يفضحه، بل وأي شك (وهذا يدل على أن بورفير بيتروفيتش برٌ بوعده حتى النهاية). كل ذلك أخذ في مصلحة القاتل ومنحه أسباباً مخففة. ثم إن حوادث معينة قامت فجأة فأدى الكشف عنها إلى زيادة العطف على القاتل. ذلك أن الطالب

السابق رازوميخين استطاع أن يكشف في مكان ما، عن وجود بعض الشهود الذين استدعاهم، فأقسموا أن القاتل راسكو لنيكوف، كان خلال دراسته في الجامعة، ينفق كل موارده على مساعدة زميل فقير، مصاب بمرض في صدره؛ وإنه استمر ستة أشهر متتالية يقوم بأوده وينفق عليه، فلما مات ذلك الطالب الفقير، اهتم راسكو لنيكوف بأبيه وهو شيخ عليل سقيم وحيد في الحياة بعد فقده ابنه الذي كان مورد رزقه الوحيد منذ أن كان في الثالثة عشرة من عمره. وقالوا: إن راسكو لنيكوف أدخل العجوز إلى مأوى عام، ودفع بعد ذلك كل نفقات دفنه عندما مات. وحارت الأرملة زارنيستين تشهد أن راسكو لنيكوف كان خلال سكناه عندها في شارع «الزوايا الخمس» قد شهد حريقاً في مسكن قريب كان فيه طفلان على وشك الموت احتراقاً. فاندفع مغامراً بين النيران وأنقذ الطفلين بعد أن أصيب بحروق في جسده! وقد أجري تحقيق دقيق للتأكد من صحة أقوال الأرملة، فثبتت حقيقتها بشهادة عدد كبير من الشهود. فكانت تلك الأسباب كلها، داعية إلى صدور حكم المحكمة بسجن راسكو لنيكوف مع الأشغال الشاقة مدة ثمانية أعوام (الدرجة الثانية) نظراً لأنه اعترف بنفسه بجرمه في تلك الظروف وبسبب تلك الأسباب المخففة المذكورة.

كانت أم راسكو لنيكوف قد سقطت مريضة منذ بدء محاكمة ابنها فاستطاعت دونيا، بمساعدة رازوميخين، إيجاد الوسيلة لنقلها خارج بطرسبورغ خلال مدة المحاكمة. انتقى رازوميخين مدينة صغيرة واقعة على مسافة قريبة من بطرسبورغ، يربط بينهما خط حديدي، فأتاح لنفسه بذلك إمكانية حضور جلسات محاكمة راسكو لنيكوف، ورؤية أفدوتيا رومانوفنا كلما أتاحت له الظروف. كان مرض بولشيري ألكسندروفنا يرجع إلى تأثر أعصابها تأثراً غريباً يرافقه خلل في الدماغ لم يظهر بشكل كلي، لكنه كان

موجوداً جزئياً بالفعل. وكانت دونيا، عندما عادت إلى مسكنها بعد آخر لقاء مع أخيها، قد وجدت أمها فريسة الحمى والهذيان فاستطاعت ذلك المساء أن تتواطأ مع رازوميخين وتتفاهم معه حول الأجوبة الواجب تقديمها رداً على أسئلة الأم، عندما ستأخذ هذه بالاستفسار عن ابنها. اختلقا قصة طويلة قالا فيها: إن راسكو لنيكوف سافر بعيداً إلى الحدود الروسية، حيث أرسل بمهمة خاصة تعود عليه بالمال الوفير والشهرة الذائعة. لكن دهشتهما بلغت حد الذهول عندما وجدوا أن بولشيري ألكسندروفنا لم تتقدم لا في ذلك الحين ولا بعد ذلك أبداً، بأي سؤال عن راسكو لنيكوف. بل على العكس. لقد صور لها تفكيرها قصة كاملة تفسر سبب ذهاب ابنها المفاجئ، كانت تروي باكية وقائع زيارته الأخيرة أحياناً بأنها ملمة بعدد من الظروف الخطيرة جداً والسرية جداً؛ وأن روديا نظراً لكثرة أعدائه المتنفذين، اضطر إلى الاختفاء. أما فيما يتعلق بمستقبل ابنها فإنها ما كانت تشك في أنه سيكون لامعاً جداً حالما تزول بعض الأسباب العدائية التي تقوم حائلاً دونه والمجد في الوقت الحاضر. كانت تؤكد لرازوميخين أن ابنها سيصبح في يوم ما، رجلاً بارزاً من رجال الدولة، والدليل على ذلك المقال الذي كتبه، والأسلوب الأدبي الرائع الذي سبكه فيه. كانت تقرأ ذلك المقال باستمرار، بل وكانت تقرؤه أحياناً بصوت مرتفع، حتى لكأنها تنام والمقال بين يديها. مع ذلك فإنها لم تسأل أبداً أين يمكن أن يكون روديا. خشي رازوميخين أن يثير سكوتهما عن بحث موضوع راسكو لنيكوف سحابة شك في نفس أمه. لكنهما ما لبثا أن راحا فريسة ذعر وقلق عندما حاولا تفسير أسباب سكوت بولشيري ألكسندروفنا. كانت لا تشكو عدم إرساله أخباراً عنه إليها، رغم أنها كانت من قبل، عندما كانت في مدينتها الصغيرة، لا تستطيع الحياة إلا على أمل وصول رسالة من حبيبها روديا، رسالة كانت تترقب ورودها بلهفة

وشوق. أما سكوتها الأخير فلم تستطع دونيا تفسيره. لذلك فقد ازداد قلقها. خمنت أن أمها شاعرة بالبلاء المخيف الذي وقع لابنها، وأنها كانت تخشى استجوابهما خيفة أن يحملا إليها أخباراً أشد سوءاً. على كل حال كانت دونيا تشعر بأن أمها لم تعد مالكة كل قواها العقلية.

مع ذلك فقد حدث مرتين أن أثارت بولشيري ألكسندروفنا حديثاً كان يستحيل على دونيا الدخول فيه دون أن تعين مكان وجود روديا في الوقت الحاضر فلما أصبحت الأجوبة مشبوهة وغامضة نظراً لوجوب إخفاء الحقيقة عنها، سقطت المسكينة فريسة حزن عميق. اقتنعت دونيا أخيراً بأنه يستحيل الاستمرار على التلفيق والكذب، واعتقدت أنه من الأصول التسلح بالسكوت المطبق حول نقاط معينة. لكنه بدا واضحاً جداً يفقأ العين، أن الأم المسكينة، أصبحت تشك شكاً قوياً، وتتوقع أمراً مروعاً. تذكرت دونيا نتفاً من حديث أخيها: لقد قال لها إن أمها سمعتها تتحدث في حلمها أثناء تلك الليلة التي أعقبها اليوم الحاسم، وكان ذلك في لقائهما الأخير بعد الحادث الذي وقع لها مع سفيدريكايلوف. فهل يجوز أن تكون أمها قد سمعت شيئاً معيناً؟ كانت المريضة تسقط أحياناً في لون الانفعال العصبي، فتتحدث بصوت مرتفع عن ابنها، حديثاً مطولاً تصفه فيه بأنه أملها الوحيد، وأنه أقصى ما تتمناه في الوجود. وقد وقع لها حالات مشابهة لتلك الحالة بعد أيام وأسابيع عديدة من صمت ثقيل ودموع مكتومة. كان خيالها ينقلب أحياناً إلى لون من الوهم؛ فكانوا يعزونها وكانوا يجارونها في الحديث. كانت ـ هي ـ شاعرة بأن حديثهم ليس إلا لوناً من العزاء والمسايرة، مع ذلك فإنها كانت تستمر في الحديث...

بعد مرور خمسة أشهر على اعتراف راسكو لنيكوف بجرمه، لفظت المحكمة حكمها. وكان رازوميخين يزوره في سجنه على قدر ما كان

يستطيع بالزيارة، وكذلك كان شأن سونيا. وأخيراً دقت ساعة الانفصال. أقسمت دونيا لأخيها أن ذلك الفراق لن يكون أبدياً. وكذلك أقسم رازوميخين. كان رازوميخين يغذي في دماغه الفني المتقد، فكرة عزم على تنفيذها، وكانت تلك الفكرة تقضي بأن يجمع خلال السنتين أو السنوات الثلاث المعقبة ما يستطيع جمعه وادخاره من المال، حتى تتيسر له الهجرة مع دونيا وأمها إلى سيبيريا، حيث الأرض غنية بكل شيء، ولكنها في حاجة إلى الأيدي القوية ورؤوس الأموال. وقرر أن ينزلوا في تلك المدينة التي يكون فيها راسكو لنيكوف. و... لسوف يبدؤون جميعاً حياة جديدة.

بكوا جميعهم عند الفراق. كان راسكو لنيكوف في أيامه الأخيرة منشغل الخاطر يتحدث كثيراً عن أمه ويبدي قلقاً واضحاً بسببها. كانت فكرته هذه شديدة التأصل في نفسه، حتى أن دونيا شعرت بفزع شديد وخوف على مصير أخيها. فلما أنبئ بشكل لبق بمرض أمه، تجهم وجهه وامتقع. لقد بدا قليل الاتصال بسونيا عازفاً عنها بشكل مثير. أما سونيا، فقد كانت مستعدة منذ أمد طويل لتتبع موكب المساجين الذين سيكون راسكو لنيكوف واحداً منهم. لقد أفادتها السندات الثلاثة التي منحها إياها سفيدريكايلوف. لكنها لم تلمح أبداً أمامه إلى عزمها هذا، رغم أن كليهما كانا واثقين من أن الأمر لن يكون إلا كذلك. وفي لحظات الفراق الأخيرة، ابتسم راسكو لنيكوف ابتسامة غامضة، وهو يصغي إلى أقوال أخته وتكهنات رازوميخين الحماسية حول المستقبل والحياة الجديدة التي ستكون ممهدة له بعد خروجه من السجن. أحس سلفاً بأن أمه ستموت قريباً. مع ذلك فقد سار مرغماً في طريق المنفى تتبعه سونيا.

بعد شهرين من تاريخ ذهاب راسكو لنيكوف إلى منفاه تزوج رازوميخين من دونيا، وكانت مراسم الزواج مكتومة حزينة لم يكن بين

المدعوين إلا زوسيموف وبورفير بيتروفيتش، وكان وجه رازوميخين قد انطبع في الأيام الأخيرة بطابع من العزم المكين. كانت دونيا تؤمن إيماناً أعمى بأنه سيتوصل إلى تنفيذ مشروعاته؛ ولم يكن لها الخيار في التفكير خلاف ذلك، لأن إرادة حديدية كانت تتمثل في هذا الرجل. عاد إلى متابعة دروسه في الجامعة بغية إنهاء تحصيله، وكانت دونيا لا تكف عن مساعدته في التمهيد وبحث خطط المستقبل. كان كلاهما يأملان الذهاب إلى سيبيريا بعد فترة أقصاها خمس سنين، وبانتظار ذلك كانا يعتمدان على سونيا.

باركت بولشيري ألكسندروفنا زواج ابنتها من رازوميخين بسرور، غير أنها لم تلبث بعد ذلك الزواج أن سقطت في حزن أعمق. ولكي يقدم لها رازوميخين تسلية مناسبة ترفه عن نفسها، راح يروي لها قصة ذلك الطالب الذي كان أبوه شديد الفقر متقدماً في السن، ويشرح لها سلوك روديا خلال الحريق الذي وقع والذي أصيب بسببه بحروق اضطر على أثرها إلى ملازمة سريره. أشاد بمروءته التي لولاها لما أنقذ طفلين في سن الزهر من موت محقق. وجدت بولشيري ألكسندروفنا في تينك القصتين ما يبعث في نفسها الحماس، فلم تعد تتحدث بشيء غيرهما. كانت توقف المارة في الشارع وتدخل معهم في حديث تذكر لهم فيه مزايا ابنها كلما استطاعت الإفلات من رقابة دونيا. وكان هذا شأنها في الحافلة الكهربائية وفي الدكاكين وفي كل مكان... ولم تكن دونيا تجد الوسيلة المناسبة لمنعها عن الاسترسال في ذلك. لأنها إلى جانب خوفها من اشتداد حالة مرض أمها العقلي، كانت تخشى أن يذكر بعضهم الجريمة التي ترافق اسم راسكو لنيكوف، فيروي طرفاً منها إلى الأم. واستطاعت بولشيري ألكسندروفنا الحصول على عنوان أم الطفلين اللذين أنقذهما ابنها، وألحت تريد الذهاب لزيارتهما. وأخيراً

بلغ حزنها حدوده القصوى، فكانت فجأة تنفجر منتحبة؛ أصبحت شديدة المرض تهذي بتأثير الحمى. وذات صباح صرحت بتأكيد جازم، أن روديا لن يتأخر عن المجيء بناء على حساب دقيق وتقدير صحيح. لأنها تذكر أنه أكد لها عند وداعه الأخير، أنه سيعود بعد تسعة أشهر. فراحت ترتب المسكن وتعد كل شيء لاستقبال ولدها البكر، وتهيّئ غرفتها ليحل فيها: فتنفض الغبار وتمسح الأرض، وتغسل الثياب، وتعلق ستائر جديدة، إلخ... وعلى الرغم من أن دونيا كانت شديدة الاضطراب قلقة على أمها، فإنها راحت تساعدها في تهيئة الغرفة لاستقبال روديا. وبعد انقضاء نهار كامل في أشد التخيلات جنوباً، بين الأحلام المفرحة والدموع، سقطت بولشيري ألكسندروفنا فريسة المرض فلم يطلع الصباح حتى كانت الحمى شديدة الوطء عليها، وكانت تهذي. ولم يمض يومان على ذلك حتى ماتت... ومن خلال هذيانها أفلتت بضع كلمات فهم منها أنها كانت تعرف عن مصير ابنها، أضعاف ما كانت تعتقده ابنتها ويظنه صهرها...

لم يبلغ راسكو لنيكوف نبأ موت أمه، إلا بعد مضي زمن طويل، رغم أن سونيا كانت منذ اليوم الأول لوصولها إلى سيبيريا قد أقامت اتصالاً وثيقاً بطريق المراسلة بينها وبين بطرسبورغ. كانت سونيا تكتب مرة كل شهر إلى بطرسبورغ بعنوان رازوميخين، وتتلقى كذلك مرة كل شهر جواباً من تلك المدينة. بدت رسائلها في بادئ الأمر جافة غير مرضية بالنسبة إلى دونيا ورازوميخين، لكنهما ما لبثا أن تأكدا من أن لا وسيلة أفضل من هذه، وأنهما كانا بفضل تلك الرسائل يستطيعان التعرف على الدقائق وشروط العيش التي يعيش فيها ذلك الأخ التعس. كانت رسائل سونيا ضافية بالتفاصيل، تصف بوضوح وبساطة، طراز الحياة التي اندمج فيها راسكو لنيكوف في منفاه. فلم تكن تتحدث بشيء عن آماله الشخصية وأحلامه للمستقبل

أو عن عواطفها الخاصة. بل كانت تسعى إلى إيضاح شعور روديا بصورة خاصة أكثر من اهتمامها بحياة السجين الشخصية. كانت تدلي بوقائع، أي بكلمات فاه بها السجين حرفياً، وبأخبار عن صحته وما طلبه منها خلال مقابلته لها وما يريد الحصول عليه. وعما كلفها بنقله إليهما وما يريد أن تأتيه به إلخ... كانت هذه المعلومات مبينة بأدق التفاصيل، حتى أن صورة أخيها التعس كانت تتمثل أمامها بوضوح وجلاء، لأنها لم تكن تعرف عنها إلا كل واقع صحيح.

لكن كل تلك الرسائل ما كانت في البداية لتعزي دونيا وزوجها، أنبأتهما سونيا بأنه كان أبداً واجماً صامتاً، لا يهتم أبداً بالأخبار التي كانت لا تنفك تنقلها إليه إثر استلامها رسائل بطرسبورغ، وروت لهما أنه يتحدث أحياناً عن أمه، وأنها عندما تأكدت من أنه خمن النهاية، اضطرت إلى إعلامه بموتها. لكنها دهشت دهشة بالغة حينما وجدت أن النبأ لم يحدث في نفسه أثراً كبيراً أو على الأقل لم يحدث أثراً ظاهراً. وأضافت أنه رغم ما يبدو عليه من انطواء على نفسه وضعف، فإنه كان متقبلاً بكل بساطة حياته الجديدة، فاهماً موقفه، غير آمل بأي تحسن قريب في مصيره، لا يغذي أي أمل طائش، كما هو حال المساجين غالباً. وأكدت أنه لا يبدي أية دهشة رغم الظروف المختلفة كل الاختلاف عن تلك التي كان فيها من قبل. أما صحته فقالت سونيا: إنها ممتازة، وإنه كان يقوم بعمله المنوط به، دون تردد ولا احتجاج ولا تبرم. غير أنه ما كان ليهتم بأمر الطعام، لكن ذلك الطعام كان رديئاً ما عدا أيام الآحاد والأعياد، كان يتقبل بسرور، نقوداً من سونيا، تساعده على تحضير الشاي لنفسه كل يوم. وقد رجاها أن تطلب إليهما عدم القلق من أجله مؤكداً بأن عنايتها به تزعجه أكثر مما تبهجه. وأردفت سونيا في رسالتها تقول: إن روديا في السجن يعيش حياة

اشتراكية. صحيح أنها لم تشهد بأم عينها الأبنية من الداخل، لكنها قدرت أن البناء ضيق قذر وغير صحي، وأن روديا ينام على لوح من الخشب تكسوه قطعة من اللباد ويرفض تبديل ذلك السرير. بل إنه يعيش حياة خشنة حقيرة ليس تنفيذاً لخطة مسبقة، بل إهمالاً منه ولا مبالاة بمصيره من الناحية الحسية. وأكدت سونيا بوضوح، أنه في بداية الأمر، لم يكن عازفاً عن زياراتها فحسب، بل إنه كان يبدي مزاجاً سيئاً نحوها، ويقابلها بصمت عميق بل وبغلظة. لكن تلك المقابلات ما لبثت أن أصبحت نوعاً من عادة، بل أشبه بضرورة. حتى أن السجين كان شديد الضيق والتبرم خلال الأيام التي انقطعت عن زيارته فيها، بسبب المرض الذي أصيبت به. وقالت: إنهما يلتقيان أيام الأعياد، فيقف كل منهما قريباً من الآخر، يفصل بينهما حاجز يحرسه جنود. وإنها كانت تلقاه أحياناً وراء ذلك الحاجز، لبضع دقائق، أو تشاهده عن بعد أثناء عمله، وعلى الطرق أو في ورشات العمل على طول نهر «إيرتيش». وتتحدث سونيا عن نفسها فتقول بأنها استطاعت إيجاد معارف في المدينة والتماس حماية بعض الأشخاص، وأنها تشتغل في حياكة الثياب. ولما كانت المدينة خالية من صانعات الأزياء، فإن وجودها فيها أصبح ضرورة لعدد من البيوت. لكنها لم تذكر أبداً أن راسكو لنيكوف حاز على حماية مدير السجن بسببها وأن جرايته من الطعام والعمل قد تبدلت تبدلاً ملموساً. وأخيراً وردت أخبار إلى دونيا ـ وكانت هذه قد شعرت بشيء من الاضطراب والقلق في رسائل سونيا ـ تنبئ بأن راسكو لنيكوف بات يتحاشى لقاء كل الناس وأن الموقوفين والمساجين في سجنه ما كانوا يحبونه لأنه يقبع صامتاً أياماً متتالية وأن وجهه قد أضحى شديد الامتقاع. وفي رسالة سونيا الأخيرة كتبت هذه أن راسكو لنيكوف كان مريضاً جداً وأنه نقل إلى مستشفى السجن للعناية به.

الفَصْلُ الثّاني

كان مريضاً، مريضاً منذ أمد. لكن، لا أهوال حياة السجن ولا العمل الشاق ولا الطعام ولا الرأس الحليق ولا الثياب المتسخة كانت لتستطيع النيل منه. لم يكن يعنيه شيء من تلك الآلام وذلك الشقاء! على العكس لقد كان مسروراً، لأن العمل المرهق كان ينهكه جسدياً، فيتيح له بذلك، بضع ساعات من نوع مريح. ثم ماذا كان من أمر الطعام، ذلك الماء الساخن الذي كانت تسبح فيه الحشرات! إنه لما كان طالباً وفي أيامه الأولى، كثيراً ما كان لا يتاح له خير منه. كانت ملابسه دافئة ومتناسبة تماماً مع لون الحياة الجديدة. أما الأغلال التي كانت ترسف قدماه فيها، فإنه ما كان يحس بها. هل كان لمثله أن يخجل من رأسه الحليق، وقبعته ذات القطعتين؟ وممن يخجل؟ أمن سونيا؟ كانت سونيا تخاف منه فكيف يمكن أن يشعر بالارتباك أمامها؟

ولكن مهما بلغ من تصرفه الأليم الكريه الخشن حيال سونيا فإنه ولا شك يخجل منها. بيد أن ذلك الخجل لم يكن مبعثه رأسه الحليق، أو الأغلال التي في قدميه، بل كان بسبب كبريائه المجروح، ذلك الكبرياء الكليم الذي كان يؤلمه. أوه! كم كان يسعده أن يصدر على نفسه حكمه بنفسه! كان يستطيع حينئذٍ احتمال كل شيء حتى الخزي والعار. لكنه كان يحكم على نفسه بقسوة. كان ضميره المتحجر لا يجد في ماضيه أية

خطيئة مهولة ما عدا إخفاقه في «مشروعه» لكن الإخفاق أمر يحدث ويقع لكل الناس. كانت المذلة بالنسبة إليه هي أن يكون هو ـ راسكو لنيكوف ـ قد أضاع نفسه دون تبصر ولا أمل بسخف وحماقة وبدسيسة من القدر الأعمى، وأنه كان يجب عليه أن يخضع وينحني أمام «غباوة» تلك الحكمة إذا شاء أن يستعيد الهدوء.

لقد كان كل ما تبقى له على الأرض قلق دون سبب ولا هدف في الحاضر، وتضحية أبدية في المستقبل، مقضي عليها أن لا يكون من ورائها طائل. وأي فائدة يجنيها إذا همس لنفسه أنه لن يكون بعد ثمان سنوات إلا في الثانية والثلاثين من عمره، وإنه سيستطيع معاودة الحياة من جديد! ما فائدة الحياة؟ أي هدف سيدفعه إلى التعلق بها؟ وماذا سيستفيد من النقل؟ أن يبقى ليعيش؟ لكنه كان أبداً مستعداً للتضحية ألف مرة بحياته مقابل فكرة أو أمل أو هوى. إن الحياة وحدها لمجرد الحياة كانت أبداً تافهة بالنسبة إليه. كان يطمح دائماً بالمزيد. ولعله بسبب شدة رغباته قدر نفسه دائماً بأنه رجل ينبغي أن يكون له من الحقوق أكثر مما للآخرين.

ولو أن القدر أنعم عليه بتوبة، توبة محرقة تحطم القلب وتطرد النوم، توبة تجعله يحلم بالشنق والغرق! أوه، كم كان يحس بسعادة وسرور! فالآلام والدموع هي أيضاً لون من الحياة. لكن ما كان يندم على جريمته.

كان على الأقل يستطيع أن يحنق وينفعل لحماقته. كما كان يسخط من قبل على تصرفاته المضحكة الشاذة التي أودت به إلى السجن. لكنه بعد أن أصبح في السجن، وبعد أن أصبح يستطيع التفكير «بكل حرية» في أعماله السابقة، فإنه لم يجدها شديدة الحمق، شديدة الوحشية، كما بدت له من قبل في اللحظة الحاسمة.

كان يهمس في سره: «آه، بأي شيء كانت أفكاري تلك أكثر سخفاً من الأفكار والنظريات التي يصبح بها العالم وتصطدم في رحباته، وذلك منذ أن وجد العالم؟ يكفي أن يتأمل المرء من زاوية مستقلة تماماً، واسعة متحررة من النظريات السخيفة اليومية، وعندئذٍ لن تبدو فكرتي غريبة إلى هذا الحد... أيها الجاحدون! أيها العقلاء! لمَ تتوقفون في نصف الطريق؟».

ويتساءل: «ولكن كيف تبدو فعلتي لهم على كل تلك البشاعة؟ ألأنها جريمة؟ ما معنى كلمة جريمة؟ إن ضميري مرتاح. صحيح أنني قتلت وصحيح أن ذلك يخالف حرفية القانون، لأنني أهرقت دماً. ولكن إذا شئتم احترام حرفية القانون، خذوا رأسي... ولنكف عن الحديث! صحيح أنه في مثل هذه الحالة يمكن أن يحكم بالعذاب والموت على العديد من المحسنين للإنسانية الذين لم يتوارثوا السلطة بل اكتسبوها اكتساباً بأنفسهم منذ الخطوات الأولى، لكن هؤلاء الرجال استمروا في طريقهم، وهذا الاستمرار هو الذي برر أعمالهم. أما أنا فإنني لم أستطع المقاومة، وعلى ذلك، فإنه لم يكن من حقي أن أقرر تلك المحاولة».

كان إذن يعترف بخطئه، ولكنه يعتبر أن عدم مقاومته واستسلامه هما فقط الخطأ الذي وقع فيه.

ثم إن فكرة أخرى كانت تعذبه: لمَ لم يضع حداً لحياته في ذلك الحين؟ لمَ فضل الاستسلام من الإلقاء بنفسه إلى مياه النهر لما نظر إليها هادرة؟ هل الرغبة في الحياة شديدة القوة يصعب التغلب عليها إلى هذا الحد؟ إن سفيدريكايلوف رغم شدة خوفه من الموت قد استطاع أن يقهر تلك الرغبة.

كان يعنف نفسه ويزعجها بالأسئلة، كان لا يستطيع أن يتقبل شعوره

عندما كان منحنياً على النهر، بوجود خطأ عميق في معتقداته، لم يكن يفهم أن ذلك الشعور المسبق، يمكن أن يكون مبشراً بأزمة مقبلة في حياته، وببعثه المقبل، وبالأسلوب الجديد الذي ينبغي له أن يتأمل الوجود به.

كان مقتنعاً بدلاً من هذا، بأن كل ما حدث لم يكن إلا خبلاً وتبلداً في الإحساس لم يستطع التحرر منهما بسبب ضعفه ونذالته. أحس بدهشة لرؤية رفاقه في السجن: كم كانوا يحبون الحياة! كم كانوا شديدي التمسك بها! يخيل إليه أنهم يحبونها ويقدرونها أكثر مما كانوا يعملون لو أنهم كانوا أحراراً. بل إن بعضهم كانوا يشعرون بعذاب شديد وعلى الأخص المتشردون منهم! أيجوز أن هذا الخبر، الحنين إلى إشعاع شمس، أو هدوء غابة، أو غدير ماء صاف في أعماق دغل، شوهد منذ ثلاثة أعوام مضت؟ هل يحلم ذلك المتشرد بالعودة إليه، وكأن الأمر موعد غرامي ثمين يغزو حلمه، فيتمثله محاطاً بالحشائش الخضراء بينما يزقزق عندليب على شجرة؟ كان راسكو لنيكوف كلما ازداد تفكيراً في هذا بدا له صعب الفهم.

كان في سجنه عدد من الأشياء لم تستلفت انتباهه. لأنه ما كان يريد ملاحظتها. كان يعيش بعينين مخفضتين ـ إذا جاز هذا القول ـ عازفاً عن النظر فيما حوله. لكن الزمن جعل تلك الأشياء تستحوذ على انتباهه، فراح مرغماً يلاحظ ما كان يشك في وجوده من قبل. كان ما يدهشه على العموم أكثر من سواه، هو تلك الهوة السخيفة التي يمكن اجتيازها. والتي تفصله عن هؤلاء الناس الذين يعيش بينهم. بدا بينهم وكأنه من أمة تختلف عن الأمة التي ينتمون إليها. كانوا ينظرون إليه بحذر وشراسة وكذلك كان شأنه. كان راسكو لنيكوف يفهم ويقدر الأسباب العامة التي سببت ذلك النفور الودي لكنه ما كان يؤمن حتى تلك اللحظة، بأنْ تلك الأسباب يمكن أن تكون في مثل هذه القوة والعمق. كان في السجن محكومون في جرائم

سياسية، كانوا ينظرون إلى الآخرين باحتقار، ويعتبرونهم من الرعاع. غير أن راسكو لنيكوف ما كان يستطيع مشاطرتهم رأيهم. كان يرى تماماً أن أولئك الرعاع، كانوا أحياناً أشد ذكاء من البولونيين أنفسهم. وكان بين الروسيين، من يحتقر هؤلاء الناس أيضاً. وأخص بالذكر منهم، ضابط سابق، واثنان من طلاب الكهنوتية لكن راسكو لنيكوف كان متأكداً كذلك من خطئهم.

أما هو فلم يكن محبوباً وكان الجميع يتحاشونه بل إن الأمر انتهى بهم إلى مقته. لماذا؟ لم يكن يدري السبب. كان بعضهم، وهم أعرق منه إجراماً، يلاحقونه بسخريتهم ويهزؤون به جاعلين من جريمته مادة للسخرية والهزء.

كانوا يقولون له:

ـ ولكنك سيد، فهل كان ينبغي لك أن تقتل بضربات فأس؟ إن هذا ليس من أعمال السادة!

أما في الأسبوع الثاني من الصوم الكبير، فقد جاء دوره في الصلاة والنسك كان كل رفاق غرفته معه. فمضى معهم إلى الكنيسة للصلاة. وذات يوم، انفجرت مشادة عنيفة لم يدر لها سبباً. توافدوا عليه محنقين. صاحوا:

إنك جاحد! إنك لا تؤمن بالله. ينبغي قتلك.

لم يكن قد تحدث معهم أبداً عن الله أو الدين مع ذلك فقد أرادوا قتله على اعتباره زنديقاً فلم يرد عليهم. وفي تلك اللحظة اندفع نحوه أحد المحكومين، تتأجج في نفسه عوامل السخط، فانتظره راسكو لنيكوف هادئاً صامتاً دون أن تختلج عضلة واحدة في رأسه.

استطاع الحارس التدخل بينه وبين القاتل في آخر لحظة ولو أنه تأخر ثانية واحدة لسال الدم.

ثم كانت هناك مسألة أخرى تعذر عليه حلها: لمَ كانوا جميعهم يحبون سونيا حباً جماً؟ إنها لم تكن تسعى لإرضائهم، وما كانوا يقابلونها إلا خلال فرص نادرة، عندما كانت تأتي لرؤياه دقيقة عابرة خلال انكبابه معهم على العمل. مع ذلك، فقد كانوا جميعهم يعرفونها، ويعرفون أنها تبعته إلى هنا: يعرفون كيف كانت تعيش وأين تعيش؟ مع أنها لم تكن تعطيهم نقوداً، ولم تكن تؤدي لهم خدمات خاصة. مرة واحدة فقط، وكان ذلك في عيد الميلاد، قدمت سونيا إلى كل المساجين. كانت عبارة عن قطع الحلوى والمعجنات الصغيرة. غير أنهم لم يلبثوا أن أقاموا علاقات ازدادت وثوقاً بينهم وبينها. فكانت تكتب لهم رسائل لأسرهم، وتودعها البريد فإذا ما جاء ذووهم إلى المدينة، فإنهم كانوا بناء على رغبتهم وتوصياتهم، يودعون سونيا الأشياء والنقود التي يودون إرسالها إليهم في سجنهم. كانت زوجات المساجين وعشيقاتهم يعرفنها ويذهبن إلى مسكنها لزيارتها. فإذا ظهرت على الطريق، أو هي آتية لرؤية راسكو لنيكوف، أو مر بها فريق من المحكومين الذاهبين إلى العمل، فإنهم كانوا يرفعون قبعاتهم جميعاً، وينحون لها قائلين: «ماتوشكا، صوفي سيميونوفنا، إنك أمنا الحنون الرؤوم» كذلك كانوا يهتفون كلما التقوا بتلك المخلوقة الهزيلة النحيلة، رغم أنهم وحوش مطبوعون بطابع الجريمة والعار. فكانت تبتسم لهم وترد على تحياتهم. وكانوا جميعاً يحبون تلك الابتسامة. بل كانوا يحبون مشيتها ويستديرون غالباً ليتابعوها بأبصارهم إذا مرت بهم. لم يكن لديهم لها إلا المديح. كانوا يمتدحونها حتى لأنها صغيرة، وكانوا يحارون في إيجاد عبارات الإطراء. حتى أنه بلغ بهم الشغف بها، أن كانوا يستشيرونها في حالة مرضهم.

أمضى راسكو لنيكوف الأسابيع الأخيرة من الصوم الكبير وأسبوع

عيد الفصح في المستشفى. فلما استرد صحته تذكر الأحلام التي ما انفكت تتمثل له خلال مرضه، إبان اشتداد الحمى والهذيان. حلم خلال مرضه بأن العالم كله كان محكوماً عليه باحتمال مصيبة فظيعة لم يسبق لها مثيل، مصيبة جاءت من أعماق آسيا تطبق على أوروبا؛ وأن العالم كله سوف يموت إلا عدداً من المجدودين المنعم عليهم. كان ذلك البلاء ممثلاً في صورة طفيليات من نوع جديد، أحياء ميكروسكوبية تقطن في جسد الإنسان فتنخره. لكن تلك الميكروبات الصغيرة الدقيقة كانت موهوبة بذكاء وإرادة وعقل. كان الأشخاص الذين يصابون بها، يصبحون مجانين خطيرين على الفور. لكن أحداً ما كان أبداً يعتقد أنه حاصل على الحقيقة، مؤمن بها. كما كان يعتقد أولئك المصابون ويؤمنون! كانوا لا يشكون لحظة في صدق أحكامهم واستنتاجاتهم العلمية، ومبادئهم الأخلاقية والدينية. كانت قرى بكاملها ومدن وأمم كاملة مصابة بهذا البلاء تفقد صوابها. كانوا جميعهم في فزع ورعب هائلين لا يفهم بعضهم بعضاً. كان كل منهم يعتقد أنه وحده يملك الحقيقة ويستطيع تبيان الخير من الشر، فما كان يُعرف من هو المخطئ ومن هو المصيب. كان الناس يذبح بعضهم بعضاً تحت تأثير غضب وحشي، ويجتمعون ليشكلوا جيوشاً كبيرة. ولكن ما أن تلتقي تلك الجيوش، حتى تعم الفوضى الصفوف فتتمزق، ويرتمي الجنود على بعضهم، يذبحون بعضهم بعضاً، ويفترسون أجساد بعضهم، وينهشون فيها. أما في المدن فكانوا يقرعون أجراس النفير، فيدعى الشعب. ولكن من قبل منْ؟ ولأي سبب؟ ما كان أحد ليعرف السبب. فكان العالم كله في حركة وصخب. كانوا يهجرون الحرف البسيطة منها والضرورية، لأن كلاً منهم كان مشغولاً في عرض أفكاره وآرائه. لكنهم ما كانوا يتوصلون إلى اتفاق، كانت الزراعة قد أصبحت مهملة، وهنا وهناك، كان الناس يجتمعون

ويتفقون على حركة مشتركة، فيقسمون أن لا يفترقوا. ولكن حالما يبدؤون بعمل ما، مهما بلغ اختلافه عما توقعوه، كانوا يتبادلون التهم، ويتضاربون ويتذابحون، كانت الحرائق تلتهم الأبنية والدور. فعمت المجاعة، ومات كل الناس، وأفني كل شيء. أما البلاء فقد كان يعم ويتزايد. ما كان يمكن أن ينقذ في العالم كله، إلا عدد من الأتقياء الطاهرين الموعودين، المقدر لهم تأسيس حياة جديدة، وتجديد الأرض وتطهيرها. لكن أحداً ما كان ليهتم بهؤلاء الرجال. لم يكن أحد ليصغي إلى أقوالهم، أو يسمع أصواتهم.

كان راسكو لنيكوف يتعذب كلما خطر له، أن ذلك الهذيان السخيف، قد ترك في نفسه تلك الآثار العميقة التي لا تمحى. وكان الأسبوع الثالث بعد عيد الفصح قد أزف، وأصبحت الأيام تمتاز بالحرارة والنور، وتحمل رائحة الربيع، فتحت نوافذ المستشفى لأول مرة، وكانت نوافذه مشبكة بعوارض حديدية يغدو أحد الحراس ويروح قريباً منها. لم يسمح لسونيا أن تزور راسكو لنيكوف إلا مرتين طيلة مدة مرضه. وفي كل مرة كان عليها أن تطلب الإذن، وأن تخضع لشكليات معقدة. غير أنها كانت تحضر غالباً فتقف في باحة المستشفى، تحت النوافذ وبصورة خاصة عندما يهبط الظلام؛ فكانت تقف هناك، دقيقة أو أكثر، لا لشيء إلا لتنظر إلى النوافذ المغلقة. وذات مساء كان راسكو لنيكوف نائماً بعد أن استعاد قواه تماماً. فلما استفاق، اقترب صدفة من النافذة. وفجأة شاهد هناك بالقرب من باب المستشفى، سونيا واقفة تحدق. كانت واقفة تبدو كأنها بانتظار شيء ما. فأحس كأن سهماً يخترق قلبه، وارتعش مرتعداً، وانسحب من النافذة. وفي اليوم الثاني لم تأتِ سونيا. وكذلك في اليوم الثالث. أدرك أنه ينتظرها بفارغ صبر. فلما أخرج من المستشفى وأعيد إلى السجن، بلغه أن سونيا مريضة وأنها ملازمة غرفتها.

أحس بحزن عميق وأرسل من يأتيه بأخبارها. ولم يلبث أن عرف أن مرضها غير ذي بال. كانت سونيا من جانبها، عندما بلغها أنه يتألم لانقطاعه عن رؤيتها، قد أخذت تقلق لحالته. فأرسلت إليه رسالة خطتها بقلم الرصاص، أخبرته فيها بأن صحتها جيدة، وأنها كانت قد أصيبت ببرد قليل، لكنها ستعود إلى لقائه أثناء العمل في أقرب وقت ممكن. ولما قرأ راسكو لنيكوف تلك الرسالة أحس بقلبه يخفق خفقاناً عنيفاً أليماً.

كان النهار هذه المرة أيضاً صحواً دافئاً. فمضى منذ الساعة السادسة صباحاً إلى ضفة النهر ليبدأ بالعمل. وكان على ضفة النهر أتون كبير مخصص لشي المرمر الأبيض. قد أرسل إلى هناك مع اثنين من المحكومين. وعاد واحد من السجينين مع المراقب إلى القلعة، لإحضار بعض العدد، بينما راح الثاني يهيئ الأخشاب لإشعال الفرن، فغادر راسكو لنيكوف مكانه، واتجه نحو شاطئ النهر. جلس على لوح من الخشب قرب الجدار، وراح يتأمل النهر العريض القاحل. كان يمكن للمرء أن يرى من ذلك الشاطئ المرتفع، مساحة واسعة. بلغت مسامعه أغان ينشدها بعضهم على الشاطئ الآخر. فكانت تصل إليه عبر النهر خافتة هامسة. وكان هناك في اللانهاية، تلال ومرتفعات صغيرة، تغمرها الشمس. وخيام رحَّل تشكل نقاطاً صغيرة سوداء. هناك كانت الحرية. هناك يعيش عالم مختلف عن هذا العالم. هناك يبدو الزمن متوقفاً كما لو كان لا زال العالم في عصر إبراهيم وقطعانه. جلس راسكو لنيكوف ينظر دون حراك وهو لا يستطيع نقل أبصاره وتحويلها عن هناك. وتسللت أفكاره إلى الخيال والتأمل. فلم يكن يحلم في شيء. لكن حزناً عميقاً كان يكتسحه ويعذبه ويروعه. وفجأة انتصبت سونيا أمامه. كانت قد اقتربت بهدوء وجلست إلى جانبه. وكانت تلك الساعة الصباحية، شديدة البرودة، لأن الشمس لم تكن قد ارتقت

كثيراً في السماء. كانت سونيا تلبس «برنساً» عتيقاً بالياً، وتلتفح بمنديلها الأخضر. بدت أكثر هزالاً وأكثر امتقاعاً، وكان وجهها ذا التقاطيع المتقلصة، يحمل آثار المرض. ابتسمت له ابتسامة وديعة سعيدة، لكنها مدت له يدها برعب على جري عادتها.

كانت دائماً تمد له يدها بذعر، وأحياناً كانت لا تمدها مطلقاً، وكأنها تخاف أن ينفر منها ويطردها. كان يبدو دائماً على شيء من الاحتقار كلما أخذ يدها. حتى ليظن أنه كان يستقبلها بشيء كثير من التقزز والانزعاج: وكان أحياناً يصمد بعناد طيلة الوقت الذي تستغرقه زيارتها. فكانت ترتعد أمامه وتنسحب وهي تشعر بخزي عميق. لكن أيديهما تلك المرة ما كانت تحاول انفكاكاً. راح يشمل الفتاة بنظرة عميقة دون أن ينبس ببنت شفة. وفجأة أطرق برأسه إلى الأرض. كانا وحيدين لا يراهما أحد والحارس المكلف مبتعد في تلك اللحظة.

وفجأة ودون أن يعرف راسكو لنيكوف ماذا عمل، شعر بشيء يدفعه نحو أقدام سونيا، فبكى وهو يضم ركبتيها بيديه. بدت للوهلة الأولى شديدة الارتياع، وسرى في وجهها شحوب قاتل، فانتفضت وراحت تنظر إليه مرتعدةً مضطربة. ولكن في تلك اللحظة بالذات، وفي مثل لمح البصر، فهمت كل شيء. فأشرقت عيناها بسعادة غامرة. لقد فهمت وما عادت تشك في أنه يحبها، يحبها حباً عنيفاً، وأن ساعة الاعترافات قد دقت مدوية...

أرادا أن يتحدثا فأعياهما النطق، وامتلأت أعينهما بالدموع. كان كل منهما شاحباً مضطرباً ممتقعاً. غير أن وجهيهما الهضيمين، كانا يعكسان أضواء فجر ينبئ بمستقبل جديد، فجر يبشر ببعث جديد في الحياة. كان الحب قد خلقهما ونفحهما الحياة. كان قلب أحدهما، يضم معيناً لا ينضب من الحياة ينهل منه قلب الآخر.

قررا الانتظار، والانتظار بصبر. كان قد تبقى لهما سبع سنين يقضيانها في سيبيريا. ولكن كم من آلام لا تحتمل ستعقبها سعادة لا توصف! كان قد بعث بعثاً جديداً. كان يشعر ويحس أنه قد نشر من جديد. أما سونيا، ألم تكن سونيا تعيش ليحيا راسكو لنيكوف.

ذلك المساء لما أغلق باب «العنبر»، استلقى راسكو لنيكوف في مكانه وراح يفكر فيها. خيل إليه ذلك اليوم، أن المساجين، أعداءه بالأمس، قد نظروا إليه اليوم نظرة مختلفة. بل إنه وجه إليهم الكلام، فأجابوه بلطف ودعة. تذكر هذه البادرة ولكنه وجد أنها طبيعية. ألم يكن كل شيء ينبئ ببادرة تحول وتبدل؟

راح يفكر في سونيا. تذكر، وهو الذي ما انفك يؤلمها ويجرح قلبها، تذكر وجهها الصغير الممتقع الهزيل. لكن تلك الذكريات، لم تعد تؤلمه كما كانت من قبل. كان يعرف بأي حب عميق جارف، سوف يشتري الآن كل آلامه.

ثم ما هي «كل» تلك الآلام الماضية؟ خيل إليه في تلك اللحظة، أن كل شيء، حتى جريمته، والحكم الصادر في حقه، ونفيه إلى سيبيريا، كل ذلك، كان في تلك اللحظة من الانشراح والتمجيد، ليس إلا حادثاً غريباً، وقع لأحد سواه. كان ذلك المساء عاجزاً عن التفكير الطويل المستمر، عاجزاً عن تركيز أفكاره في نقطة ما. ما كان يستطيع حل مسألة ومعرفة مسبباتها لأنه كان كتلة من الإحساسات. والحياة كلها بدت قائمة على المنطق، كان شيئاً مختلفاً تماماً، ينضج في أعماق وجدانه.

كان تحت وسادته إنجيل امتدت إليه يده وأخذته بحركة آلية، كان ذلك الكتاب يخص سونيا، إنه هو الكتاب «إياه»، الذي قرأت له فيه من

قبل، قصة بعث اليعازر. كان يظن أول أمره في سجنه، أن سونيا ستدوخه بتدينها. وكان ينتظر منها أن لا تنفك تحدثه عن الإنجيل وتقلقه بهذا الكتاب. لكنه وجد لشديد دهشته، أنها لم تحدثه مرة في هذا الموضوع، ولم تعرض عليه أيضاً تصفح الإنجيل. بل إنه هو الذي سألها بعد مرضه أن تأتيه به. ولما جاءته به قدمته إليه دون أن تنطق بكلمة. وحتى تلك اللحظة، لم يكن قد فتحه بعد.

كذلك الآن لم يفتحه. غير أن فكرة اخترقت ذهنه كشهاب من نور: «أيجوز أن لا تكون معتقداتها في الوقت الحاضر معتقداتي الشخصية؟ على الأقل إيحاءاتها، عواطفها...».

هي الأخرى كانت شديدة الاضطراب طيلة ذلك اليوم. بل إن المرض عاودها ليلاً. لكنها كانت شديدة السعادة. حتى أن سعادتها كانت تخيفها! سبع سنين فقط، سبع سنين! في بعض اللحظات كان أحدهما كالآخر، يعتقد بدافع شعور سعادتهما الأولى، أن السبع سنين، ليست إلا سبعة أيام! كان راسكو لنيكوف يجهل أنه لم يحصل على تلك الحياة الجديدة دون لقاء، وأن عليه أن يدفع ثمنها غالياً، وأن يحصل عليها لقاء مجهودات قاسية طويلة...

ولكن هنا تبدأ قصة أخرى: قصة تجدد رجل وتطوره، قصة انبعاثه المطرد، ومروره التدريجي من عالم إلى آخر، وتساميه إلى حقيقة جديدة لبثت حتى تلك اللحظة مجهولة منه. إن ذلك يصلح لأن يكون موضوع قصة جديدة، أما قصتنا هذه، فها هي ذي قد انتهت.

الجريمة والعِقاب

يعتبر دوستويفسكي واحداً من أعظم كتّاب الرواية، فأعماله تتميز بقدرة على السرد تشدّ القارئ، وبتعبيرها القوي عن دواخل النفس الإنسانية، وقد عبّر عن ذلك في عناوين رواياته التي تصف الإنسان في شتى مواقفه وتصرّفاته: المقامر - المراهق - مذلون مهانون - الجريمة والعقاب - الأبله...

وتعتبر رواية "الجريمة والعقاب" إحدى قمم الأعمال الإنسانية، إنها ذلك اللغز المفتوح على النفس الإنسانية، وما يدور في أعماقها، والمفتوح على قضايا الموجود، والعذاب، والخير، والشرّ، والحب، والجريمة، والجنون، والأهواء، والمنفعة، والمرض...

إن شخصيّة راسكولنيكوف هي محاولة لفهم تعقيدات الشخصية الإنسانية مقدماً عدداً من التفسيرات، مناقشاً الدوافع والبواعث الكامنة في اللاوعي والتي حَدَت راسكولنيكوف للتصّرف بما يخالف المنطق.

يطرح دوستويفسكي فكرة إستحالة معرفة الإنسان، ويجبرنا على أن نتطلّع إلى ما يكمن في نفوسنا، وأن نعثر فيها على تلك الأهواء التي تعصف بأبطاله، وكيف أن النفس الإنسانية تحمل في آن أسمى المثل إلى جانب أحط الدناءات... كيف أن الإنسان يحمل في داخله قوة تنفيذ الجريمة ورغبة تحقيق العدالة.

ISBN 978-1-7732218-4-7

9 781773 221847

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain_L
dar.alrafidain
dar alrafidain دار الرافدين